ومن مؤهلات هذا الرجل لدخول الجنة أنه لم ينظر إلى حَظِّ نفسه من التديُّن ، إنما نظر أيضاً إلى حَظِّ إخوانه ، فحتى بعد أنْ بُشِّر بالجنة ، أو بعد أنْ دخلها لم ينشغل بنعيمها عن قومه ، إنما قال﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يس] يعني : ما أنا فيه من النعيم ، وما انتهى إليه أمر الإيمان والطاعة ، ليعملوا مثلي ولينالوا ما نلْت ، إنهم لو علموا لتهافتوا على الإيمان ، وأقبلوا على الطاعة أكثر من تهافتهم على الكفر والمعصية .

وقوله : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس] لاحظ أن المغفرة سبقتْ المكرُمة ، وهذه المسألة يسمونها التخلية والتحلية ، وسبق أنْ مثَّلْنا لها بالثوب حين تريد أنْ تكويه مثلاً : أتذهب به إلى (المكوجي) بما عليه من وسخ ؟ لا إنما تنظفه أولاً ، ثم تُزيِّنه بالكَيِّ .

كذلك الحق سبحانه وتعالى - ولله المثل الأعلى - قبل أنْ يُدخل عبده الجنة يُنقِّيه أولاً من الذنوب ، ويطهره مما علَق به ، وهذه هي التخلية ، ثم يُكرمه بالجنة ، وهذه هي التحلية ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه يمتنُّ علينا أولاً بأنْ يُزحزحنا عن النار بمغفرة الذنوب ، ثم يكرمنا بدخول الجنة كرامةً منه وفضلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

نفهم من سياق هاتين الآيتين أن القوم المكذِّبين قتلوا هذا الرجل المتطوع ، أو أنه مات بطبيعة الحال[1] ، والمنتظر أن الله تعالى يجازيهم على تكذيبهم للرسل الثلاثة أولاً ، ثم تكذيبهم للرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنصحهم ، فماذا فعل الله بهم ؟

يقول سبحانه : إن أمر هؤلاء المكذِّبين أهون من أنْ نُنزل عليهم جُنْداً من السماء تهلكهم . ومجرد صيحة واحدة كافية لهلاكهم ، فالمعنى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٢٨﴾﴾ [يس] أى : من بعد النصيحة والعظات والبراهين التى تطوَّع بها ﴿مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يس] يعنى : لم نُنزل وما كان ينبغى لنا أنْ نُنزل عليهم جنداً من السماء ؛ لأن الأمر أهون من ذلك .

﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٢٩﴾﴾ [يس] أى : ما كانت إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس] كلمة ﴿خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس] تدل على أنهم كانوا متحمسين للكفر بهم فى أُوَار وغضب واشتعال على رسل الله أولاً ، ثم على الرجل المتطوع ثانياً ، فهُمْ فى ذلك أشبه بالنار المتأججة ، فأخمدها الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك كلمة يصح أن يقولها كل مؤمن يرى مصارع العاصين ونهاية الكافرين الذين أدركهم الموت قبل أنْ يتداركوا أنفسهم بالإيمان ، يقول :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٦٨) : « قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه ، وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك » . أما القرطبى فى تفسيره (٧/٥٦٥٤) فقد ذكر عدة أقوال ، منها قول ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه (أى أمعاؤه) من دبره . وألقى فى بئر الرس ، فهم أصحاب الرس .

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾

هذه كلمة تحسُّر كثيراً ما نقولها تحسُّراً على فوات الخير ممن نحب له الخير ، ومعنى ﴿يَٰحَسۡرَةً ٣٠﴾[يس] هذا نداء كأنك تناديها تقول : يا حسرة تعالَىْ ، فهذا أوانك . والتحسُّر هنا على العباد الذين كذَّبوا رسل الله واستهزأوا بهم ، وهذا أمر يجب أنْ يتحسَّر عليه كل مؤمن ؛ لأن الله تعالى خلقك وخلق لك قبل أنْ يستدعيك للوجود .

خلق لك مُقوِّمات حياتك المادية ، وصان مادتك بما قدَّر لك فى الأرض من أقوات ومن ضروريات وكماليات ، فهل يُعقل أنْ يُعطى كل هذا للبدن ويُترك الروح بلا عطاء ، وهى أهم من البدن ؟

لا بُدَّ إذن أنْ يكون للروح عطاء وغذاء وقيم ، بل إن القيم هى مطلوب الله من عبده ؛ لأنك ستكون عابداً لله ، مطيعاً لأوامره ، منتهياً عن نواهيه ، وهذا هو المنهج الذى كلَّفك به فى افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك تجد أن عطاء المادة ومُقوِّمات حياة البدن مكفولة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصى ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعى الكل إلى الوجود ؛ لذلك تكفَّل بأرزاقهم ، كما تستدعى أنت مثلاً ضيفاً إلى بيتك ، فتهيىء له مطعمه ومَشْربه ومُقَامه عندك ، وكل الناس أخذوا هذا العطاء .

أما عطاء القِيَم والروح ، فبعضهم أخذه وبعضهم تركه ؛ لأن عطاء المادة سمح له بشهوة نفسه ، أما القِيَم فقيَّدتْ هذه الشهوة

وأمسكتها عن أشياء ، نفسه تريدها ، فلما صدَّته القيم عن شهوات النفس تركها وتملَّص منها .

هذا المنهج القيمى جاء من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك ، كما ذكرنا فى الحديث القدسى عن رب العزة : (عبدى ، أنا لك مُحبّ ، فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً) فأنت المنتفع بهذا المنهج ؛ لأن الله تعالى خلقك بكل صفات الكمال فيه سبحانه ، فطاعتك لا تزيده كمالاً ، كما أن معصيتك له لا تُنقصه شيئاً من صفاته ، ولا تضره بشىء .

لذلك جعل الله من عباده الغنى والفقير ، وكان قادراً سبحانه على أنْ يجعلنا جميعاً أغنياءَ لا يحتاج أحد منَّا إلى أحد ، والفقير لو تأمل الحكمة فى فقره لحمد الله ولَعلم أنه بفقره شرْط فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، فالغنى يحتاجنى قبل أنْ أحتاجه أنا ، الغنِىّ يسعى ويتعب ويكابد أسباب الرزق والتجارة والمكسب والخسارة ، ثم يأتى إلى بابى ليعطينى حَقَّ الله فى ماله وأنا مستريح البال .

الغنى فُرض عليه الحج ، وإنْ قصَّر فيه يُعاقب ، وإنْ حَجَّ فهو بين قبول أو ردٍّ ، فإن لم يُقبل حجه ظلتْ الفريضة عليه . وفرْق بين مَنْ فُرض عليه الركن ، وبين مَنْ لم يُفرض عليه أصلاً .

إذن : المتأمل يرى أن الفقير أحظُّ من الغنى ، وغير المستطيع أحظُّ من المستطيع .

وقد كنا مع بعض الإخوان ، فأردنا أنْ نصلى المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، فلما قُمْنا للصلاة ، استوقفنا عم الحاج سيد جلال وقال : انتظروا دقيقتين ، لأننى أرسلت الولد سليمان (يفك) لى

عشــرة جنيهات ، فقــال أحد الحاضــرين : معى جنيهـات جديدة هَات العشرة جنيــهات أفكها لك ، فقال الحــاج سيد : لا ، لأن الرجل الذى أنوى أنْ أعطيه لا يــأخذ إلا الجنيه الكبــير بتــاع زمان ، ويرفض هذه العملة الجديدة .

فقلت فى نفسى : ســبحان الله ، هذا الرجل المجــذوب الذى يقعد على باب سيدنا الحسين وصِفته كذا وكذا يُسخِّر أكبر رجل اقتصادى فى مصــر عم سيــد جلال ، ومــعه الوزير أحمــد طعيــمة ليــوفروا له النقود التى تعجبه .

والعجيــب أن من هؤلاء مَنْ كان يجلس على باب سيدنا الحــسين يضع رِجْلاً على رِجْل ، ويمــرُّ عليه موكب الوزير والوزراء فلا ينــتبه إليــهم ، ولا هو يلقى بالاً إلى الموكب والحــراس والدنيا من حــوله ، فمــاذا يعنى هذا ؟ يعنى أنه مشغــول بما هو أعظم من هذا كله ، وأن الله قد تجلَّى عليه بما أفقده الوعى بالدنيا وبما حوله .

لذلك رأى أحد منهم موكبــاً لأحد الوزراء فقال للآخر : والله نحن فى لذة ، لو علم بهــا هؤلاء لحــاربونا عليهــا بالســيف ، أليس هؤلاء سادة ؟ أليسوا أعِزَّة ؟

إذن : كل مؤمن يرى مصير المكذِّبين ومصارع الكافرين فى هذه القصــة وفى أشباهها لا بُدَّ أن يقــول هذه الكلمة ﴿يَــحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾[يس] لماذا ؟ لأن من تمام الإيمان أنْ يتحسَّر المؤمن على مَنْ لم يَذُقْ طعم الفضيلة ولذة الطاعة ، فهو مــسكين يستحق مَنْ يشفق عليه ويتحسَّر على حاله ، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل ويحب الخير للإنسانية كلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾

يعنى : كان يكفى هؤلاء المكذبين أن ينظروا مصير مَنْ كذَّب قبلهم ، وما حاق بهم من العذاب ، وأنهم بعد أنْ أهلكهم الله لم يرجع منهم أحد . وكلمة ﴿ يروْا (٣١) ﴾[يس] من الفعل رأى ، وهى تأتى : بصرية أو علمية ، تقول : رأيت المشهد ، فهذه رؤية بصرية ، وتقول : رأيت هذا الرأى يعنى علمته ، والرؤية البصرية تقصر معلوماتك على ما اتصلتْ به جارحتك ، أمّا العلمية فتعطيك ما اتصلتْ به جارحتك وجوارح الآخرين ، فالرؤية العلمية إذن أوسع من البصرية .

لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل ، وربما بعد هذه الحادثة ، إذن : لم يرَ منها شيئاً رؤية بصرية ، ومع ذلك خاطبه ربه بقوله ﴿ أَلَمْ ترَ ﴾[الفيل] يعنى : ألم تعلم ، سواء أكان قومه قصُّوا عليه القصة ، أو أن الله تعالى أخبره بها .

والرؤية البصرية للأحداث أوثق وسائل الإدراك لأنه كما يقولون : ليس مع العين أين ، لكن لماذا عدل السياق عن ألم تعلم إلى ألم تر ؟ قالوا : فى هذا إشارة من الحق سبحانه لنبيه يقول له : إن إخبارى لك بقضية علمية أوثق من رؤيتك بعينك .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يروْا (٣١) ﴾[يس] تعنى أن من هؤلاء القوم مَنْ

رأى بالفعل مصارع المكذِّبين ، ومرَّ على ديارهم وهى خاوية على عروشها فى أسفارهم ورحلات تجارتهم فى الشتاء والصيف ، ومعنى ﴿كَمْ (٣١)﴾[يس] تفيد الكثرة ، وأنه أمر فوق الحصر كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك وكأنك تقول له : أنا أرتضى حكمك وأستأمنك أنت على الجواب ، وبذلك تحوَّل الإخبار منك إلى إقرار منه هو .

ومعنى : ﴿مِّنَ الْقُرُونِ (٣١)﴾[يس] القرون جمع قرن ، وهو فترة من الزمن قدَّروها بمائة عام ، والقرن أيضاً يعنى الجماعة أو القوم يجمعهم الشيء الواحد مهما طالتْ فترته كالدين الواحد ، أو حكم ملك من الملوك .. الخ . فمثلاً نقول : قوم نوح وقد أخذوا من الزمن مساحة ألف عام أو يزيد .

وقوله : ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١)﴾[يس] يحتمل أكثر من معنى حسب عَوْد الضمير فى (أنهم) وفى (إليهم) فالآية تتحدث عن قرون أُهلكَتْ من قبل وتخاطب مكذِّبين معاصرين ، فإنْ عاد ضمير الغائبين فى (أنهم) إلى القرون التى أهلكت . فالمعنى : أنهم لا يرجعون ، ولم نَرَ أحداً منهم رجع بعد هلاكه ، وإنْ عاد الضمير على المخاطبين الموجودين . فالمعنى : أنكم أيها المخاطبون ، لا ترجعون فى نسبكم إلى هؤلاء الذين أهلكهم الله ؛ لأن الله تعالى استأصلهم بحيث لم يُبْقِ منهم أحداً ولا نسلاً .

والآية فى مجملها تعنى أن هلاك الكافرين والمكذبين ليس بدعاً ؛ بل هو سنة مُتَّبعة على مَرِّ الزمان ، فالقرآن يقصُّ علينا ما نزل بعاد وثمود وفرعون : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي

الأَوْتَادِ ⑩ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ⑪ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ⑫ ﴾ [الفجر]

والله تعالى أبقى الآثار لتدلنا على صدْق ما أخبرنا به سبحانه ، وها نحن نرى أمريكا مثلاً ، وهى سيدة الحضارة الحديثة ، وصاحبة الأسبقية فى الابتكار والاختراع وغزو الفضاء ، ومع ذلك يأتون إلى مصر ليشاهدوا آثار الفراعنة التى بُنيت قبل الميلاد بآلاف السنين ، ويتعجبون رغم تقدُّمهم العلمى من كيفية بناء الأهرامات مثلاً .

هذه السُّنة ـ سُنة إهلاك الكافرين ـ نرى لها شواهد فى عصرنا الحديث ، فروسيا التى انتحرت وقتلتْ نفسها بنفسها ، انظر ماذا فعلتْ فى الشيشان ، هذه الدولة الإسلامية الصغيرة ، فى حين قصَّرنا نحن عن نُصْرتهم ، أو أن نُصْرتنا لهم لم تكُنْ على قَدْر جبروت المعتدين ؛ لذلك تدخلت السماء وردَّ الله على أعداء دينه ، وثأر منهم فى زلزال سخاليل .

وقوله تعالى فى الآية بعدها : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ㉜ ﴾ [يس] جاءت هذه الآية بعد قوله سبحانه ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ㉛ ﴾ [يس] لتوضح أن عدم الرجعة أى فى الدنيا ، وإلا لو لم يكُنْ لهم رجعة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فالموت راحة بالنسبة لهؤلاء المكذِّبين ، كما قال الفخر الرازى(١) رحمه الله ، إنما المراد : لا يرجعون فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا بُدَّ من الرجوع للحساب عن كل كبيرة وصغيرة .

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، ولد ٥٤٤ هـ فى الرى (طهران) ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٥٢ عاماً بهراة . من كتبه « مفاتيح الغيب » فى تفسير القرآن ، و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

قوله سبحانه (وإنْ) إنْ هنا بمعنى ما النافية و (لَمَّا) بمعنى إلا ، فالمعنى : وما كُلٌّ إلا جميع لدينا مُحْضرون . وقد عرفنا من دراستنا لقواعد النحو أن كل وجميع من ألفاظ التوكيد المعنوى للجمع ، ومثلهما أبصع وأكتع وأبتع ، تقول : جاء القوم أجمعون أو أبصعون أو أبتعون ، وجاء القوم كلهم . ونلحظ أن الآية جمعتْ بين لفظى التوكيد كل وجميع ، فلماذا ؟

قالوا : الجمع بينهما ضرورى هنا ، لأن لكل منهما مدلولاً ، لا تؤديه الأخرى ، فالكُلية تفيد الشمول للأفراد فى الرجوع ، فكلهم يعنى كل فرد منهم ، ولا يُشترط أن يكونوا مجتمعين سوياً ، إنما يأتى كُلٌّ بمفرده لتُرى الذلَّة والصَّغَار على المسرفين وعلى الكافرين الذين جعلوا من أنفسهم آلهة مطاعة . أمَّا جميع فيعنى : يأتون مجتمعين .

ومعنى ﴿مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يس] من الفعل حضر ، وفَرْق بين حضر وأُحْضِر ، حضر، أى : طواعية بنفسه وبرغبته ، أما أُحْضِر أى : أجبر على الحضور ، وأُكْرِه رغم أنفه .

● ● ●

بعد أنْ ذكر الحق سبحانه مسألة البعث فى ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[يس] أراد سبحانه أنْ يذكر دليلاً على صدْق هذه القضية ؛ لأن البعث من المسائل التى ينكرها كثيرون ، وصدق القائل(١):

زَعَمَ المُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، التنوخى ، ولد عام ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان وتوفى فيها عام ٤٤٩ هـ عن ٨٦ عاماً ، شاعر وفيلسوف ، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ، وكان يُحرِّم إيلام الحيوان ، له « رسالة الغفران » ، « لزوم ما لا يلزم » وغيرهما .

إنْ صحَّ قَوْلكُمَا فلَسْتُ بِخَاسِرٍ أوْ صحَّ قوْلى فالخَسَارُ عليكُمَا[1]

وكما يقول لك الناصح : إنْ ذهبتَ فى الطريق الفلانى فاحذر وخُذْ الاحتياط ؛ لأن فيه ذئاباً وسباعاً وقطاعَ طرق ، فماذا عليك إنْ أخذتَ الحيطة ، ولم تجد شيئاً ، مما خوّفك منه ؟ كذلك اعتقادى فى البعث إنْ لم يُفدنى لا يضرنى ، واعتقادكم إنْ لم يضركم لا يُفيدكم .

وأقوى شبهة فى مسألة بَعْث الأجساد عند الفلاسفة أنهم قالوا : هَبْ أنَّ إنساناً مات ودُفن وتحلَّل جسده وزرعت على قبره شجرة تغذَّت من بقاياه ، ثم أثمرتْ وأكل من ثمارها إنسان آخر ، فوصلت إليه عناصر من الأول ، فحين يكون البعث . كيف تُبعَثُ هذه العناصر للأول ، أم للآخر ؟

وصاحب هذه الشبهة فَهِم أن العناصر حين تتكوَّن لها ذاتية فى التكوين ، ولم يفهم أن لها جنسية فى التعميم ، كيف ؟ نقول : هب أن إنساناً أصابه مرض أنقص وزنه عشرين كيلو مثلاً ، ثم هدى الله الطبيب إلى علَّته ووصف له الدواء شُفِى من مرضه وتغذَّى حتى عاد إلى وزنه الأول ، أين ذهبتْ عناصره التى نقصتْ منه ؟ وهل هى نفس العناصر التى عادتْ إليه بعد أنْ شُفِى ؟

إذن : المسألة ليست خصوصية عناصر ، بل كمية عناصر ، والعظمة فى أنْ نحصى كمية عناصر كل إنسان ، فلو جمعت كمية العناصر الموجودة عندى (أكون) محمد الشعراوى ؛ لأن عناصر البشر جميعاً واحدة هى الستة عشر عنصراً المعروفة ، والتى تبدأ

---

(١) البيتان من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر الكامل ، عدد أبياتها سبعة أبيات ، وفى أولها « قال » بدلاً من « زعم » . انظر ديوانه والموسوعة الشعرية .

كما ذكرنا بالأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم النتروجين ، ثم الهيدروجين .. الخ لكن يختلف الأشخاص باختلاف كميات هذه العناصر عند كل منا ، فأنت عندك كذا أكسوجين ، وكذا كربون ، وكذا نتروجين ، وأنا أعلى منك فى الأكسجين ، وأقلّ منك فى الكربون ، وهكذا .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أن المسألة ليست ذاتية عناصر ، وخصوصية عناصر ، إنما قيمة عناصر ، فيقول سبحانه فى سورة (ق) : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾[ق] يعنى : يحفظ هذه الكميات ويُحصيها بمقاديرها ، فإذا أراد سبحانه البعث جمع نسبة كذا ونسبة كذا تعطى فلاناً ، ونسبة كذا إلى نسبة كذا تعطى فلاناً وهكذا ، ولم يقف الأمر عند علم هذه النِّسَب ، بل حفظها الله وسجَّلها فى كتاب حفيظ .

وفى موضع آخر ، يردُّ الحق سبحانه على منكرى البعث يقول لهم : لماذا تكابرون فى البعث ، وهو إعادة لشىء كان موجوداً بالفعل وتفرَّقتْ عناصره ، والأعجب من ذلك أنْ أنشأته من غير موجود ، إذن : فالبعث أهون من الإعادة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ㉗﴾ [الروم] هذا إنْ جاريناكم فى فَهْمكم للأمور ، واتبعنا قوانينكم فى التفكير .

وسبق أنْ أوضحنا أن العناصر التى خلقها الله فى الكون هى هى ، لم تزد شيئاً ، ولم تنقص شيئاً ، فالماء مثلاً هو نفس الماء منذ خلق اللهُ الأرض ، لكنه يدور فى دورة معروفة ، فالإنسان مثلاً يشرب طوال حياته كذا طن من الماء ، فهل يحتفظ بها ؟ لا بل تخرج منه فى صورة بول وخلافه ، حتى بعد أنْ يموت يتبخّر ما فيه من

مائيـة ، وتمتصـها الأرض لتبـدأ دورة جديدة للمـاء . وهكذا عناصر الإنسان تدور هذه الدورة .

وهنا يسوق الحق سبحانه لهؤلاء المنكرين هذا الدليل :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا دليل مُشاهد يراه الجمـيع ، ولا يستطيع أحد إنكاره ، فنحن نرى الأرض المـيتة الـجرداء القاحـلة ، فإذا ما جـاء المطر اخـضرَّتْ ودبَّتْ فيها الحياة واهتزَّت وربَتْ ، وعلى الإنسان أنْ يأخذ مما يُشاهد دليلاً على صدْق ما غاب عن مشاهدته .

وقوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴿٣٣﴾ ﴾[يس] الآية : الشـيء العجيب فى بابه كمـا نقول : فـلان آية فى الكرم أو آية فى الحُـسْن ، وهذه الآية لهم يعنى للكـافـرين فـحسـب ، لأن المـؤمن لا يحـتـاج إلى هذه الأدلة ؛ المؤمن قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وطلب الدليـل على الشـيء أول دليل على وجـوده ، ومـا أتعـبتُ نفسـى فى البحث عن الدليل إلا لأننى مـقتنع بوجـود الشـيء ، فطلَب الدليل هو عَـيْن الدليل ، والمـؤمن لا يطلب الدليل إلا لـيجـادل به مَنْ لا يؤمن ليلفته إلى آيات الله.

وهذه الآية إما أن تأخذها على أنها آية كونية تدل على قدرة الإله المُوجِد سبحانه ، وإمَّا أن تأخذها دليلاً على أننا إذا أنزلنا المطر على

الأرض الميتة تهتزّ وتنبت من كل زوج بهيج .

والمتأمل فى الأرض يجد أنها آية فى ذاتها ، ونعمة من أعظم نعَم الله علينا ، حتى وإنْ كانت صخراً لا تنبت ، فيكفى أنها مَقرُّنا ، فوقها نستقر ، وإليها نأوى ، فما بالك إنْ منحها الله لوناً من الحياة حين تهتزّ بالنبات وتتحول إلى اللون الأخضر البديع .

وإحياء الأرض على مراتب ، فإما أنْ يكون الإحياء بنباتات لا تغنى فى القوت مثل العُشْب والحشائش والنجيل ، ويكفى أن هذا النوع يكسو وجه الأرض جمالاً ونُضْرة ويلبد الرمل ويثبته على وجه الأرض فلا تبعثره الرياح فى أعيننا ، فهى إذن مظهر من مظاهر حياة الأرض ، ونعمة من نِعَم الله ، والمرتبة الأخرى أن تنبت الأرض النبات الذى نقتات به ، وهو قسمان : الحبوب التى تمثل الضروريات ، وهى من مقومات حياتك ، وهى أصل القوت وأهمها القمح .

وقد أشار الحق سبحانه إلى أهميتها ، فقال سبحانه ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴿١٢﴾﴾ [الرحمن] ليلفت أنظارنا إلى أهمية القشرة التى كنا إلى وقت قريب لا نهتم بها ، ونضعها علفاً للمواشى ، ونأكل الدقيق الفاخر أو (العلامة) ، وكان هذا طعام الصفوة والأغنياء إلى أنْ تنبهنا إلى أهمية الردة ، فأصبحنا نُفضِّلها على الدقيق الفاخر ، بدليل أن الخبز المكوَّن من الردة الآن أغلى من الخبز الأبيض ، ثم رأينا الذين أسرفوا على أنفسهم فى أكل الخبز الأبيض الفاخر لا يأكلون إلا الردة ، وبأمر الطبيب .

لذلك رُوِى أن سيدنا سليمان عليه السلام ، وقد أعطاه الله مُلْكاً

لا ينبغي لأحد من بعده كان لا يأكل إلا الخشكار أي : الدقيق الخشن(١) أما الدقيق (العلامة) فللخدم .

ثم الفواكه وتُعَدُّ من التَّرفيات التي نتفكَّه بها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا.. (٣٣)﴾[يس] هذه هي المرتبة الأولى ، ثم ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾[يس] وهذه هي الضروريات .

ثم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ.. (٣٤)﴾ [يس]

وخَصَّ النخيل والأعناب ؛ لأن البلح والعنب أهم الفواكه ، وأقربها من ضروريات القُوت ، فهما قوت للبعض ، وفاكهة للبعض ؛ لذلك قال شوقي رحمه الله عن البلح :

طَعَامُ الفَقِيرِ وحَلْوى الغَنِيّ ... وزَادُ المسَافِرِ والمغْتَرِبْ(٢)

ونقف هنا عند عظمة الأداء القرآني ؛ لأن الكلامَ كلامُ رب ، وعلينا نحن أنْ نجلي وجوه العظمة فيه ، وقد لاحظ العلماء جزاهم الله عنَّا خيراً أن القرآن لما تكلم عن الفاكهة قال ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (٣٤)﴾[يس] فذكر الشجرة في النخيل ، وذكر الثمرة في الأعناب ، ولم يذكر ثمرة النخيل وهي التمر ، ولم يذكر شجرة العنب وهي الكَرْم .

ولما بحث العلماء هذه المسألة وجدوا أن القرآن ذكر النخيل ؛

---

(١) وردت هذه الكلمة في لسان العرب لابن منظور (الخُشَار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أي القشرة) والخشار أيضاً : الرديء من كل شيء . [لسان العرب – مادة : خشر] .

(٢) البيت من قصيدة لأحمد شوقي أمير الشعراء ، من بحر المتقارب ، عدد أبياتها ٢١ بيتاً ، أولها :

أرى شجراً في السماء احتجب ... وشق العنان بمرأى عجب

لأنها شجـرة كثيرة الفوائد ، مسـتمرة العطاء ، لا يقتصر نفـعها على ثمـرها ، بل كل ما فـيـها نافع مـفـيـد ، ويكفى أنْ تعـرف أن النخلة لا يُرْمَى منها شىء أبداً ، ولكل جـزء فيها استـعمال ومهـمة : الجذع والجريد والخوص ، حتى الليف يحـشون به أفخم أنواع الصالونات ، أما شجرة العنب فـبعد أنْ تأخذ ثمرها لا يبقى فيهـا إلا مجموعة من العيدان الملتوية التى لا تغنى شيئاً .

ثم يقول سـبحانه ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾[يس] لأن الأرض المنزرعـة التى تعطينا هذا العطاء إمـا أنْ تُروى بالأنهـار أو بالمطر ، فإذا لم يتوفر لهـا هذان المصدران تُرْوَى بعيون وهى الميـاه الجوفية التى تتـسرَّب من ماء المطر فـى باطن الأرض ، كما قـال سبـحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر]

وهذه العـيون مظهر من مـظاهر قدرة الله ، فمـنها ما نبـحث عنه ونحفره ، ومنها مـا ينساب بنفسه طبيعيـاً بقدرة الله ، وكأن ربك عز وجل يُطمئنك إلى عطائه ، فإنْ كنتَ فى أرض غـير ممطرة ولستَ فى واد تجرى فيه الأنهار فاطمئن ، ففى باطن الأرض عيون تتفجَّر بالماء العَـذْب الصـالح للشـرب ولسقْـى الأرض . وقد تنبَّـهنا مـؤخـراً إلى ضرورة زراعة الصحراء واستصلاحها ، وأعاننا على ذلك ما فيها من آبار ومياه جوفية ، ما علينا إلا أنْ نبحثَ عنها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى تفجير العيون ، فيقول سبحانه : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[يس] قوله تعالى ﴿مِن ثَمَرِهِ ﴿٣٥﴾﴾[يس] قالوا : من ثمره . أى : الحـبوب والبلح والعنب وغيرها ، أو من ثمـر تفجير العيون ، قـال البعض : ينبغى أن ننسب الثمـرة إلى الأصل ، فيكون المعنى : من ثمـر القدرة فى كُنْ ، وليس

المراد الثمرة القريبة .

فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يخلعك من الفتنة بالأسباب ، ويلفتك إلى المسبِّب الأعلى الأول ؛ لذلك أمرنا حين يعزُّ الماء ولا تسعفنا الأسباب أن نلجأ إلى المسبِّب سبحانه بصلاة الاستسقاء ؛ لأن المسبِّب سبحانه هو المرجع النهائى لهذه المسألة ، وأنت حين تستسقى لا تستسقى بنفسك ، إنما بأضعف منك ، وإنْ كنتَ عاصياً كفوراً تستسقى بمَنْ لم يرتكب معصية .

لذلك أمرنا أنْ نأخذ معنا فى صلاة الاستسقاء النساء والأطفال والمواشى ، وكأننا نتوسل إلى الله بضعفهم وطهارتهم من المعاصى ، وكأننا نقول لربنا : يا رب إن كنا قد عصيناك ولا نستحق السُّقيا فاسْقِنَا لأجل هؤلاء .

بل وأمرنا فى الاستسقاء أن نخرج إليه ونحن مخالفون للأَرْدِية مغيِّرون لسِمتها ، إظهاراً للذلة والانكسار لله سبحانه وتعالى[1] .

والآن ، بعد ما حدث من تطور فى استخدام الماء حتى صِرْنَا نستقبله فى خزانات ومواسير بَعُدَتْ الصلة بين واهب الماء والمنتفع به ، فحين تنقطع المياه لا تخطر على بالك صلاة الاستسقاء ، ولا تتذكر واهب الماء ، إنما تفكر فى سبب انقطاع المياه فتسأل عن

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٢٦) وابن ماجه (١٢٦٨) والبيهقى فى سننيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « خرج نبى الله ﷺ يوماً يستسقى وصلى بنا ركعتين بلا أذان ولا إقامة ، ثم خطبنا ودعا الله وحوَّل وجهه نحو القبلة رافعاً يديه ، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن » قال ابن حجر فى فتح البارى (٢/٤٩٩) : « اختلف فى حكمة هذا التحويل : فجزم المهلَّب بأنه للتفاؤل بتحويل الحال عما هى عليه . وتعقَّبه ابن العربى بأن من شرط الفأل أن لا يقصد إليه . قال : وإنما التحويل أمارة بينه وبين ربه . قيل له : حوِّل رداءك ليتحول حالك » .

المواسير وعن الموتور .. الخ . إذن : الأسباب نفسها أبعدتْنَا عن المسبِّب سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۝٣٥﴾[يس] استدراك يراعى دور الإنسان وعمله ، فمن الثمار ما يُؤكَل مباشرة مثل الخوخ والبرتقال والخيار ، ومن الثمار ما يحتاج إلى علاج وإعداد ليُؤكل ، كما نفعل مثلاً فى (الكوسة) وغيرها مما يحتاج إلى إعداد ، فكأن الحق سبحانه يُقدِّر لك دورك ، ويعطيك حقك ، ويذكر لك عملك مهما كان يسيراً .

وهذه المسألة جاءت بوضوح فى قوله سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة] فربُّك عز وجل يُقدِّر عملك فى حرث الأرض وإعدادها للزراعة ، وهذا دورك فيها ، أما مسألة الإنبات فهى لله وحده ، لا دخْلَ لك فيها .

كذلك احترَم ربُّك عملَك فى إيجادك شيئاً كان معدوماً وسمَّاك خالقاً ، لأنك أوجدتَ معدوماً ، وإنْ كان هذا الذى أوجدته من موجود معلوم ، فقال سبحانه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون]

فإذا كان ربك قد احترم خلقك لشىء كان معدوماً ، فينبغى عليك أنْ تحترم أحسنيته فى الخلْق ، فأنت خالق وربّك أحسن الخالقين ، أنت تستطيع أنْ تعالج الرمل مثلاً ، وتصنع منه كوباً ، هذا نوع من الخلْق لكن يظل الكوب كما هو ، ويثبت على الحالة التى أوجد عليها ، فلا تعطى أنت الكوب صفة الحياة ، أما خلْق الله فيعطيه اللهُ صفةَ الحياة ، فينمو ويكبر ويتناسل .. الخ .

وقوله سبحانه : ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾[يس] جاء بعد ذكر هذه النِّعَم السابقة ، والتى تستوجب شكر الله عليها ، لكن لم يأْتِ هُنا أمر

بالشكر ولم يَـأتِ بأسلوب خـبـرى ، إنمـا جـاء هكذا ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ۝٣٥ ﴾[يس] بصيـغة الاسـتفهـام ، وكأن الله تعالى يقـول لنا : أجيـبوا أنتم ، فقد اسـتأمنتُكم على الجواب ، وقد علم سبـحانه أن الجواب لا يمكن أنْ يكون إلا الإقرار بالشكر على النعمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾

كلمة ﴿ سُبْحَانَ ۝٣٦ ﴾[يس] تعنى : التنزيه المطلق لواجـب الوجود الأعلى عن أنْ تحكمه قـوانين الموجود نفسه ؛ لذلـك تُقال فى كل أمر عجـيب كما فى قصـة الإسراء والمعراج ، فـقد استهلَّ القـرآنُ سورة الإسراء بقوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۝١ ﴾ [الإسراء] فالإسراء بسيدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم الصعود به إلى السماء السابعة فى جزء فى الليل يُعَدُّ أمـراً عجيباً ، وينبغى ألاَّ نقيسَ هذا الفعل على قوتنا نحن ، بل على قـوة الفاعل ؛ لأن الفعل يجب أنْ يُقارن بقوة فاعله قوةً وضعفاً .

وسبـق أنْ قُلْنا لتوضـيح هذه المسـألة : إننى لو قلتُ : صـعدتُ بابنى الصـغير قمـة افرسـت مثـلاً ، أتقول لى : كـيف صعـد ولدك الصغير قمة افرست ؟

فالحق سبحانه فى قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۝١ ﴾ [الإسراء] يقول لنا : لا تتعجبوا من هذه المـسألة ؛ لأن محمداً لم يَقُلْ سريتُ ، إنما قـال : أُسْرِى بى ، فأنا الذى أسـريت به وأنا مُنَزَّه عن الزمان ،

ومُنزه عن المكان وعن القـوة ، وإذا كان كل فـعل يُقاس زمنه بـقوة فاعله فَقِسِ الزمن على الفاعل الأعلى سبحانه ، وعندها ستجد لا زمن .

وقلنا : إنك حين تذهب إلى الإسكندرية مثلاً ماشـياً تستغرق عدة أيام ، أمّا بالسيـارة فتستـغرق عدة ساعات ، وبالطـائرة عدة دقائق ، وبالصاروخ ثواني ، إذن : كلمـا زادت الـقوة قَـلَّ الزمن ، وعلى هذا قس الإسراء والمعراج .

لذلك تجد أن هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَ ۝١﴾ [الإسراء] لا تُقَال ولم تُقَل من قبل إلا لله تعالى ، مع كثرة الجبابرة فى الأرض ، ومع وجود مَن ادعى الألوهية ، ومَن قـال : أنا ربكم الأعلى ومع ذلك لم تُقَلْ إلا لله ؛ لذلك نقـول فى ذكر الله : سـبحـانك ولا تُقـال إلا لك ، لماذا ؟ لأنهـا تعنى التنزيه المطلق ، وهو لا يكون إلا لله .

وكلمـة (سبحـان) مصـدر يعنى : لله سبـحان أى تنزيه قـبل أن يوجد مَنْ ينزهه ، فهو مُنزَّه فى ذاته قبل أنْ يوجـد مَنْ يقول سبحان الله ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يخلق ، ورازق قبل أنْ يرزق أحداً ، فالصفة موجـودة فيه سبحانه قبل أن يُوجد لها مـتعلق ، كما تقول : فلان شاعـر ، أهو شاعر لأنه قال قـصيدة رائعة ، أم هو شـاعر قبل أنْ يقولهـا ؟ نعم هو شاعـر قبل أن يقـول القصـيدة ، ولولا مـوهبة الشعر عنده ما قالها .

إذن : فصـفات الكمال كلها مـوجودة لله تعالى قبل أنْ يوجـد لها متعلق ؛ لأن هذه الصفات هى التى أوجدتْ متعلقها .

وكما ذكر القـرآن كلمة المصدر (سبحان) ذكـر المشتق منها من الماضى ، فقال سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ۝١﴾ [الحشر]

وذكر المضارع فى قوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ۝ ﴾ [الجمعة]

إذن : الحق سبحانه مُسبَّح قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم لما خلق الخَلْق سبحتْ له كلُّ المخلوقات ، وما زالت تُسبِّح وستظل تُسبِّح ، فما دام الكون كله مُسبِّحاً فلا تخرج أنت عن هذه المنظومة ، وسبِّح معها : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝ ﴾ [الأعلى]

والتنزيه المطلق للحق سبحانه له مقامات ثلاثة :

الأول : أن تُنزِّه ذاته سبحانه عن كل الذوات .

الثانى : أنْ تُنزه صفاته سبحانه عن كل الصفات ، فأنت تُوصف بالغِنى ، لكن غناك ليس كغِنَى الحق سبحانه ، أنت موجود والله موجود ، فهل وجودك كوجوده سبحانه ؟ ..الخ

ثم **الثالث** : أنْ تنزه فعله سبحانه أنْ يشبه الأفعال ، فإذا قيل : الله فعل كذا . إياك أن تقيس فعْله تعالى بفعلك ؛ لذلك قلنا فى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝ ﴾ [الإسراء] قِسْها على قوة الفاعل سبحانه ، لا على قوتك أنت .

الحق سبحانه حينما يأتى بشىء يعلمه المخاطبون الأولون لا يغلق خزائن فضله ، إنما يترك لنا رصيداً احتياطياً لكل ما يجد بعد ذلك نتيجة التطور والتزاوج فى قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[يس] ، فقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [يس]

فهو غير معلوم للمخاطبين أولاً ، لكن سيُعلم فيما بعد ، وأبرز آيات القرآن التى أشارت إلى هذه المسألة قوله سبحانه : ﴿ وَالْخَيْلَ

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [النحل]

فجاء قوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل] رصيداً احتياطياً لما استجدَّ بعد ذلك من وسائل النقل والمواصلات ، كالسيارات والطائرات والصواريخ .. الخ .

فإنْ قلتَ : فلماذا جاءت هذه الأشياء المستجدَّة على سبيل الإجمال ؟ نقول : لأن العقل لم يكُنْ مستعداً لأنْ يقبلها ساعة الخطاب ، وهو لم يرَ شيئاً من هذا ، لكن حين يوجد الشيء يراه صراحة ، فقال سبحانه على سبيل الإجمال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل] لأن كل يوم سيأتي لنا بجديد وبعجائب لم نَرَهَا من قبل ، وآخر ما شاهدناهُ من ذلك الصواريخ ، ومَنْ يدريك لعلنا نرى عن قريب ما هو أعجب منها ، وعندها سنُدخل كل هذه الأشياء تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل]

كذلك هنا في قوله تعالى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] فنحن نعلم الأزواج في﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴿٣٦﴾﴾[يس] وشاهدناها مثلاً في تلقيح النخيل وغيره من المزروعات ، ونعرف منها الذكر والأنثى في النخيل وفي الجميز مثلاً ، لكن هناك مزروعات أخرى لا نعرف فيها الذكر من الأنثى ، وهذه الأنواع تُلقِّحها الرياح بقدرة الله كما قال سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر]

وفي بعض المزروعات جعل الخالق سبحانه الذكورة والأنوثة في العود الواحد ، وغالب الظن أنها في المزروعات الضرورية للأقوات كالذرة والقمح ، فليس فيهما عود ذكر وآخر أنثى ، إنما في العود الواحد كعود الذرة مثلاً نجد في أعلى العود سنبلة تحمل حبَّات لقاح الذكورة وتحتها كوز الذرة الذي تخرج منه شعيرات تمثل الأنوثة

وتتلقى حبات اللقاح التى تبعثرها الرياح من أعلى .

لذلك إذا لم تخرج هذه الشعيرات وتبرز من الكوز (يدكِّر) كما يقول الفلاحون يعنى : لا يُخرج كوزاً ، ولا تتكوَّن بداخله حبَّات الذرة ، لماذا ؟ لأنه لم يتلقَّ حبات الذكورة .

لذلك من العجائب أنك تجد حبات الذرة فى أسفل الكوز أكبر مما يليها إلى أعلى وبالتدريج ؛ لأن كل شعيرة من الشعيرات متصلة بحبة من حبات الكوز ، وتمثل هذه الشعيرة القناةَ التى تنقل اللقاح إلى الحبة ، لكن الشعيرات التى تنزل إلى أسفل الكوز تخرج منه قصيرةً متفرقة ، مما يتيح لها أن تتلقى أكبر كمية من اللقاح على خلاف الشعيرات الأعلى ، فإنها تكون طويلة متراكمة بعضها على بعض ؛ لذلك لا تأخذ كفايتها من اللقاح ، فتكون حبَّاتها أقلَّ حجماً ، إلى أنْ تضمر فى أعلى الكوز وتتلاشى .

ونحن جميعاً نشاهد صدْق قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر] حين ننظر مثلاً إلى الجبال وهى جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرَّتْ ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟

والحق سبحانه وتعالى فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] إنما يُطمئننا على امتداد النعمة وامتداد المنعَم عليه ، فبالتزاوج يبقى النوع ويتكاثر ، والزوجية موجودة فى كل شىء ، وكلمة زوج لا تعنى اثنين كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى : الشىء الواحد لكن معه مثله ، فنحن لا نقول للحذاء مثلاً زوج يعنى اليمين والشمال ، إنما نقول زوجين ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يقال له : توأم وهما توأمان .

والزوجية موجودة فى كل شىء فى الوجود ، كما قال سبحانه

فى آية أخرى : ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ..﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات]

وإذا نظرتَ إلى هذا الوجود كله بعين العلم الفاحصة المجرِّبة المدقِّقة لوجدتَ كل شىء فى الوجود زوجين لاستدامة الصنف ، بعض هذه الأشياء ندرى مسألة الزوجية فيها ، وبعضها لا ندرى به ، وما دام الزوجان يجتمعان للتكاثر فلا بُدَّ من تلقيح أحدهما بالآخر ، فما الذى يدلّنا على ميعاد هذا التكاثر ؟

قالوا : الشىء الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه فالله يعلم ميعاده ، ويجعلها تتكاثر كُلٌّ بما يناسبه ، لكن المشكلة عندك أنتَ أيها الإنسان، ولو كانت عندك مقاييس دقيقة فى الذات لعلمتَ أن هناك تغيُّرات كيماوية فى جسمك تحتاج منك إلى دِقَّة ملاحظة ، هذه التغيرات هى التى تدلُّك على ميعاد التكاثر .

والآن اخترعوا ساعة تضعها المرأة بعد الحيض ، وتلاحظ منها درجة حرارتها ، فإذا ارتفعت عن ٣٧° فهذا يعنى وجود تغيُّر كيماوى فى الجسم ، يدل على نزول البويضة ؛ لذلك نرى كثيرين من الأزواج تتأخر عندهم عملية الإنجاب ، لأن المرأة ليست لديها دقَّة الملاحظة التى تعرف منها وقت التبويض الذى يُؤدى إلى الإنجاب .

وذكر الحق سبحانه الزوجية فى ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس] ولم يذكر الحيوان ، لماذا ؟ لأنه سبحانه ذكر الأعلى ، وهو الإنسان الحيوان الناطق ، فالآخر مِثْله وتابعٌ له .

ومعنى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس] أن فى الكون أشياء كثيرة

لا تعلم وجه الزوجية فيها ، وقد تعلمها مستقبلاً مع تَقدُّم العلوم التجريبية ، كما حدث مثلاً فى الكهرباء ، وعرفنا أنها سالب وموجب ، ولا نستفيد بالكهرباء إلا إذا التقى السالب بالموجب ، أما إنِ التقى سالبٌ بسالب أو موجبٌ بموجب ، فالنتيجة تكون عكسية ، والسالب والمُوجب هنا نوع من أنواع الزوجية ، كذلك الحال فى الذرَّة وغيرها مما اكتشفه العلم الحديث .

إذن : فكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] لها مدلولات وقعتْ ، أخبر الله عنها قبل أنْ نكتشفها لنعلم أن الغيب الذى يخبرنا الله به يأتى كمقدمة لغيب آخر سنعرفه فى المستقبل ، وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا : كما صدَّق الواقع ما أخبرتُ به من الغيب ، فصدِّقوا ما أخبرتكُم به من غيب الآخرة .

بعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن المكان وهو الأرض تكلَّم عن الزمان ؛ لأن الإنسان يعيش بالأحداث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فبعد أن حدَّثنا الحق سبحانه عن الأرض وما عليها وهى المكان ، يُحدِّثنا عن الزمان ، فقال سبحانه :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ (٣٧)﴾[يس] يعنى : خاصة بهم ، وليست آية للكل ؛ لأن النبى ﷺ آمن بفطرته ، ولم يكن بحاجة إلى دليل ليؤمن ، كذلك المؤمن لا يبحث عن الدليل إلا ليردَّ به على مَنْ ينكر .

و﴿اللَّيْلُ (٣٧)﴾[يس] هو قسيم النهار ، فاليوم يتكوَّن من ليل

ونهار، وليس من الدقة فى المقابلات أن نقول اليوم والليل ؛ لأن اليوم يشمل الليل والنهار ، فكلاهما يوم ، لكن البعض نظر إلى قوله تعالى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[1] ﴿٧﴾﴾[الحاقة] فأطلق اليوم مقابل الليل بدل النهار .

والليل ظلمة ، وفيها السكون يشبه النوم الذى تنامه بالليل ، والنوم يشبه الموت ، والليل يقابل النهار لكن لا يعانده ولا يضاده كما يظن البعض ، فالليل يقابل النهار ، وبينهما تكامل ؛ لأن لكل منهما مهمةً فى الحياة ، الليل جُعل لنهدأ من حركة النهار ونستريح لنستأنف نهاراً جديداً بنشاط ، والنهار جُعل للعمل وللسعى نستغل فيه راحة الليل .

إذن : هما متعاضدان لا متعاندان ، وكل شىء له مقابل ، إياك أن تأخذه على أنه ضِدّ ، بل انظر إلى أنه شىء ضرورى لا بُدَّ أنْ يكون.

لذلك الحق سبحانه يلفتنا فى الزمن إلى هذه المسألة ، فيقول :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]

إذن : لكل منهما مهمة ، ولا يُغنى أحدهما عن الآخر ، ومن دقَّة الأداء القرآنى أنْ يقول سبحانه فى الليل ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص] وفى النهار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[القصص] لأن الليل ظلمة ، وأداة

---

(١) الأيام الحسوم : التِّباع إذا تتابع الشىء فلم ينقطع أوله عن آخره . قاله الفراء . ونقله الأزهرى فى تهذيب اللغة ـ مادة : حسم . وقال الخليل بن أحمد فى كتابه العين : « حسوماً . أى : شؤماً عليهم ونحساً » .

الاستدعاء فيه الأذن ، أما النهار فضياء نبصر فيه .

إذن : لا يصح أنْ نجعل من كلٍّ متقابلين متضادين ، فالتكامل غير التضادّ ، كذلك أراد الله تعالى أنْ يَحلَّ بهذه المسألة مشكلة لا تزال العصور تتصارع فيها إلى الآن ، مشكلة التقابل بين الذكورة والأنوثة ، أو الرجل والمرأة ، والآن نسمع مَنْ ينادى بأن المرأة مثل الرجل ، كيف ولكل منهما مهمة نوعية ، إنهما متكاملان مثل تكامل الليل والنهار .

وقد أشار الحق سبحانه إلى هذا التكامل فى قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾ [الليل]

ومعنى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾[الليل] يعنى : مختلف ، ولكلٍّ مهمة يؤديها فى الحياة ، فالذين ينادون الآن بالمساواة بين الرجل والمرأة إنما يظلمون المرأة ؛ لأنهم يريدون للمرأة أنْ تقوم بدور الرجل فى حركة الحياة ، وبعد ذلك يتركون المرأة تقوم هى بالخصوصية التى لا يؤديها إلا هى ، إذن : هى أخذت من مهمة الرجل ، ولم يأخذ الرجل من مهمتها . إذن : الحق سبحانه يخلق المتقابلات لتتكامل لا لتتعارض ، وتتساند لا لتتعاند ، فهى مسألة موزونة بحساب .

وقوله سبحانه : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ۝٣٧ ﴾[يس] السلخ كَشْط الجلد عن الشاة ، فما العلاقة بين هذه المسألة وضوء الليل والنهار ؟ قالوا : الأصل فى الشيء الظلمة ، ولا تظهر الظلمة إلا بمنير طارئ ، فالليل ظلمة ، ثم يأتى ضوء النهار فيستر هذه الظلمة ، فكأن النهار حينما يأتى يستر الظلمة كما يستر جلدَ الشاة لحمُها ، فإذا ما أراد

الحق سبحانه أنْ يأتى الظلام يخلع الضوء ، كما نسلخ جلد الشاة عن لحمها .

إذن : فالليل يأتى على طبيعته لأنه الأصل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾[يس] فالظلام عدم نور ، أما النور فإيجاد ، ويحتاج إلى آلة جديدة ، فلو تركت الليل لحاله لظلَّ مظلماً ، ولولا آلة الضوء لظلَّ ليلاً ، إذن : للضوء آلة . أما الظلام فليس له آلة حينما تعمل يأتى الظلام ، أو قُلْ الظلام أمره عدمى ، أما الضوء فأمره وجودى ، فإذا قيل : نسلخ منه النهار فقد شبه الضوء الذى يغطى الظلام بالجلد الذى يغطى لحم الشاة .

والمعنى : نذهب بهذا الغلاف الضوئى الذى يستر الليل ، فيحلّ الظلام أى : يظهر على طبيعته ومن تلقاء نفسه ؛ لذلك جاء الأداء القرآنى بإذا الدالة على المفاجأة ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) ﴾[يس] فكأن المسألة تلقائية لا تحتاج إلى ترتيب.

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾

الشمس هى آلة الضوء الذى نسلخه عن الليل ، ومعنى ﴿ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨) ﴾[يس] أى : لشىء ولغاية تستقر عندها ، والمتتبع لحركة الشمس يجد أن لها مطلعاً عاماً هو الشرق ، وهذا المطلع العام يُقسَّم إلى مطالع بعدد أيام السنة . إذن : فمطالع الشمس مختلفة ؛ لذلك رأينا قدماء المصريين فى معابدهم يدركون هذه الحقيقة الكونية ويحسبونها بدقة ، ويجعلون فى المعبد ٣٦٥ طاقة ، تشرق الشمس

كل يوم من واحدة منها بالترتيب ، إلى أنْ تصل إلى آخرها فى آخر السنة.

وقد عرف الإنسان أن للشمس مجموعة من الكواكب تدور حولها، وسماها المجموعة الشمسية ، وهى تتكوَّن من سبعة كواكب : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ويورانوس ، وقد أغرتْ هذه السبعة بعض العلماء مثل الشيخ المراغى والشيخ محمد عبده أن يقولوا إنها السموات السبع ، لكن فى سنة ١٩٣٠ اكتشف العلماء كوكباً آخر هو بلوتو ، وبعدها بعشرين سنة اكتشفوا كوكباً آخر هو نبتون ، فصاروا تسعة كواكب فى المجموعة الشمسية ، كلها فى السماء الدنيا ، ولا صلة بينها وبين السموات السبع ، لكن حاول الشيخان تقريب المسائل الدينية للفهم .

هذه الكواكب فى المجموعة الشمسية لكل كوكب منها دورة حول نفسه ، ودورة حول الشمس ، من دورته حول نفسه ينشأ اليوم ، ومن دورته حول الشمس ينشأ العام ، والدورتان تختلفان فى السرعة ، فإذا كانت دورة الكوكب حول نفسه أسرعَ من دورته حول الشمس كان يومه أطولَ من عامه .

لذلك من الأشياء الملغزة التى تُقَال فى الجغرافيا : ما يوم أطول من عام ؟ يوم الزهرة أطول من عامها ، لأنهم لما حسبوا حركة الزهرة بالنسبة ليوم الأرض وجدوا أن عام الزهرة ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، ويومها ٢٤٤ من أيام الأرض ، ذلك لأن سرعتها حول نفسها أكبر من سرعتها فى دورتها حول الشمس .

فمعنى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴿٣٨﴾﴾[يس] أى : الشمس بمجموعتها ، وما يدور حولها من كواكب تجرى إلى نجم يسميه

علماء الفلك (الفيجا) والعرب تسميه (النسر) الواقع ، والشمس تجرى بمجموعتها بسرعة ١٢ ميلاً فى الثانية ، الشمس لها حركة والكواكب التى تدور حولها لها حركة ، وهذه أشبه ما تكون بإنسان يركب مركباً ، فكيف نحسب حركته وسرعته ؟

إنْ كان هو ساكناً فسرعته تساوى سرعة المركب ، وإذا كان يسير فى نفس اتجاه المركب ، فسرعتُه تساوى سرعته فى ذاته (زائد) سرعة المركب ، فإنْ كان يسير فى عكس اتجاه المركب فسرعته تساوى سرعة المركب (ناقص) سرعته هو .

ومعنى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴿٣٨﴾﴾[يس] المستقر إما أن يكون نهاية العام ، ثم تبدأ عاماً جديداً ، وتشرق من أول مطلع لها ، أو أن المستقر آخر عمرها ونهايتها حيث تنفض وتُكوَّر وتنتهى .

لكن ، ما الذى يحرك هذه المجموعة الشمسية ؟ وكيف تجرى بهذه السرعة ؟ ونحن نعلم أن الحركة تحتاج إلى طاقة تمدها ، فما الطاقة التى تحرك هذه المجموعة بهذه الصورة وهذا الاستمرار ؟ قالوا : إنها تجرى ، لأن الله خلقها على هيئة الحركة والجريان ، لذلك تجرى لا يُوقفها شىء ، وستظل جارية إلى أن يشاء الله ، فلا يلزمها إذن طاقة تحركها ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]

وفى علم الحركة قانون اسمه قانون العطالة ، وهو أن كل متحرك يظل على حركته ، إلى أنْ تُوقفه ، وكل ساكن يظلُّ على سكونه إلى أنْ تُحركه ، وهذا القانون فسَّر لنا حركة الأقمار الصناعية ومراكب الفضاء التى تظل متحركة لفترات طويلة .

ونتساءل : ما الفترة التى تحركها طوال هذه المدة ؟ إنها

تتحرك ؛ لأنها وضعت فى مجالها على هيئة الحركة فتظل متحركة لا يُوقفها شىء لأنها فوق مجال الجاذبية . إذن : كل الذى احتاجته هذه الآلات من الطاقة هى طاقة الصاروخ الذى يحملها ، إلى أنْ يعبر بها مجالَ الجاذبية الأرضية ، أما هى فتظل دائرة بلا طاقة وبلا وقود .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بفضله فى هذه الحركة ، فيقول ﴿ ذَٰلِكَ ﴿٣٨﴾ ﴾[يس] أى : ما سبق من حركة الليل والنهار وجريان الشمس ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾[يس] يعنى : كل هذا الجريان وكل هذه الحركة إنما هما بتقدير الله ، وكلمة ﴿ الْعَزِيزِ ﴿٣٨﴾ ﴾[يس] هنا مناسبة تماماً ، فالمعنى أنه تعالى العزيز الذى لا تغلبه القوانين ؛ لأنه سبحانه خالق القوانين .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الشمس وهى آلة الضوء ، تكلم عن القمر لأن له مهمة يؤديها حين تغيب الشمس ، وكأن القمر استعار من الشمس بعض ضوئها لينير بالليل للذين لا يعملون إلا ليلاً كالعَسَس[1] والحراس ورجال الأمن وعمال المخابز وغيرهم ، فالقمر كما تعلمون لا يضىء بنفسه ، إنما يعكس بعض ضوء الشمس ، فيأتى ضوؤه هادئاً ؛ لذلك يسمونه الضوء الحليم ، حيث يأتينا لا شعاعَ له ، ولا حرارة فيه .

---

(١) العسس : جمع عَاسّ ، وعَسَّ يعُسُّ : طاف بالليل لحراسة الناسِ [الزبيدى فى تاج العروس - مادة : عسس]

لذلك حين يُعدِّد لنا الحق سبحانه بعض آلائه ونعَمه ، يقول ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم]

فإذا كان النوم مقصوراً على الليل ، فماذا كان يفعل هؤلاء الذين تقتضى طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ، ويرتاحون وينامون بالنهار ، فهذه الآية مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى ، فإنْ كان الليل هو الأصل فى النوم والراحة لجمهرة الناس ، فلا مانع من النوم بالنهار للقلَّة القائمة على أمر النائمين بالليل .

ومعنى : ﴿ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (٣٩) ﴾ [يس] يعنى : قدَّرنا سَيْره فى منازل ومسافات ، هذه المنازل نشاهدها كل شهر فى حركة القمر : التربيع الأول ، والتربيع الثانى ثم البدر ..

والقمر أسرع فى حركته من الشمس ؛ لأنه يقطع فلَكه فى شهر ، بينما تقطع الشمس فلَكها فى سنة .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى المبنى على الهندسة العليا فى قوله سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾ [يس] هذه صورة توضيحية لمنازل القمر مأخوذة من البيئة العربية ، فالعرجون هو عذْق النخلة الذى يحمل الثمار ، ونسميه (السُّباطة) ، وهى مكوَّنة من عدة شماريخ رفيعة ، لكن قاعدتها عند اتصالها بجذع النخلة عريضة ومفلطحة ، هذا العذق يَيْبَس ويضمر كلما تقادم ويعوج و (يتقفع) كلما جفَّتْ منه المائية ، وهذه الصورة توضح تماماً حركة القمر حيث يضمر ويتقفع إلى أنْ يتلاشى آخر الشهر .

وإذا كان القرآن قد شبَّه القمر بالعرجون القديم ، فإن العرب تشبهه بقُلامة الظفر ، كما جاء فى قول شاعرهم الذى راح يرقب

ضوء القمر حتى يغيب فيتسلل إلى محبوبته :

وَغَابَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كنتُ أَرْقُبُـهُ   مثل القُلاَمَةِ قَدْ قُدَّتْ من الظُّفْرِ[1]

ومن الحكمة أن نُشبِّه القمر العالى الذى لا ندركه بشيء دانٍ ندركه ، وأن نقول لك : هذا مثل هذا لتتضح الصورة .

ثم يقول سبحانه جامعاً بين الشمس والقمر ، وبين الليل والنهار:

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

لا يقال : فلان لا يدرك فلاناً إلا إذا كان سابقه ، كذلك الشمس لا تدرك القمر ؛ لأنه كما قُلْنا سابقها وأسرع منها ؛ لأنه يقطع دورته فى شهر ، وتقطع الشمس دورتها فى سنة .

كذلك : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾[يس] الليل والنهار هما الزمن الناشيء عن حركة الشمس والقمر ، فالنهار ابن الشمس ، والليل ابن القمر ، وفى هذه الآية نَفْيَان ، نفى لأنْ تدرك الشمسُ القمرَ فضلاً عن أنْ تسبقه ، ونفى لأنْ يسبق الليلُ النهارَ ، فإذا كانت الشمس لا تدرك القمر ، فليس معنى هذا أن يسبق الليلُ ابن القمر النهارَ ابن الشمس .

إذن : إياك أنْ تقول إن الليل يسبق النهار ؛ لأن هذه آيات كونية

---

(١) ذكره ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى خبر الأقطار » فى الديارات فى وصف دير عبدون ، وعزاه لابن المعتز من قصيدة أولها :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر   ودير عبدون هطال من المطر

ولفظه : « وغاب ضوء هلال » وليس « وغاب ضوء قمير » والبيت من بحر البسيط .

أرادها الخالق سبحانه . والحق سبحانه حينما يتكلم فى قضية قد تقف فيها العقول يأتى لها بالرمزية بحيث يستطيع العاقل المفكر الذى يقرأ الأساليب ويُدقِّقها أنْ يصل إلى مطلوب الله فيها ، أما مَنْ حُرِم هذا الاستعداد فيمرُّ عليها مروراً عابراً لا يصل منه إلى شىء .

ونقول فى هذه المسألة الكونية : صحيح القمر يسبق الشمس ، لكن الليل لا يسبق النهار ، وتأمل هذا العلاج بالأساليب . والحق سبحانه إذا قال : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾[يس] فإنه سبحانه لا يقول ذلك إلا إذا كان هناك معتقد بأن الليلَ يسبق النهارَ ، فأراد سبحانه أنْ يُصحِّح لهم هذا الاعتقاد ، فنفى أنْ يسبق الليل النهار ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾[يس] وهذا يعنى أن عندى قضية هى : ولا النهار يسبق الليل .

إذن : المحصلة لا الليلُ يسبق النهارَ ، ولا النهارُ يسبق الليلَ ، فالقضية التى أثبتوها أراد الله نفيها ، والقضية التى نفوْهَا تركها على حالها .

لكن ، كيف يتأتَّى لهم هذا الفهم ؟ قالوا : ظنوا أن الليل يسبق النهار ، لأن اليوم يثبت بالليل لا بالنهار ، ففى صيام رمضان مثلاً يثبت بداية اليوم من الليل ، فلما كان ذلك ظنوا أن الليلَ يسبق النهارَ ، إذن : عندهم قضية مقطوع بها ، هى أن النهار لا يسبق الليل ، وهذه لم يتعرض لها القرآن وتركها كما هى ، أما القضية المخالفة للآية الكونية فصححها لهم ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

إذن : نحن أمام لغز يقول : الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، كيف ؟ قالوا : لو أن الله تعالى خلق الأرض

مسطوحة مواجهةً للشمس لكان النهار أولاً ، ثم تغيب الشمس فيحلُّ الليل ، أما لو كانت الأرض غير مواجهة للشمس لكان الليل أولاً يعقبه النهار ، لكن الحقيقة أن الله تعالى خلق الأرض على هيئة كروية بحيث لا أسبقيةَ لليل على نهار ، ولا لنهار على ليل لأنهما وُجدا معاً فى لحظة واحدة ؛ لأن الأرض مُكوَّرة ، فما واجه منها الشمسَ كان نهاراً ، وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً .

لذلك حلَّتْ لنا هذه الآية مشكلة طال الجدال حولها هى : كروية الأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾[يس] يسبحون من السبح، وهو قَطْع المسافة على ماء لين ، فهى حركة فيها انسيابية ، ليست على أرض تدبّ عليها الأقدام ، وهذا مثال لحركة الأفلاك ، وهذه الحركة السبحية يكون كل جزء منها مُوزَّعاً على جزء من الزمن .

وهذه الحركة ليس لدينا المقاييس التى ندركها بها ، إنما نعرفها من جملة الزمن مع جملة الحركة ، فمثلاً لو وُلد لك مولود وجلستَ ترقبه وتلاحظ نموه ، فإنك لا تلاحظ هذا النمو ، ولا يكبر الولد فى عين أبيه أبداً ، لماذا ؟

لأن نموه لا يأتى قفزةً واحدة يمكن ملاحظتها ، إنما يُوزَّع النمو على الزمن ، لكن إذا غبْتَ عن ولدك عدة شهور أو سنوات فإنك تلاحظ نموه حين تعودُ وتراه ؛ لأنك تلاحظ مجموع النمو طوال فترة غيابك عنه .

فمعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠ ﴾[يس] يعنى : يسيرون سيراً انسيابياً متتابعاً يُوزَّع على الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾[يس] هي آية لنا ولهم ، لنا على سبيل الاستدلال نستدل لهم بها لنقنعهم ، ولهم هم أى : تدعوهم إلى الإيمان بالله ؛ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

ومعنى ﴿ الفُلْك ﴾ السفن ﴿ المشْحُون ﴾ المملوء . والمراد : سفينة سيدنا نوح - عليه السلام - وقد أوحى الله إليه أنْ يصنع السفينة ، ودلَّه على كيفية صناعتها ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

فالسفن فى حَدِّ ذاتها من آيات الله ، ولو لم يُوحِ الله إلى نوح أن يصنع السفينة ، كيف كنا ننتقل فى الماء ، وهو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فهذه آية أجراها الله تعالى على يد سيدنا نوح ، ليعلم الناسُ جميعاً صناعة السفن ، ثم للعقول بعد ذلك أنْ تُطوِّرها وترقى بصناعتها ، كما نرى الآن السفن العملاقة على أحدث ما يكون ، حيث استبدلَ الإنسانُ قلْع المركب بآلات البخار والكهرباء ، وحَلَّ الحديد والمعادن محلَّ الخشب والمسامير .. الخ .

ومع هذا التطور ، وبعد الاستغناء عن قوة الريح فى تسيير

السفن تظلّ السفن تسير بسم الله وبقدرته ، حتى إن استخدمت البخار أو الكهرباء ؛ لأن الريح لا يعنى الهواء الذى يُسيِّر السفن فحسب ، إنما الريح تعنى القوة أياً كانت ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال]

ويقول سبحانه : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى]

ويستوقفنا فى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾[يس] والآية تتحدث عن العرب الذين نزل القرآن مُخاطباً لهم ، والذين حُملوا فى السفينة هم آباؤهم لا ذريتهم ، فكيف ذلك ؟

قال القرآن : ﴿ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿٤١﴾ ﴾[يس] والمراد : آباؤهم ؛ لأن الذرية تُطلق أيضاً على الأب ؛ لأن الذرارى منه ، أو لأن الآباء الذين نجوا فى السفينة هم الأصل الأصيل للموجودين الذين يخاطبهم القرآن ، وكانوا هم مطمورين فى آبائهم .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن كل واحد منا إلى أنْ تقوم الساعة فيه جزىء حَيٌّ من أبيه آدم لم يطرأ عليه الموت ، ولو تتبعتَ الآباء وسلسلْتَ هذه السلسلة لقُلْتَ إننى من ميكروب حيٍّ جاء من أبى ، وأبى من ميكروب حَيٍّ جاء من أبيه ، وهكذا إلى آدم عليه السلام ، ولو كان هذا الميكروب ميتاً ما جئت .

إذن : ففى كل منَّا ذرة تكوينية من أبيه آدم لم يطرأ عليها تغيير ، وهذه الذرة هى التى تحمل الفطرة الإيمانية فى كل إنسان .

ووصف الحق سبحانه الفُلْكَ بأنه مشحون . يعنى : مملوء ؛ لأن سيدنا نوحاً لم يأخذ فيها المؤمنين ليُنجيهم من الغرق فحسب ، إنما

ليُوفِّـر لهم سُبُـل العيش بعـد النجاة ، وإلا فكيف يعـيش الناسُ على أرض لا يوجد فيها غيرهم ، لا نبات ولا حيوان ولا طيور ؟

لذلك قال سبحانه مخاطباً نبيه نوحاً : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٤٠) ﴾ [هود]

وقوله سبـحانه : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) ﴾ [يس] فمن بعـد السفـينة أخـذها الناس نمـوذجاً ، وصنعـوا مـثله ، وطوَّروا فى صناعته ، فأنشأوا السفن والمـراكب والزوارق وغيرها مما يُركَب فى البحـر . أو : خلقنا لهم من مثله مـا يُركَب فى البرارى والصـحراء ، ومن ذلك يُسَمُّون الجمل مثلاً سفينة الصحراء .

ثم يحذرنا الحق سـبحانه أنْ نغـترَّ بهذه المراكب ؛ لأنهـا وسـائل للنجاة ، لأنه سبـحانه إنْ أراد الهلاك أهلك ، وكم رأينا سُفُناً عـملاقة توفرت لها كل سُبُل الأمان والسلامة ، ومع ذلك ابتلعتْها الأمواج بمَنْ فيها .

وصدق الله : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾[يس] فإياك حين تُرزَق بنعمة تخلصك من معطب أنْ تغـرَّك النعمة فتحسب فيهـا الأمن والنجاة ؛ لأنك لن تفلت من قبضـة الله ، ولا ينقذك أحد ، ولا ينجيك شـىء إنْ أراد بك الهلاك ، وهل ترى بيدك شـيئاً يُنجيك حين تهبُّ عـاصفة ، أو يعلـو الموج فوق سـفينتك كالجـبال ؟ إذن : آلاتك ووسائلك لا تُنجيك من قدرى .

ومعنى ﴿ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ (٤٣) ﴾[يس] الصريخ هو الـذى تستصـرخه وتستنجـد به لينقذك ، ويأخذ بيدك ، ويُخـرجك من المأزق الذى أنت فيـه . ومن روائع العقـائد التى اسـتشفـها أهل الإشـراق والتنوير أنْ

قالوا : الإنسان يصرخ ويستنجد بمَنْ هو أقرب منه : كأبيه ، أو أمه ، أو خادمه ، أو جاره .. الخ . فإذا لم يجد ؟ يقول : يا الله ، لذلك نسمع بعضهم يقول عند المأزق : يا هُوْه . والمراد يا هُوَ يعنى : يا الله ؛ لأنه لا يوجد غيره ينقذ ويُغيث .

ومن المواضع التى وردت فيها مادة صرخ قوله تعالى حكايةً عن الشيطان ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢)﴾[إبراهيم] والمُصْرِخ : هو الذى يُزيل الصراخ يعنى : يسعفك ، ويزيل عنك الشدة .

وقوله تعالى : ﴿وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣)﴾[يس] يعنى : امتنع المصرخ ، وامتنع عنهم أيضاً المنقذ الذى يتطوَّع فينقذهم ، وهذا قَطْع للأمل فى النجاة ، فإنْ أراد اللهُ الإهلاكَ فلا سبيلَ للنجاة أبداً ، إلا بإذنه تعالى ورحمته .

لذلك يقول فى الآية بعدها : ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا (٤٤)﴾[يس] رحمة تنجى من الغرق ، ومعنى ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾[يس] أن هذه النجاة ليست صكاً بالسلامة الدائمة والبقاء المستمر ، إنما هذه النجاة متاعٌ إلى حين ، إلى أنْ يحلَّ الأجلُ ويُدركك الموت ، فأنت إذنْ سلمتَ من الحِمام إلى الحِمام الذى لا بُدَّ منه .

وأشبه بذلك قول الفخر الرازى :

ولَوْ أنَّا إذَا مِتْنَا اسْتَرحْنَا ... لَكانَ المَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيّ
ولكنَّا إذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... ونُسَأل بَعْدهَا عن كُلِّ شَيّ[1]

وكلمة الحين تعنى الفترة من الزمن بحسب ما تُقاس به ، فمثلاً فى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم] الحين يعنى :

---

(١) هذان البيتان للإمام على بن أبى طالب من بحر الوافر ، باختلاف بسيط فبدل (استرحنا) (تُركنا) . ذكرهما المبرد فى كتابه « الفاضل فى اللغة والأدب » فى باب فضل الشعر .

يوم وليلة ، وفى قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ..(٢٥) ﴾ [إبراهيم] الحين هنا يعنى : سنة ، وفى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾[الإنسان] يعنى : مقدار مُحدَّد من الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) ﴾

تعلمون أن (إذا) أداة الشرط التى تفيد التحقيق . أما (إنْ) فتفيد الشكّ ، ومعنى ﴿ لَهُمْ ﴾ أى : للكافرين ، وجاء الفعل ﴿ قيلَ ﴾ هكذا مبنياً للمجهول ليفيد العموم ، فكأن كل مؤمن عليه أنْ يقول ، وأنْ ينصح ، وأن يأخذ بيد غيره إلى طريق الله .

والحق سبحانه فى هذه الآية يقول لعباده المؤمنين : يا عبادى ، يا مَنْ آمنتم بى ، وصدَّقتم برسلى ، لا تظنوا أنِّى أرضى عنكم طالما آمنتم بى وصدَّقتم رسلى ، لكنى أحب ألاَّ تدخروا وُسْعاً لتنقذوا خَلْقى من غضبى عليهم ، حين يُصِرُّون على الكفر ويقيمون عليه .

وهذا نوع من الرجاء فى المؤمنين أنْ يأخذوا بيد الكفار ، وأن ينقذوهم من دواعى غضب الله عليهم ، وهذا المعنى داخل تحت قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

ومعنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴿٤٥﴾﴾[يس] أى : ما هو أمامكم ، وما ينتظركم من البعث والحشر والسؤال والحساب ، ثم النار ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ ﴿٤٥﴾﴾[يس] يعنى : ما سبقكم من العبر بالمكذّبين قبلكم ، وكيف كانت عاقبتهم ونهاية كفرهم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾[يس] رجاء أنْ يرحمكم الله.

إذن : فينبغى أن يكون فى بال المؤمن أنْ يمهد السبيل لرحمة الكافر ، وأنْ يحاول وُسْعه أن ينقذه ، وأنْ يعطف عليه ، لا أنْ يسلك معه مسلكَ اللدد والخصومة التى لا تجدى .

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

هذا هو اللدد والعناد بعينه ، فالآيات أمامهم واضحة ، وهم يُعرضون عنها وينصرفون عن تدبُّرها ؛ ذلك لأن الذين يكفرون بالله ويُكذِّبون رسله ، ويتأبَّوْن على منهج الله الذى جاء لصيانة خليفته فى الأرض ، هؤلاء مستفيدون من الفساد ، ومستفيدون من الإعراض عن منهج الله ، فطبيعى أنْ يَرَوْا فى كل رسول وفى كل مصلح أنه جاء ليقطع أرزاقهم ، ويفسد عليهم حياتهم ، فيصادمونه ويقفون فى وجهه .

وهذه الآية يفسرها قول الله فى موضع آخر : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

فإنْ قُلْتَ : ما دُمْتم حريصين على أنْ يرحم اللهُ هؤلاء الكافرين ، فلماذا لا تُلحون عليهم بالآيات الجديدة إلى أنْ يؤمنوا فيرحمهم الله ؟ نقول : مهما جئناهم بالآيات فسوف ننتهى إلى هذه النتيجة التى قررها القرآن : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [يس]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

هذا لون آخر من عنادهم وقَلْبهم للحقائق ، فإذا قال لهم الناصح ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿٤٧﴾ ﴾[يس] يعنى : مما استخلفكم فيه لا مما عندكم ، وملّكه لكم يكون الرد ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴿٤٧﴾ ﴾[يس] هكذا يقلب الكافر حقائق الأمور ويتبجحون بالباطل .

﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴿٤٧﴾ ﴾[يس] يعنى : لسنا بخلاء بل نحب أنْ ننفق ، وأن ننفذ مرادات الله فى خَلْقه ، والله يريد أن يمنع الرزق عن هؤلاء ، فكيف نرزقهم نحن ، إننا لو أنفقنا عليهم لكنا معاندين مخالفين لمراد الله ، ولو شاء الله لأطعمهم .

ولم يقفوا بعنادهم عند هذا الحدِّ ، إنما يتمادَوْنَ فيتهمون المؤمنين بالضلال المبين ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴿٤٧﴾ ﴾[يس] يعنى : ما أنتم ﴿ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾[يس] سبحان الله ، لماذا ؟ لأنكم تعارضون مراد الله ، وتُطعمون مَنْ حرمه الله وتجيرون عليه .

نعم ، الحق سبحانه رب الجميع ، ويرزق الجميع ، ويطعمنا ويسقينا ، لكنه سبحانه يريد أنْ يشهد عطف عباده على عباده لتسير حركتهم فى الحياة بلا غِلٍّ ، وبلا حقد ، فالفقير حين ينال من خير الغنيّ لا يحقد عليه ولا يحسده ، بل يتمنى دوام النعمة عنده ، ثم إن الغِنَى والفقر عَرَض ينتقل ويزول ، والواقع يشهد بذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قولهم ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ ﴿٤٨﴾﴾[يس] أى : الوعد بالآخرة وكلمة (الوعد) تدل على البشارة بالخير ، على خلاف الوعيد وهو إنذار بالشرِّ ، فعجيب منهم أنْ ينكروا الوعد وهو فى صالحهم ، وحظهم فى الوعد لا فى الوعيد .

وهذا الاستفهام منهم على سبيل الإنكار ، فليس هناك آخرة ولا حساب ولا جزاء ، والعاقل منهم الذى يعترف بالآخرة يقول كما قال صاحب الجنة ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[يس] فى قولكم بأن هناك بعثاً وحساباً ، وواضح ما فى إنكارهم للقيامة من تحدٍّ وعناد واستعجال لها . يقولون : أين هى القيامة التى تتكلم عنها ، ائت بها الآن إنْ كنتَ صادقاً ، ويظل الواحد منهم فى هذا الجدل إلى أنْ تفاجئه القيامة .

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يس] يعنى : ربما تفاجئه القيامة وهو فى جداله هذا ، وما المانع فالأمر لا يكلفنا إلا مجرد صيحة واحدة تأخذهم وتقضى عليهم جميعاً .

وهذا إنذار لأهل الغفلة الذين غفلوا عن البعث والحشر والحساب ، وشغلتهم الدنيا فى تجارتهم وفى زراعتهم ومشاكل حياتهم ، حتى

أضاعوا الحياة فى أخذ وردٍّ وجدال وخصام إلى أنْ فاجأتهم القيامة ؛ لذلك يقول الشاعر : إياك أن تجادل فى شىء كان فى يدك فأخذه منك غيرك .

نَفْسِى التى تملكُ الأشياءَ ذَاهبةٌ   فكيفَ آسَى علَى شَىءٍ لَهَا ذَهَبَا

ومعنى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾[يس] يعنى : تفاجئهم وهم فى جدالهم وخصامهم ، ومعنى ﴿يَخِصِّمُونَ ۝٤٩﴾[يس] أى : يختصمون ، فقُلبت التاء صاداً ، وأدغمت فى الصاد للدلالة على المبالغة . والأَخْذُ يدل على الشدة ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [القمر]

وقوله : ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ۝٥٠﴾[يس] يعنى : تفاجئهم الصيحة والقيامة ، بحيث لا يتمكن أحد أنْ يُوصِى أحداً ، والوصية معروفة وهى أنْ يُوصِى الإنسان أهله وأولاده بما هو مهم فى حياتهم ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله فى حجة الوداع لما أحسَّ بدُنُو الأجل أوصى المسلمين فى خطبته الجامعة للُبِّ الدين وأسسه ، كذلك مَنْ أقبل على أجله واستشعر نهايته عليه أَنْ يوصى مَنْ يحرص عليه بالأشياء المهمة .

إذن : فَهُم فى هذا الموقف لا يسعفهم الوقت لكى يُوصى بعضهم بعضاً ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾[يس] حتى ولا هذه يستطيعونها . فالقيامة إذن لا ينبغى أن يستبطئها أحد ؛ لأنها تأتى بغتة ؛ لذلك أخفاها الله ، واستأثر سبحانه وحده بعلمها ليظل الإنسان على ذكرٌ لها ، ينتظرها فى كل وقت ، والقيامة بالنسبة للإنسان لا تعنى بالضرورة الآخرة ، إنما مجرد أنْ يموت فقد قامت القيامة فى حقه ، فبالموت لم يَعُدْ له عمل ، ولا توبة ، ولا استدراك لشىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۝٥١ ﴾[يس] أى : البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهذه هى نفخة البعث ، وتسبقها نفخة الصَّعْق التى تُميتهم وتخمدهم ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ ﴾ [الزمر]

فإنْ قُلْتَ : النفخة واحدة ، فكيف تميت الأولى وتحيى الثانية ؟ نقول : النفخة فى الصُّور ما هى إلا علامة فقط للحدث أمَّا الفاعل على الحقيقة فهو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يميت فى الأولى ، ويحيى فى الثانية .

ومعنى ﴿ الأَجْدَاثِ ۝٥١ ﴾[يس] القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ ﴾[يس] يعنى : يُسرعون وأصل كلمة ﴿ يَنسِلُونَ ۝٥١ ﴾[يس] من نسل الخيوط بعضها عن بعض ، نقول : الثوب (ينسل) يعنى : تخرج بعض الخيوط من أماكنها من اللُّحْمة أو السُّدَّة ، لذلك نقول : (كفف) الخياطة يعنى : امنع هذا (التنسيل) بأن تُمسك الخيوط بعضها إلى بعض ، فلا تنفلت .

فإذا ما خرجوا من الأجداث ورأوا الحقيقة التى طالما كذَّبوها

قالوا : ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] هم الذين يقولون ويدْعُون على أنفسهم بالويل والثبور ؛ لا أحد يقول لهم : ويلكم إنما يقولونها هم لأنفسهم ، وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم .

والمعنى : يا ويلنا احضر ، فهذا أوانك ، لأن الأمر فوق ما نحتمل ، ولا نستطيع دفعه ، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه يعود على نفسه باللوم ، بل قد يضربها ويعذبها .

وعجيب منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] فيعترفون بأن الموت كان مجرد مَرْقد ، والمرقد لا بُدَّ بعده من يقظة . عندها يردُّ عليهم : ﴿ هَٰذَا ﴾ أى : ما ترونَه من أمور القيامة ﴿ مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] ويجوز أنْ يكون اسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى ﴿ مَرْقَدِنَا ﴾ فى ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا ﴿٥٢﴾ ﴾[يس]

الحق - سبحانه وتعالى - أخبر أنه جامعُ الناس ليوم لا ريب فيه ، وأن مَنْ أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة التى يعيشون فيها ، فإن الله مُدَّخر له عذاباً من نوع أشد ؛ لأن الذين قاموا بالدعوة إلى الله أول الأمر واضطهدوا وأُوذوا ، منهم من مات فى الاضطهاد قبل أنْ يرى انتصار الإسلام وغلبة المسلمين ، وقبل أنْ يرى انتقامَ الله من أعدائه ، فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن يُرِى اللهُ هؤلاء المؤمنين عاقبةَ الكافرين وما نزل بهم من العذاب .

والوعد هنا رغم أنه إنذار بالشرِّ الذى ينتظرهم ، إلا أنه فى حقهم يُسمَّى وَعْداً لا وعيداً ، لماذا ؟ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه نعمة كبرى ، كما فى قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّواظ من آلاء الله ؛ لأنه يُخوِّفهم بها ، ويحذرهم منها ، ولم يفاجئهم بها وهم أصحاء ، ويسمعون ويبصرون ، ويقدرون على الرجوع إلى الله والتوبة إليه ، فهم في وقت المهلة والتدارك . وكما تُحذِّر ولدك من الرسوب إنْ هو أهمل دروسه وتتوعده ، إذن : فالوعيد هنا عَيْن النعمة ؛ لذلك سُمِّى وعداً لا وعيداً.

ومعنى : ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾[يس] أى : فى البلاغ عن الله ﴿ إِن كَانَتْ (٥٣) ﴾[يس] أى : ما كانت النفخة ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً (٥٣) ﴾[يس] لا تتكرر ؛ لأن الذى يُكرر الفعل البشر ، ومعنى تكراره أن الفعل الأول لم يكُنْ كافياً ولم يَفِ بالغرض منه ، أمَّا هنا فالفاعل الله عز وجل .

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾[يس] إذا هنا فجائية ، فبمجرد الصيحة أُحْضِروا جميعاً رغماً عنهم ، وبدون اختيارهم ، ومُحضر اسم مفعول من أحضر . يعنى : أُجبر على الحضور والمثول بين يدى الله للحساب .

وفى الآية السابقة ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾[يس] فزادتْ (كل) الدالة على شمول الأفراد ، إنما قد يكون شمول الأفراد تتابعاً مجموعة تلْو الأخرى ، لكن هنا يأتون مجموعين ليرى التابع متبوعه ، والضال مَنْ أضلَّه .. الخ ؛ لذلك يسمونها الفاضحة .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) ﴾

كأن الحق سبحانه يُطمئِن أهل الإيمان والعمل الصالح ، يعنى :

لا تخافوا من هَوْل القيامة ؛ لأننا لا نظلم أحداً ، والجزاء عندنا من جنس العمل ﴿ وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[يس] فهذه الآية طمأنينة لمن عمل صالحاً ، وتخويف لمن عمل سيئاً .

واليوم هنا أى : يوم القيامة ، والموازين فيه بيد الحق سبحانه ، يعنى : إنْ كنتم فى الدنيا يظلم القوىُّ الضعيفَ ، ولا تقيمون الموازينَ بالقسط ، فالميزان يوم القيامة ميزان عادل ، لا يظلم ؛ لأن الذى سيقيم هذا الميزانَ هو الحقُّ سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن جزاء أصحاب الجنة ، فيقول :

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿٥٥﴾ ﴾[يس] الصاحب هو المنتقَى والمختار من جنسك لتصاحبه ولا تفارقه ، فكأن الجنة أُخْرِجت مخرج العقلاء الذين يُصاحِبون ويُصاحَبون ، ذلك لأن الجنة كانتَ فى بالهم وفى أذهانهم ، فهم متعلقون بها وهى شُغُلهم الشاغل ، فلَهُم صحبة بالجنة ، وللجنة صحبة بهم ، فكلما أقدموا على خير تذكَّروا الجنة فرغبوا فيه ، وكلما أقدموا على شر تذكروا النار فانصرفوا عنه . أو : أن الصاحب هو المالك للشىء ، فكأن الجنة مِلْك لهم ، ملكوها وحازوا مفاتيحها بما قدَّموا من العمل الصالح .

ومعنى ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فِى شُغُلٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[يس] أى :

نعيم يشغلهم عن أيِّ شيء آخر أو : فى شُغُل عن معارفهم وأقاربهم الذين دخلوا النار والعياذ بالله ، كما قال سبحانه : ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا (٣٣)﴾[لقمان] فهم فى نعيم يشغلهم عن كل هؤلاء ، فكأنهم لا يعرفونهم .

﴿ فَاكِهُونَ ﴾ يقال : فَاكه وفكه يعنى : متلذذ ومُتنعِّم . ومنها : الفاكهة ، فهى ليست من الضَروريات إنما من التفكُّه والتلذذ .

وقوله سبحانه : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾[يس] أذكر أننى لما قرأتُ هذه الآية على الإخوان ضرب واحد منهم على صدره - وكان شيخاً وقوراً - ضرب على صدره بعنف وانفعال ، وقال : (يا خرابى ، يعنى فلانة هتجيلى تانى) لأنه رأى فى زوجته ما يُنفِّره منها ، فتعجب أنها ستصاحبه حتى فى الآخرة وفى الجنة ، فقلنا له : يا شيخ أنت تكره فى زوجتك أشياء لكن لها مع الله أعمال طيبة ، تجعلها أَهْلاً للجنة ، فعملها الطيب مع الله يلغى عملها السيىء معك .

وربما كنتَ أنت حَادّ المزاج ، أو طماعاً وعينُك زائغة ؛ لأن الله تعالى قال فى الحياة الزوجية : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١)﴾ [الروم]

فالحياة الزوجية فى بدايتها سكَن ، حيث يسكن كلٌّ منهما إلى الآخر ويرتاح فى حضنه ، ثم إذا تغيَّرتْ الأوضاع وزَهَد أحدهما فى الآخر أو ظهر منه ما يُنفِّر كانت المودة ، فإذا ما أصابهما الكبَر والعجز فليرحم كل منهما عَجْز الآخر ، بما جعله الله بينهما من صفة الرحمة ، فالحياة الزوجية فى هذه الحالة معيشة تراحم قبل كل شىء .

ثم إن هذه الزوجة التي تنقم منها بعض الصفات ، وتنفر من تصرفاتها لن تأتي في الآخرة على هذه الصورة التي تكرهها ، إنما ستأتي على صورة جديدة كما قال سبحانه : ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران] فالله سيطهرها مما كنتَ تأخذه عليها .

ومعنى : ﴿فِي ظِلَالٍ ﴿٥٦﴾﴾ [يس] أي : لا شمسَ هناك ، ولا حَرٌّ يؤذيهم ، والظل معروف ألفه المكلَّفون في الدنيا ، وإليه يفيئون في حَرِّ الشمس ، فهو أمر مألوف لهم ، أما في الآخرة فهي ظلال يُمتَّعون فيها ، أو في ظل الله كما ورد في الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.. »[1]

والأرائك : جمع أريكة ، وهي السرير الذي له حَجَلة[2] (النموسية) أو : هي الوسادة التي يُتكأ عليها .

ومعنى ﴿مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس] الاتكاء حالة وهيئة للإنسان ، فهو : إمَّا قائم ، أو قاعد ، أو متكئ ، والاتكاء أمتع هذه الحالات ؛ لأن القائم قائم لعمل ، والقاعد يقعد لهَمٍّ يفكرُ فيه ، فلا هو قادر على القيام للعمل ، ولا هو قادر على الاتكاء للراحة ، فقوله سبحانه ﴿مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس] يعني : تمام الراحة لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَهُمْ فِيهَا ﴿٥٧﴾﴾ [يس] أي : في الجنة ﴿فَاكِهَةٌ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ».

(٢) الحجلة في اللغة : مثل القبة . وحجلة العروس : بيت يُزيَّن بالثياب والأسِرَّة والسُّتور . ويكون له أزرار كبار [لسان العرب - مادة : حجل] .

﴿٥٧﴾[يس] الفاكهة من التفكُّه والتلذذ ، وعرفنا أن الطعام يأكله الإنسان إما للاقتيات وهو الضروريات ، وإما فاكهة للتلذُّذ والتنعُّم ، وهنا يذكر الحق سبحانه الفاكهة فحسب ؛ لأننا لا نأكل فى الجنة إلا تفكُّهاً وتنعُّماً ، لا عن حاجة أو جوع .

﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[يس] أى : ما يدعون به وما يخطر ببالهم ، فيجدوه بين أيديهم . وقال بعضهم (مَا يدَّعُون) يعنى : لا يدخر الله لهم دعوة ؛ لأنه سبحانه يعطيهم قبل أنْ يدعوا[1] .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى – عن معنى كان يريده لخَلْقه فى الدنيا نتيجة للسير على منهجه وصراطه المستقيم ، فيقول سبحانه : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس] فثمرة الإسلام أنْ يُسلِموا زمامهم جميعاً إلى يد خالقهم ، وأن يكونوا إخوة عابدين لمعبود واحد ، وأن يعيشوا معاً فى أمن واطمئنان وسلام .

إذن : فالأمن والسلام هما الغاية من منهج الله ، وهما تمام النعمة ، وإلا فلو نعم الإنسانُ بكل ألوان النعيم وفقد نعمة الأمن والسلام لنغَّصَتْ عليه كل النعم ، وما هنىء بعيش ولا تمتَّع بلذة ؛ لذلك امتن الله تعالى على قريش فقال : ﴿ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

السلام يكون منك حين تُقبل على آخر فتقول : السلام عليكم يعنى : أنا مقبل عليك بسلام ، فيردُّ عليك : وعليكم السلام ، والمعنى :

---

(١) أورد القرطبى فى تفسير هذه الكلمة عدة أقوال (٨/٥٦٨٢) :
– من دعا بشىء أعطيه . فمعنى يدعون : يتمنون . قاله أبو عبيدة .
– من ادعى منهم شيئاً فهو له .
– يدعون : يشتهون . قاله يحيى بن سلام .
– يسألون . قاله ابن عباس .
ثم قال القرطبى : « والمعنى متقارب » .

لا أنت تؤذينا ، ولا نحن نؤذيك ، وكُلٌّ يعطَى من السلام على قدر إمكاناته ، فإذا كان السلام من الله ، فهو السلام المطلق ، السلام الذى يحميك من كل جوانبك ، فلا ينفذ إليك شىء يضرُّك .

ومعنى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا ﴿٥٨﴾ ﴾[يس] يعنى : الله تعالى هو قائله ليس مناولةً عن طريق الملائكة مثلاً ، فيقول لهم : سلِّموا على فلان ، فالمعنى : سلام حالة كونه قَوْلاً من رب رحيم ، وليس بلاغاً عن الله من أحد ، واختار هنا لفظ الربوبية التى تقتضى أن المربِّى يحب المربَّى ، فما بالك إذا وصفتَ الربوبية بالرحمة ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس]

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن المؤمنين ، وما ينتظرهم من النعيم يُحدِّثنا عن المجرمين :

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

معنى : ﴿ وَامْتَازُوا ﴿٥٩﴾ ﴾[يس] أى : تميَّزوا أيها المجرمون عن المؤمنين ، وانحازوا بعيداً عنهم ، تجمعوا فى جانب واحد لتروْا دخول المؤمنين الجنة ، وتظلوا أنتم فى الموقف لتزداد حسرتكم .

وقد اقتضتْ حكمة الله تعالى أنْ يُميز المؤمنين والكافرين بمعنى : أن يُعرف كُلٌّ منهم ، وذلك فى غزوة الحديبية ، فلما مُنع المسلمون من دخول مكة وهم على مشارفها حَزن المسلمون حُزْناً شديداً ، حتى كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب الذى قال لرسول الله : لِمَ نقبل الدَّنيَّة فى ديننا[1] ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم فى حديث الحديبية الطويل ، وفيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما جرى صلح الحديبية والتأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أو ليس برسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلامَ نعطى الذلة فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه حيث كان » الحديث بطوله .

وكاد المسلمون يخالفون أمر رسول الله حتى قال لزوجته السيدة أم سلمة : « هلك الناس يا أم سلمة ، أمرتُهم فلم يطيعوا » فقالت : يا رسول الله ، إنهم مكروبون . ذلك لأنهم مُنعوا من دخول الحرم وهم على مقربة منه ، وهذا أمر صعب على نفوسهم ، ثم أشارت على رسول الله وقالت : يا رسول الله امْض إلى ما أمرك الله به فافعل ، ولا تكلم أحداً ، فإنهم لو رأوك عزمتَ انصاعوا ، وفعلاً أخذ رسول الله ﷺ بمشورة السيدة أم سلمة ، وانتهت المشكلة[1] .

وقبل أنْ يعودوا إلى المدينة بيَّن الله لهم وجه الحكمة في ذلك والعلة من صلح الحديبية ، ولماذا قَبِل رسول الله شروطها . العلة أن بين كفار مكة مؤمنين يكتمون إيمانهم ، ولا يعرفهم أحد ، فلو دخل المسلمون مكة في هذا الوقت لحدثتْ مصادمات بين الجانبين ، وعندها سيُؤْذَى هؤلاء المؤمنون الذين يكتمون إيمانهم ، ولا يستطيعون الجهر به ، وسيؤخذ العاطل مع الباطل .

لذلك قال سبحانه في هذه القصة من سورة الفتح : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ، ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمنَّ منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق ، فنزلت سورة الفتح .

ومعنى ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا (٢٥)﴾[الفتح] يعني : لو تميَّز المؤمنون عن الكافرين .

أو : يكون المعنى : ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)﴾[يس] امتازوا بعلامات تميزكم وتلازمكم دائماً ، بحيث لا يكون خجلكم أمامنا الآن فحسب ، إنما تكون لكم سمات تُعرَفون بها ، وهذه العلامة هي علامة الغضب وسواد الوجه والعياذ بالله . ومن ذلك قوله تعالى في المؤمنين : ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ (٢٧٣)﴾ [البقرة]

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

كأن سائلاً سأل : وهل يستحق الكفار كلَّ هذا العذاب وهذا الغضب من الله تعالى ؟ فيجيب الحق سبحانه : نعم ، يستحقون ؛ لأن الله نبَّههم وحذرهم فلم يستجيبوا ، ذلك في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (٦٠)﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يأخذكم على غِرَّة ، إنما نبَّهكم وبيَّن لكم مداخل الشيطان وحبائله وحيَلَه ؛ لأن الشيطان من خيبته رمى بكل مداخله مع المؤمنين أمام الله ، فحذرنا الله منها ، وبيَّن لنا عداوته لنا ، وعداوته المسبقة مع آدم عليه السلام منذ أنْ أُمِر بالسجود فأبى .

ولم ينْتَهِ أمره عند عدم السجود ، إنما أغوى آدم ، وأراد أن ينتقم منه ومن ذريته من بعده ، بل وأقسم على ذلك أمام خالقه سبحانه ، فقال بجبروت الإغواء كما حكى القرآن : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] لكنه تذكر عبوديته الحقة للرب الأعلى ، فقال :

﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]

فهؤلاء لا مدخلَ لى إليهم ، والمعنى أن الخصومة ليست بينى وبينك ، إنما بينى وبين بنى آدم . وحين أقسم إبليس ، أقسم قسماً يؤكد قدرته على ما يهدد به ، فمثلاً سحرة فرعون حين أقسموا قالوا : ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾ [الشعراء]

أمَّا إبليس فيعرف جيداً كيف يقسم ، فقال ﴿فَبِعِزَّتِكَ (٨٢)﴾ [ص] يعنى : باستغنائك عن خَلْقك ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر ، هذا هو الباب الذى سأدخل منه إليهم ، أمَّا من تريده أنت يارب ، فلا أستطيع أن أقترب منه .

ومعنى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ (٦٠)﴾ [يس] يعنى : آمركم كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه]

يقول تعالى : ألم آمركم يا بنى آدم أنْ تحذروا مكايد الشيطان ، وأن تتنبَّهوا إلى مداخله إليكم وشباكه وخططه ، ألم يقل هو نفسه : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ [الأعراف] إذن : كان ينبغى ما دُمْتم أخذتم المصْل الواقى أن تكون لديكم المناعة اللازمة لمواجهة هذا العدو ، خاصة وقد أسفر عن وجهه ، وأوضح خططه ، فهو لكم على الصراط المستقيم ، ومداخله من سبل الطاعة لا من سُبل المعصية ، الشيطان لا يأتى أهل الفجور وروَّاد الخمارات ، إنما يأتى أهل الطاعات ليفسدها عليهم .

وصدق الشاعر الذى قال عَمَّنْ أسرف على نفسه فى المعاصى :

وَكُنْتُ امْـرءاً مِنْ جُنْـدِ إبْلِيسَ فَارْتَـقَى

بِيَ الحَالُ حَتَّى صَارَ إبْلِيسُ مِنْ جُنْدِى[١]

ومعنى : ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴿٦٠﴾﴾ [يس] عبادته طـاعة نزغاته ووسوسته ، والعلة فى ذلك ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[يس] يعنى : عدو بيِّن العداوة ، محيط بأساليب الكَيْد لأعدائه .

وبعد أنْ نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن عبادة الشيطان يُوجِّهنا إلى العبادة الحقة : ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس] حين نتأمل هاتين الآيتين نجد أن العـلة فى النهى عن عبادة الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس] كان القياس فى الآية بعدها : وأن اعبدونى لأننى حبيبكم كمـا جاء فى الحديث الـقدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحِبٌّ ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً »[٢].

لكن الحق سـبحـانه لم يُعلل عـبـادته سبـحانه بالـمحـبة ، إنمـا اعـبدونــى لأنى أدعوكم إلى الـصراط المـسـتـقيم النافـع لكم المنظِّم لحـياتكم ، اعـبدونى لهـذا ، أما مـسألة المـحبة فـهى موجـودة وأنا أحـبكم ، فسـواء كنتُ أحبك أو لا أحـبك كـان ينبغى عليك اتبـاع هذا الصراط المستقيم ؛ لأنك المستفيد منه .

ولأهل المعرفة وقـفة عندما قرأوا :﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾

---

(١) هذا البيت ذكرته الموسوعة الشعرية من شعر شاعرين : أولهما : الخبز أرزى (توفى عام ٣١٧ هـ - ٩٣٩ م) واسمـه نصر بن أحـمد ، بصـرى ، انتقل إلى بغـداد ، أخبـاره كثـيرة طريفة : ونص البيت عنده ضمن قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها ٤٦ .

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى ... بى الأمر حتى صار إبليس من جندى

وقد أخذ الأمير الصنعانى (توفى ١١٨٢ هـ - ١٧٦٨ م) هذا البيت فقال :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتمى ... بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

وهو من بحر الطويل من قصيدة عدد أبياتها ١٥ بيتاً .

(٢) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) ، قال : « فى بعض الكتب (يقصد الإلهية) : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

[الفاتحة] ﴿ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ [يس] . ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

قالوا : الصراط المستقيم هو الطريق العَدْل الذى لا اعوجاجَ فيه ، ويمثل أقربَ الطرق وأقصر مسافة بين نقطتين ، وساعةَ تسمع كلمة الطريق تعرف أن له بداية ونهاية من .. إلى ، وهنا إشارة لطيفة ينبغى أن يتنبه لها المؤمن ، هى أن الدنيا بالنسبة لك ما هى إلا طريق أنت تسير فيه ، له بداية وله نهاية ، فهى - إذن - ليستْ دارَ قرار وإقامة ، إنما دارُ عبور ومرور .

والإنسان حينما يقيم فى مكان ولا يجد به راحته يتركه إلى مكان آخر ، ولو استقام له المكان الأول ما تركه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

وهذه الهجرة أيضاً تحتاج إلى طريق أهاجر فيه من .. إلى . فكأن الحق سبحانه يقول لك : أنت فى الدنيا عابر سبيل ، إلى غاية أعظم وأشرف ، فاسلُك إليها أقرب الطرق الموصِّلة إليها ، وإذا كنتَ قد عاينتَ بنفسك (منْ) فى الدنيا التى تعيشها ، فإن الله تعالى قد أخبرك عن (إلى) التى تسير إليها .

أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب المخلوقة لله ، والممدودة إليك فى : الأرض التى تعيش عليها ، والماء الذى تشربه ، والهواء الذى تتنفسه ، والعقل الذى تفكر به .. الخ لكن ربك الذى مدَّ لك هذه الأسباب ، يخاف عليك الغرور بالأسباب : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

لذلك يجعل هذه الأسباب تتخلف فى بعض الأحيان ، كى تتعلق أنت بالمسبِّب سبحانه ، وتظل على ذكر له سبحانه ، فتدعوه وتلجأ إليه .

ومن الناس مَنْ يحب الله دعاءهم ، ويحب أنْ يسمع أصواتهم ، فيبتليهم ليدعوه فيسمعهم ، وآخرون يكره الله نداءهم ، فيأمر الملائكة أنْ تقضي حوائجهم ، حتى لا يسمع لهم صوتاً .

ثم يحكي لنا الحق سبحانه تاريخَ الشيطان مع بني آدم ، هذا التاريخ الذي كان علينا أنْ نتذكره دائماً :

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

الجِبلّ : هم القوم الأشداء الأقوياء . وحين ترى مادة (جبل) فاعلم أنها تدُلُّ على القوة والشدة والثبات والفخامة ، ومن ذلك سُمِّيَ الجبل لثباته ونقول : فلان جُبل على كذا . يعني : صفة أصيلة فيه ، ثابتة في شخصيته ، فبَيْنَ هذه الأشياء جامع اشتقاقيّ واحد ؛ لذلك نُشبِّه الرجل العاقل بالجبل ؛ لأنه ثابت لا تهزه الأحداث .

ومن ذلك قول الشاعر يرثي أحد الخلفاء ، وقد رأى الناسَ يحملونه إلى قبره[(١)]

● رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَسِيرُ[(٢)] ●

ورَضْوَى جبل معروف[(٣)]

---

(١) أما الشاعر فهو المتنبي أحمد بن الحسين أبو الطيب (ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ وتوفي ٣٥٤ هـ) أحد مفاخر الأدب العربي ، ادعى النبوة ، ثم رجع عن دعواه . قتله قاطع طريق اسمه فاتك بن أبي جهل الأسدي .

(٢) وتمام البيت كما ذكر في الموسوعة الشعرية :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ... رضوى على أيدي الرجال تسير

وهو من قصيدة عدد أبياتها ١٣ بيتاً من بحر الكامل .

(٣) رضوى : جبل منيع بين مكة والمدينة ، ويسمى جبل جهينة بالقرب من ينبع .

ومعنى ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾[يس] : يعنى : لستم أول مَنْ أضلَّه إبليس ، فقد أضلَّ قبلكم قوماً كثيرين كانوا أقوى منكم ، ولعب بهم حتى جعل منهم أداة للضلال ، فلم يقف عند حَدِّ ضلالهم هم ، إنما ضلُّوا وأضلُّوا ، حتى صاروا جُنْداً من جُنْده كما قلنا .

ويكفى فى عظمة الحضارات القديمة أن الحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين - قرن الاختراعات والاكتشافات والتقدم العلمى الهائل- تقف مبهورة أمام حضارة قديمة مثل حضارة الفراعنة مثلاً ، بل وتقف عاجزة عن فهمها ، والوصول إلى أسرارها ، وكان على رأس هذه الحضارة فرعون .

فماذا فعل به الشيطان ، أغواه وأضلَّه ، حتى قال لقومه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] . وحكى عنه القرآن فقال : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

ففرعون وأمثاله من الأقوياء ما استطاعوا أنْ يواجهوا الشيطان ، وما استطاعوا النجاة من مكايده ؛ لأنه دخل إليهم من مدخل شهوات النفس ، ثم صعَّب عليهم الطاعات ، فمالوا إلى المعاصى وانصرفوا عن الطاعات .

ثم يُؤنِّب الحق سبحانه هؤلاء العاصين : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾[يس] يعنى : أين كانت عقولكم حين انسقتُمْ وراءه ، بعد أن حذرناكم منه وبيَّنا لكم مداخله ، وحين يردُّك خالقك إلى العقل ، ويأمرك بإعماله فاعلم أن نتيجة إعمال العقل موافقة لمراده سبحانه منك ، فإنْ أعملتَ عقلك فى كَوْن الله وآياته ، لابد أنْ تصل إلى نتيجة مرادة لله تعالى ، كذلك أنت لا تأمر مخاطبك بأنْ يُعمل عقله فى شىء ، إلا إذا

كنتَ واثقاً أنَّ نتيجة هذا العمل فى صالحك ، ووفْق هواك ، ولو كنتَ تعرف أن النتيجة على خلاف ما تريد ما أعطيتَه الفرصة لإعمال عقله .

ومثَّلْنَا لذلك بالبائع الذى يبيع سلعة جيدة ، فإنه يدعوك إلى فحصها وتأمُّلها والتأكد من جودتها ، فبائع الأصواف مثلاً يعرض عليك الثوب ، ويُبيِّن لك جودته ، ويشعل الثقاب ، ويحرق لك خيطاً من خيوط النسيج ، إنه لا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته وأنك لابُدَّ مقتنع بها ، حريص على شرائها ، أما الغاشُّ فيحاول إقناعك بكلام نظرى معظمه كذب وتدليس ، ويحاول أنْ يصرف ذهنك وفكرك فى الشيء ، لأن النتيجة لن تكون فى صالحه .

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - يقول :﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ [يس]

يعنى : لو عقلتم لَتوصلْتُم إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾

هنا أيضاً اعتبر التخويفَ من جهنم وعداً لا وعيداً ، وسبق أنْ عرفنا أن الوعد فى الخير ، والوعيد فى الشر ، ومن ذلك قول الشاعر[1] :

يَا دَهْرُ يَا مُنْجِزَ إيعَادِهِ ... وَمُخْلِفَ المأمُولِ منْ وَعْدِه[2]

---

(١) هو أبو العلاء المعرى ، شاعر وفيلسوف ، ولد وتوفى (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ولم يأكل اللحم ٤٥ سنة .

(٢) البيت من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر السريع عدد أبياتها ٥٠ بيتاً.

وقُلْنا : سَمَّى ذلك وعداً ؛ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه يُعَدُّ خيراً ؛ لأنك تستطيع تدارك الأمر ، وتصحيح الخطأ .

وقوله سبحانه : ﴿اصْلَوْهَا ﴿٦٤﴾﴾[يس] ادخلوها ، واصْطَلُوا بنارها ، واحترقوا بلظاها ، ﴿الْيَوْمَ ﴿٦٤﴾﴾[يس] أى : يوم الجزاء اليوم القائم الذى نحن فيه ، أما ما قبله فقد مضى ومضتْ معه اللذات التى جاءت بكم إلى النار ، ذهبتْ اللذات وبقيتْ تبعتها ، ولم يعُد أمامكم إلا النار تحترقون فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[يس] يعنى : هذه النار ليست ظُلْماً ، إنما جزاء كفركم بنعمة الله ، وهذا تقريع لهم ؛ لأنهم لم يعرفوا للحق سبحانه نعمه عليهم ، ولو عرفوا لله هذه النعمة ما كفروا بها .

لذلك حين تُحسن إلى إنسان ، فيقابل إحسانك بالإساءة يخجل أن يقابلك ، ويستطيع أنْ يتحمل منك أىَّ عقاب ، إلا أن تواجهه أنت ، لماذا ؟ لأن حياء المسىء من المحسن أشدُّ عليه من العذاب ، فكأن الله تعالى يقول لهؤلاء الكفرة بنعمه : استحيوا من الله ، لأنه أنعم عليكم فكفرتم بنعمه ، ولو أن عندكم إحساساً لكان تذكيركم بكفركم أشدَّ عليكم من هذه النار التى تَصْلَوْنها .

ثم يقول سبحانه واصفاً حالهم ، والعياذ بالله : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس]

قوله ﴿الْيَوْمَ ﴿٦٥﴾﴾[يس] أى : يوم القيامة والجزاء ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴿٦٥﴾﴾ [يس]

نضرب عليها فلا يستطيعون الكلام ، فالأفواه مَنَاط الكلام ، وقبل أن يختم الله على أفواههم فى الآخرة ختم على قلوبهم فى الدنيا ، بالأمس ختم اللهُ على القلوب فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ، واليوم ختم الله على الأفواه ومنعهم الكلام ، حتى لا يعتذرون ولا يستغفرون .

فالمقام هنا مقام حساب لا عمل ، فلا جدوى من الاستغفار ، ولا فائدة من الاعتذار ، بل انتهى أوان الكلام والمنطق ، ولم يعُد للسان دَوْر ، اليوم تُغْلَق الأفواه وتُقيَّد الألسنة لتنطق الجوارح .

وتأمل بعدها : ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[يس] القياس كان يقتضى أنْ يقول الحق سبحانه ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴿٦٥﴾﴾ [يس]

ومثلها : ونُنْطق أيديهم ونُشهد أرجلهم ، لكن السياق القرآنى هنا مختلف ، فبعد أنْ يختمَ اللهُ على أفواههم تُكلمنا أيديهم تطوعاً لا أمراً ، وتشهد أرجلهم تطوعاً لا أمراً ، فلم نقل للأيدى : تكلمى ، ولم نقل للأرجل : اشهدى .

وإنما تطوعتْ هذه الجوارح بالشهادة ، مع أنها هى نفس الجوارح التى بُوشِرت بها المعاصى والذنوب فى الدنيا ، ومع ذلك تشهد لا على نفسها ، إنما على النفس الواعية التى أخضع اللهُ لها الجوارح ، وأمرها أن تسير وِفْق مرادها ، ورهْنَ إشارتها فى الدنيا .

أما ونحن الآن فى الآخرة ، وقد تحررتْ الجوارحُ من تبعيتها للنفس الواعية ، وأصبحَ المُلْكُ كله والتفويض كله لله تعالى ، فالآن تتكلم الجوارح بما تريد ، وتشهد بما كان أمام الرب الأعلى سبحانه .

وسبق أنْ مثَّلْنا هذه المسألة بالكتيبة من الجيش يرسلها القائد الأعلى ، وعلى الكتيبة أن تطيع أوامر قائدها المباشر ، ولو كانت الأوامر خاطئة ، إلى أن تعود إلى الأعلى ، فتشكو له ما كان من القائد المباشر ، هكذا الجوارح يوم القيامة .

فإنْ قلتَ : فلماذا أسند التكلم للأيدى ، والشهادة للأرجل ؟ نقول:

لأن جمهرة الأعمال عادة تُسند إلى الأيدى ، حتى لو كان المشى وسيلة العمل ، وطالما أن الأيدى تتكلم ، فكأنها أصبحتْ مُدَّعية تحتاج إلى شاهد فتشهد الأرجل .

أما مسألة : كيف تنطق الأيدى ، فالذى أنطق اللسان وهو قطعة من لحم ودم قادر على أنْ يُنطِق باقى الأعضاء الأيدى أو غيرها ، وما دام الفعلُ لله تعالى فلا داعىَ للسؤال عن الكيفية ، ثم إن الأيدى بها من الأعصاب أكثر مما بأعضاء الكلام .

وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾[يس] ولم يقُلْ : بما كانوا يعملون ، لأن هناك فرقاً بين إنسان يُقبل على المعصية لكنه لا يفرح بها ، بل يندم عليها ويعاقب نفسه على ارتكابها ، وآخر يعتبر ارتكاب المعصية مكسباً فيفرح بها ، ويتحدث عنها ويتباهى بارتكابها .

ومن حيث التحقيق اللغوى لمادة (كسب) ، فإن هذا الفعل يأتى مجرداً (كسب) ، ويدل على الربح فى البيع والشراء ، وعلى العمل يأتى من الإنسان طبيعياً ، لا تكلُّفَ فيه ولا افتعال ، وغالباً ما يُستخدم فى الخير .

ويأتى هذا الفعل مزيداً بالهمزة والتاء (اكتسب) ، ويدل على الافتعال والتكلّف ، وتُستخدم هذه الصيغة فى الإثم ، وأوضحنا هذه المسألة فقلْنا : إن الإنسان حين يفعل الخير يأتى الفعلُ منه طبيعياً تلقائياً ، أما الشر فيتلصص له ويحتال ، ذلك لأن الخير هَيِّن لَيِّن سهل مقبول ، أما الإثم فشَاقٌّ مخجل .

أنت حين تجلس مثلاً بين أهلك ترى زوجتك أو بناتك أو عمتك أو خالتك .. الخ وفيهن الجميلات والحسان ، وأنت تنظر إليهن جميعاً

دون تكلُّف ودون خجل ، لأنه أمر طبيعى ، أما مع غير المحارم ومع مَنْ يحرم عليك النظر إليهن ، فإنك تسرق النظرة وتحتال لها ، حتى لا ينكشف أمرك ، ولا يطلع أحد على نقيصتك .

فإذا جاءت كسب محل اكتسب ، فاعلم أن صاحب المعصية ومرتكب الإثم قد تعوَّد عليه وألفه ، حتى أنه يفعله كأمر طبيعى فلا يخفيه ولا يستحى منه ، بل يجاهر به ، فَعَدّ الاكتساب فى حقه كسباً ، كما فى هذه الآية :

﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ [يس]

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا(١) عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) ﴾

يعنى : كما ختمنا على أفواههم ومنعناهم الكلام لو شئْنا لطمسنا أعينهم يعنى : أغلقناها وسوَّيناها ، بحيث لا يظهر لَها أثر فى وجوههم ، وإذا طمسنا على أعينهم فقدوا البصر ، فكيف يبصرون وهم يسابقون إلى الصراط ؟

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾

---

(١) المطموس والطميس عند أهل اللغة : الأعمى الذى ليس فى عينيه شق . وفى هذه الآية تأويلات : **أحدها** : أن هذا فى الدنيا . قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق

ثانيها : أى أعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم فى منازلهم ولا غيرها . قال القرطبى : وهذا اختيار الطبرى .

ثالثها : أن هذا فى الآخرة . وقد رُوى هذا عن عبد الله بن سلام . وعلى هذا يكون الصراط فى الآية يكون هو صراط يوم القيامة . راجع تفسير القرطبى (٥٦٨٧/٨)

لقائل أنْ يقول : إذا فـقدوا البصر على الصـراط ، فقد تكون لهم بدائل وحيل تُسعفهم ، كأن يتحـسس طريقه بعصا مثلاً ، أو يجد مَنْ يأخـذ بيـده ويرشـده ، فـالحق سـبحـانه وتعـالى يُطوِّقـهم من كل نواحيهم ، ويقطع أملهم فى النجاة ، فيقول : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴿٦٧﴾﴾ [يس]

فـالأمر لا ينتـهى عند العـمى والطمس على الأعـين ، إنمـا هناك ما هو أشد ، أنْ يمسـخهم فى أماكنهم ويجمدهم فيها ، فلا يستطيعون حراكاً .

والمسـخ أنْ يصيروا كالمساخيط لا يتحرك ، أو مسـخناهم يعنى : حوَّلنا صورهم إلى صور قبيحة ، إذلالاً وإهانة لهم .

والمعنى الأول أوجه[1] ، لأنه تعالى قـال بعدها : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يس]

لأنهم تجمدوا فى أماكنهم ، فـلا حركة لهم لا إلى الأمام بالمضىِّ فى الطريق الجـديد الذى هم مُـقـبلون عليـه ، ولا حـتى العـودة فى الطريق الذى جاءوا منه وألفُوه .

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِى الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

---

(١) وهو قول الحـسن البصـرى : أى لأقعـدناهم فلا يسـتطيعون أن يمـضوا أمـامهم ولا يرجـعون وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر . أما المسخ بمـعنى تغيير الخلقة ، ومسـخهم بهائم أو غير ذلك فقد قال به السدى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٧٨/٣)

(٢) النكْس : قلب الشىء على رأسـه ، ونكس رأسـه : أماله قـال أبو إسحق : مـعناه من أطلنا عمـره نكسنا خَلْقه فـصار بدل القوة ضعـفاً ، وبدل الشبـاب هرماً ، وقال شمـر : يقال نكس الرجل إذا ضعف وعجز . [لسـان العرب – مادة : نكس] قلت : علاقة معنى الكلمـة بإمالة الرأس فى نحو ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة] أن العجـز والهرم بسبب إطالة العـمر والهرم يتـسبب فى أن يمشى الإنسـان منحنياً ممـيلاً رأسه خـاضعاً برأسـه إلى أسفل ، وقد يكون مـتكبراً على الله فى حياته . والله أعلم .

الحق سبحانه قد أعـذر بأنه أنذر ، وأعذر لأنه قال لهم لا تعبدوا الشيطان وبيَّن عداوته ، وقال : اعبدونى واسلكوا صراطى المستقيم ، إذن : ليس لهم عـذر حين كـفروا بـالله وأطاعوا الشـيطان وعبـدوه ، لكنهم قد يعتذرون من ناحيـة أخرى فيقولون : يارب أنت أخذتنا ولو عشْنا لاهتدينَا وعُدْنا إلى الصراط المستقيم ، فيرد الله عليهم : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧)﴾ [فاطر]

يعنى : قـد عـمَّـرناكم عـمـراً طويلاً يكفى للتـذكُّـر والعـودة فلم تعودوا ، ثم إن التعـمير يُورث الضـعف والوَهَن وعـدم القدرة ، فأنت فى أول الحياة عندك فتوة وقوة ونشاط بدنى وذهنى ، لكن مع الكِبَر تضعف البنيـة ، وتقلُّ القوة العضليـة والعقلية ، ويعـود الإنسان إلى الضعف الذى بدأ به وهـو طفل صغيـر ، وكما قـال تعالى : ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ..(٧٠)﴾ [النحل]

فإذا كنتم لم تعـودوا ولم ترعووا فى فتـرة القوة وسلامـة العقل والتفكير ، أتعودون فى فترة الهَرَم والضعف والنسيان ؟

لذلك يقول هنا الحق سبحانه : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ (٦٨)﴾[يس] نطيل عمره ونمُـد له فـيـه ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ (٦٨)﴾ [يس] الانتكاس : العـودة إلى الوراء ، والرجوع إلى مـا كنتَ عليه أولاً ، فَطُول العمر يعـود بالإنسان إلى مرحلة الطفولة الأولى ، فهو نكسة فى حقه حين يصير شيخاً هرماً لا يسـتطيع الحـراك ولا الكلام ، وتأخـذ ذاكـرتُه فى الضـعـف فـينسى ويخـرف ، فهو كـالطفل تمـاماً يحـتاج مَنْ يحـمله ويُطعمـه ويُزيل عنه الأذى .. الخ ، فهل فى هذه الحال عودة ؟ وهل ينفع معها تفكُّر وتدبُّر ؟

﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس] يعنى : أين عقولكـم فى هذه المسألة والحق سبحانه يسوقها بأسلوب الاستفهام ، ولا يأتى بها على سبيل

الإخبار ليجيبوا هم ويُقِرُّوا على أنفسهم بعدم التعقُّل .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

نلحظ هنا نقلة فى سياق هذه الآيات ، فما العلاقة التى نقلتنا من الكلام عن الآخرة وجزاء الكافرين المجرمين إلى الحديث عن سيدنا رسول الله ؟

نعرف أن المقاصد الأصلية للتديُّن هى أولاً : توحيد الله ، ومعنى التوحيد لله تعالى أن تشهد أنه واحد أحد ، ولكل من الوصفين معنى لا يؤديه الآخر ، فلكل منهما (ماصدق) ، فمعنى (واحد) أى : من حيث الوجود هو واحد لا فرد آخر معه .

أمَّا أحد فيعنى أنه فى ذاته سبحانه ليس مُكوَّناً من أجزاء ، فالإله أحَد فى ذاته ، لم تجتمع عدة أشياء فى تكوينه ، ذاته لا ترتكن إلى شىء ، فمثلاً حين تأخذ الشىء الواحد كالكرسى مثلاً ، الكرسى فى وجوده كرسى واحد ، لكنه ليس واحداً ، لأنه مُكوَّن من عدة أشياء ، مُكوَّن من الخشب والمسامير والغراء و (البوية) .. الخ فهو واحد ليس أحداً ، أما الحق سبحانه فلاَ بُدَّ أنْ يُوصفَ بالوصفين معاً ، فنقول : هو سبحانه واحد أحد ؛ لأن لكل منهما معنىً .

ومسألة الواحدية مسألة عملية عقلية ؛ لأن الله تعالى أعلن أنه الإله الحق ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنه هو الخالق وحده ، وهو الرازق ، وهو الذى يستحق وحده أن يُعبدَ ، هذه دعوى لم يَقُمْ لها معارض ، والدعوى تثبت لصاحبها إلى أنْ يدَّعيها آخر ، ونحن لم نَرَ أحداً ادَّعَى الخَلْق لنفسه .

فلو كان معه سبحانه إله آخر أو آلهة أخرى فأين هم ؟ لماذا لم يطالبوا بحقهم فى هذه المسألة ؟ أو أنهم سكتوا عنها أو لم يَدْرُوا بها ؟ وعلى أيِّ حال من هذه الأحوال لا يصلحون لأَنْ يكونوا آلهة ؛ لذلك يناقش القرآنُ هذه المسألة بكلام منطقى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فالتوحيد هو الأساس الأصيل للدين ، لكن لا أعرف بالعقل مطلوبَ الإله منى ، لابُدَّ أن يُبعَث لى رسول يخاطبنى بمطلوب ربى منى ، إذن : لا بُدَّ من رسول . وهذا هو المقصد الثانى للدين . وخطاب الحق للخَلْق طاقة كمال مطلق والبشر نقص مطلق ؛ لذلك لابُدَّ فى هذا الخطاب من واسطة تستطيع التلقِّى عن هذا الكمال المطلق ، وتستطيع التبليغ إلى الأقل كمالاً ، وهكذا تتدرج المسألة ، فالله تعالى يخاطب الملائكة ، والملائكة تخاطب الرسل ، والرسل يخاطبون الناس.

فلا بُدَّ من (الرسالة) وهى المقصد الثانى للدين ، والرسول هو الواسطة بين الخالق والخَلْق ، والرسول ليس مُبلِّغاً فحسب ، إنما مُبلِّغ وأُسْوة سلوك وتطبيق ، كما قال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] ولو كان الرسول مَلَكاً لما تحققتْ به الأسوة ، ولا يمكن أن أُحمل على مطلوب الرسول إلا إذا كان الرسول من جنسى .

لذلك يقول تعالى موضحاً هذه القضية : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾[الإسراء] فيأتى الرد (قُلْ) أى رداً عليهم : ﴿ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : كيف نُنزل ملكاً لبشر ؟ لو نزل الملكُ على طبيعته النورانية ما رآه البشر ، ولابُدَّ أن يأتيهم فى صورة بشرية ، ولظلَّتْ الشبهة قائمة : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾ [الأنعام]

فلا بد - إذن - من وسائط هى أشبه ما تكون بـ (الترانس) فى عالم الكهرباء ، وهو أداة تأخذ من القوى وتعطى للضعيف دون أنْ تحرقه .

العنصر الثالث للدين هو الحشر ؛ لأن الرسالة جاءتْ لتحمل المنهج : افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا المنهج من الناس مَنْ سيسير عليه فيفعل ما أمر به وينتهى عما نُهى عنه ، ومنهم مَنْ سينصرف عنه بل ويخالفه ، إذن : لابُدَّ من مَرَدٍّ يُثَاب فيه المطيع ، ويُعاقَب فيه المخالف ، هذا المردُّ هو الحشر .

فالحق سبحانه تكلم عن التوحيد فى قوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ ﴾[يس] وتكلم عن الحشر فى قوله سبحانه : ﴿ هَـٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ ﴾ [يس]

والآن يتكلم عن العنصر الثانى وهو الرسالة فنقول عن رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۝٦٩ ﴾[يس] أى : نحن لا المجتمع ولا البيئة التى يعيش فيها ؛ لذلك كانت الأمية فى رسول الله شرفاً ؛ لأنه لو لم يكُنْ أمياً لكانت ثقافته من الخَلْق .

أمَّا أميته فتعنى أنه أخذ ثقافته وعلمه من الله ؛ لذلك كان من شرفه ﷺ أن يكونَ أمياً ، ومن شرف أمته أنْ تكون أمية ، لأنها لو كانت أمة متعلمة لقيل إن ما حدث فى الجزيرة العربية ما هو إلا قفزة حضارية ، كما قالوا : لَمّا نصرنا الله فى حرب رمضان ورأينا

بأعيننا تأييد الله لنا ، ومع ذلك قالوا : نَصْرٌ حضارى .

فالحق سبحانه يقرر هذه الحقيقة : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] لَـكِنَّا علمناه غير الشعر ، فرسول الله مُعلَّم نعم ، لكن مُعلَّم مِنْ مَنْ ؟ من ربه ، لم يأخذ شيئاً من البشر .

وقد يُظَنُّ أن الله لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأن الشعر يحتاج إلى ثقافة لغوية وعِلْم بالأوزان والقوافى ، ولا بُدَّ له من الحسِّ المرهف والأذن الموسيقية إلى آخر هذه الأدوات التى يحتاجها الشاعر وربما لم تتوفر هذه الأدوات لرسول الله كما أنها لم تتوفر لكثيرين غيره .

فيرد الله تعالى هذا الظن ، ويقول :﴿ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] يعنى: لم نُعلمه الشعر لنقص فى إمكانياته ، فلو أراد أنْ يقول شعراً لَقَالَ الشعر على أحسن مَا يُقَال ، لكن لا ينبغى له ذلك ؛ لأن مهمة الرسول خلاف مهمة الشاعر ، فأغلب الشعر فى الكذب وفى الشر ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ ، ذلك لأن طبيعة الشعر أن ينطلق ويُحلِّق فى الخيال ، وأن يقول الشاعر ما يحلو له أياً كانت غايته ؛ لذلك قالوا : أعذب الشعر أكذبه .

وكثيراً ما نرى الشعراء أصحاب القيم والأخلاق يصعب عليهم الجمع بين مطلوب الإيمان منهم ، وما تدعوهم إليه مَلَكة الشعر عندهم ، فلا يملكون إلا أنْ يحصروا أنفسهم فى شعر القيم والأخلاق والفضائل ، ويبتعدوا عن شعر الهجاء والغزل .

والشاعر المهجرى الذى عُرِف عنه التقوى والصلاح ، فحاول أنْ يجمع بين هذه التقوى والموهبة الشعرية لديه ، فقال :

مَوْلاَى إنِّى قَدْ عَصَيْتُكَ عَامِداً   لأَرَاكَ أَجْمَلَ مَا تكُونُ غَفُوراً
وَلَقَدْ جَنَيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ كِبَارَهَا   ضَنّاً بِعَفْوِكَ أَنْ يَكُونَ صَغِيراً

فأجاد فى الأولى ، ولم يُوفَّق فى الثانية .

وسيدنا حسان بن ثابت ، كان شاعراً مجيداً فى الجاهلية ، فلما أسلم قالوا له : لاَنَ شعرك يا أبا الحسام . فقال : الشعر نكِد يَقْوى فى الشر[1] ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ (٦٩) ﴾[يس] دفع عن رسول الله الاتهام بأن طبيعته ليست شاعرية ، أو أنه غير مُرْهف الحس ، وأن أذنه غير موسيقية ، إلى آخر هذا الهراء ، وكيف يُتَّهم بهذا مَنْ علَّمه الله ، وباشرتْ أذنه الوحى ؟

أما القول بأن رسول الله ﷺ قد أنشد الشعر ، نعم أنشد رسول الله الشعر ، لكن لم ينشده مستقيماً ، بل خالف فيه حتى لا يظلَّ البيتُ على استقامة وزنه ، فلما أنشد[2] :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

قال :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيأْتيكَ مَنْ لَم تُزوِّدِ بِالأَخْبَارِ[3]

وورد أنه ﷺ قال[4] : « أصدق كلمة قالها لبيد :

---

(١) ذكر ابن قتيبة الدينورى فى « الشعر والشعراء » هذه القولة من قول الأصمعى . ثم ذكر حسان بن ثابت فقال : هذا حسان بن ثابت فَحْل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(٢) عن عائشة قيل لها : هل كان النبى ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويتمثل ويقول : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٤٨) ، وأحمد فى مسنده (١٥٦/٦) .

(٣) كان رسول الله يتمثل بهذا البيت ولا يقيم وزنه ، وهو بيت لطرفة بن العبد ، وقال أبو عبيد بن سلام فى كتاب « الأمثال » : روينا فى حديث مرفوع أنه ﷺ تمثل به فقال : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار »

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٥٦) كتاب الشعر (روايات ٢- ٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ألاَ كُلُّ شىءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وكُلُّ نَعيمٍ زَائِلٌ لاَ مَحَالَةَ

والصواب :

ألاَ كُلُّ شىءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ وكُلُّ نَعيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

إذن : كان سيدنا رسول الله يكسر وزن البيْت ، حتى لا يقال إنه أنشد الشعر ، مع أن الله تعالى قال : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩)﴾[يس] لكن لم يَنْه رسول الله عن إنشاده ، فكأن رسول الله يحتاط للأمر ، فيقول ولا أنشده أيضاً ، ليكون بعيداً عنه كلية .

هذا عن الإنشاد ، أما عن قوله الشعر بنفسه ، فيرى البعض أنه ﷺ قال شعراً مثل قوله فى غزوة حنين[1] :

أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِب أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب

نعم جاء هذا القول من رسول الله موافقاً لوزن شعرىٍّ يسمونه الرَّجز ، فهو قول صادف وزناً شعرياً وفرْق بين نَظْم الكلام وإخضاعه للوزن والقافية ، وبين كلام يصادف وزناً دون قصد ، وإلا ففى القرآن نفسه آيات صادفت وزناً شعرياً ، فهل نقول إنها شعر ؟ واقرأ مثلاً :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ (٣٢)﴾ [يوسف]

﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩)﴾ [الحجر]

هذه وغيرها آيات صادفت وزناً شعرياً ، لكنها لا تُسمَّى شعراً ؛ لأن الشعر قول موزون مُقفًّى قصداً .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخارى فى صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب ، وذلك أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال البراء: ولكن رسول الله لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان ابن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

الحق سبحانه حكى عن رسوله أن الكفار اتهموه فقالوا : ساحر وشاعر وقالوا : كاهن ، لكن القرآن رَدَّ عليهم فى مسألة الشعر ، ونفى أن يقول الرسول شعراً : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴿٦٩﴾﴾[يس] ولم يَنْفِ عنه السحر ولا الكهانة ، لماذا ؟

قالوا : لأن مهمة رسول الله بلاغ القرآن عن الله ، والقرآن من جنس الأساليب الراقية ، وأقرب شىء إليه الشعر لذلك نفاه القرآن ، أما السحر فطلاسم وكلام لا معنى له ، فلم يَقُلْ : وما علمناه السحر .

ولو أن لهذه الكلمة مدلولاً لكان الرد عليها سهلاً ، فإذا كان محمد ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، إذن : تكذيبكم له وكفركم به أدلُّ شىء على أنه ليس ساحراً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر .

وفى قولهم كاهن ردٌّ عليهم : ﴿وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة] لأن قَوْلَ الكاهن كلام مسجوع سَجْعاً بارداً ، والقرآن خلاف هذا كله ، ثم إنكم أهل فصاحة وبيان ، وأنتم أعلم الناس بالأساليب والتمييز بينها ، فهل يخفى عليكم أنْ تفرقوا بين القرآن وغيره من الكلام وأنتم أمة كلام ، وتجعلون للكلمة أسواقاً ومعارض ؟

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى عدم قول الرسول للشعر ، فيقول سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾[يس] إن هنا بمعنى ما النافية . يعنى : ما هذا القرآن إلا تذكير لمن يعقل وقرآن مبين . أى : بيِّن واضح يُتلَى ، وقد يكون له نَغَم ألذّ فى أذن الورَع من الشعر ، لذلك بعض الناس يسمع القرآن فتأخذه نشوة وإعجاب ، ولو سألته تجده لا يعرف ما يحدث له ، لماذا ؟

قالوا : لأن الذى يتكلم الله ، والذى يسمع خلق الله ، فالله تعالى

يتكلم بالكلام الذى يؤثر ويستميل المخلوق لله الذى ما يزال على فطرته التى فطر الناس عليها ، فإنْ خرج عن هذه الفطرة لم يؤثر فيه القرآن هذا التأثير ، ذلك لأن القرآن واحد أمَّا الفطرة المستقبلة فتختلف .

والحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ⦗١٦⦘﴾ [محمد] فأمره الله أنْ يردّ عليهم : ﴿قُلْ هُوَ ⦗٤٤⦘﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ⦗٤٤⦘﴾ [فصلت]

ذلك لأن فاعلَ الشىء غير قابله ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بكوب الشاى الساخن تنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة ، لكن المستقبل لها مختلف ، كذلك حال الناس فى تلقِّى القرآن ، فمَنْ تلقى كلام الله بفطرة سليمة فهمه وتأثر به ، ومَنْ تلقى كلام الله وهو منشغل عنه أُغْلِق عليه ، فلم يفهم عن الله ولم يتأثر بكلامه .

لذلك نرى بعض الناس من غير العرب لا ينطق بكلمة عربية ، لكنه ساعة يسمع أو يقرأ كلام الله تجد له انفعالَ مواجيد ، وتدمع عيناه ، لماذا ؟ لابد أن شيئاً فى تكوينه تأثر بهذا الأسلوب .

وإذا كان الحق سبحانه أوحى إلى الجماد فانفعل لكلامه ، وأوحى إلى الحيوان ففهم عنه ، فمن باب أَوْلَى يكلم الإنسان العاقل بكلام يصادف طبيعته ويؤثر فيه ، فيتأثر وينفعل .

ثم يقول سبحانه مبيِّناً مهمة هذا الذِّكْر وهذا القرآن المبين : ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ⦗٧٠⦘﴾[يس] نعم ، سماهم أحياء وخطابك لهم دليل على أنهم أحياء ، لكن أحياء الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، إنما

هناك حياة أخرى بالعقل والفكر وبالقيم الروحية ، وهذه لا يظهر أثرها إلا بعد الموت .

والناس جميعاً يشتركون فى الحياة المادية ؛ لذلك يُسمَّى العنصر الذى يدخل على الحياة المادية لتأخذ طابع الحياة الروحية (الروح) ، فالروح روح من أمره سبحانه ، وبعد أنْ يعطيه الروح التى تحيا بها المادة يعطيه الروح التى تحيا بها القيم ، وحياة القيم قُلْنا : إنها ترتقى بك لتعطيك قيمة فى الآخرة ، وقد تعطيك فى الدنيا راحة البال واستقامة واستقراراً ، لكن تظل الحياة الحقيقية فى الآخرة .

فإذا شاء الله أُعْطى الإنسانُ حياةً موصولة كما أعطى سيدنا يحيى ، فلما دعا سيدنا زكريا ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم]

فأجابه الله : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم]

إذن : بشَّره الله بالغلام ، وسمَّاه اسماً يدل على أنه سيعطيه حياة موصولة ؛ فحين تسمى ولدك ذكى مثلاً تفاؤلاً أن يكون ذكياً ، أو نبيل تفاؤلاً أن يكون نبيلاً ، لكن أتملك أنت أنْ تحقق رغبتك هذه .

لذلك قال الشاعر :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيحْيَا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

نعم ، أنت سميتَ ، لكنك لا تهب الحياة ، وواهبُ الحياة هو الله ، فإذا سَمَّى الله يحيى فلا بُدَّ أن يحيا حياة موصولة ؛ لذلك مات سيدنا

يحيى شهيداً ، لتتصل حياته الدنيا بحياة الآخرة ، وليحقق فيه ما أراده الله .

ومعنى : ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[يس] أى : يستحق لهم العذاب ؛ لأنهم لم ينتفعوا بالإنذار .

ثم يتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن بعض آياته فى الكون :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

هنا نقلهم الحق سبحانه إلى مجال المادة التى لا يستطيعون إنكارها ، وقلنا : إن الرؤية فى ﴿أَو لَمْ يروا ﴿٧١﴾ ﴾ [يس] يصح أن تكون رؤية بصرية أو رؤية علمية ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا ﴿٧١﴾ ﴾[يس] قوله ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴿٧١﴾ ﴾[يس] ينفى المشاركة يعنى : هذه صنعتنا وخَلْقنا لم يشاركنا فيه أحد ، ولم يعاونَّا فيه أحد ، بل هو خَلْق لله وحده .

وكلمة ﴿أَنْعَامًا ﴿٧١﴾ ﴾[يس] هى الأنعام التى ذُكرت فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وهى البقر والإبل والغنم والماعز ، وسميت أنعاماً لأنها النعمة

البارزة فى أشياء متعددة ، ننتفع بها فى حياتنا ، فنأخذ منها الصوف والوبر والجلود والألبان ، ونحمل عليها الأثقال ، وهذه كلها نعَم واضحة فى البيئة العربية .

ثم إن خَلْق الأنعام فى ذاته نعمة ، وقوله سبحانه ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)﴾[يس] نعمة أخرى ؛ لأن هناك حيوانات أخرى متوحشة لا تُملك إلا بالصيد وبالقوة ، وهى قليلة النفع إذا ما قُورنت بالمستأنسة التى ينتفع بها الإنسان ، فيسوقها ويركبها ويحلبها .

ثم نعمة التذليل ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (٧٢)﴾[يس] وإلا فإذا خلقها الله ولم يُذلِّلها ما استطاع الإنسانُ تذليلها ، ولا الاستفادة منها ، فالجمل مثلاً رغم ضخامة حجمه وقوته ، إلا أن الطفل يسوقه ويُنيخه ويركبه ، كيف ؟ لأن الله ذَلَّله وسخَّره ، أما الثعبان فمع صغَر حجمه إلا أننا نخافه ونهرب منه ؛ لأن الله لم يُذلِّله لنا ، بل البرغوث فى الفراش يشاغبك ويقلقك ، وليس لك سلطان عليه .

إذن : فخَلْق هذه الأنعام فى ذاته نعمة ، وتملُّكها نعمة ، وتذليلها نعمة ، وهذه النِّعم للمؤمن والكافر على السواء ، لأنها من عطاء الربوبية . إذن : كان عليهم أن يحترموا هذه ، وأن يسألوا أنفسهم : كيف نكفر بالله وهو يوالى علينا كل هذه النِّعَم ، وليت الأمر يقف عند كفرهم هم ، إنما يتعدى ذلك حين يمنعون الرسل من نَشْر دعوتهم .

وقوله سبحانه : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ (٧٢)﴾[يس] أى : ما يُركب من الدواب . وركُوب مثل قولنا : شاة حَلُوب يعنى : تُحلب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾[يس] أى : من لبنها وهى حَيَّة ، واللبن نأكل منه الجبن والزبدة .. الخ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ (٧٣)﴾[يس] مشارب جمع مشرب . والمراد القِرْبة التى كانوا يشربون بها ، وتُصنع من جلود

هذه الحيوانات أو يُراد بالمشارب ما يُشرب من ألبانها ، واللبن وإنْ كانِ يُشرب من الأنثى إلا أن الذكر سبب فيه ، فلولا أنها حملتْ ما كان منها اللبن .

ثم تُختم هذه النِّعَم بقوله سبحانه ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[يس] هكذا بأسلوب الاستفهام ليجيبوا هم ، فالله لا يقول لهم : اشكرونى على هذه النِّعم إنما يقررهم : أهذه تستوجب الشكر أم لا ؟ ثم لو شكرتم فسوف تتعرضون لعطاء آخر وزيادة :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

إذن : كان يجب عليهم أن يشكروا الله على نعَمه ، وأن تدعوهم هذه النِّعَم إلى الإيمان بهذا الإله المنعم الذى يُوالى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ولِمَ لا والإنسان حينما يكون موظفاً يتقاضى أجره كل شهر من صاحب العمل لابُدَّ أن يُحيِّيه كل يوم ويتودد إليه ، فالمنعم بكل هذه النعم أفلا يستحق أن يُعبد وأنْ يُشكر ؟

وليت الأمر ينتهى بهم عند حَدٍّ عدم الشكر ، إنما يحكى القرآن عنهم فيقول :

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

عجيبٌ أن يحكى القرآن عنهم هذا بعد أن شرح اللهُ لهم آياته التى تثبت وجوده الأعلى ووحدانيته الكبرى ، ففى الآفاق حول الإنسان آيات ، وفى نفسه آيات ، فمَن انصرف عن الأولى أو غفل عنها ، فكيف يغفل عن الأخرى ، وهى فى نفسه وذاته التى لا تفارقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومع ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً (٧٤) ﴾[يس] أى : عبدوها من دون الله ، لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) ﴾[يس] صحيح أن الإنسان يتخذ إلهاً أعلى منه لينصره فى شدته ، لكن إذا كان هذا الإله الذى ترجع إليه فى الشدة هو الذى يرجع إليك ويحتاجك ؛ لتصلحه إنْ كسرتْه الريح ، أو أطاحت به العوارض ، فإن وقع تقيمه ، وإنْ كُسرت ذراعه أصلحتها ، وإنْ جاء السيل جرفه ، وألقى به فى الوحل ، إذن : كيف يُتَّخذ هذا إلهاً ؟

وتعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما حطم الأصنام سأله قومه : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَـٰإِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أوقفهم نبى الله إبراهيم على كلمة الحق التى لا يستطيعون إنكارها ، وهى أنهم جمادات صمَّاء لا تنطق ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] لكن سرعان ما تنبهوا إلى خطورة هذا الاعتراف ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من المكابرة والعناد ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء] عندها رأى إبراهيم أنْ يجابههم بهذه الحقيقة التى يحاولون الانفلات منها ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك يرد الله عليهم : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾[يس] فهم لا ينصرون عابديهم ، إنما العابدون هم الذين ينصرونهم ، ويوم القيامة سيجمعهم الله معاً ، لا يُحشر العابد بدون المعبود لتكون المواجهة ، فلو حُشِر العابد وحده لانتظر معبوده

ينصره ويدافع عنه ، إنما يُحشَر الجميع معاً ، كما قال سبحانه : ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)﴾ [الصافات] أى : أحضروهم معهم فى النار ، العابد والمعبود ، والمعنى أن هذه الأصنام ستكون وقوداً للنار التى يُعذَّب بها العابدون .

وبعد ذلك يعود السياق إلى رسول الله ، الذى يكابرون فيه ويعاندونه :

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ﷺ ويُطيِّب خاطره ، والتسلية لا تكون إلا من مُسلٍّ لمسلًّى ، المسلِّى هو الذى أرسل المسلَّى ، فلابد أن يجامله حتى فى الشدة ، وسنة الله فى الرسل جميعاً أن الله ما أرسل رسولاً وخذله أبداً ، وما كانت الشدة فى رحلة وموكب الرسالات إلا تصفيةٌ لنفوس المؤمنين ، وتمحيصاً لهم ، وتصحيحاً للعقيدة ، حتى لا يبقى إلا المؤمن الحق الذى يتحمل مسئولية الرسالة والدفاع عنها .

لذلك يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٧٦)﴾ [يس] لا تحزن يا محمد ، والحزن : أسف النفس على عدم تحقيق ما يتمنى الإنسان وطُروء ما يفسد ، فإنْ حَزِن رسول الله وانقبضتْ نفسه ، فمَنْ يُسلِّيه ؟ ومَنْ يُخفِّف عنه ؟ يُسلِّيه الذى أرسله ؛ لأنه سبحانه يحصى عليهم كل شيء ، ويعلم ما يُسرُّون وما يعلنون .

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)﴾ [يس]

لكن ، ما الذى أسَرَّهُ هؤلاء ؟

الذين واجهوا رسول الله كانوا قسمين : قسم واجهه بشجاعة ، فأعلن بلسانه ما فى قلبه من أنه لا يؤمن به ، وهؤلاء هم الكَفَرة ، وقسم آمن بلسانه وكتم الكفر فى قلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ، فمعنى ﴿مَا يُسِرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾[يس] أى : من النفاق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الكفر . أو﴿مَا يُسِرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الإيمان الحقيقى بك ، وأنك رسول وأمين وصادق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس] من الكفر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾﴾ [النمل]

بدليل أنهم لم يُكذِّبوا القرآن ، ولم يعترضوا عليه ، إنما اعتراضهم أنْ ينزل على محمد بالذات ، لذلك قالوا كما حكى عنهم القرآن : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

وبدليل أنهم كانوا يأتمنون رسول الله على ودائعهم وأماناتهم ، هذا كله دليل على إيمانهم برسول الله ، لكنهم مع ذلك أعلنوا كلمة الكفر خوفاً على السلطة الزمنية والمنزلة والسيادة والجبروت ، وقد جاء الدين الجديد ليسلبَ منهم هذا كله ، ويُوقف تسلُّطهم على الضعفاء وعلى الفقراء .

إذن : لا بُدَّ أن يصادموا رسول الله ، وأن يقفوا فى وجه دعوته ، بكل قواهم رغم إيمانهم بصدقه فى قرارة أنفسهم ؛ لذلك كانوا فى المدينة يستعدون لتنصيب ملك منهم[(١)] فلما دخلها رسول الله واجتمع الناس عليه انفضَّتْ مملكتهم ، وزَالتْ قبل أنْ تُولد ، ذهبت السلطة الزمنية التى كانت للكفار كما ذهبت السلطة من أيدى اليهود ، وكانوا أهلَ العلم وأهلَ المال وأهلَ القتال ، ذهب كل هذا يوم علَتْ كلمة الإسلام .

---

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢١٦) أن قوم ابن أبى أُبيٍّ قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فامتلأ قلبه حقداً وعداوة ، ودخل فى الإسلام كارهاً منافقاً حاقداً .

أو : يُرادُ بما يُسرُّون وما يعلنون أن عمل الإنسان حصيلة أمرين : شيء أو حاجة تختمر في النفس تُعَدُّ سراً وعقيدة تدفعه إلى العمل فإنْ ترجمَتْ إلى عمل وبرزتْ للوجود صارتْ علانية ، وعليه يكون المعنى : نعلم ما يُسِرُّون من عقائدهم الفاسدة ، وما يعلنون من فِعْل القبائح .

لكن أيمتنُّ الله بعلم الشيء دون فائدة من وراء هذا العلم ؟ المسألة لا تنتهي بمجرد العلم ، إنما لابُدَّ أنْ يترتب على هذا العلم جزاءٌ يعاقب الكافر العاصي ، ويُثيب المؤمن المطيع ، إذن : تدبَّروا أمركم ، واحذروا ما يترتب على هذا العلم من آثار ؛ لأن علم الله ليس (فنطزية) علم ومعرفة .

لذلك قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٦٥﴾﴾ [يونس] البعض فهم أن كلمة ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٦٥﴾﴾ [يونس] هي قول الكافرين ، لكن كيف يقولها الكافر ، ليتهم قالوا إنما قالها الله تذييلاً لقوله : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس] لماذا ؟ لأن العزة لله جميعاً .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن آياته في الآفاق في الأرض وفي الشمس والقمر والفُلْك والدواب والأنعام يتكلم سبحانه عن آياته في النفس الإنسانية ، فإذا كانت الآيات في الآفاق من حولهم لم تلفتهم إلى الله ، فهذه هي آياته في ذات أنفسهم التي لا تفارقهم :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

قوله سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس] بمعنى يعلم لأن الإنسان لم يَرَ عمليـة الخَلْق فى نفسه ، فإنْ قلتَ : فـمَن الذى أعلمه ؟ ومَن الذى عرَّفه أن الله هو الخالق ؟ قالوا : عرف الإنسانُ هذه الحقيقة ؛ لأن فى الكون كمـالاً لم يدَّعه أحدٌ من الخَـلْق ، ثم فوجئت الدنيـا برسول الله يخبر بأن الله تعالى هو الخالق ، ولم يعـارض أحد ، فهذه إذن دَعْوى ليس لهـا معارض ولا مناهض ، مع أن الإنـسان كثـيراً مـا يدَّعى ما ليس له ، لكن هذه الدعوى بالذات لا يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه .

والقاعدة أن الدعوى تثبت لصاحـبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، وإلا لو أن هذه الدعـوى لم تسلم للخالق عـز وجل ، فأين الخـالق ؟ لماذا لم يعـارضـها ، ولمـاذا لم يطالب بحقـه فى الخَلْق ؟ إما أنه جَـبُنَ عن المواجهة ، أو أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً .

ونلحظ على سـياق هذه الآيات أن الحق سـبحانه قـال فى الآيات السابـقة : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾[يس] وهنا قال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴿٧٧﴾﴾[يس] فخاطب الإنسان ، ولم يخـاطب الجـمـاعـة ، قـالوا : لأن هذه الآية نزلـت فى أُبَىٍّ بن خلف[1] حين أمـسك بعظم بَالٍ ، وراح يُفتِّـته أمام رسـول الله ويقول : أتزعمُ أن ربك يحيى هذا مرةً أخرى ؟ قـال : « نعم يُحييك ، ويُدخلك

---

(١) وردت روايات عدة فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها :
- نزلت فى أبىّ بن خلف . وهو قول مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة .
- نزلت فى العاص بن وائل . وهو قول لابن عباس .
- نزلت فى عبد الله بن أبىّ بن سلول . وهو قول لابن عباس . قـال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٨١) عن القول الأخـير : « هذا منكر ، لأن السـورة مكية وعبـد الله بن أبىّ بن سلول إنمـا كان بالـمدينة ، وعلى كـل تقدير سـواء كـانت هذه الآيات قـد نزلت فى أُبىّ بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث » .

النار » ، أو يُراد بالإنسان مطلق الإنسان ، فهى لكل مُكذِّب بالبعث ممَّنْ هم على شاكلة أُبيّ .

وقوله سبحانه : ﴿مِن نُّطْفَةٍ (٧٧)﴾[يس] العلم التجريبى لم يصل إلى شىء فى مسألة الخَلْق هذه إلا مؤخراً ، يحاول على استحياء كشف بعض أسرار خَلْق الإنسان مما لم نكُنْ نعرف عنها شيئاً من قبل ، والنطفة هى الجوهر والميكروب أو الجرثومة الفعَّالة التى تسبب الإخصاب حين تصل إلى البويضة ، وهذه النطفة تسبح فى سائل هو المنى وتعيش فيه ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة]

وقد أثبت العلم التجريبى الحديث أن النطفة هى المسئولة عن تحديد الذكورة أو الأنوثة ، والبويضة ما هى إلا وعاء فقط . إذن : لا دَخْلَ للمرأة فى هذه المسألة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة] أى : من النطفة ، وقلنا : إن من العجيب أن المرأة العربية قديماً فطنَتْ إلى هذه الحقيقة التى لم يتوصّل إليها العلم إلا حديثاً .

أما حديث النبى ﷺ فى هذه المسألة : « إذا غلب ماءُ الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا غلب ماء المرأة نزع الولد إلى أمه»[1] فهموا من هذا الحديث أن تحديد الذكورة أو الأنوثة يتوقف على الماء الذى يسبق ، لكن حين نتأمل اللفظ نفسه ، فكلمة (غلب) تدل على

(١) هذا الحديث جواب من رسول الله على سؤال من عبد الله بن سلام : ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال ﷺ : « أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » . فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) من حديث أنس . وعند مسلم فى صحيحه (٣١١) كتاب الحيض من حديث أم سليم : « إن ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه » .

الغلبة والسباق ، والسباق لا يكون إلا لعناصر تخرج من نقطة واحدة ، وتنطلق فى اتجاه واحد ، إذن : فهما غير متقابلين ، فمعنى يغلب يعنى يسبق .

وقلنا : إنهم الآن تنبهوا إلى أن البويضة حين تخرج من المرأة تُحدث تغييراً كيماوياً فى تكوين المرأة يُسبب ارتفاعاً فى درجة الحرارة وتغيُّراً فى المزاج وفى نبضات القلب ؛ لذلك اخترعوا ساعة تقيس هذه التغييرات ، وتعرف بها المرأة موعد نزول البويضة .

والنطفة ميكروب متناه فى الصِّغر ، لا يُرىَ إلا بالمجهر ، ورحم الله العقاد[1] الذى قال كلمة موجزة تصور هذا الصِّغَر ، فقال : إن أنسال العالم كله - يعنى النطف التى كوَّنتهم - يمكن أن توضع فى نصف كُسْتبان الخياطة . فسبحان الخالق الذى يُخرِج من هذه النطفة المتناهية الصِّغر إنساناً كاملاً ، ويُنشىء منها العظام الصلبة والعضلات نصف الصلبة والرَّخْوة ، وأنشأ منها الغضاريف والأعصاب والدم السائل والمخ .. الخ .

هذا فى الجسم المادى ، والأعجب منه ما يحتويه هذا الجسم من العقل الذى يفهم ، واللسان الذى ينطق ويتذوق ، والعين التى ترى ، واليد التى تبطش ، والأنف الذى يشم ، والأنامل التى تلمس ، والرِّجْل التى تسعى .

هذه كلها من النطفة ، هذا الميكروب الذى لا يُرى بالعين المجردة ، هذه النطفة التى عبَّر عنها القرآن بالماء المهين ، مهين لأن

(١) هو : عباس محمود العقاد ، إمام فى الأدب ، من المكثرين كتابة وتصنيفاً ، أصله من دمياط ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى وكان أحدهم يعمل فى « عقادة » الحرير ، فعرف بالعقاد . أمه كردية . ولد عام (١٨٨٩ م) فى أسوان ، توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤م عن ٧٦ عاماً ودُفن بأسوان . [الأعلام للزركلى ٣/٢٦٦]

الإنسان يتبوله ويخرج من مجرى البول ، ويُلقى فى دورات المياه مع القاذورات ، وإن أصاب ملابسك لا بُدَّ أن تُغسل . ومن هذا الماء المهين يُخْلق الإنسان ، بل ويصل إلى أعلى مراتب الطغيان والجبروت ، كيف ؟

قالوا : لأن الإنسانَ له صفات حسنة فى ذاته ، ومواهب يحب أن يظهرها ، فإنْ كان مع أحبابه أعجبه شكله الجميل أو ماله أو ذكاؤه .. الخ ، فيحاول أن يُبيِّن هذه المواهب لهم ، فإذا عُودى كانت له مواهب أخرى فى أعدائه ، ومع العدو يُجنِّد الإنسان كل مواهبه لينتصر على عدوه ، هذه مواهب فى الغضب وفى الخصومة والجدال .

لذلك قال أحدهم :

وكم مِنْ نِعْمَةٍ لله فِىَّ حَمَدْتُها يُجَمِّعُها فِىَّ مَوَاهِبُ ثلاث

أولاَهُما لِنَفْسى وثانيتهما لأحْبَابى وأصْحَابى وثالثهما لخصْمى

هذا كله معنى ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يعنى : بعد أنْ خلق الإنسان من هذه النطفة ومن هذا الماء المهين فوجئنا بأنه ﴿ خَصِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يعنى : عدو لدود ﴿ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يعنى : يبين عن مواهب العداء عنده إبانةً واضحة ، والإنسان لا يكون مُبيناً لغيره إلا إذا بَانَ الشيء فى نفسه هو ؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فالمدرس الفاشل هو الذى لا يستطيع أن ينقل المعلومة لتلاميذه ؛ لأن المعلومة غير واضحة عنده ، ولو كانت المعلومة واضحة فى ذهنه لاستطاع أنْ ينقلها بأىِّ أسلوب .

إذن : المعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] يُحسن الإبانة عَمَّا فى نفسه ؛ لذلك تقول : أبنتُ لك لأنها بانت عندى ، وأعلمتُك لأنها عُلمت عندى ، وأفهمتُك لأننى فهمتُ ، فهما إذن موهبتان ، والإنسان ترتقى مواهبه ويجند كل صفاته فى الخصومة لا يدخر شيئاً منها ، ففى الخصومة

يُظهِر ما عنده من المال أو الشجاعة أو الحيلة .. الخ .

وعجيبٌ أن هذا كله كامن فى النطفة ، وعجيبٌ أيضاً أن ينقل الإنسانُ هذه الخصومةَ من ذات نفسه ، ومن خصومته لأعدائه إلى خصومة ربه وخالقه .

لذلك قال تعالى بعدها مُصوِّراً هذه الخصومة لا مع أُبَىٍّ سبب نزول الآيات ، إنما مع كل مَنْ هو على شاكلة أُبَىٍّ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

تحدَّثنا عن ضرب المثل وقُلْنا : الضرب إيقاع جسم على جسم بعنف ، ويُشترط فيه أن يكون الضاربُ أقوى من المضروب ، وإلا كانت النتيجة عكسية ، ومن ذلك قول الرافعى[1] رحمه الله :

أَيَا هَازِئاً مِنْ صُرُوفِ القَدَرِ ... بِنَفْسِكَ تَعْنُفُ لاَ بِالقَدَرْ

وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَرْ ؟

كذلك ضَرْب المثل هو إيجاد شىء يُوقع على شىء ، ليبين لك الأثر الحاسم الفعَّال ، فحين تشكّ مثلاً فى شىء يُوضِّحه لك بمثَل لا تشك فيه ، فيُقرِّبه إلى ذهنك ، ومن ذلك قوله تعالى لما أرادَ أنْ

---

(١) هو : مصطفى صادق الرافعى ، عالم بالأدب شاعر ، أصله من طرابلس الشام ، ومولده فى بهتيم بمنزل جده لأمه (عام ١٨٨١م) وتوفى بطنطا عام (١٩٣٧م) ، شعره نقى الديباجة فى أكثره ، ونثره من الطراز الأول ، له « وحى القلم » ، « ديوان شعر » ، « تاريخ آداب العرب » .

يُوضِّح لنا بطلان الشرك ، والفرق بينه وبين التوحيد ، قال سبحانه :
﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً[1] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

نعم ، لا يستوى عبد يتنازعه عدة أسياد ، وعبد مِلْك لسيد واحد ، كذلك لا يستوى التوحيد والشرك .

فقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً (٧٨) ﴾ [يس] أى : أبيّ بن خلف ، والمثل الذى ضربه أنْ أخذ عَظْماً قد بلِى ، وراح يُفتِّته أمام رسول الله وهو يقول : أتزعم يا محمد أن ربك سيحيى هذا ، بعد أنْ صار إلى ما ترى ؟ وإنْ كانت الآيات نزلت فى أبيٍّ ، إلا أنها لا تقتصر عليه ، إنما تشمل كل مُكذِّب بالبعث ، مُنكر لهذه القضية

ومعنى ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ (٧٨) ﴾[يس] يعنى : لو تذكَّر خَلْقه هو ، وتأمل فى ذات نفسه وجد الدليل على ما يُكذِّب به ؛ لأن الله خلقك من العدم ، فصار لك وجود ، فإذا مِتَّ بقيتْ منك هذه البقايا التى تُفتِّتها منثورة فى الأرض ، ومعلوم بحسب ما تفهمه العقول أن الإيجاد من موجود أهون من الإيجاد من العدم ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (٢٧) ﴾ [الروم]

الحق سبحانه فى هذه الآية يخاطبنا على قَدْر عقولنا ووَفق منطقنا ، وإلاَّ فلا يُقال فى حقه تعالى هَيِّن وأهون ، ولا سهل وأسهل ، هذا يُقال فى حق البشر فحسب .

وقوله : ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾[يس] حينما ألقى هذا

(١) أى : مِلْكاً خالصاً له ، لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/٣٢٤] .

السؤال على الكافرين المكذِّبين بالبعث يقولون : لا أحد يستطيع أنْ يُحيي الموتى ، لماذا ؟ لأنه يقيس المسألة على عَجْز القدرة فى البشر ، لا على طلاقة القدرة فى الخالق سبحانه .

والعجيب أن الله تعالى يُثبت للإنسان صفة الخَلْق ، فيقول : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] والإنسان ينكر ويُكذِّب بقدرة الله فى الخَلْق ، فإذا كان ربك لم يَضِنّ عليك بأنك خالق ، فلا تضنّ عليه بأنه أحسن الخالقين .

وقلنا : إذا وجدتَ صفة لله تعالى ووصف بها البشر فلا بُدَّ أنْ تأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] فلله تعالى وجه لا كالأوجه ، وله سبحانه يد لكن ليستْ كالأيدى .. وهكذا ؛ لأن الله تعالى واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله . الله موجود وأنت موجود ، لكن وجودك ليس كوجوده ، الله غنى وأنت غنى ، لكن غنَاك ليس كغنَى الله ، غِنَى الله ذاتىٌّ لا ينفصل عنه سبحانه ، أما غناك فموهوب .

الله خالق وأنت خالق ، لكن فَرْقٌ بين خَلْقك وخَلْق الله ، خَلْقك من موجود وخَلْقه تعالى من عدم ، خَلْقك جامد لا حياة فيه ، وخَلْق الله فى حياة فينمو ويتغذى ويتكاثر .. الخ فأنت خالق ، لكن ربك سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : لله تعالى صفات الكمال المطلق ، يُفيض منها على خَلْقه فيعطيهم من صفاته تعالى ، لكن تظل له سبحانه طلاقة القدرة .

ومعنى ﴿ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] قديمة بالية تتفتت .

ثم يردُّ الحق سبحانه على هذا المكذِّب وأمثاله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس] ومعنى ﴿ أَنشَأَهَا ﴾ يعنى : من العدم ، ولأنْ

ينشئـها من موجـود أولَى ، وقوله ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ ۝٧٩﴾[يس] فى الرد على هذا المكذِّب يوحى بأن هناك مرة أخرى ، وإحياءً آخر غير الأول ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[يس] أى : بالخَلْق الأول وبالخَلْق الـثانى ، فـالعلم بالخَلْق الأول أنْ يعطيه صفات ومـواهبَ فى ذاته ، وأنْ يستعمره فى الأرض ، وأن يجعلَ له منهجاً ينظم حياته فيها .

وبهذا المنهج أرشده إلـى سبيل الخير ، وحـذَّره من سُبل الشر ، وأوضح له الجزاء على هذا وذاك ، وهـو سبحانه عـليم بالخَلْق الآخر فى الآخرة . أى : يعلم كيف يجازيه على ما قدَّم . إذن : معنى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[يس] يعنى : عـليم كـيف يُكلِّفـه ، وعليم كـيف يجازيه ، وعلى قَدْر التكليف يكون الجزاء .

الفلاسفة المـسلمون أحبوا أنْ يوضحوا لنا هذا المـعنى ، فقالوا : حينمـا أراد الله أن يخلق من العدم وقبل أنْ توجد السـماء أو الأرض قال : اخـرجى يا سمـاء كونى سمـاءً فكانت ، وهكذا الأرض . إذن : قادريته سبحانه هى التى فعلت ، ومقدورية الأشياء هى التى انفعلت ، فمـا الذى انتهى من هذين الـعنصرين ؟ إنهمـا باقيـتان مـوجودتان : قادرية الفاعل سبحانه ، ومقدورية الأشياء .

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾

الحق سبحانه يسوق لهم دليلاً آخر على طلاقة قدرته ، فإن كنتم تُكذِّبون بالبـعث ، فـانظروا إلى هذه الآية المادية التى تشاهدونهـا ، فالذى يُحيى العظام التى رَمَّتْ هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً تُوقدونهـا ، فيشـتعل العود الأخـضر ، والخـضرة دليل الرطوبة

والمائية ، فكيف تأتى النار من الماء ، هذه آية يرونْهَا فى البيئات العربية كل يوم ، ومعلوم أن الحطب هو أول وقود عرفه الإنسان واستخدمه بسلام ؛ لأنه أصْفَى وقود ، وهو صِحىٌّ لا يلوث البيئة ، ولا يضر بها ، ولك أنْ تقارن بين وقود الحطب ووقود البترول مثلاً ، لتعرف الفَرْق .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا تَرقٍّ فى الدليل ، فبعد أنْ ذكر سبحانه آية جَعْل الشجر الأخضر ناراً ، يسوق الدليل الأقوى ، وهو خَلْق السموات والأرض ، السموات دليل من العلو الثابت الذى لا يتغير ، والأرض دليل ملامس لنا ، نشاهده ونباشره . وحيثية هذه الآية جاءت فى آية أخرى ، حيث قال الحق سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإنْ قُلْتَ : علِّلْ لنا أن خَلْق السموات والأرض مع أنها لا تحس ولا تتكلم ولا تعلم .. الخ . أكبر من خَلْق الناس ، نقول : نعم خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ؛ لأنها منذ خلقها الله على حالها لم تتغير ، وستظل إلى قيام الساعة ، أما أنت أيها الإنسان فتموت ، تموت وأنت طفل ، بل وأنت جنين فى بطن أمك ، تموت وأنت شاب وأنت شيخ هَرِم ، وقصارى ما يمكن أن تصل إليه لو عُمرت فى الدنيا مائة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام ، فأين عمرك

من عمر الشمس ، أو القمر أو الأرض ؟ وهل رأيت خادماً أطول عمراً من مخدومه ؟

إننا نتوارد على هذا الكون أفراداً وأمماً ودولاً ، تذهب جميعها وتَفْنى وتبقى السماء والأرض كما هى شامخة عظيمة ، لا يطرأ عليها تغيير ، ولا تخرج عن قانون التسخير فى شىء أبداً ، ومنذ أن خلق الله هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه ، ولا تخلَّف عن موعده ، أو امتنع عن أداء مهمته .

هذا حال الجمادات فى السموات والأرض ، فما حالكم أنتم أيها العقلاء ؟ لو تحدَّثنا فى المادة فهى تبقى وأنتم تموتون ، وفى المعانى والقيم تتساند هذه الجمادات ، وأنتم تتعاندون وتختلفون وتتصارعون ، فأيُّكم إذن أحسن خَلْقاً وأكبر ؟

لذلك يجيب الحق سبحانه على هذا الاستفهام المنفى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ..(٨١)﴾ [يس]

فيقول (بَلَى) أى : نعم قادر ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾[يس] وخلاَّق صيغة مبالغة من خالق ، ليؤكد هذه القضية لكل مكذِّب بها ، وهو سبحانه ﴿الْعَلِيمُ (٨١)﴾[يس] أى : بِمَنْ خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾[يس] هنا إشارة لطيفة من الحق سبحانه لكل مُكذِّب بالبعث ، كأن الله يقول لهم : يا مَنْ تكذِّبون بقدرة الله على بَعْث العظام التى رمَّتْ ، أتظنون أن الله يخلق بعلاج كما تخلقون أنتم ، الله الخالق لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكلمة (كُنْ) ، بل يخلق سبحانه بمجرد مراده ، فإنْ أراد شيئاً كان ، دون أنْ يقول ، ودون أنْ يأمر ، وما كلمة (كُنْ) إلا لتقريب المسألة إلى أذهاننا .

وسبق أنْ أوضحنا هذه العمليـة بمثال ، ولله المثل الأعلى ، قلنا : كيف تنكر أيهـا الإنسان قدرة الله ، وقـد أفاض عليك بمـثلها فى ذات نفسك ، فـأنت مثلاً حينمـا تريد أنْ تقوم من مجلسك ، مـاذا تفعل ؟ هل أمرتَ العضلات أنْ تتحرك ، بل هل تعرف أصلاً ما هى العضلات التى تقيمك ، وما الأعصاب التى تتحكم فى هذه العملية ؟

إنك تقوم بمـجرد إرادتك للقيـام وليس لك دَخْل فيـها ، بدليل أن الطفل الصغـير الذى لا يعرف عن تكوين جسـمه شيئـاً يقوم إذا أراد القيام ، فـإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تنفعل لك الأشـياء دون أنْ تقولَ لها انفعلى ، فهل يليق بك أنْ تُكذِّب بهذا فى حق ربك وخالقك ؟

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا آمر أعضائـى وأقول لها : اعملى كذا وكذا ؟ نقول : الحق سبـحانه يقول للشىء كُنْ لأنه سبحـانه يعلم أن الأشياء سـتـأتمر بأمـره ، ولن تخـرج عن مـراده ، إنمـا هل أنت واثق أنهـا ستـأتمر بأمـرك إنْ أمرتها ؟ إنـك لا تثق بهذه المســألة بدليل أن الله تعالى حـين يسلب الإنسان هذه الـقدرة تخرج أعـضاؤه عن طاعـته ، فيريد أنْ يقوم فلا يستطيع ، تشل الأعضاء فلا تتحرك .

إذن ، نقـول : إذا كـان المـخلوق مـجـرد إرادته تسـيـطر على جوارحه ، فهل نستبعد أن تكون إرادة الخالق الأعلى تسيطر على هذا الكون المخلوق له سبحانه ؟

وكلمـة (كُنْ) يقولهـا الله ليقرِّب لـنا فَهْم المـسألة ، ويقـولها لأن الأشياء لا تتخلف أبداً عن طاعته والانفـعال لأمره ، إنما أنت إنْ قُلْتها فلن يسمعك أحد ؛ لذلك قال سبحـانه موضحاً استجابة الأرض لأمره سبحانه : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾[الانشقاق] أى : حَقَّ لها أنْ تسمع ، وأنْ تطيع .

ومعنى ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ ﴿٨٢﴾ ﴾[يس] أى : للشيء الذى لم يُوجد بَعْدُ ، فكيف إذن يخاطبه وهو ما يزال غَيْباً ، قالوا : الخالق سبحانه خلق كل الأشياء أزلاً فى عالم اسمه « عالم المثال » ، فالأشياء موجودة بالفعل ، لكن تنتظر الأمر بالظهور والخروج إلى عالم الوجود ؛ لذلك قال أحد العارفين : أمور يُبديها ولا يبتديها .

﴿ فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

عرفنا فى الآية السابقة أن الحق سبحانه إذا قال كُنْ انفعلتْ له الأشياء وأطاعت ، أما إنْ قالها الإنسان فلن يستجيب له شيء ، وقلنا : إذا ورد لله تعالى وَصْف يُوصف به البشر ، فعلينا أنْ نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] إذن : طبيعى أنْ تختم هذه الآيات والسورة كلها بقوله تعالى ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[يس] يعنى : تنزيهاً له عن أن يُشبهه أحد ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وكلمة ﴿ مَلَكُوتُ ﴿٨٣﴾ ﴾[يس] من ملك ، وهذه المادة الميم واللام والكاف تُستخدم على معان أربعة : الأول : نقول مالك ، وهو كل مَنْ ملَك شيئاً ولو كان يسيراً ، فلو كان لا يملك إلا الثوب الذى يلبسه يُسمَّى مالك . الثانى : نقول ملِك وهو الذى يملك مَنْ ملَك أى : يملك أنْ يتصرف فيه وفى إدارة حركته ، الثالث : كلمة المُلْك وهى أن يترقى الملك فى أمور ظاهرة يعرفها الناس ، الرابع : كلمة الملكوت ويُراد بها الملْك المستور غير الظاهر ، وهو أقوى وأعمّ من المُلْك .

وقد يكون الشيء من عالم الملكوت ، ثم يصير إلى عالم المُلك مثل الأشياء التى كانت غيباً واكتشفها الإنسان أو ابتكرها ، فصارت

مشهودة ، وهناك أشياء تظل دائماً فى عالم الملكوت لا نعرف شيئاً عنها إلا فى الآخرة ، وهذا النوع هو الذى يُكذِّبون به ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٧٥) ﴾ [الأنعام]

نعم ، يُطلعه الله على عالم الملكوت ، لأنه لما أطلعه على عالم المُلْك وابتلاه نجح فى الابتلاء بتفوق ، نجح فى كل مراحل حياته ، نجح وهو شيخ كبير فى مسألة ذَبْح ولده إسماعيل ، نجح لما أُلْقِى فى النار ؛ لذلك صار أهلاً لأنْ يُطلعه الله على أسرار الكون ، وعلى عالم الملكوت ، كما لو أن فى أولادك ولداً صالحاً ترى فيه مخايل النجابة ، فتصطفيه بشىء تفضله به عن باقى الأولاد ، كذلك مَنْ يحسن العبودية لله تعالى يحسن الله له العطاء .

ومن ذلك ما قَصَّه علينا القرآن فى سورة الكهف من قصة العبد الصالح الذى رافقه نبى الله موسى وتعلَّم منه ، والذى قال الله فيه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]

هذا العبد الصالح لم يكُنْ نبياً ، ولم ينزل عليه الوحى ، ومع ذلك تعلَّم منه النبى ، لماذا ؟ لأنه أخذ ما جاء به الرسول وطبَّقه على نفسه ، فلما علم الله منه أنه مأمون على مناهج الله وعلى أسراره زاده وأعطاه من علمه اللَّدُنىِّ ، وكشف له من أسرار الملكوت .

ألاَ ترى أن سيدنا موسى - عليه السلام - غضب منه حينما خرق السفينة ، وتعمد أنْ يَعيبها ، وهى لمساكين فقراء ، هذا هو عالم المُلْك الذى اطَّلع عليه العبد الصالح ، أما علمه بعالم الملكوت ففى قوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] فأطلع الله العبدَ الصالح على بعض عالم الملكوت ، كما أطلع إبراهيم عليه

السلام على ملكوت السماء .

وكلمة (ملكوت) تحمل معنى المبالغة ، مثل : رحموت وجبروت ورهبوت ، فهى إذن للمبالغة فى الملْك ، لكن نلحظ عند علماء القراءات أن أحدهم يقرأ : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة] فيقول (مَلِكِ يوم الدين) بدون صيغة المبالغة ، قالوا : لأن الكلام عن يوم الدين ، وفى هذا اليوم الملْك كله لله وليس لأحد مُلْك ، ولا حتى الثوب الذى يرتديه .

ومن ذلك أيضاً قولنا فى الأذان الله أكبر فذكر الصفة (أكبر) دون مبالغة ، ولم يذكر الاسم (الكبير) ، فكيف يتأتَّى ذلك فى شعار الصلاة ، التى هى عماد الدين ، ونأتى بالصفة دون الاسم ؟ قالوا : لأن الأذان يأخذ الناس من أعمالهم للاستجابة لنداء ربهم ، والعمل له اعتباره فى الإسلام ؛ لأنه مهمة الإنسان فى الحياة ، وبه يتوصَّل إلى طاعة الله ؛ لذلك يُقدِّره الدين ولا يحتقره .

ومعنى (الله أكبر) أن العمل كبير ومهم ، لكن الله أكبر ونداء ربِّك أهم ، أما كبير فهى اسم من أسماء الله . ومعنى كبير أن ما دونه صغير ؛ لذلك أتى فى الأذان بالوصف لا بالاسم .

فقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس] أى : ما تراه وما لا تراه من الملك ، وما خَفِى عنك ، ثم توصَّلْتَ إليه بالعلم واكتشفته ، والذى لا تراه من الملك إلى أنْ يخبر الله به أحد عباده : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن].

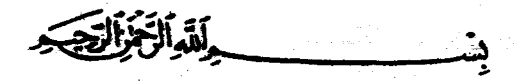
والتحقيق أن المغيبات والأسرار المطمورة فى الكون لا يكتشفها الإنسان إنما تُكْشف له ، وقلنا : إن كل سرٍّ فى الكون أراد الله أنْ

يُظهره له عمر وميلاد ، فإنْ صادف ميلادُه بحثَكَ ظهر على يديك ، وإلا أظهره الله لك مصادفة في موعده إذا لم تبحث عنه ؛ لذلك يقولون : إن سبعة وتسعين بالمائة من مكتشفات الحياة ظهرت لنا مصادفة .

ويقول سبحانه في آية الكرسي : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فالإنسان لا يحيط إلا بعلم الشيء اليسير من علم الله ، ولا يحيط بهذا اليسير إلا بعلمه تعالى وإذنه ، حين يأذن بميلاد الشيء وظهوره .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [يس] أي : يوم القيامة ، فكونوا على ذكْر لهذه الحقيقة ، فمَنْ لم يؤمن بنعمة الخلْق ترهبه نعمة الإعادة والمرجع ، فأنتم ما خُلقْتم عبثاً ، ولن تُتْركُوا سُدىً .


سورة الصافات



سورة الصافات[1]

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى أسلوب القسم ، الله تعالى هو المقْسِم يُقسِم على ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)﴾[الصافات] وقد أخبر الرسول ﷺ بمراده تعالى فى القسم ، فالله يريد منَّا إنْ أقسمنا ألاَّ نُقسم إلا به سبحانه ، لكن بالاستقراء رأينا أنَّ الحق سبحانه يقسم بخَلْق من خَلْقه ، فيُقسِم بالملائكة ، ويُقسِم بالحيوان ، ويُقسِم بالجبال ، ويُقسِم بالفجر .. الخ

قالوا : لأن الله تعالى يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، أمَّا أنت فلا تقسم إلا بالله ، لأن القَسَم تعظيمٌ للمقْسَم به ، وينبغى ألاَّ يكون

---

(١) سورة الصافات هى السورة (٣٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١٨٢آية ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، كما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٦٩٩/٨) ، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان (٢٧/١) نقلاً عن ابن الضريس فى « فضائل القرآن » أن سورة الصافات نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان ، وعلى هذا فتكون سورة الصافات رقم (٥٥) فى ترتيب نزول القرآن الكريم .

مُـعظّمـاً عند المـؤمن إلا الله ، ولا يصح أنْ تقـول (وحيـاة فـلان ، ورأس علان) فـإنْ كنتَ حالفـاً فلتحلف بالله ، كـما جاء فـى الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله »[(١)]

فـإذا ظهر مـا يكون ظاهره قَسَـمـاً بغيـر الله ، فاعلم أنه لا يُعَـدُّ قَسَمـاً ، وخصوصاً إنْ جاء من عالم أو يقينى كأنْ يقـول : (وحياة أبوك يا فلان تعمل كـذا وكذا) ، هذا ليس قَسَماً ، إنمـا هو مساءلة. القسَم : أنْ تُقسم على شىء ، حـدث أو لم يحدث ، إنما طَلَبُ الشىء يسمى مساءلة ، كذلك يقول الحق تعالى : ﴿ ..الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ①﴾ [النساء] أى : وبالأرحام فى قراءة من جر الأرحام .

والحق سبحانه يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، وأنت لا تقسم إلا بالله ؛ لأن الشىء قد يكون تافهاً فى نظرك ، ولكنه عند خالقه عظيم ، وله مهمـة تغفل أنت عنها ، وحيـن يحلف الله به إنما يُلفت نظرك إلى أهمـيتـه ودوره ، فمـثلاً لمـا فَـتَر الوحى عن سـيدنا رسَـول الله ﷺ لم يلتفت الكفار إلى الحكمة من ذلك .

والحكمـة أن الوحى كـان يَثْقُل على رسـول الله ، حـتى يبلغ منه الجهد ، وحـتى أن جبينه ليتفصَّـد عرقاً[(٢)] ، وإن نزل الوحى عليه وهو على دابة فإنها تئِنُّ وتنخُّ به[(٣)] ؛ ذلك لأن الوحى ثقيل .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله : « ألا إن الله عزوجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

(٢) قالت عـائشة رضى الله عنهـا : لقد رأيته ﷺ ينزل عليـه الوحى فى اليوم الشـديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عـرقاً . أى : أن عرقه كثير فى يوم شديد البرد . [أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحـيحه (٤٥٩٢) موصولاً من حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه أن رسول الله أُنْـزل عليه ﴿ لايسـتوى القـاعدون من المـؤمنين والمجـاهدون فى سبـيل الله ﴾ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خِفْت أن ترُضّ فخذى .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ [المزمل]

فجاءت فترة انقطاع الوحى رحمةً برسول الله ، وتسريةً عنه ، وتخفيفاً من معاناته ، ثم ليشتاق هو إلى الوحى يعاوده من جديد ، لم يلتفت الكفار إلى ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قَلاَه[1] يعنى : تركه وهجره وجفاه ، وواضح ما فى هذا القول من تناقض ، فعند الإيمان يُكذِّبون بمحمد ورب محمد ، وعند الجفوة يقولون : إن رب محمد قلاه ، ويعترفون أن له رباً !!

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يوضح لهم هذه المسألة ، وأنْ يُظهر غباءهم بهذا المقسَم الذى جاء مناسباً للموقف ، يحمل إشارة لطيفة إلى العلاقة بين المُقْسَم به ، والمقْسَم عليه ، فقال سبحانه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾ [الضحى]

والمعنى : أنك يا محمد أُجهدتَ بالوحى ، وكان لا بُدَّ أنْ تستريح لتشتاق نفسك إليه وتطلبه ، وحين ترتاح سيُخفِّف ذلك من معاناتك فى استقباله ، وسوف تذوق حلاوته من جديد ، ويكون عليك أيْسَرَ وأسهل ، وأتى الحق سبحانه بهذا القسم بشىء موجود مُشَاهد ، لا يختلف عليه اثنان .

فهم يعرفون ﴿ الضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى] حين تشرق الشمس ، وتنير الكون ، ويعرفون ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾[الضحى] يعنى : سكَن وهدأ ، والإشارة هنا فى أن الضحى إذا جاء ثم تلاه الليلُ بسكونه ، هل يعنى هذا أن الضحى لن يعود مرة أخرى ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) أن جندب بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . فأنزل الله تعالى :﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] .

لا ، بل سيأتى الضحى من جديد بعد أن تكونَ قد ارتحْتَ من تعب النهار والسعى فيه ، واستعدْتَ نشاطك ليوم جديد ، ومعنى ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④﴾ [الضحى] أى : أن عودة الوحى ثانية ستكون أحلى من الأولى ، وأخفّ وأيسر .

إذن : الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، ليُعلمنا أن هذه الأشياء عظيمة عند خالقها ، لكن غفلنا نحن عن وجه العظمة فيها ، ويُقسِم بما يشاء من مخلوقاته لِيُقرِّب لنا بواسطة المعلوم شيئاً مجهولاً .

هنا يقول تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ①﴾[الصافات] الواو تسمى واو القسم مثل : التاء والباء . نقول : والله وبالله وتالله ، وقد يُستغنى عن حروف القسم ، ويستدل عليه باللام فى جواب القسم ، كما فى : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③﴾ [يس] وأنت لا تقسم على الشىء بداية ، وإنما تقسم إنْ أنكر المخاطب لتؤكد له الخبر ، ويأتى القسم والتأكيد على قَدْر الإنكار .

فإذا قال الحق سبحانه مثلاً :﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ①﴾ [القيامة] أو : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ① وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾ [البلد] وفى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ⑦⑤ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ⑦⑥﴾ [الواقعة]

وفى هذه الآيات . قَسَم بدليل أن له جواباً ، لكن لماذا نَفَاهُ القرآن ، فقال (لاَ أُقْسِمُ) قالوا : لأن نَفْى القسم هنا أشدُّ من القسم المثبت ؛ لأن القَسَم إنما جاء لتأكيد المقسَم عليه ، ومعنى (لا أقسم) أن هذا أمر واضح لا يحتاج إلى قَسَم ، القَسَم يأتى لتأكيد أمر منكر أو مشكوك فيه ، أمَّا هذا الأمر فواضح بيِّن ، ومع ذلك سأقسم لك .

ومعنى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات] قالوا : الصافات صفًّا هي الملائكة تُصَفُّ ، والصَّفُّ انسجام مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فرد عن فرد ، فالصَّفُّ لا يعنى مجرد الجمع ، إنما الجمع فى انسجام وانضباط ، لذلك النبى ﷺ كان فى استعراض الجنود فى المعركة يُسوِّى الصفوف ، فلما رأى رجلاً شَذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه فى بطنه ليستقيم فى مكانه من الصَّف ، وكان الرجل محباً لرسول الله ، فقال : أوجعتنى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه بطنى اقتصّ منها » فأقبل الرجل يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلْتُ أن أستشهد ، فأحببتُ أن يكون آخر عهدى بالحياة أنْ يمسَّ جسدى جسدك الشريف .

والصَّف دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّى الأوامر ، وهكذا تُصَفُّ الملائكة فى انتظار الأوامر ، ليقوم كل منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) فى القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۝٦٤﴾ [طه] يعنى : مجتمعين مُتحدين ، وقال : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر]

وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۝١٩﴾ [الملك]

صحيح ، ترى الطائر فى السماء باسطاً أجنحته هكذا لا يحركها ، ومع ذلك لا يقع ، كذلك تراه يقبض أجنحته ، ويظل أيضاً ثابتاً فى مكانه ، فما الذى أمسكه لا يقع ؟ أمسكه الرحمن وكأن فى إمساك الطير الذى نراه ونشاهده دليلاً على صِدْق الحق فى

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ (٤١)﴾ [فاطر]

إذن : إمساك الطير نموذج لإمساك السماء ، إلا أن هذا إمساك مؤقت ، وذاك إمساك دائم .

ويقول عن الملائكة عموماً : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات] يعني : نقف في انضباط منتظرين الأوامر ، والصف هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحد على أحد ، ويدل على الرهبة ممَّنْ أنت أمامه مصفوفاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في نعيم الجنة : ﴿وَنَمَارِقُ[1] مَصْفُوفَةٌ (١٥)﴾ [الغاشية]

بعض العلماء يرى أن الصافات لها معنى أوسع ، ويراد بها مجال نشر الدعوة والإعلام بها ، والدفاع عنها ، وحماية الاختيار في الإسلام ، وفي القتال ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف] معنى ﴿فِي سَبِيلِهِ (٤)﴾ [الصف] أي : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود في ساحة القتال ، وينبغي أن يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيان المرصوص ؛ لذلك قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (١٢٢)﴾ [التوبة]

---

(١) النمرقة : الوسادة الصغيرة يُستند إليها ، ويُتكأ عليها ، وجمعها نمارق . [القاموس القويم ٢/٢٨٨]

فالعالِـم لا يقاتل ؛ لأن مهمتـه حَمْل الدعوة ، والمقـاتل يموت فى سبـيلها ويضحى بحـياته من أجلها ، وهذه التـضحيـة هى التى تثبت صدْق الدعوة ؛ لأن الدعـوة لو لم تكُنْ صادقة فى نفس صاحبـها لَمَا ضَحَّى من أجلها ، ثم تضـحيته بروحه دليـل على ثقته أنه ذاهب إلى خير مما هو فيه .

وتعرفـون قصــة الصحابى الذى ســمع كلام رســول الله عن أجر الشهـيد ، وكان فى فمـه تمرة يمضــغها ، فقـال لرسول الله : أوليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هـؤلاء فيقتلوننى ؟ قـال : بلى . فألقى التمرة واستبطأ أن يمضغها وأسرع إلى ساحة القتال .[1]

إذن : القتال فى سبيل الله ، إما باللسـان وإما بالسِّنان ، ولابد أنْ يُعلَم أن المقاتل الـذى يحمل السيف لا يحمله ليُكرِه غـير المؤمن على الإيمان ؛ لأنه لا إكراه فى الدين ، إنما يحمله ليحـمى حريته واختياره هو لهـذا الدين ، بدليل أن الإســلام فـتح بلاداً كـثـيـرة ، وظلَّتْ على دينها .

والصف الواحد ليس فقط للمقاتلين فى ســاحة القتال ، إنما أيضاً لحاملى الدعوة ، فيجب على هؤلاء العلماء أن يكونوا فى دعواهم صفاً واحداً لا يشـقه خلاف ، فـما كان فى كـلام الله مُحْكماً التـزموا به ، وما كان متشـابهاً لا يُكفِّر بعضـهم بعضاً بسببه .

---

(١) عن جابر بن عبـد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُـتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخـرجه البخارى فى صـحيحه (٤٠٤٦) وقال ابن حـجر : لم أقف على اسم الرجل وزعم ابن بشكوال أنه عـمير بن الحُـمام واحتج بما أخـرجه مسلم من حـديث أنس وفيه ذكـر عميـر بن الحمام . ولكن وقع التـصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر ، فالذى يظهر أنهما قصـتان وقعتا لرجلين ، والله أعلم .

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ ﴾[الصافات] قالوا : هذه هى مهمة الملائكة أنْ تزجر الشياطين الذين يسترقون السمع ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾ [الجن]

وكانت الشياطين قبل رسالة محمد ﷺ تصعد فى السماء ، وتتسمّع الأخبار ، ويُمكِّنهم الله من بعض الأخبار والأوامر فيسمعونها ويُلْقونها إلى أوليائهم من البشر ، فيزيدون عليها أشياء باطلة ، ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، فلما كانت بعثة النبى ﷺ مُنعوا من استراق السمع ، وسلَّط الله عليهم الشُّهُب تنقضّ عليهم فتحرقهم .

فإنْ قلتَ : كيف ، ونحن نرى النجوم على كثرتها ، هى هى لا تنقص ، نقول : لأن النجوم منها نجوم فى السماء للزينة ، ومنها نجوم للرجم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ ﴾ [الصافات]

أما ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ ﴾[الصافات] قالوا : هى المُنزلات الوحى على الرسل ؛ لأنهم يتلُونه عليهم ، بعد أنْ نزلوا به من عند الله

آخرون فهموا ﴿ وَالصَّافَّاتِ ۝١ ﴾ [الصافات] على معنى آخر يتفرع عنه معَان أخرى للزاجرات زجراً والتاليات ذكراً ، قالوا : معنى ﴿ وَالصَّافَّاتِ ۝١ ﴾[الصافات] أى : المؤمنين يُصفُّون للصلاة ، لأنها عماد الدين ورمز للاجتماع والوحدة ، ومن تمامها أن تكون فى صفوف مستوية .

لذلك قال النبى ﷺ : « سَوُّوا صفوفكم ، فإنَّ تسوية الصفوف

من إقامة الصلاة[1]» وقال : « إن الله لا ينظر إلى الصَّف الأعوج»[2] والصفوف فى الصلاة دليل على الانضباط ، وأنه لا يشذ أحد عن الآخر ، ودليل على الخضوع والوقوف فى أدب بين يدى الله . إذن : فكما تُصَفُّ الملائكة تُصَفُّون أنتم ، ولكلٍّ صلاته وعبادته .

فإذا ما سَوَّيْنَا الصفوف واستقمنا فيها لله تعالى ندخل فى الصلاة ونقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا زَجْر للشيطان ؛ لذلك قال : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾[الصافات] ومعنى ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾[الصافات] أى : ما نتلوه بعد ذلك من كلام الله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة]

هذا هو القَسَم ، فما المُقسَم عليه؟ المقْسَم عليه قوله سبحانه : ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾[الصافات] وهذه العبارة مع أنها جواب لقسم ، إلا أن الله تعالى أكّدها أولاً بـ (إن) ثم أكَّدهَا باللام فى (لَوَاحِدٌ) ، وذلك لأنها تمثل أساس الدين وجوهر العقيدة ، فالإله الحق واحد هو المهيمن على هذا كله ، وقلنا : إن واحد غير أحد : واحد يعنى ليس له ثَانٍ مثله ، أما أحد فيعنى أنه غير مركب من أجزاء فى تكوينه ، فهو سبحانه فى ذاته أحد .

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٣) كتاب الصلاة - باب تسوية الصفوف (٢٨) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) مما ورد فى هذا المعنى ما أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٩٧) وأبو داود فى سننه (١/١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدى إخوانكم ، ولا تذروا فُرُجات للشيطان »

وفى آية أخرى قال : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه] وهذا الذى تحت الثرى هو الذى يحتاج منّا إلى بحث لنصل إليه ونكتشفه ونُخرجه كما قلنا من عالم الملكوت إلى عالم الملْك .

هنا قال ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾[الصافات] ، وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج] إذن : الحق سبحانه يُبْقى لألمحية الالتقاط الذهنى من الألفاظ موضعاً ، فما دام هناك مشارق إذن لابد أنْ يقابلها مغارب ؛ لأن الشمس لا تشرق على قوم إلا وتغرب عن آخرين ، إذن : عرفناها باللزوم .

وحين نستعرض هاتين الكلمتين فى كتاب الله نجد أنهما تأتيان مرة بصيغة المفرد ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ۝٩﴾ [المزمل] ، وتأتى بصيغة المثنى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن] ، وتأتى بصيغة الجمع ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج]

ذلك لأنه إذا خاطب الإنسان الواحد فى المكان الواحد قال المشرق والمغرب ، لأن لكل مكان مشرقاً ومغرباً ، فإنْ تعدَّدتْ الأماكن تعددت المشارق والمغارب ، فنحن مثلاً فى القطر الواحد نلاحظ أن مغرب القاهرة غير مغرب الأسكندرية ، فإذا نظرنا إلى كل الأمكنة فى الكرة الأرضية علمنا أن المشارق والمغارب لا تتناهى ، ففى كل نصف ثانية مشرق ومغرب .

لذلك قلنا : من حكمة الخالق سبحانه فى دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس أنها تُوزع مقومات الحياة فى الكون كله ، فلو ظلَّتْ الشمس مواجهةً لمكان واحد لاحترق ، ولو ظلَّتْ غائبة عن مكان لَتجمَّد . ونتيجة هذه الحركة يظل الحق سبحانه معبوداً فى كل

أوان بكل عبادة ، كما سبق أن أوضحنا أنه في اللحظة الواحدة يُصلَّى الصبح عند قوم ، والظهر عند آخرين ، والعصر عند آخرين ، والمغرب والعشاء ، وهكذا على مَدار اليوم والليلة .

أما قوله تعالى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن] قالوا : المشرقان يعني : المشرق والمغرب ، أو مشرق الصيف ومشرق الشتاء[1]

ثم يقول سبحانه :

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾

نعم ، حين ننظر إلى السماء ليلاً نجدها مُزْدانةً بالنجوم تتلألأ ، وفي هذه النجوم عجائب وأسرار عرفها العربي الأُميُّ ، فعرف النجم وعرف اسمه ومكانه وحركته ، واهتدى به في سيره في الصحراء ، كما قال سبحانه : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل]

وحين تتأمل هذه النجوم في السماء ترى أن الله تعالى أراد أنْ يرحمنا من حرارة الشمس ، ويُبقي لنا آثار الضوء نهتدي به ليلاً ؛ لأن هذه النجوم إنما تستمد ضوءها من ضوء الشمس .

ثم للكواكب مهمة أخرى :﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾[الصافات]

---

(١) عن ابن عباس قال : للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء ، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف ، غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/٦٩٥) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

يعنى : تحفظنا هذه الكواكب من الشياطين ؛ لأنها تنقضّ على الشياطين فتحرقها ، وهذا النوع يُسمُّونه النيازك ، أما زينة الكواكب فباقية لأنها لا دَخْل لها بهذه المسألة ، أما النجوم المخصصة للشيطان المارد ، فلا بُدَّ أنْ تتناقص .

ومعنى (المارد) أى : المتمرد على منهج ربه ، لأنه وارث لإبليس ، يقف من ذريته نفس الموقف الذى وقفه إبليس من آدم ، فإنْ قلْتَ : الله تعالى يريد أن يسود منهجه الكونَ ، ليسود السلامُ والأَمْن والطمأنينة ، فلماذا إذن يخلق الشيطان المارد ؟ نقول : ليُؤصِّل الإيمان فى النفس المؤمنة مع وجود المخالف ، وإلا فما الميزة إذا كان الجميع مؤمنين طائعين ، إذن : لابُدَّ أنْ نُصفى أهل الإيمان ، وأنْ نُمحِّصهم لنعلم أهل الثبات ، لأنهم سيحملون دعوة يظل نداؤها إلى أنْ تقومَ الساعة ، فهذه لا يحملها إلا أولو العزم .

وقوله : ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الصافات] جاءت هذه الآيات بعد أنْ أقسم الله بالزاجرات زَجْراً ، وقلنا: من معانيها أن الملائكة تزجر الشياطين عن استراق السمع فى الملأ الأعلى ، حيث كانوا يخطفون بعض الجزئيات ويُلْقونها إلى أوليائهم من الكهنة فيضيف هؤلاء إليها كثيراً من الكذب ليُضلِّلوا به الخلْق .

وقد كثُر هذا الاستراق قبل بعثة النبى ﷺ ، فلما بُعث ﷺ منعهم الله من استراق السمع ، وسلَّط عليهم الشهب تزجرهم وتنقضّ عليهم ، كما حكى القرآن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن] ذلك تكريماً لرسالة محمد أن يدلِّس عليها تدخُّل الشياطين بشىء يفسد على الناس عقائدهم ، فقال : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الصافات]

ومن عجائب الزَّجْر أنه يأتى على معنيين . فمعنى : زَجَرْتُ إنساناً يعنى : نهيتُه عن عمل شىء ، أما زجرتُ الدابة يعنى : أحثُّها على السير ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَيَا وَيْحَنَا إلْفَين بُوعدَ بَينَنَا … فَهذَا له عُشٌّ وَذَلكَ فى عُشّ

فَلَمَّا ألحَّتْ للْوصَال صَبَابَتى[1] … زَجَرْتُ جَوَادى أنْ يطيرَ ولاَ يَمْشِى

وفى المعنى الآخر ، قال الشاعر :

.... لَمْ يُبْقِ فينَا للْمودَّة مَطْرَحاً

إنِّى زَجَرْتُكَ عَنْ خَنَا[2] … فَزَجَرْتَنى أنْ أنْصَحَا

فالزَّجْر يأتى بمعنيين متضادين .

ومعنى ﴿لا يَسَّمَّعُونَ ⟨٨⟩﴾[الصافات] فَرْق بين سَمِع وتسمَّع : سَمِع يعنى دون قَصْد منه ، إنما تسمَّع يعنى حاول وتكلَّف أنْ يسمع بصرف النظر أنه سمع شيئاً أو لم يسمع .

والمعنى : أن هؤلاء الشياطين مُنِعُوا بعد بعثته ﷺ من تسمُّع الأخبار فى الملأ الأعلى ، وهم يحاولون ، لكن تزجرهم الملائكة وتنقضُّ عليهم الشُّهُب .

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ⟨٨⟩﴾[الصافات] والقذف : الرَّجْم بحيث تكون الضربة نافذة ﴿دُحُورًا ⟨٩⟩﴾[الصافات] يعنى : مذمومين مطرودين ، والمدحور هو المطرود بإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⟨٩⟩﴾[الصافات] يعنى: دائم لا يتغير ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا .. ⟨٥٢⟩﴾ [النحل] يعنى : دائماً ، فالدين هو هو واحد مع كل الرسل ، ووَصْف العذاب

(١) الصبابة : الشوق والعشق . قال ابن الأعرابى : صبَّ الرجل إذا عشق [لسان العرب - مادة صبب] .

(٢) الخنا : قبيح الكلام . والخنا : الفُحْش فى القول . [اللسان - مادة : خنا] .

هنا بأنه دائم ؛ لأنه حيلَ بينه وبين إنفاذ مهمته فى استراق السمع والتقاط الأخبار من الملأ الأعلى .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المعنى : أن بعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطْف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها ، وتوصيلها إلى أوليائهم . والخطف نوع من حيازة الملكية بدون وجه حق ، فلكُلٍّ منَّا حيازة وملكية ، ولا يُخرجه عن ملكيته إلا مَنْ يأخذها منه اعتداءً وظلماً ، ولهذا الاعتداء والظلم وسائل متعددة منها : الخطف وهو أنْ يُؤخَذ منك الشيء خَطْفاً يعنى بسرعة ، لكن على مَرْأىً منك ولا تستطيع منعه ؛ لأن الشيء بعيد عن متناول يدك ، كالولد الصغير يخطف شيئاً من البائع ويجرى به .

فإنْ كان صاحب الشيء قريباً واستطاع الإمساك به فنازعه المعتدى وتغلَّب عليه وأخذه فهو غَصْب ، فإنْ أخذ الشيء دون علم صاحبه فهو سرقة ، أما إنْ كان مؤتمناً على المال وأخذ منه فهو اختلاس .. هذه كلها وسائل لحيازة أموال الغير دون وجه حق .

كذلك يخطف الشيطان بعض الأخبار ويحاول الفرار بها ، لكن هيهات له ذلك ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : كوكب ينقضُّ عليه ، ومعنى ﴿ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : نافذ يخترق الأجواء ، حتى يصل إلى هدفه فى أسرع وقت[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا يُمنع بدايةً من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْقٌ بين أنْ يُمنَع من الشيء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الجنى يجىء فيسترق ، فإذا سرق السمع ، فرُمى بالشهاب قال للذى يليه : كان كذا وكذا . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٨٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر .

يستفيد منه ، إن الله يُمكِّنه من بعض الأخبار بالفعل فيسمعها ، لكن تُعاجله الزاجرات والشُّهب من كل ناحية ، فتكون حسرته أعظمَ ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقَّ فى استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ (١١) ﴾ [الصافات] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، يعنى : سَلْهم ، واستفتى طلب الفتوى ؛ لأن الألف والسين والتاء تدل على الطلب ، والفتوى من الفُتوَّة ، فحين يكون الإنسان بصدد شىء ، يريد أن ينفذه ، ولا يعرف فيه طريق الحق والصواب يذهب إلى مَنْ هو أعلم منه يستفتيه . يعنى : يطلب منه الفتوى أو الفتوَّة ، والقوة الدافعة له على العمل ، فكأنه كان ضعيفاً وأراد أن يَقْوَى برأى غيره .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - استأمنهم أنْ يُفتوا ، وأنْ يجيبوا هم ؛ لأنه سبحانه واثق من أن الخصوم لن يجدوا إلا قَوْلة الحق ينطقون بها ؛ لذلك لم يأتِ سبحانه بالمراد إخباراً ، إنما أتى به إقراراً منهم وشهادة ؛ لأن الخبرَ يحتمل الصدق أو الكذب ، أمَّا الإقرار فلا يستطيع أحد إنكاره ؛ لذلك قالوا : الإقرار سيد الأدلة .

ومضمون السؤال ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا (١١) ﴾ [الصافات]؟ يعنى : أهم وأعظم وأشدّ خَلْقاً من السماء والأرض ، ثم لم يأْت بالجواب لوضوحه ، ولن يكون إلا أنّ خَلْق السماء والأرض أشدُّ

من خَلْقِـهم وأعظم ؛ لذلـك قال سـبحـانه في مـوضع آخـر : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]

فإنْ أردتَ أنْ تُدلِّل على هذه المسألة فتأمل خَلْقك وخَلْق السموات والأرض ، فالسماء والأرض مع أنهما يخدمانك ، إلا أنهما أطول عمراً منك وأبقى ، فـهمـا منذ خلقهـما الله باقـيان لم يزولا ، أمـا الإنسان فيـموت وهو طفل ، ويموت وهـو شاب ، ويموت وهو شـيخ ، يموت ويترك التركة باقيةً تتوارثها الأجيال .

إذن : هما أشـدّ وأقوى ؛ لأنهما مـخلوقان خلقة دائمـة ، وأقوى من ناحية أنهما محكومان باختيارهما حين قالتا : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

فاخـتارا أن تكونا مُسـخَّرتين قـال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

وقلنا : إن هناك فَرْقاً بين قدرة النفس على تحمُّل الأمانة وقدرتها على الأداء ، فقد تتحـمل الأمانة وتنوى أداءها ، لكن لا تضمن نفسك عند الأداء ، فربما تغيَّرتْ الظروف ، أو طرأ عليك ما يحول بينك وبين أدائها ؛ لذلك امـتنعت السمـوات والأرض عن حَمْل الأمـانة ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها ، فكانت مُسخَّـرة . إذن : فهي أيضاً مُخيَّرة إلا أنهـا اختـارتْ بكلمة واحـدة منسـحبـة على الزمن كله ، أما الإنسـان فاختار أنْ يكون مختاراً ينفذ أو لا ينفذ .

ثم إن السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات وكواكب وأجرام وأفلاك تسير وفق نظام دقيق مُحكَم ، لا يشذ ولا يتخلف أبداً : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن]

وقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

أما الإنسان فيتخبط فى الحياة ، ويخالف منهج ربه ، وينحرف عن الطريق الذى رُسِمَ له . إذن : أيّهما أعظم خَلْقاً ، وأشدّ تكويناً ، وأصحّ أداءً ؟ لا يسع هؤلاء الكفار رغم كفرهم إلا أنْ يقولوا : السماوات والأرض أشدُّ وأعظم من خَلْق الإنسان .

ومثال ذلك حين سألهم الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر] لأن هذه كلها حقائق لا تُنكر ، حتى من الكفار .

ثم يسوق لهم الحق سبحانه دليلاً على صِدْق هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لأَزِبٍ ﴿١١﴾ ﴾[الصافات] يعنى : هذا أصلهم ، فأين هم من خَلْق السموات والأرض ؟ ومعنى ﴿ لأَزِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : طين متماسك بعضه ببعض ، فهو وَسَط بين السيولة والصلابة ، يعنى : أشبه ما يكون بطين الصَّلْصَال الذى نوزعه على التلاميذ فى المدارس ، والطين تراب وُضع عليه الماء ، فإنْ زاد الماء صار الطين لَيِّناً يسيل منْ يدك ، وإنْ قَلَّ الماء جَفَّ وتصلَّبَ .

لذلك وقف المستشرقون عند مراحل التكوين الإنسانى يعترضون : من أىِّ شىء خُلق الإنسان ، والقرآن قال ﴿ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون] و ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] و﴿ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر] و﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن].وقد غاب عنهم أن هذه مراحل

للشيء الواحد كما قلنا ، فالماء يُوضَع على التراب فيصير طيناً ، ولو تُرِك هذا الطين إلى أنْ يعطن أو يتعفن يصير حمأ مسنوناً [1] ، فإنْ تُرِك حتى يجفَّ يصير صلْصالاً .

الحق سبحانه يُحدِّثنا هنا عن الخَلْق الأول للإنسان ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات] ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِق من الطين ثم خُلِقت بعده حواء ، والقرآن قَصَّ علينا قصة خَلْق آدم ، لكن اكتفى في خَلْق حواء بقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

قالوا : ﴿ منها ﴾ يعني من جنس تكوينها ، فيصح أن تكون حواءُ قد خُلِقت مثل آدم من الطين ، أو خُلِقَتْ من ضلع من أضلاعه ، وفي كلتا الحالتين تعود إلى أصل الطين ، والله تعالى يخلق ما يشاء ، وسبق أنْ بيَّنا طلاقة القدرة في عملية خَلْق الإنسان ، وأنها استوعبت كُلَّ الصور العقلية لهذه العملية ، فالله سبحانه يخلق من لا أب ولا أم ، ويخلق من أب بلا أم ، ويخلق من أم بلا أب ، وقد يجتمع الأب والأم ولا يحدث بينهما إنجاب .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إذن : خُلِق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من الطين ، وخُلِقَتْ من جنسه زوجه ، ثم جاءت الذرية من آدم بعد أنْ فارق

---

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب في قالب إنساني أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

الطينية وصار إنساناً ، فنحن وإنْ جئنا من نسل إنسان ، إلا أنه يعود في أصله إلى الطين ، فإنْ قُلْتَ : أين الطينيـة ، وقد تشكَّل شكلاً آخر غيـر الطين ، بدليل أنه إذا اسـتحم بالمـاء لا يذوب كمـا يذوب الطين وتتفكك جزئياته .

نقـول : لا بُدَّ أن يرد الإنسان الأصل أو الفـرع إلى الأصل الأول وهو الطين ؛ لأن الإنسان يتوالد ويتكاثر بواسطة الحيوان المنوى فى الذكـر والبويضـة فى الأنثى ، فـمن أين يأتى هذا وهذه ؟ من الدم ، والدم نتيجة الغـذاء ، والغذاء مصدره الأرض والطين . إذن : سنؤول لا مـحـالة إلى الـطين ، لكن من الطين مـــرة بواسطة ، ومـرة بدون واسطة .

والحق سبحانه نبّهنا إلى هـذه المسألة فى قوله تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فنحن لم نشاهد عـملية الخَلْق ، إنمـا أخبرنا الله بهـا ، فعلمنا أن الإنسان خُلق من الـطين الذى مَرَّ بهذه المـراحل ، حتى نفخ الله فـيه الروح ، ودَبَّتْ فيه الحيـاة ، هذا كله لم نشاهده ، لكن شاهدنا الموت الذى ينقض الحـياة ، وعلـينا نحن أن نأخذ مـمـا نشاهده دليـلاً على صدق الغيب الذى أخبرنا الله به ولم نشاهده .

ونحن نعلم أن نَقْضَ الشىء يأتى على عكس بنائه ، فـالذى يهدم عمـارة مثـلاً من عدة أدوار يبـدأ بالدور الأخيـر ، كذلك يأتى الـموت عكس الحياة ، فأول شىء ، تخرج الروح ، ومعلوم أن نَفْخَ الروح فى الإنسـان هى آخر مـرحلة فى مراحل الخَلْق ، فـإذا ما فـارقتْ الروحُ الجسدَ عاد إلى أصله ، حيث يرمّ الجـسد وتمتص الأرض ما فيه من

الماء ، ثم يتحلل الباقى ويعود إلى التراب الذى جاء منه .

ثم آخر ، هو أن الإنسان الذى خُلِق من الطين وقوامه الغذاء الذى يخرج من الطين ، لما حلَّل العلماء جسمَ الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ١٦ عنصراً . أولها : الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النتروجين .. الخ . وهى نفس العناصر المكوِّنة للتربة الزراعية الخِصْبة التى تعطينا القوت ، إذن : يكون هذا دليلاً على صدْق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصافات]

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

معنى (بَلْ) إضراب عن الكلام السابق وبداية لكلام جديد (عَجِبْتَ) بالفتح أى : يا محمد . والعَجَبُ : هو استغراب وقوع شىء على خلاف نظائره ، ومن ذلك قوله تعالى فى العقائد : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة]

يعنى : كيف يحدث منكم الكفر بعد أنْ فعلنا بكم ذلك ؟ هذا شىء مُسْتغرب ، ومسألة عجيبة . يعنى : جاءت على خلاف ما يُنتظر منكم .

لكن من أىِّ شىء عجب النبى ﷺ ؟ عجب من إنكارهم ومن كفرهم ، مع وضوح الأدلة الدامغة على صدْق قضية الإيمان . وقد سُقْنا لهم الدليل تِلْو الدليل ، ومع ذلك كذَّبوا ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً نبيه ﷺ فى موضع آخر : ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ .. ﴿٥﴾﴾ [الرعد]

يعنى : وافق الله محمداً على أنْ يعجب . والمعنى : إنْ تعجب يا محمد فقولهم عَجَب . لكن عجب عند مَنْ ؟ يجوز عجب عند رسول الله ، ويجوز عجب عند الله تعالى ، إذن : هل يعجب الله تعالى كما نعجب ؟ قالوا : نعم ، بدليل أن فى هذه الآية قراءةً بالضم (بل عجبتُ)[1] بتاء المتكلم سبحانه ، وبدليل ما ورد فى الحديث الشريف : « تعجب ربك من شاب ليست له صَبْوة »[2]

لماذا ؟ لأنه خرج عن طبيعة التكوين الإنسانى ، أو قدر على نفسه وتحكم فيها ، بحيث لم يفعل ما يفعله الشباب ، فهذا شىء مستغرب منه ، ومعنى تعجب الحق سبحانه من هذا أنه يستغرب منه هذا العمل ؛ ليجازيه جزاءً مُستغرباً كذلك .

وسبق أنْ قُلْنا : إذا وُجِدت صفة مشتركة بيننا وبين الحق سبحانه ، فعلينا أن نأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء]

وقوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك إياك أن تقول : الله خادع أو الله ماكر ؛ لأن هناك فَرْقاً بين

---

(١) قراءه أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبى ﷺ ، وهى قراءة شريح وأنكر قراءة الضم وقال : إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء . واختارها أبو عبيد والفراء وهى مروية عن على وابن مسعود . قال الفراء : الرفع أحب إلىَّ ، لأنها عن على وعبد الله وابن عباس . والعجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد . [تفسير القرطبى ٥٧٠٨/٨] بتصرف .

(٢) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » . أخرجه أحمد فى مسنده (١٥١/٤) وابن أبى عاصم فى السنة (٢٥٠/١) . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٧٠/١٠) وعزاه لأحمد وأبى يعلى والطبرانى وقال : إسناده حسن .

أسماء الله تعالى وأفعال وصف الله بها نفسه سبحانه . فالمكر مثلاً من أفعال البشر يُراد به خداع الخصم والتخييل عليه ، لتستطيع أنت أنْ تنفذ إلى غَرَضك منه ، وهذا المكر يقابله مكْر مثله يشاكله أو أمكر منه .

والمكر مأخوذ من قولهم شجرة ممكورة ، وهى شجرة ذات عيدان ملفوفة بعضها على بعض ، بحيث لا تستطيع أنْ تميِّزها ، ولا أنْ تردَّ كل فرع فيها إلى أصله ، كذلك المكر فيه لفٌّ وحيل لتستر سيئاتك عن خَصْمك ، هذا فى مكر البشر بعضهم ببعض ، لكن إنْ مكر الله بك فلن ينجيك من مكره شىء ؛ لذلك قال سبحانه :﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿وَيَسْخَرُونَ (١٢)﴾[الصافات] السخرية هى الاستهزاء من الشىء ، والمعنى أنك تعجب يا محمد من نكرانهم وتكذيبهم مع وضوح الأدلة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا (١٣)﴾[الصافات] يعنى : بآيات أخرى وبراهين ترشدهم ﴿لا يَذْكُرُونَ (١٣)﴾ [الصافات] أى : يُعرضون عنها ، ولا يلتفتون إليها ، ويصرون على الإنكار ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً (١٤)﴾ [الصافات] أى : دليلاً جديداً ﴿يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)﴾ [الصافات] أى : يبالغون فى السخرية .

ففى الآية قبل السابقة قال : ﴿وَيَسْخَرُونَ (١٢)﴾[الصافات] وهنا ﴿يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)﴾ [الصافات] هذا دليل على أن من هؤلاء المكذبين أناساً ترقُّ قلوبهم لآيات الله وللأدلة الإيمانية ، وحين ترقُّ قلوبهم تخفّ لديهم نزوة الكيد لمحمد ، فيكتفون بالتكذيب دون السخرية ؛

لأن الإباء يأتى على درجات ، فواحد يأبى أنْ يفعل ما تأمره به ، وآخر يأبى أن يفعل ويسخر منك .

فهؤلاء الذين يسخرون لا يكتفون بالسخرية من رسول الله ، إنما ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ١٤ ﴾ [الصافات] يعنى : يطلبون ممَّنْ لا يسخر أنْ يسخر ، يعنى : يستسخرون غيرهم ، إذن : هناك فَرْق بين يسخرون ويستسخرون ، حتى لا نقول كما يقول بعض المستشرقين : هذا تكرار فى كلام الله .

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ١٥ ﴾

معنى ﴿ إِنْ هَٰذَا ١٥ ﴾[الصافات] ما هذا إلا سحر ﴿ مُّبِينٌ ١٥ ﴾ [الصافات] يعنى : واضح ، والسحر كما قلنا تخييل شىء غير واقع ، فيُخيَّل إليك أنه واقع ، فالسحر لا يغير حقيقة الشىء ، إنما يسحر الناظر إليه ، كما قال تعالى فى سحرة فرعون : ﴿ .. سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ١١٦ ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ٦٦ ﴾ [طه]

إذن : أين السحر من دعوة محمد ﷺ ، ومن قضية الإيمان التى يدعو الناس إليها ؟ والرد على هذه الفرْية سهل وواضح : إذا كانت عند محمد القدرة على أن يسحر الناس ، فيؤمنوا بدعوته ، وسحر هؤلاء الذين آمنوا فلِمَ لم يسحركم أنتم ؟ إذن : هذا اتهام باطل لا معنى له .

ثم يعودون مرة أخرى إلى مسألة البعث ، ليسألوا عنها سؤالَ إنكار واستبعاد ، وهى أصل من أصول الدين لا يستقيم الإيمان إلا بها :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ[1] ﴿١٨﴾ ﴾

عجيب منهم إنكار البعث بعد ما سُقْناه إليهم من أدلة ، حتى إنْ أنكروا أدلتنا وكذَّبوا بها ، ألم يسمعوا من الأمم السابقة والرسالة التى مَضَتْ أن البعث حَقٌّ ؟ إذن : هو العناد والاستكبار عن قبول الحق .

لذلك ، فالقرآن الكريم يضرب لهم مثلاً ودليلاً على صدْق الإخبار بالبعث ، ويسوق هذه القصة من الأمم السابقة فى سورة البقرة :﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[2] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا[3] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

هذه قصة واقعية ؛ لأن القرآن حكاها لنا عن الأمم السابقة ؛ لتكون دليلاً على قدرة الله على بَعْث الموتى ، وهى قصة رجل باحث

---

(١) داخرون : أذلاء صاغرون منقادون لأمر الله تعالى .[القاموس القويم ١/٢٢٢]

(٢) سنه الطعام يسنه : تغيَّر بعد مُضىِّ زمن عليه . [القاموس القويم ١/٣٣٢]

(٣) أنشز الشىء : رفعه وأبرزه وأقامه . أى . نرفع العظام بعضها فوق بعض حتى يتكوَّن هيكل عظمى كامل ثم نكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان . [القاموس القويم ٢/٢٦٧] .

عن الحقيقة ، جعله الله مثالاً ونموذجاً لنفسه أولاً ، ولمن جاء بعده ، فلما مَرَّ على القرية وهى على هذا الحال من الخراب استبعد أنْ تحيا بأهلها مرة أخرى ، فأماته الله ليُريه كيف يحيى الموتى .

وصدق الرجل فى قوله ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٥٩)﴾ [البقرة] وصدق الله فى قوله ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ (٢٥٩)﴾ [البقرة] كيف ؟ لأن عظام الحمار التى تحولت إلى تراب دَلَّتْ على المائة عام ، وطعامه الذى لم يتغير دَلَّ على يوم أو بعض يوم ، وهذا ليس عجيباً ، ما دام أن الفاعل هو الله عز وجل القابض الباسط ، فهو وحده القادر على أنْ يجمع بين الضِّدَّيْن ، فيقبض الزمن فى حَقِّ قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

ألم يأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب بعصاه البحر ، فصار الماء كُلُّ فِرْق كالطود العظيم ، وأمره أنْ يضرب بعصاه الحجر ، فانبجست[1] منه اثنتا عشرة عَيْناً ؟ إذن : هى طلاقة القدرة .

وعجيبٌ منهم أيضاً أنْ يسألوا عن الآباء ، مع أن قضية البعث واحدة ، فقولهم ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧)﴾ [الصافات] دليل على تخبُّطهم ، أو ربما فهموا أن الذى سيموت حديثاً (طازة) يعنى : هو الذى سيُبعث ، أما القديم فبَعْثه غير ممكن .

ويردُّ الله عليهم (قُلْ) يعنى : قل لهم يا محمد بملءْ فيكَ (نَعَمْ) يعنى : ستُبعثون ، والنبى يقولها قَوْلة الواثق ؛ لأنه مأمور بها من قبَل الله القادر على أنْ يبعث الخَلْق ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)﴾ [الصافات] يعنى : ستُبْعَثون حال كونكم ﴿دَاخِرُونَ (١٨)﴾ [الصافات]

---

(١) انبجست : تفجرت ونبعت فى قوة . [لسان العرب - مادة : بجس].

يعني: صاغرين أذلاء خاضعين ، جزاءَ اللَّدَد والعناد والاستكبار على قبول الحق في الدنيا ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات]

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ (١٩) ﴾ [الصافات] أي : مسألة البعث ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٩) ﴾ [الصافات] صيحة[1] واحدة ، أو نفخة واحدة كافية لأن تُخرجهم من قبورهم ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾ [الصافات] لا أننا سنذهب إلى كل واحد منهم ونوقظه (اصحى يا فلان) إذن : البعث الذي تكذِّبون به أمرُه يسير علينا ، ولا يُكلِّفنا شيئاً .

والصيحة في ذاتها لا تبعث الموتى ، إنما هي مجرد إذْن للملَك ، بأن يباشر مهمته ، فهي مثل الجرس الذي يُبْدأ به العمل ، فبعد الزَّجْرة ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾ [الصافات] هكذا مباشرة ؛ لأن إذا هنا تدل على المفاجأة ، فالأمر لن يستغرق وقتاً ، وأول ما يقومون من القبور ينظرون أي : هنا وهناك ؛ لأنهم سيروْنَ أمراً عجيباً لا عَهْدَ لهم به ، وسيُفاجئهم ما كانوا يُكذِّبون به في الدنيا .

لذلك حكى القرآن عنهم في آية أخرى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢) ﴾ [السجدة] وهي أول آية في القرآن يتقدم فيها البصر على السمع ؛ لأنهم أول ما يفاجئهم منظرٌ جديد لم يَرَوْهُ من قَبْل ، فينظرون إليه .

---

(١) قال الحسن البصري : هي النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر. أي : يُزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوْق . [تفسير القرطبي ٨/ ٥٧١٠].

فإذا ما عاينوا هذا المنظر ، قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ﴾ [الصافات] هم الذين يقولون ، وهم الذين يدْعُون على أنفسهم بالوَيْل والثبور ، لا نقولها نحن ويلكم ، بل يقولونها هم ﴿ يَـٰوَيْلَنَا ۝٢٠ ﴾ [الصافات] يعنى : احضر ، فهذا أوانك ؛ لأنهم الآن تكشَّفَتْ لهم الحقائق وبَانَ كذبُهم وفسادُ تفكيرهم ، وما كانوا فيه فى الدنيا من اللَّدَد والعناد ، وأول ما يتبين للإنسان فسادُ تفكيره وسوء عمله أوَّل ما يلوم يلوم نفسه ، فيدعو عليها .

وقولهم : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ ﴾ [الصافات] يعنى : يوم الجزاء على الأعمال ، هذا الجزاء الذى لم يؤمنوا به فى الدنيا ، ها هم يعترفون به ، أو ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ ﴾ [الصافات] يعنى : هذا هو اليوم الذى ينفع فيه الدين ، كما تقول لولدك وهو مُقبل على الامتحان : هذا يوم المذاكرة . يعنى : اليوم الذى لا تنفعك فيه إلا مذاكرتك .

ثم يقولون : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝٢١ ﴾ [الصافات] ثم يعترفون ﴿ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ﴾ [الصافات] والفصل لا يكون إلا فى الخصومة ، والخصومة هنا كانت بين الرسل وأقوامهم المكذِّبين لهم والمعاندين ، ومثْل هذه الخصومة لا يُنهيها الجدل ؛ لأن المكذبين لديهم لدَد وعناد ، وقد لا يُنهيها السيف حتى يموت الظالم دون أنْ يقتصَّ منه .

إذن : لا بُدَّ أنْ يأتى يوم للقصاص وللفصل فى هذه الخصومات ؛ لذلك قال أحدهم : والله لا يموت ظلوم حتى ينتقمَ الله منه ، فقال الآخر : كيف وفلان ظلم كثيراً ولم نَرَ فيه شيئاً ؟ قال : والله ، إن وراء هذه الدار داراً أخرى يُجَازَى فيها المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

نعم ، لا بُدَّ من هذا اليوم ، وإلا لَكانَ الظالم أحظَّ من المظلوم .

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾

أى : اجمعوا كل هؤلاء معاً فى النار ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات] إذن : المحشور ثلاثة : الذين ظلموا جزاءَ ظلمهم ، وأزواجهم ، وما كانوا يعبدونه من دون الله . قلنا : الزوج يعنى المفرد ومعه مثله . فلا نقول على الرجل والمرأة زوج ، إنما زوجان ، الرجل يسمى (زوج) والمرأة تسمى (زوج) ، لا أن الزوج يعنى الاثنين كما يظن البعض ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يُسمَّى توأم ، وهما معاً توأمان ؛ لذلك قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿ مِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

فلو أن الزوج يُطلق على الاثنين لقال : أربعة أزواج .

ومعنى كلمة ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ (٢٢) ﴾ [الصافات] أى : أزواجهم فى الدنيا ، كالزوجة التى تعين زوجها على الظلم ، كامرأة أبى لهب ، التى قال الله فى حقها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

---

(١) الزوج هنا بمعنى الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض ، كالرطب واليابس والذكر والأنثى . [القاموس القويم ١/ ٢٩١] . وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٨/ ٥٧١٢] عدة معان لكلمة أزواج فى الآية :
- « يحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية .
- يحشر الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . قاله عمر بن الخطاب
- يحشر معهم نساؤهم المرافقات على الكفر . قاله مجاهد والحسن .
- يحشر معهم قرناؤهم من الشياطين ، قاله الضحاك ومقاتل بنحوه » .

وخلاصة القول فى معنى (أزواجهم) : أشباههم وأمثالهم .

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا[1] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

أو يُراد بأزواجهم أشكالهم ونظائرهم وقرناءهم الذين أضلُّوهم وأغووهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ.. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات] أى : الأصنام التى عبدوها من دون الله ، تُحشَر معهم فى النار ، ليَروْا آلهتهم التى عبدوها وتعلّقوا بها تسبقهم إلى النار ، فينقطع أملهم فى النجاة وبيان لفساد تفكيرهم ، حيث عبدوا أصناماً لا تضرُّ ولا تنفع ، وهذا توبيخ لهم ؛ لذلك يمتدُّ هذا التوبيخ بعنف فى قوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات] وهل القذف فى النار هُدىً ؟ والمعنى : دُلُّوهم على طريق جهنم ، يعنى : سخريةً منهم وتهكماً بهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : احبسوهم للسؤال وللحساب ، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً ، فكل واحد منهم سيُسأل وسيُناقش ، قالوا : فى السؤال تبكيت النفس للنفس قبل أن يُبكِّتهم الله الذى كفروا به ، يعنى : ساعةَ يعاينون البعث وموقف الحساب يُبكِّتون أنفسهم ، ويندمون ساعةَ لا ينفعُ الندم .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهذا الاستفهام أيضاً على سبيل السخرية والتهكُّم ، يعنى : ما لكم الآن لا ينصر بعضكم بعضاً وكنتم تَنَاصرون فى الدنيا ،

---

(١) الجيد : العنق . المسد : الحبل من الليف أو الخوص أو الشعر أو الوبر . وهو الحبل المضفور المحكم الفتْل ، قد لُوِى ليَّاً شديداً . [لسان العرب – مادة : مسد] .

الأتباع ينصرون السادة ، والسادة يُجنِّدون الأتبـاع ، وما أشبههم فى هذا المـوقـف بالمـثل القـائـل : وافق شنٌّ طبـقـه ، أو قــولنا (اتلم المتعوس على خايب الرجا) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات] أى : خاضـعين منقادين أذلاَّء مُهـانين ، ونحن نقول : رفع الراية البيـضـاء . يعنى : لم يَعُدْ لديه شىء من القوة يدافع بها عن نفسه ، ولا حجة ولا منطق ، إنه الآن قاعد فى ذِلَّة وصَغَار ، ينتظر أمر الله فيه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾

تأمل هذه المواجهة بين التابع والمتبوع ، بعد أنْ ظهرت خيبة الجميع وتكشَّفَتْ الحـقائق التى طالمـا أنكروها فى الدنيا وكـذَّبوا بها ، إنهم الآن يُلْقى كل منهم بالمسئولية على الآخر ، ويتساءلون فيما بينهم .

﴿ قَالُوا (٢٨) ﴾ [الصـافات] أى : الأتباع ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَـمِـينِ (٢٨) ﴾ [الصـافات] اليمـين يعنى من جهـة اليمـين ، واليمين منـه اليمن والتيمن ، واليمين جهة الخير ؛ لذلك أمرنا النبى ﷺ بالتيمُّن[1] فى كل شىء ، فبهـا نُسلِّم ، وبها نأكل ونشرب ، ونتناول الأشـياء ونكتب ، لأنها مُشرَّفة مُكرَّمـة ، حتى العرب قديماً كانوا يتفاءلون بـجهة اليمين لو طار الطيرُ ناحية اليمين .

---

(١) أخرج البخـارى فى صحيحه (١٦٨ ، ٤٢٦ ، ٥٣٨٠) من حديث عـائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يعجبه التيمن فى تنعله وترجله وطهوره ، فى شأنه كله .

واليمين أيضاً من معانيها أنها مصدر القوة في الفعل ، وغالبية الناس يستخدمون اليمين ، وهي عندهم الأقوى ، وقد سُئلنا مرة عن الذين يعملون بالشمال : هل ننهاهم عن ذلك ؟ نقول : العمل باليمين أو اليسار ليس مجرَّد تعوُّد ، إنما هو تكوين طبيعي في الجسم ، ففي الجسم مركز يتحكم في توزيع القوة ، فبعض الناس يميل مركز القوة عندهم ناحية اليمين ، فتكون يمينه أقوى من شماله ، وبعضهم العكس ، وبعضهم يتساوى عنده مركز القوة ، فيعمل باليمين ويعمل باليسار بنفس القوة ، وهذا يُسمُّونه (الأضبط)[1] مثل سيدنا عمر رضي الله عنه .

ومن معاني اليمين أيضاً الحلف والقَسَم . وهذه المعاني كلها واردة في معنى هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ [الصافات] يعني : من جهة الخير والحق لتصرفونا عنه ، أو من ناحية البطش والقوة لتجبرونا على الفعل ، أو بالحلف يعني : تحلفون لنا أن هذا هو الطريق الصحيح ، لا طريق غيره .

ويرد المتبوعون على التابعين ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الصافات] يعني : ما أخرجناكم من الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم بطبيعة الحال غير مؤمنين ، وبمجرد أنْ أشرنا إليكم سِرْتم خلفنا وتابعتمونا ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات] والسلطان إما سلطانُ قوة يقهركم على الفعل ، وإما سلطان حجة يقنعكم بالكفر ، فليس لنا عليكم لا سلطانُ قوة وقهر ، ولا سلطان حجة وإقناع .

﴿بَلْ كُنتُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات] بطبيعتكم ﴿قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الصافات] أي : متجاوزين للحدِّ في الكفر وفي الضلال . وهذه تعليمة إبليس يقولها

---

(١) الأضبط : هو الذي يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه . قاله أبو عبيد . وهو الذي يقال له أعسر يَسَرٌ . [لسان العرب – مادة : ضبط]

لأتباعه فى الآخرة حين يتبرأ منهم ويُلقى عليهم مسئولية كفرهم، كما حكاه القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢)﴾ [إبراهيم]

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤)﴾

معنى ﴿فَحَقَّ (٣١)﴾ [الصافات] أى: وقع ووجب ﴿عَلَيْنَا (٣١)﴾ [الصافات] أى: جميعاً التابع والمتبوع، الجميع وجب له العذاب، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير، وهذا المعنى ورد فى القرآن بأساليب ثلاثة: ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (٤٠)﴾ [هود]، و ﴿حَقَّ الْقَوْلُ (٧)﴾ [يس]، و﴿وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢)﴾ [النمل]

فقد سبق منَّا أنْ أخبرنا بحدوث الشىء، وقد تحقق بالفعل ما أخبرنا به وتحقُّقه بوَقْع يعنى: بقوة وبشدة. وقالوا: إن كلمة ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢)﴾ [النمل] لم تُستخدم إلا فى الشرِّ، ما عدا مرة واحدة استُخدمت فى الخير، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠)﴾ [النساء]

وتأمل قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات] ولم يقولوا مُعذَّبون أو مُحرَّقون، لأن العذاب أو الإحراق يمكن أنْ ينتهى فى وقت من الأوقات، أما الإذاقة فهى دائمة ومستمرة، وهذا المعنى

واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

وقد اكتشفنا مُؤخَّراً أن الجلد هو مركز الإحساس لا المخ ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً تشعر بالألم بمجرد أن تنفذ الإبرة من منطقة الجلد ، وبعد ذلك لا تشعر بألم ، هذه الحقيقة قررها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا (٥٦) ﴾ [النساء] لماذا ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء] فإذاقة العذاب فى نفس الجلد .

وقولهم : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ (٣٢) ﴾ [الصافات] أى : دَلَلْناكم على طريق الغواية والضلال ، والغاوى هو الذى ضلَّ طريق الخير والحق ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) ﴾ [الصافات] والمعنى : إنْ كُنَّا نحن ضالين غاوين ، فلماذا نترككم للهداية وللإيمان ، لا بُدَّ أنْ تشربوا معنا من نفس الكأس ، وهذا منطق أستاذهم إبليس ، فلما عصى وطُرد من رحمة الله أقسم أنْ يُضلَّ معه ذرية آدم ، ليكونوا مثله فى الضلال .

ثم يُنهى الحق سبحانه هذه المواجهة بين أهل الباطل ، ويقرر هذه الحقيقة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ (٣٣) ﴾ [الصافات] أى : يوم القيامة ﴿ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) ﴾ [الصافات] وهذه سُنَّتنا فى أهل الضلال ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) ﴾ [الصافات] والمجرم هو الذى يُكذِّب بقضية الإيمان الأولى ، وهى التوحيد ؛ لذلك يصفهم الحق سبحانه فى الآية بعدها :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ (٣٦) بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾

---

(١) نضجت جلودهم : المراد احترقت . [القاموس القويم ٢ / ٢٧٠]

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : الكفار الذين وُصفُوا بالإجرام ﴿ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : يستكبرون عن قبولها والتصديق بها ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : منصرفون عن عبادتها ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات] أى : من أجله ، ومن أجل دعوته .

وعجيب من العرب وهم أمة كلام يُقدِّرون الكلمة ويتذوَّقونها ، ويجعلون لها أسواقاً ومعارض ، ويُكرِّمون الشعر والشعراء ، لدرجة أنهم علَّقوا أجود قصائدهم على أستار الكعبة ، عجيب من قوم هذا حالهم أنْ يقولوا ﴿ آلِهَتِنَا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات] وهم يعلمون تماماً معنى الآلهة ومعنى العبادة ، فالإله يعنى المعبود فبأى حَقٍّ عُبِدَتْ الأصنام ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شيء نهتْكم ؟ ما المنهج الذى جاءتكم به ؟

نعم هم يعلمون أنها جمادات ، لا تضر ولا تنفع ، لكن عبدوها بفطرة التديُّن فى الإنسان ، فالإنسان بطبعه مُتدين يحب أن يستند إلى قوة أعلى منه يلجأ إليها عند الشدة ، قوة تعينه على التجلُّد والتصبُّر للأحداث ، وقد وجدوا فى هذه الآلهة أنها آلهة بلا تكاليف وبلا متطلبات ، فعبدوها من دون الله .

ثم عجيبٌ منهم وهم أمة كلام ألاَّ يفرقوا بين كلام الله فى القرآن وبين الشعر ، وهم أعلم الناس به وبأوزانه وقوافيه ، فأين الشعر من كلام الله فى القرآن ؟ ثم عجيب منهم أنْ يتهموا رسولَ الله بالجنون ، وهم أعلمُ الناس به وبأخلاقه وصفاته وسيرته فيهم قبل بعثته ، وما أبعدَ الجنون عن الذى جمع محاسن الصفات وكريم الأخلاق !!

الجنون أنْ يتصرّف المجنون بجوارحه تصرُّفاً لا يمرُّ على العقل ، المجنون لا يفاضل بين الأشياء ، ولا يعرف الضَّارَّ من النافع ،

المجنون ليس له خُلُق ، لذلك يردُّ الحق عليهم ويدفع عن رسوله اتهاماتهم ، فيقول : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم]

لذلك يقول تعالى هنا : (بل) وهى للإضراب عن الكلام السابق ، يعنى : دَعْكَ من هذا الهُراء ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الصافات] بالشىء الثابت الذى لا يتغير ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الصافات] صدق مَنْ سبقوه من الرسل فى منهج الله .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا(١) الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

فى الآيات السابقة قال سبحانه حكايةً عن الظالمين قولَ المتبوعين لأتباعهم : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الصافات] وهنا يؤكد هذا المعنى ، إلا أنه يُصرِّح هنا بنوع الإذاقة ﴿ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الصافات] وهذا العذاب الأليم ليس ظلماً ولا تعدياً ، إنما جزاء ما قدَّمتم : ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الصافات] .

وبعد الحديث عن أهل الكفر واللَّدَد وأهل الإجرام والعناد ، وبيان مصيرهم ، وما ينتظرهم من الجزاء يُتبع الحق سبحانه هذا بالحديث عن أهل الإيمان الذين أخلصوا العبادة لله ، والجمع بين المتقابلين أسلوب من أساليب القرآن ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار] وبضدِّها تتميز الأشياء ، والشىء بعد

---

(١) حذفت النون من (ذائقون) تخفيفاً ، وأضيفتْ لما بعدها . القرطبى فى تفسيره (٥٧١٥/٨) .

ذكر مقابله يتبين حُسْنه ، كما قال الشاعر[1] واصفاً محبوبته :

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْح مُبْيضٌ   والشَّعْر مثْلُ الليْل مُسود
ضِدَّانِ لمَّا اسْتُجْمِعَا حَسُنَا   والضدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ[2]

لذلك يذكر الحق سبحانه ما أعدَّه للمؤمنين المخلصين ، بعدما ذكره من جزاء الظالمين المكذِّبين ، لينشيء الحسرة فى نفوسهم ، فتكون عذاباً جديداً يضاف إلى عذابهم فى النار.

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ[3] مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[4] ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ[5] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(١) هو : أبو الشيص الخزاعى ، محمد بن على بن عبدالله ، شاعر سريع الخاطر رقيق الألفاظ ، ولد (١٣٠ هـ) ، من أهل الكوفة ، غلبه على الشهرة معاصراه صريع الغوانى وأبو نواس. هو ابن عم دعبل الخزاعى ، عَمِى فى آخر عمره ، قتله خادم لعقبة فى الرقة (توفى ١٩٦هـ) . [الموسوعة الشعرية]

(٢) البيتان من قصيدة لأبى الشيص الخزاعى من بحر أحذّ الكامل ، عدد أبياتها ٦٦ بيتاً ، ولكن لفظ البيت (منبلج) وليس (مبيض) .

(٣) مما ورد فى هذا ما ذكره ابن القيم فى كتابه « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » (ص٢٤٥) وعزاه لابن أبى الدنيا من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنةَ فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض . قال : فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، وسرير هذا إلى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعاً ، فيقول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا .

(٤) قال الزجاج : (بكأس من معين) أى : من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض ، والمعين : الماء الجارى الظاهر . [القرطبى فى تفسيره ٥٧١٧/٨].

(٥) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٨٧/٧) عن قتادة : (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) قال : لا تُذهب عقولهم ، ولا تصدع رؤوسهم ، ولا توجع بطونهم ، عزاه لعبد الرزاق وابن =

سبق الحديث عن جزاء الكافرين ، وهنا استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات] فهم مُستَثْنون بعيدون من هذا المصير ، وكلمة ﴿الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات] جمع مخلَص بالفتح ، فهى اسم مفعول . يعنى : الذين أخلصهم الله واصطفاهم لطاعته وعبادته ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات] أى : فى الآخرة لأن رزق الدنيا ليس معلوماً ؛ لأنك تكدُّ وتتعب فى الدنيا ، وقد تُحرَم ثمرة هذا الكدِّ ، فالزراعة قد تبور ، والتجارة قد تخسر .

إذن : لنا رزق فى الدنيا ، لكنه غير معلوم ، أما فى الآخرة فرزْقُكَ معلوم مُخصَّص لك لا يتخلف أبداً ، ولا تحول دونه الأسباب ؛ لأنك تعيشُ فى الآخرة - كما قلنا - مع المسبِّب سبحانه .

وسبق أنْ عرّفنا الرزق وقلنا : إنه كلُّ ما يُنتفَعُ به ، حتى ما يُؤخذ من الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة]

ثم ينتقل السياق إلى تفصيل ما أجمل فى كلمة (رزق) . وأهم رزق ينتفع به المرء هو القُوت الضرورى الذى به قوَام حياته ، ثم التفكّه بما يُرفِّه هذه الحياة ، لكن الحق سبحانه هنا لم يذكر الضروريات ، إنما ذكر الترف الزائد على الضروريات ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصافات] مع أنه فى مواضع أخرى ذكر الضروريات ، ثم أتبعها بالفاكهة والتَّرَفيات ، مثل قوله سبحانه : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ

= أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم .
- وعن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقىء والبول . فنزَّه الله خمر الجنة عنها (لا فيها غول) لا تغول عقولهم من السُّكْر (ولا هم عنها ينزفون) لا يقيئون عنها كما يقىء صاحب خمر الدنيا عنها ، والقىء مستكره . عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٨٨/٧) لابن أبى حاتم وابن مردويه .

وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾ [يس]

إذن : لماذا اقتصر الكلام هنا على الفاكهة فحسب ؟ قالوا : لأن الكلام هنا عن الآخرة ، والأكل فى الآخرة لا يكون عن حاجة إلى الطعام ، إنما يكون متعة وتفكُّهاً بالأكل . أو : يكون المراد أن الله تعالى ما دام قد ضمن لك التفكُّه ، فمن باب أوْلَى ضمن لك القُوتَ الضرورى .

ومعنى ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) ﴾ [الصافات] أى : أنهم لا يُرْمَى لهم الأكل ليأكلوا ، كما نرمى الحشيش للبهائم مثلاً ، لا نقصد بذلك إكرامهم ، إنما يُسَاق لهم هذا الرزق ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾ [الصافات] لأنه رِزْقُ المحبِّ لأحبابه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) ﴾ [الصافات] يعنى : لا يكلِّفهم مشقة التزاور ، فالسُّرُرُ التى يجلسون عليها متقابلةٌ ، بحيث إنْ أردتَ أنْ تزورَ أخاً لك تجده أمامك ، دون أن تنتقل إليه ، فهذه مسألة مضمونة .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى بيَّن سبحانه الذين يطوفون بهذه الكأس ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) ﴾ [الواقعة]

الكأس يُرَاد بها الخمر أو القدح الذى يُوضَع فيه الخمر ﴿ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] يعنى : من شىء تراه بعينيك ، أو من عيون تجرى كما تجرى عيون الماء . ثم يصف هذه الخمر بأنها (بيضاء) والبيضاء هى أصفى أنواع الخمر عند العرب .

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ لذيذة . إنما (لَذَّةٍ) أى :

هى فى ذاتها لذّة ، وكأن اللذة تجسدتْ فى هذه الكأس ، كما تقول : فلان عادل . فإنْ أردتَ المبالغة فى هذا الوصف قُلْتَ : فلان عَدْلٌ .

ووصف الخمر فى الآخرة بأنها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾ [الصافات] ليُفرِّق بينها وبين خَمْر الدنيا ، لأن خمر الدنيا كما نراهم يشربونها فى الأفلام لا تُشرَب للذة ، لأنه يضع القليل منها فى الكأس ، ثم يصبُّها فى فمه صبّاً ، ويتناولها على مَضَضٍ لكراهية طعمها .

لكن طالما أن خمر الدنيا لا لَذَّةَ فى تعاطيها ، فلِمَ يشربونها ؟ يشربونها للأثر الذى ينشأ منها من اختلال العقل الذى يُعَدُّ حارساً على الحركة ، وهم يريدون الانطلاق والحرية من هذا الحارس ؛ لذلك فأجوَدُ أنواع الخمر عندهم والعياذ بالله ، هذه التى تُغيِّبه عن وَعْيه ، وتفعل به كذا وكذا .

أما خمر الآخرة فلا يجمعها بهذه إلا اسمها فحسْب ، خمر الآخرة لذَّةٌ ، تشعر بها حين تتناولها ، وتأخذها رشفةً رشفةً على مهل لتتذوَّقَ حلاوتها ، ثم هى لا تذهب بالعقل ولا تغتاله ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ (٤٧)﴾ [الصافات] أى : لا تغتال العقول ، ولا تذهب بها .

﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] نقول : انزف الحوض . يعنى : أفرغه من الماء بالتدريج إلى نهايته ، ونزفَ الدمُ يعنى : سَالَ من الجسم واحدة واحدة ، إلى أنْ يموتَ الإنسان .

ومن أنواع الخمر ما يُسبِّب نَزْفاً لما فى البطن ، بحيث يفرغ شاربها كل ما فى بطنه ، ويُخرِج كلَّ ما فى جَوْفه . أما خمر الآخرة فلا تُسبِّب هذا النزف .

أو : يكون المعنى ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] أى :

لا تُستنزف عقولهم ، ولا يَسْكَرون بسببها ، كما تُسكِر خَمْر الدنيا[1] .

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا وَصْف لنساء الجنة فهُنَّ ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : تغضّ بصرها ، فلا تنظر إلى غير زوجها ، وقلنا : إن أغلى ما يتملّكه الإنسان يمكن أنْ يهبه لغيره ، فأنت تُعيرُ صاحبك سيارتك مثلاً أو بيتك أو ثوبك .. الخ .

أما المرأة فهى الشىء الوحيد الذى لا تقبل مجرد النظرة إليها ، لِمَا لها من خُصُوصية ومنزلة ، كذلك تحبُّ من زوجتك ألاَّ تمتدَّ عَيْنُها إلى غيرك ، وهذه من صفات أهل الجنة فَهُنَّ ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] تقصر نظرها على زوجها ، وهُنَّ كما فى آية أخرى : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : مأسورات محفوظات لأزواجهن .

فالحق سبحانه يحفظ حُسْن المرأة ، ويحرص على التكوين العفيف فى المجتمع ، ليأتىَ النسْلُ شريفاً طاهراً ، وهذه المقاييس التى للمؤمنة فى الدنيا هى كذلك فى الآخرة ، فكأن الحق سبحانه يُطمئن الأزواج على هذه الخصوصية ، ويؤكد أن الزوجة فيها لا يشاركه فيها أحد ، ولو حتى بالنظرة .

---

(١) عن ابن عباس قال : (لا ينزفون) : لا يسكرون . ومجاهد : لا تذهب عقولهم . (أخرجه هناد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم) . وعن سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى . (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم) . أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٨) .

ومعنى ﴿ عِينٌ (٤٨) ﴾ [الصافات] عين جمع عَيْناء . يعنى : واسعة العينين مع حُسْنهما ، وهذه من علامات الملاحة والحُسْن فى المرأة عند العرب ؛ لذلك من المقاييس التى وضعوها للجمال أنَّ العين تكون واسعة ، والفم ضيق ، بحيث إذا قيستْ عينها بفمها ، كانت عينُها أوسع .

ومعنى (عندهم) يعنى : فى حَوْزتهم ؛ لأنها من مَتَاع الجنة ، فمَن اشتهى منهن شيئاً وجده وإلاَّ ترفَّع عنها ، لكن هى موجودة عندهم .

ثم يصفهُنَّ سبحانه بقوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات] كلمة ﴿ بَيْضٌ (٤٩) ﴾ [الصافات] جمع بيضة ، والمراد بيضة النعام[1] ؛ لأنها أكبر وأجمل فى اللون . ويقولون لمن يحمى الجمَال فى قبيلته : يحمى بيضتها ؛ لذلك وصف البيض هنا بأنه ﴿ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات] مُصَان مستور لم تُمَدّ إليه يَدٌ .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) ﴾

سبق أن استمعنا إلى حوار دار بين الكافرين المجرمين فى النار.

وهنا يحكى لنا الحق سبحانه هذا الحوارَ بين أهل الجنة يتساءلون عن أهل الظلم ، وأهل الضلال والغواية وأهل التكذيب ، أين هم الآن ؟ وما مصيرهم ؟

---

(١) قال الحسن وابن زيد : شُبِّهن ببيض النعام ، تُكِنّها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٧١٩/٨)، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨٩/٧) وعزاه لابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ (٥١) ﴾ [الصافات] من أهل الجنة ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) ﴾ [الصافات] أي : صاحبٌ في الدنيا ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) ﴾ [الصافات] أي : بالبعث ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) ﴾ [الصافات] يعني : محاسبون . وهذا السؤال منه على سبيل التكذيب والإنكار لقضية البعث والحساب .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ(١) الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾

القرآن يُصوِّر لك هذا الموقف كأنك تراه ، ويحكيه كأنك تسمعه ، فبينما أهل الجنة مشغولون في تساؤلهم عن أهل الضلال ممَّنْ كانوا يعرفونهم في الدنيا ، إذ نظر أحدهم فاطلع على أهل النار ، فرأى صاحبه الذي حاول أنْ يُضلَّه ، صاحبه المكذِّب بالبعث وبالحساب .

فقال لجلسائه : انظروا هذا فلان في النار .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أي : في وسطها ، فلا أملَ له في النجاة منها ، عندها تذكَّر المؤمنُ نعمةَ الله التي شملتْه وأنقذتْه من هاوية الضلال ، التي كاد أنْ يُوقعه فيها صاحبه ، فقال مخاطباً هذا القرين : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) ﴾ [الصافات] أي : تُهلكني معك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي .. (٥٧) ﴾ [الصافات] أي : تداركتْني وأنقذتني

---

(١) سواء الشيء وسَواه وسُواه : وسطه . [لسان العرب مادة : سوا] وقال ابن مسعود : أي في وسط النار والحسك (الشوك) حواليه . [نقله القرطبي في تفسيره (٥٧٢٢/٨)] .

﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[1] (٥٧)﴾ [الصافات] أى : الذين تحضرهم الملائكة للعذاب ، وهنا تزداد فرحة المؤمنين بإيمانهم ، ويزداد شكرهم لله واعترافهم بفضله ، ولا يُنغِّص عليهم هذه الفرحةَ إلا الخوفُ من الموت وفوات هذا النعيم ، فيقولون :

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)﴾

فهم إذن يخافون فواتَ هذا النعيم ، فيتساءلون ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ (٥٩)﴾ [الصافات] يعنى : ألسنا سنموتُ مرة أخرى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)﴾ [الصافات] أى : بعد ما نحن فيه من النعيم ، أليس هناك شىء آخر نُحاسَب ونُعذَّب عليه ، كأن أمنيته أنْ يظلَّ على هذه الحال من التنعُّم ، فلا يفوته لا بموت ولا بتغيُّر الحال من النعيم إلى العذاب .

﴿إِنَّ هَٰذَا (٦٠)﴾ [الصافات] أى : ما نحن فيه من النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول ، ولا يأتى بعده حساب آخر ولا عذاب ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)﴾ [الصافات] ولا شك أن هذه غاية ينبغى أن يعمل لها كل عامل ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)﴾ [الصافات]

فكأن الحق سبحانه يحكى لنا هذا الموقف من الآخرة ليُبيِّن لنا أثر الإيمان وعاقبةَ العمل الصالح ، ويستحضر لنا ما يحدث فى اليوم الآخر ،

---

(١) المحضرين : المرغمين على الحضور ، يُحضرهم الملائكة للعذاب . [القاموس القويم - مادة : حضر] . وقال الماوردى : أحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا فى الشر . نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٢٣) .

لنأخذ من ذلك العبرة والعظة ، فكلُّ عمل يُؤدِّى إلى هذه العاقبة سَهْل هَيِّن ، مهما تحمَّلْنا فيه من مشَاقّ ومتاعب ، وهو مكسب لا خسارةَ فيه .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ[1] ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا[2] كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

الآيات هنا تراوح بين ذكْر الجنة وما فيها من النعيم ، وذكْر النار وما فيها من العذاب ، فتعود مرة أخرى إلى جهنم وعذابها ووَصْف ما فيها ﴿ أَذَٰلِكَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : ما سبق ذكْره من نعيم الجنة ﴿ خَيْرٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أفضل ، فهى بمعنى أفعل التفضيل . ﴿ نُّزُلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : منْزِلاً وضيافةً .

فالنُّزُل مَا يُعَدُّ للضيف الطارىء من مسكن ، فيه مُقوِّمات الحياة من مأكل ومشرب وخلافه ، لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، والفنادق مع ما فيها الآن من سبل الراحة هى ما أعدَّه البشر للبشر ، فما أدراك بما أعدَّه ربُّ البشر ؟ لا بُدَّ أنْ تكون الضيافةُ على قدر إمكانات المضيف .

---

(١) شجرة الزقوم مشتقة من التزقم ، وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنها . واختُلف فيها : هل هى من شجر الدنيا التى تعرفها العرب أم لا ؟ على قولين :
أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا اختلفوا فيها ، فقال قطرب : إنها شجرة مُرَّة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .
الثانى : أنها لا تُعرف فى شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية فى شجرة الزقوم قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزبد والتمر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٨/ ٥٧٢٤)

(٢) طلعها : ثمرها ، سُمِّى طَلْعاً لطلوعه .

﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾ [الصافات] وطبيعي أن نسألَ : ما هي يا ربّ شجرةُ الزَّقُّوم ؟ فيصفُها الله لَنَا ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الصافات] فتنة بمعنى : محنةَ وعذاب ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات] أي : في وسطها .

وهذا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة ، فلا تسأل عن كيفية نُمو شجرة في وسط النار ؛ لأن الفاعل هو الله عز وجل . إذن : خُذْها في إطار تنزيه الحق عن قوانين الخَلْق .

ومعنى ﴿طَلْعُهَا ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] أي : ثمرها ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] لكن نحن لم نَرَ رءوس الشياطين ، لذلك وقف بعض المستشرقين الذين يحاولون الاستدراك على كلام الله ، وقف يقول :

كيف يُشبِّه اللهُ في هذه الآية مجهولاً بمجهول ، فنحن لم نَرَ شجرةَ الزقوم ، ولم نر رءوس الشياطين ، والتشبيه يأتي لتوضيح المشبّه بذكر المشبَّه به ، فما فائدة أنْ تُشبه مجهولاً بمجهول ؟

نقول : مُخ الإنسان فيه جزء للحافظة ، وجزء للذاكرة ، وجزء للتخيُّل يُسمَّى مُخَيلة ، فالإنسان يرى الأشياء ، فتسجلها الحافظة في حاشية الشعور ، ثم الذاكرة تستدعي له هذه الأشياء ، أما المخيلة فتأخذ من واقع الأشياء وتكوِّن صوراً جديدة مُتخيَّلة ، لا أصلَ لها في الواقع .

هنا أنت مع هذا التشبيه ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] مع أنك لم تَرَ رءوس الشياطين ، إلا أن خيالك سيرسم لها صورة على أبشع ما يكون ، وعندها سيتضح لك الفارق بين النُّزُل الذي أعَدَّهُ الله للمؤمنين في الجنة وهذه الشجرة التي ثمارها كرءوس الشياطين ، فالجمع بين هاتين الصورتين مقصود ، فكأن ربّكَ عزَّ وجلَّ أراد أنْ يسوقَ لك العظَةَ في وقت الجزاء المشهود ، لا في وقت التكذيب .

وشجرة الزقوم شجرة خبيثة، مُنتنة الرائحة ، مُرَّة الطَّعْم ، موجودة فى منطقة تهامة ، جعلها الله مثلاً للشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم . قالوا : هذا بمثابة تقريع للمعذَّبين بهذه الشجرة ، لأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث وبالحياة بعد الموت ، فجعل الله لهم هذه الشجرة تنبت فى وسط جهنم وفيها طعامهم ، فلا طعام لهم غير ثمرها .

والشجرة تعنى الخضرة والمائية ، ومعلوم أن المائية تنافى النار، وفى هذا إشارة إلى طلاقة القدرة التى كذَّبوا بها فى الدنيا . إذن : كَوْن هذه الشجرة فى أصل الجحيم ، وهم يعيشون على ثمرها ويحتاجون إليها وهى شاخصة أمامهم ، هذا كله تقريع لهم على ما كذّبوا به .

وهذه المسألة تُذكِّرنا بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين أُلْقِى فى النار ، فجعلها الله عليه بَرْداً وسلاماً ، وعطَّل بقدرته تعالى قانون الإحراق .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبشِّع صورة هذه الشجرة ، مع أن العرب يعرفون شجرة بهذا الاسم ، ويعرفون خُبْثها ونَتْن ريحها ومرارة طَعْمها ، ويعرفون طَلْعها البسيط ، لكن أحداً لم يَرَ الطَّلْع الذى يُشبه رءوس الشياطين .

إذن : المراد تبشيعه وإعطاء الفرصة للتخيُّل أنْ يذهبَ فى تصوُّر بشاعته كلَّ مذهب ، فطَلْع كل شىء يكون جميلاً ، بل هو أجمل ما فى الشجرة ، أما هذه فطَلْعُها كأنه رءوس الشياطين ، ولك أنْ تتصوَّر ما فيه من القُبح والدَّمَامَة والشكل المنفِّر .

ومعلوم أن العرب كانت تعتقد أن الشيطان أقبحُ صورة ، ويقابله

الملاك أحسن وأجمل صورة ، ومن ذلك قول النِّسْوة لما رأيْنَ يوسف عليه السلام : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾ [يوسف]

إذن : رَاعَى القرآن فى هذا التشبيه معتقدات العرب ، وجاء بصورة مجهولة . نعم لكن سيتصوَّرها كلٌّ واحد بمقاييس القبح عنده ، ولو أتى بمثَّل محدَّد معروف فى القُبْح ، لكَانَ على لَوْنٍ واحد ، وربما كان قبيحاً فى نظر شخص وغير قبيح فى نظر الآخر ، لكن الحق سبحانه يريد منظراً مُقبَّحاً عند الكل ، ومَنْ منَّا يتصوَّر الشيطانَ جميلاً ؟

لذلك قلنا : إذا جئنا برسامى الكاريكاتير فى العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة تخيُّلية للشيطان ، فسوف يرسم كلٌّ منهم صورةً للقبح فى نظره ، ولن تجد فيها صورة مثل الأخرى . إذن : جاء تشبيه طلْع شجرة الزقوم برءوس الشياطين ، ليُشيعَ معانى القبح جميعاً فى النفوس ، وهذه الصورة كفيلة بأنْ تُنفِّرنا من هذه الشجرة.

وأصل الطَّلْع هو الكمُّ[1] الذى يحوى أول ثمرة للشجرة ، ويُقَال للكوز الذى يحوى ثمرة النخل وما يشبهها . فإذا خرجتْ منه الشماريخ ، وبانت استدارته وتكوينه يسمى (بلح) طالما كان أخضرَ اللون .

والبلحة لها ثلاثة أوصاف :

الأول : حجمها ، فإذا أخذتْ حجمها الطبيعى والنهائى يبدو دون لون ، فتتلوَّن إما حمراء أو صفراء ، وفى هذه المرحلة يقولون (البلح عفَّرْ) ويسمونه (زهو) .

---

(١) الكمُّ والكُمُّ : غلاف الثمر والحب قبل أن يظهر . وهو وعاء الطلع ، وغطاء النَّوْر . فكُمُّ الطَلَعة قشرها ، ومن هذا قيل للقلنسوة كُمَّة لأنها تغطى الرأس ، ومن هذا كُمَّا القميص لأنهما يغطيان اليدين . [لسان العرب – مادة : كمم]

الثـانى : إذا استـقر اللون وكـمُلَتْ حُمْـرته أو صُفْـرته يُسمُّـونه (بُسْر).

الوصف الثالث : بـعد الحجم واللون يأتى القـوام : لين أو يابس بحسب البيئة ، فإنْ كانت حارة جافة ، فإنها تؤثر على البُسْر وتُجفِّفه ، فيتحول إلى تمر ، وإنْ كانت البيئة باردة رطبة صار البُسْر رطباً .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا[1] مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾

معنى : ستـضطرهم الضرورة وتُلْجِئهم لهـذا المثل المكدِّر المنكِّد لهم ، حـيث لا طعامَ لهم غـيرها ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصـافات] ولن يأكلوا على قَدْر الضرورة ، بل﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الصافات] وعندما يملأون منها بطونهم تَزْداد النارُ فيها ، فيريدون شراباً يُطفىء هذه النار ، فيكون شرابهم الحميم ، والعياذ بالله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الصافات] الشَّوْب هو الشـىء المخلوط المـمزوج ، والحميم هو الماء الذى بلـغ غايةَ الحرارة . وفى موضع آخر ، سمَّاه القرآن (الغسلين)[2] هذا شرابهم والعياذ بالله ، فإذا ما أكلوا وشربوا عادوا لـلجحيم مرة أخرى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الصافات]

ثم يُبيِّن الـحق سبحـانه علَّة ذلك ، وسبب هذا المـصيـر المؤلم ،

---

(١) الشَّوْب : الخَلْط . فـالشوب فى الآية : الخلط والمـزَاج [لسان العرب – مـادة : شوب] . قال السـدى : يُشاب (يُخلط) لهم الحمـيم بغسَاق أعينهـم وصديد من قيحـهم ودمائهم . وقيل : يُمـزج لهم الزقوم بالحمـيم ليجمع لهم بين مـرارة الزقوم وحرارة الحـميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم . [القرطبى فى تفسيره ٨/٥٧٢٦ ، ٥٧٢٧] .

(٢) قـال تعـالى : ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحـاقة] ، والغـسلين هـو صـديد أهل النار [التفسير الميسر] .

وأنه ليس ظلماً لهم ، إنما جزاء ما فعلوا :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾
فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يعنى : وجدوا آباءهم على ضلال ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : يتبعون طريقهم ويُقلِّدونهم ، ومعنى ﴿ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الصافات] أى : يُزْعجون ويسرعون كأن شيئاً يحملهم على الإسراع ؛ لأن هذا الفعل (يُهْرَعُونَ) مبنى للمجهول . أى : لِمَا لم يُسَمَّ فاعله كما نقول زُكم فلان ، فالفاعل غير معروف .

ولو كان الإسراع فى اتباع الآباء منهم لَقَال يَهرعون بالفتح ، إنما يُهرعون كأن شيئاً يدفعهم إلى تقليد الآباء ، ليبين لك سبحانه أن الشر أعدى ، لأنه لا تكليفَ للنفس فيه ولا حجزَ للشهوة ، لذلك يجرى الإنسان إليه ويُسرع فى طلبه .

أما الهدى والمنهج فلا يسرع إليه لأنه يُضيِّق عليه مجال الشهوات ، ويُقيِّد حركته فى إطار ما شرع الله ، إذن : هم يُقلِّدون الآباء وهم يعرفون أنهم ضالون لينفلتوا من قَيْد التكاليف الشرعية .

لذلك لما أخذ الله تعالى علينا العهد ونحن فى عالم الذر ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وقد حكى القرآن اعترافهم باتباع الآباء فى أكثر من موضع من

كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة] ويردُّ عليهم ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فكأن الحق سبحانه يقول لهم : أنتم كاذبون فى هذا الادعاء . ولو كانت القضية عامة ، فلماذا لم تتبعوا أباكم آدم عليه السلام ، وقد جاء بمنهج وسار عليه ؟ فلو اتبعه القوم لقلَّدهم مَنْ بعدهم وهكذا ، ولاستمرَّ منهج الله ، إنما حكَمتكم الشهواتُ ، وسيطرتْ عليكم الرغباتُ ، فأخرجتكم عن منهج ربكم وخالفتم . ثم أليس منكم رجل عاقل يَعِى هذا الضلال ، ويأنف أنْ يتبعه ، ويبحث عن هدى ؟

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) ﴾ [الصافات] يعنى : ليس هؤلاء بدعاً فى الضلال ، فقد ضَلَّ قبلهم كثيرون ممَّنْ سبقوهم ، وهذا يعنى أن قلَّةً آمنتْ ، والكثرة ضلَّتْ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] يعنى : لم نتركهم على غفلتهم ، بل أرسلنا إليهم الرسل تنذرهم وتحذرهم .

وقلنا : إن فى ذات النفس البشرية مناعاتٍ ذاتيةً ، تعصم صاحبها من المعصية ومن الزَّلل ، حتى لو كان منفرداً عن الناس ، فإنْ ضعُفَتْ عنده هذه المناعة فخالف منهج الله تلومه النفس اللوَّامة الأوَّابة ، فتؤنبه حتى يتوب ويرجع ، فإنْ ألفَ المعصية وضعُفَتْ عنده

النفس اللوَّامة ، ولم يَعُد له رادع من ذات نفسه رَدَعَه المجتمعُ الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، المجتمع الناصح الذى يقيم بين أفراده قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

وفَرْق بين : وصُّوا وتواصَوْا ، تواصَوْا يعنى : يُوصى بعضكم بعضاً ، ففيها تفاعل بين أفراد المجتمع ؛ لأن المجتمعَ حتى المؤمن المتدين يتفاوتُ الناسُ فيه من حيث الاستقامة وتطبيق المنهج ، ولا بُدَّ أنْ يُوجَد فى المجتمع مَنْ يضعُف فيشذّ ، أو تصيبه غفلة ، فيجد مَنْ يُردعه ، ويجد مَنْ يُذكِّره حتى يعودَ إلى الجادة .

فإذا فُقد الرادع من المجتمع ، وعَمَّ الفساد المجتمع قلنا : تدخلتْ السماء برسول جديد ومنهج جديد .

نحن نعرف أن الرسول يأتى بشيراً ونذيراً . لكن الحق سبحانه هنا خَصَّ الإنذار ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الصافات] لماذا ؟ قالوا : لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وقلنا لتوضيح هذه المسألة : لو أن شخصاً يرمى لك تفاحة مثلاً ، وآخر يرميك بحجر لا شكَّ أنك ستدفع الحجرَ عن نفسك أولاً .

وقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : تأمل نتيجة الإنذار ، فرسل الله أنذروا الجميع ، لكن هل انتفع الجميعُ بالإنذار ؟ لا بل منهم مَن انتفع به ، ومنهم مَنْ أعرض عنه ، لذلك جاء الحق سبحانه بعدها بهذا الاستثناء : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الصافات] أى : الذين أخلصهم واصطفاهم لعبادته وطاعته ، وهم الذين انتفعوا بالإنذار .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن موكب الرسل إجمالاً ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الصافات] أراد سبحانه أنْ يتكلَّم عنهم

ببعض التفصيل ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لكن ، لماذا بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ؟ قالوا : لأن دعوته كانت أشبه بدعوة سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وَصَّى نُوحاً ، ووصَّى غيره من الرسل ممَّنْ هم أعلى منه ، ومع ذلك عطفهم عليه ، وجعله فى المقدمة . قالوا : لأن لنوح خصوصيةً هى فى البيئة التى كان فيها ، وفيمن آمن به ، فكان المؤمنون به هم الذين نجَوْا فى السفينة ، وهم وحدهم الموجودون فى العالم كله فى ذلك الوقت ، فكأن له عمومية رسالة بخصوص الموضوع ، ورسول الله ﷺ له عمومية رسالة ، لكن فى عموم الموضوع .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات] كلمة (نَادَانَا) تدلُّ على أنه - عليه السلام - استنفد كل وسائله فى دعوة قومه ولم تفلح ، بدليل أنه قال فى موضع آخر كما حكى القرآن : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ

عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) ﴾ [نوح] وما دعا نوحٌ على قومه هذه الدعوة إلا بعد يأسٍ منهم ، وبعد أنْ وجد أن أسبابه الإيمانية المحيطة به من أتباعه غير كافية ، فلمَنْ يلجأ إذن ؟ يلجأ لله ، لأنه وحده القادر على أنْ يُخلِّصه منهم ، فيناديه : يا ربِّ أنت بعثتني فلا تتخلَّ عني ، وهذه ظاهرة فطرية لكل مستنجد مستغيث ، فأنت حين يطرأ لك خطر ، لا تستطيع دفعه بقوتك وحيلتك تستنجد بأقرب الناس إليك ، فإن لم تجد تستنجد بالبعيد ، فإنْ عزَّ المغيثُ تقول - كما قُلْنا سابقاً - (يا هوه) يعني : يا ربِّ ليس غيرك يُغيثني .

ثم يأتي جواب هذا النداء : ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) ﴾ [الصافات] لأنه - عليه السلام - كان نِعْمَ الداعي ، فلا بُدَّ أنْ يقابل بنعم المجيبون ، ولم يقُلْ : فلنعم المجيبُ ، لأن الحق يجيبه بجنوده في الأرض مثل : الهواء والماء والملائكة .. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] ونتيجة هذه الإجابة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الصافات]

وهنا وقف المستشرقون يقولون : كيف وقد أهلك اللهُ ولده ، أليس من أهله ؟ لكن في موضع آخر قَصَّ القرآن علينا قصة نوح عليه السلام وولده الذي شَذَّ عنه ، فغرق مع المغْرَقين ولم تُفلح توسُّلاتُ نوح : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) ﴾ [هود]

وهذا اللبس ناتج من أن الناس أغفلوا أنَّ بنوة الأنبياء ليستْ بنوة النسب ، إنما بنوة الإيمان بالله ؛ لذلك رَدَّ اللهُ على نوحٍ : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

فالأهلية هنا أهليةُ عقيدةٍ وإيمانٍ بالله ، لا أهلية دمٍ ونسبٍ ؛ لذلك

إذا نظرتَ فى هذه الآية تجد الحق سبحانه لم يَنْفِ الذاتَ ، إنما نفى فعل الذات ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦) ﴾ [هود]

لذلك قال النبى ﷺ : « .. لا يأتينى الناس بأعمالهم ، وتأتونى بأنسابكم وأحسابكم »(١)

وكلمة ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) ﴾ [الصافات] المراد : الغرق ، والكرب هو : المكروه الذى لا تستطيع دفعه عن نفسك ، ولا يدفعه عنك مَنْ حولك حين تستغيثُ بهم ، فإنْ كان لك فيه حيلة للنجاة فلا يُسمَّى كَرْباً ، ووَصْفُ الكرب هنا بأنه عظيم ، لأنه جاء بحيث لا يملك أحدٌ دَفْعه ، فالماء ينهمر من السماء ، وتتفجَّر به الأرض ، ويغطى قِمَمَ الجبال ، فأين المفرُّ إذن ؟

ومعلوم أن الماء قِوَام حياة كل حَيٍّ ، ومن أَجَلِّ نعَم الله علينا ، لكن إنْ أراد سبحانه جَعَلَ الماء نقمة وعذاباً ، وقد رأينا فى قصة سيدنا موسى - عليه السلام - كيف نجَّى اللهُ موسى بالماء ، وأهلك فرعونَ بنفس الماء .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) ﴾ [الصافات] أى : الذين كانوا معه فى السفينة وهم المؤمنون بدعوته ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) ﴾ [الصافات] أى : فى الناس جميعاً من بعده يثنون عليه(٢) .

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) ﴾ [الصافات]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يا فاطمة ، أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببلالها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٤) كتاب الإيمان .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٢٩) عند تفسير هذه الآية : « أى : تركنا عليه ثناء حسناً فى كل أمة ، فإنه مُحبَّبٌ إلى الجميع ، حتى إن فى المجوس من يقول إنه أفريدون ، روى معناه عن مجاهد وغيره »

فالناس جميعاً عليهم حين يسمعون سيرة هذا النبى الذى تحمَّل فى سبيل دعوته المشاقّ ، ومكث فى دعوة قومه هذا العمرَ الطويلَ ، الذى خالف أعمار الناس أن يُسلِّموا عليه ، وينبغى حين نسمع ذكْره أنْ نُسلِّم عليه ، فنقول : عليه السلام ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ (٧٩) ﴾ [الصافات] أى : اعْطه السلامة والسلام ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٨٠) ﴾ [الصافات] يعنى : هذه سُنة الله مُتَّبعة فى أنبيائه ، أنْ ينصرهم ويُبقى لهم الذكْرَ الحسن من بعدهم ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢) ﴾ [الصافات] يعنى : الكافرين . وكلمة (الآخرين) إهمالٌ لهم ، واحتقارٌ لشأنهم .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) ﴾ [الصافات] أى : أن إبراهيم - عليه السلام - كان من شيعة سيدنا نوح . يعنى : من أتباعه الذين تابعوه ، وساروا على منهجه . والشيعة هم الذين يُشايعون الإنسان على فكره فيؤمنون به ، بل ويحاولون أنْ يحملوا دعوته إلى الناس معه ، وأنْ يتحمَّلوا الأذى فى سبيل ذلك ، ومن هنا سُمِّيَتْ الشيعة المذهب المعروف الذين شايعوا الإمام علياً رضى الله عنه ، وتعلمون طبعاً الفرق بين الشيعة والشيوعية .

لكن ، لماذا بدأ الحق سبحانه هنا موكبَ الرسل بنوح - عليه السلام - ثم تبعه بإبراهيم - عليه السلام ؟

يقـول سبحـانه : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات] هذه هى العلة ؛ لأن سلامة القلب هى الأساسُ فى الدين وفى العقيدة ، لأن فطرة الله التى فطر الناسَ عليها ابتداءً مبنية كلها على هيئة الصلاح والسلامة ، فإنْ طرأ على هذه الفطرة فسادٌ فمن الإنسان .

لذلك مدح سيدنا إبراهيم بسلامة القلب ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات] وهو القلب الذى فطر عليه أولاً ظل كما هو لم يتغيَّر ، فعاش به ، وجاء به ربه فى الدنيا ، لذلك يظفر به فى الآخرة : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء]

فالسلامة الأولى التى فطره الله عليها استصحبها باستصحاب منهج الله ، فسلم فى الدنيا ، فلقىَ اللهَ بقلْب سليم فى الآخرة ، وهكذا وصف اللهُ نبيَّه إبراهيمَ على أحسن ما يكونُ الوصف .

وتأمل كلمة ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات] فهى تُوحى بأن سيدنا إبراهيم لم ينتظر إلى أنْ يأتى له رسولٌ يدعوه ، إنما أقبل على الله بنفسه ، وجاء بفكره يبحث ويتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، إلى أنِ اهتدى إلى الله .

لذلك لما أراد الله تعالى أنْ يُعرِّف نبيه إبراهيمَ ، وأنْ يُقدِّمه لمعشر الإيمان قال هذه البرقية الموجزة : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل]

تعلمون أن الحق سبحانه خلق المواهب ووزَّعها على الناس ، فكلٌّ منَّا له موهبة فى شىء ما ، ذلك ليظلَّ الناسُ مترابطين ترابطَ حاجة ، فتحتاج لى وأحتاجُ لك ، أما سيدنا إبراهيم فقد جمع وحاز كُلّ

المواهب التى فى أمة كاملة ، فالمعنى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠)﴾ [النحل] يعنى : حاز مواهب أمة .

لذلك استحق - عليه السلام - أنْ يُريه الله ملكوتَ السموات والأرض ، فالناس جميعاً يكتفون بعالم المُلْك ، أما هو فقد تجاوز هذا العَالمَ إلى عالم الملكوت ، لماذا ؟ لأنه جرَّد نفسه عن شبهة اليقين بأحدٍ غيرِ الله ، بدليل أنه لما أُلْقِى فى النار وجاءه المَلَك يعرض عليه المساعدة : (ألكَ حاجة) ؟ فيقول سيدنا إبراهيم بما لديه من رصيد الإيمان واليقين بالله (أما إليك فلا)[1]. يقولها فى هذا الوقت العصيب ، وهذا الكرب المُلِمّ .

وقوله سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ [الصافات] وهذه تُعَدُّ من سلامة القلب ، لأنه أحبَّ شيئاً وسَعِد به ، فأراد أنْ ينقله إلى غيره وأوَّلهم الأقارب ، فهم أَوْلَى الناس بأنْ تُعدِّى لهم خيرك ؛ لذلك أول ما دعا إبراهيم دعا أباه وقومه : ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ [الصافات]

وكلمة (لأبيه) وردتْ فى القرآن عشرَ مرات ، واحدة فقط منها لسيدنا يوسف - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ [يوسف] والتسع الباقيات لسيدنا إبراهيم بدايةً من سورة الأنعام إلى سورة الممتحنة ، من هذه التسع موضع واحد جمع فيه بين الاسم العَلَم والوصف ، فقال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤)﴾ [الأنعام]

وفى الثمان الباقيات جاءت كلمة (لأبيه) بدون ذكر آزر ، فكأن كلمة آزر جاءتْ فى هذا الموضع لتُشعرنا بشىء ، هو أنك إذا جمعتَ بين الوصف والعَلَم ، فلا بُدَّ أنْ يكون الوصفُ مشتركاً مع غير العَلَم ، وضربنا لذلك مثلاً قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تسألَ عن شخص ، وقابلك ولده فى الشارع تقول له : أبوك موجود ؟

لأن هذا السؤال لا ينصرف إلا إلى أبيه الحقيقى ، فإنْ قلتَ : أبوك محمد موجود ؟ فإنك لا شكَّ تقصد عمه ، لأنك ميَّزته باسمه لإزالة الاشتراك فى الأُبوّة .

إذن : آزر لم يكُن الأب الحقيقى لسيدنا إبراهيم ، إنما هو عمه ، ولا غرابةَ فى ذلك ، فالقرآن يُسمِّى العم أباً فى قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل أخو إسحاق ، ومع ذلك أدخله فى جملة الآباء بالنسبة لسيدنا يعقوب ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وسيدنا إبراهيم فى معرض دعوته لأبيه وقومه يسألهم هذا السؤال : ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء] وفى موضع آخر : ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الصافات] و ﴿مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء]

وهنا : ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات]

وهذه كلها استفهام إنكارى ، وقُلْنا : إن الاستفهام أقوى من الإخبار ؛ لأن الإخبارَ يمكن أنْ يُكذَّب ، أمَّا الاستفهام فيجعل الخصم يُقِرّ بالقضية ، ولا يستطيع أنْ يُكذِّبها .

والإفْك هو أقبح أنواع الكذب ؛ لأن القُبْح فى الكذب على مراحل ،

كيف ؟ قالوا : ننظر فى الموضـوع الذى يكون فيه الكذب ، فإنْ كان فى الحقيقـة العُلْيَا فى الذات الإلهية ، فهـو أقبح الكذب كمَنْ يدَّعى لله شريكاً .

فإنْ كـان الكذب على البـشر فـهو بحـسب مَنْ تكذب فى حَـقه ، فمثلاً الذين اتهموا السيدة عائـشة وخاضوا فى عرْضـها سَمَّاهُ الله إفْكاً لشناعتـه وعظَم منزلة مَنْ قيل فى حَقِّـه هذا الكذب ، فقال سبـحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . (١١) ﴾ [النور]

ومن معانى الإفك قَلْب الشىء على وجهـه ، وقَلْب الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم]

والمـعنى : أتريدون آلهـة إفكاً وكـذباً دون الله ﴿ فَـمَـا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَـالَمِـينَ (٨٧) ﴾ [الصـافـات] أخـبـرونا مـاذا تظنون فى الله ؟ ومـا الذى لا يعجبكم فى ألوهيته سبحانه ؟ وكـيف تخدعون أنفسكم ، فتنصرفون عنه سبحانه ، وهو رَبُّ العالمين ، ومثَالُ ذلك قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار]

لذلك قال أحد العارفين : كـأن الحق سبحانه لقَّن الناسَ الجوابَ ، فالذى غَـرَّنى بالله أنه كريم . والطُّرْفة هنا أن رجـلاً رأى آخر يصلى صـلاة على عَجَل ، ينقـرها نقـراً ، فقـال له : بالله لو عليك خـمسـة قروش لواحد ، يصح أنك تعطيها له مـمسوحة ؟ فقال الرجل : والله ، لو كان كريماً سيقبلها ولا ينظر فيها .

فكأن الحق سبحانه يتعجَّب من هؤلاء الذين أشركوا به سبحانه ، مع وضوح الدليل على بُطلان شركهم ، والشىء لا يُتعجَّب منه إلا إذا جاء على غير ما يجب أنْ يكونَ عليـه من الصِّدْق ؛ لذلك قال سبحانه

في أول البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

يعنى : هذا أمر عجيب منكم ، ومسألة لا يقبلها العقل .

ثم بدأ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يُحقِّق قَوْلَ ربه : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام] وسبق أنْ فرَّقْنا بين الملك والمُلْك والملكوت .

يقول سبحانه :

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] هذه أولى خطوات إبراهيم إلى عالم الملكوت ، والنظرة هنا ليستْ هى النظرة الخاطفة العابرة ، إنما نظرة التأمُّل الفاحصة المتأنية ، فهى بمعنى رأى بتمعُّن واستنباط ، ومن ذلك قولنا : هذه مسألة فيها نظر . يعنى : تأمُّل وتأنٍّ . والنجوم مفردها نجم ، وهو كل مضيء فى السماء إضاءةً ذاتية ، لا أنْ يعكس ضوء الشمس ، وعليه فالشمسُ نَجْم من النجوم .

فقوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] دَلَّ على أنها نظرة طويلة مُتأملة مستوعبة ، لأنها استوعبتْ كوكباً وقمراً وشمساً . لذلك شرح لنا هذه النظرة فى موضع آخر ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : كانت نظرةُ إبراهيمَ طويلةً متأنيةً ؛ لأنها استغرقتْ طيلة مطلع الكوكب وغيابه ، ثم مطلع القمر وغيابه ، ثم مطلع الشمس وغيابها ، فلما رأى - عليه السلام - أن هذه المرائى لا تصلح لأنْ تكونَ آلهة تُعْبد ، قال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] البعض يعدُّها كذبةً من كَذبات سيدنا إبراهيم أنه قال لقومه : إنى مريض .

إذن : أخذوا السُّقْم على أنه سُقْم الأبدان[1] والمراد هنا سُقْم القلب ، وشُغْله بما لا يستطيع الإنسانُ تحمُّله من إنكار القوم لمسألة الألوهية .. فهذه قضية تتعبه وتُؤرِّقه .

وهذا هو السُّقم الذى أراده سيدنا إبراهيم ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الصافات] أى : مُجهد فكرياً من إنكار الناس لقضية الألوهية . إذن : إبراهيم عليه السلام لم يكُنْ ينظر فى النجوم ليرى دليلاً يقتنع هو به ، إنما يبحث عن دليل مادى فى الكون ينقله للناس .

لكن ، ما الذى أحوجه أنْ يقولَ للقوم : إنى سقيم ؟ قالوا : لأنهم كانوا فى يوم عيد يجتمعون فيه ، فقال : إنى سقيم لكى لا يخرج

---

(١) فَهُمْ تصوروا أن قوله لهم (إنى سقيم) : أى إنى مطعون أى : مصاب بالطاعون ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات] أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله (إنى سقيم) قال : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون . [الدر المنثور للسيوطى ٧/١٠٠]

معهم ، وليتفرغ هو لما عزم عليه من تحطيم الأصنام ، يقول تعالى : ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠)﴾ [الصافات] أى : انصرفوا وتركوه .

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)﴾ [الصافات] معنى راغ : ذهب خُفيةً ، بحيث لا يراه أحد ، أو تسلَّل كمن يريد الانصراف من مجلس دون أن يشعروا به ، فيمشى خطوتين ثم يقف ، ثم يمشى ، ثم يتوارى خلف شىء وهكذا حتى يخرج ، وهذا المعنى نقوله بالعامية : فلان زوَّغ أو زاغ .

وسيدنا إبراهيم فعل ذلك وتسلل إلى آلهتهم ليحطمها ، لكن قبل أنْ يحطمها استهزأ بها ﴿فَقَالَ (٩١)﴾ [الصافات] أى : للآلهة ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١)﴾ [الصافات] فلم يُجيبوا ، فقال : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢)﴾ [الصافات] قالها سخريةً واستهزاءً بهم .

بعد ذلك مال عليهم ضرباً ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣)﴾ [الصافات] وقلنا : إن اليمين جهة القوة . كما فى قوله سبحانه : ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)﴾ [الصافات] أى : من جهة القوة والقهر . والمعنى أن سيدنا إبراهيم أخذ يُحطمها بقوة ويُكسِّرها ، حتى أحدث التكسيرُ صوتاً عالياً سمعه القوم ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤)﴾ [الصافات] أى : مسرعين .

فلما رآهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات] الاستفهام هنا للتعجُّب وللاستنكار ، يقول لهم : كيف تعبدون إلهاً من صُنْع أيديكم تنحتونه من الصخور ، فأنتم أعلمُ الناس به ، وترونْه يقع ، فتقيمونه فى مكانه ، وينكسر فتصلحونه ، ويجرفه السيل ويمرغه فى الوحل فتنتشلونه .

إذن : كيف يُعْبد مثل هذا الإله ، وكيف تنصرفون إلى عبادته ،

وتتركون عبادة الله الإله الحق الذى خلقكم ، وخلق ما تعملون ؟

وطبعاً ليس لديهم جواب لهذا السؤال ، وليس لديهم رَدٌّ على إبراهيم إلا ردّ القوة والبطش ، فلا حجَّةَ لديهم ، ولا منطقَ يدافعون به عن آلهتهم :

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

تعلمون قصة النار التى أوقدوها ، ثم ألقواْ بنبىٍّ الله إبراهيم فى وسطها ، هذا هو الكيد الذى أرادوه بإبراهيم ، وما كان الله تعالى ليبعثَ نبياً ثم يُسْلمه ، فردَّ الله كيدهم عليهم ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق]

ومعنى ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات] أى : فى هذا المقام . وفى هذا الموقف الذى فعلوه بإبراهيم ، فليسوا الأسفلين لأنهم كفار ، إنما (أسفلين) لأنهم تعالَوْا على إبراهيم وتمكَّنوا منه ، وقدروا على إلقائه فى النار فعلاً وهى مشتعلة ، وظنوا ساعتها أنهم هم العالون .

لكن سرعان ما تكشفتْ حقيقة الموقف ، وظهرتْ الآية الكبرى التى أرادها الله تعالى ؛ فلو أراد الله لَنجَا إبراهيم ، فلم يتمكَّنوا من الإمساك به ، ولو أراد سبحانه لأمطرتْ السماء على النار فأطفأتها ، لكن أراد الله أنْ يُبطل حججهم ، فلو هرب إبراهيم من أيديهم لَقالوا : لو لم يهرب لأحرقناه ، ولو أمطرتْ السماء لقالوا : ظاهرة طبيعية لا دَخْلَ لنا بها .

لكن ها هو إبراهيم ، وها هى النار تشتعل ، ومع ذلك ينجو إبراهيم بعد أنْ جاء نداء الحق وكلمة الحق للخَلْق ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا

وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]

الخطاب من الله تعالى ، والأمر للنار على طبيعتها ، وبذات مواصفاتها ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء] لا في ذاتك ، إنما ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء] فهذه خصوصية لهذه النار بالذات ، فهي في ظاهرها مشتعلة ، وفي حقيقتها ﴿بَرْدًا وَسَلامًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء] على إبراهيم ، فهي مثل شجرة الزقوم ، تبدو لهم شجرةً خضراءَ ، وهي نار تحرقهم .

وهكذا جعلهم الله في هذا المقام ﴿الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات] أي : في الكيد الذي دبَّروه ، فهم يكيدون والله يكيدُ ، ولا بُدَّ أنْ يُؤخَذَ الكيدُ من خلال فاعله .

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

لَمَّا لم يجد إبراهيم - عليه السلام - فائدة من دعوته لقومه ، قال : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات] والمعنى ذاهب لنصرة دينه وإلا فربُّه موجود معه ، وفي كل مكان ، أو مهاجر إلى ربي . أي : إلى مكان آخر ، حيث أجد مَنْ يسمعني ويستجيب لدعوتي ، وما دُمْتُ ذاهباً إلى ربي ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات] أي : يهديني المقام الطيب المناسب لدعوتي .

ثم يدعو إبراهيمُ ربَّه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات] أي : هَبْ لي ذريةً صالحةً مؤمنة ، ونبيُّ الله حين يتمنى الذرية لا يتمناها لتكون ذكْرى أو عزوة أو امتداداً ينتقل إليه الميراث ، فالأنبياء يريدون الوَلد ليَحْمل رسالتهم ، وليكون نموذجاً إيمانياً يرثه في دعوته ؛ لذلك قال في قصة سيدنا زكريا : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم]

فكأن سيدنا إبراهيم عَزَّ عليه ألاَّ يتسعَ عمره ليكون جندياً من جنود منهج الله فى الأرض ، فقال : يا رب قرّ عينى بأنْ أرى ولداً لى يحمل مسئولية النبوة من بعدى .

وقال ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الصافات] ولم يقل رب هَبْ لى الصالحين ، فأراد من ذريته مَنْ هو صالح من ضمن صلاح غيره ، فهو يريد الصلاحَ لذريته وللآخرين ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات] الحليم : هو الذى لا يستفزه غضب ، ويتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاقه ، ومن الحِلْم تَرْكُ المراء واللجاج ، ولو كان فى الحق .

لذلك جاء فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « أنا زعيم[1] ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محقاً .. »[2]

فهذا فى حاشية الجنة ، وهذا فى صميم الجنة ، لماذا ؟ لأنه يعتقد أن له رباً قيُّوماً لا تأخذه سنَة ولا نوم ، سوف يحكم بين الجميع ، وإليه تنتهى كل الخلافات ، فيقتص للمظلوم من ظالمه . والناس يميلون دائماً إلى كبير يحكم بينهم ، ونقول فى العامية (اللى له أب ميحملش هم) ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ . لذلك من رحمة الله بنا أن يقول : يا عبادى ناموا ملء جفونكم ، لتصبحوا نشيطين لأعمالكم ، ولا تحملوا هَمَّ شىء ، لأن ربكم لا ينام .

---

(١) زعيم : كفيل . قال تعالى على لسان يوسف لإخوته : ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يوسف] أى : كفيل ضامن . [القاموس القويم ١/٢٨٧] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٨٠٠) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حَسُن خلقه » .
– رَبَض الجنة : ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التى تكون حول المدن وتحت القلاع وقيل : وسطها . [لسان العرب – مادة : ربض]

وقوله سبحانه : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ [الصافات] البُشْرى بالشيء تكون قبل وجوده ، فوصفه الله بأنه سيكون حليماً وهو ما يزال غلاماً . يعنى : سيجمع الوصفين معاً ؛ لأن الحلْم عادة ما يتكوَّن لدى الرجل الواعى الذى يستطيع تقدير الأمور ، فالمَيزة هنا أنْ يتصفَ الغلامُ بالحِلْم فى صغَره .

وفعلاً ظهر حلْم هذا الغلام فى أول اختبار يتعرَّض له ، حين قال له أبوه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) ﴾ [الصافات] تأمل ماذا قال الغلام ، وأبوه يريد أنْ يذبحه ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] هذا هو الحِلْم ، يتجلَّى منه وهو غلام .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ(١) فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ(٢) لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾

---

(١) من هو الذبيح ؟ هل هو إسماعيل أم إسحاق ؟ قضية اختلف فيها الناس ، وذكر فيها القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٣٩ – ٥٧٤١) ثلاثة أقوال . ثالثهما قول الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وقد كان أميل إلى أنه إسحاق ، أما ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤– ١٩) فقد ساق أدلة الجميع وفنَّد أدلة القائلين بأنه إسحاق ، وجزم بأن الصواب والصحيح أنه إسماعيل ، حتى بنص التوراة من أن إسماعيل أكبر من إسحاق بـ ١٣ سنة ، وأن إبراهيم أُمر بذبح وحيده البكر . وردَّ الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . فليطلب تفصيل هذه المسألة فى مظَانِّها [عادل أبو المعاطى].

(٢) تلَّه للجبين : كبَّه على وجهه . [القاموس القويم].

هنا لم يتعرض السياق لحمل السيدة هاجر ولا ولادتها لإسماعيل ، إنما انتقل مباشرة من البشارة به إلى مرحلة بلوغه السَّعْيَ مع أبيه ، فقال سبحانه بعدها : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ..(١٠٢) ﴾ [الصافات] ذلك لأن الحق سبحانه هو الذى يتكلَّم ، وهو الذى يحكى .

ومن البلاغة أنْ نترك ما يُعلم من السياق ، وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآنى ، ففى قصة سيدنا سليمان - عليه السلام - والهدهد ، قال تعالى : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل] ، ثم يختصر السياق كثيراً من الأحداث ، ويقول : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) ﴾ [النمل] ولم يتعرض لرحلة الهدهد ، ولا لكيفية توصيل الخطاب إلى الملكة .

كذلك هنا : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فبلوغه السَّعْى دلَّ على أن البشارة تحققتْ ، ووُلد الغلام ، وبلغ مع أبيه السعى ، وفَرْق بين (بلغ السعى) عموماً ، وبلغ مع أبيه السعى ؛ لأن الغلام لا يُكلَّف بالعمل إلا على قَدْر طاقته فى الحركة ، وعلى قَدْر عافيته وتحمُّله ، وإسماعيل فى هذا الوقت بلغ السعى مع أبيه فحسب ؛ لأنه لن يُكلِّفه أبوه الحنون إلا بما يقدر عليه من المصالح والأمور الحياتية ، فيفعل الغلامُ ما يقدر عليه ، ويترك ما لا يقدر عليه لأبيه ، ولو كان مع شخص آخر فربما كلَّفه بما لا يستطيع .

فلما بلغ الغلامُ هذا المبلغَ ﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] والمعنى : أرى فى المنام أنه مطلوب منى أنْ أذبحكَ ، لا أنَّ الذبح تَمَّ فى المنام ، وانتهت المسألة بدليل رَدِّ إسماعيل ﴿ قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وتأمَّل هنا الحلم على حقيقته ، وعظمة الرد فى هذا الامتحان الصعب ﴿قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢)﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : افعل ما تريد ؛ لأن طاعته لأبيه هنا من باطن طاعته لله تعالى وامتثاله لأمر ربه ، فهو يدرك تماماً أن أباه مُتلَقٍّ الأمر من الله ، وإنْ جاء هذا الأمر فى شكل رؤيا . إذن : هو يعلم رغم صِغَره أن رؤيا الأنبياء وَحْىٌ حَقٌّ .

وسيدنا إبراهيم ينادى ولده ﴿يَـٰبُنَىَّ (١٠٢)﴾ [الصافات] هكذا بالتصغير ، لأن بُنى تصغير ابن فلم يقل يا ابنى ، فقد أوثقه الحنان الأبوى ، وعرض عليه هذا الابتلاء ، وهو مشحون بعاطفة الحب لولده والشفقة عليه ، لأنه ما يزال صغيراً ، ومعلوم أن حنان الوالد يكون على قَدْر حاجة الولد ؛ لذلك المرأة العربية لما سُئِلَتْ : أىّ بنيك أحبُّ إليك ؟ فقالت : المريض حتى يشفى ، والغائب حتى يعود ، والصغير حتى يكبر[1] .

فقوله : ﴿يَـٰبُنَىَّ (١٠٢)﴾ [الصافات] يعنى : أنا لا أعاملك معاملةَ النِّدِّ ، بل معاملة الصغير المحتاج إلى الحنان الأبوى ، فخذ أوامرى مصحوبة بهذه العاطفة الأبوية القلبية .

وقوله : ﴿فَانظُرْ (١٠٢)﴾ [الصافات] يعنى : فكِّر ، وتدبَّر ﴿مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢)﴾ [الصافات] أى : فى هذه الرؤيا ، فكأن الصغير فى هذه المسألة مطلوب منه أمران : برّك بأبيك ، وبرُّك بربِّ أبيك ﴿قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ (١٠٢)﴾ [الصافات] ، فقوله ﴿افْعَلْ﴾ برّ بأبيه . وقوله ﴿مَا تُؤْمَرُ﴾ برٌّ بربِّ أبيه .

---

(١) ذكره ابن عبد ربه فى (العقد الفريد) ، والمبرد فى (الكامل) ، والزمخشرى فى [المستقصى فى أمثال العرب] ، والميدانى فى [مجمع الأمثال] ، من كلام هوذة بن على الحنفى لكسرى ، وفى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، والراغب الأصبهانى فى (محاضرات الأدباء) أنه لغيلان بن سلمة الثقفى .

ثم يؤكد سيدنا إسماعيل رغم صغَره فهمه لهذه القضية ، وإدراكه لهذا الابتلاء ، فيقول : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] أي : على هذا البلاء ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعني : هما معاً استسلما لأمر الله ، وأذعنَا لحكمه ، وسلَّم كلٌّ منهما زمام حركته في الفعل لربِّه ، فإبراهيم همَّ بالذبح ، وإسماعيل انقاد ، وقال لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

والابتلاء في حَقِّ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ابتلاءٌ مركَّب هذه المرة ، فقد ابتُلِيَ في شبابه حين أُلْقي في النار ، فنجح في الابتلاء ، أما هذه المرة فالابتلاء وهو شيخ كبير ، جاءه الولد على كِبَر ، فهو أحبُّ إليه من نفسه ويُؤمَر بقتله .

وكان بوُسْع إبراهيم أنْ يذبحه على غرَّة ، ودون أنْ يُعلمه بمسألة الذبح هذه ، ولكنه أراد أنْ يُشركه معه في الأجر ، وألاَّ يُوغِر صدره من ناحيته ، وهو يذبحه دون داعٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعني : ألقاه على وجهه ، أو على جنبه ، قالوا : كان ذلك بمشورة الولد ، حتى لا يرى أبوه وجهه ساعةَ يذبحه ، فتأخذه الشفقة به ، فلا يذبح ، وكأن الولد يُعين والده ويساعده على إتمام الأمر ، وهكذا ظهر الاستسلام واضحاً ، فالولد مُلقىً على الأرض ، والوالد في يده السكين ، يحاول بالفعل ذَبْح ولده ، وأيّ ولد ؟ ولده الوحيد الذي رُزِق به على كِبَر .

والابتلاء ليس بأن يموت الولد ، إنما أنْ يذبحه أبوه بيده ، لا بشخص آخر ، ويذبحه بناءً على رؤيا لا أمر صريح ؛ لذلك قلنا ابتلاء مركَّب ، لأن وجوه الابتلاء فيه متعددة ، قد اجتاز إبراهيم وولده هذا الابتلاء بنجاح ، واستحق عليه السلام أن يقول الله في حقه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠) ﴾ [النحل]

نقول : لما وصل إبراهيم وولده إلى هذه الدرجة من الاستسلام لله ، ناداه الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) ﴾ [الصافات] وكأن الله كان معهما يرقب هذا الانقياد من عبدين صَدَقَا مع الله ، فجاءهما فرج الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) ﴾ [الصافات]

يعنى : ارفع يدك يا إبراهيم عن ذبح ولدك الوحيد ، فما كان الأمرُ إلا بلاءً مبيناً ، أى : واضح قاسٍ عليك أنت وولدك ، وهو مبين لأنه يُبين قوة عقيدة إبراهيم - عليه السلام - فى تَلَقِّى الأمر من الله ، وإنْ كان صعباً وقاسياً ، ثم الانصياع له والطاعة ، وكذلك كان البلاء فى حَقِّ ولده الذى خضع وامتثل .

وجاء الفداء : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] ذبح بمعنى مذبوح ، وهو الكبش الذى أنزله الله ، فداءً لإسماعيل .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) ﴾

لقد استحقَّ سيدنا إبراهيم هذه المنزلة فى جميع الأمم من بعده أنْ يُسلِّموا عليه ، كلما ذُكر ، فيقولون ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) ﴾ [الصافات] فلو ذبح إبراهيم ولده لَصارتْ سنةً من بعده أنْ يتقرَّب الإنسان إلى الله بذبح ولده ، لكن لما صبر سيدنا إبراهيم ، واستسلم لأمر ربه جاءه الفرج من الله وعُوفى وولده من هذا البلاء ، وعُوفينا جميعاً معه من هذه المسألة ، فكلما ذُكر قلنا : عليه السلام ، لأنه حمانا من هذا الموقف الصعب .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) ﴾ [الصافات] كذلك يعنى كما

فعلنا مع إبراهيم نجزى كل مُحسن ، والمحسن هو الذى لا يقف عند حَدِّ الواجب المطلوب منه ، إنما يتعدَّاه إلى الزيادة من جنس ما فُرِض عليه وكُلِّف به .

فالحق سبحانه فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فمَنْ زاد على ذلك فهو من الإحسان .

الله فرض علينا الحقَّ المعلوم للفقير وهو الزكاة ، فمَنْ زاد وأعطى غير المعلوم فهو من الإحسان ، واقرأ فى سورة الذاريات : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات] يعنى : زائدين عما فرض الله من جنس ما فرض الله عليهم .

ثم يذكر سبحانه حيثيات هذا الإحسان ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[2] (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

والمحسن يستحق هذا الجزاء ؛ لأن الذى يتقرَّب إلى الله بأكثر مما فَرَض الله عليه دليل على أنه عَشق التكليف والمكلَّف ، وعلم أن الله كلَّفه بأقلّ مما يستحق فزادَ .

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والهجيع : طائفة من الليل . [لسان العرب - مادة : هجع].

(٢) السَّحَر : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر ، وجمعه أسحار [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

هذه العطاءات كلها نتيجة ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] لأن الابتلاء الذى وقع لسيدنا إبراهيم كان ابتلاءً مُركباً من مراحل ثلاث : فَقْد الولد الذى جاء على كِبَر ، وأنْ يقتله بيده ، ثم تاج هذه المراحل أنْ يُقتلَ ولده برؤيا منامية ؛ لذلك جاءه الجزاء على قَدْر هذه العقبات فى الابتلاء ، ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

والفداء فِداء إسماعيل من الذبح فعاش إسماعيل ، ثم زاده الله فأعطاه إسحاق ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات] فهو أيضاً نبى ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود] ويعقوب أيضاً نبى . إذن : كلُّ هذا الخير جاء ثمرة الاستسلام لله تعالى والرضا بحكمه ؛ لذلك صدق القائل(١) :

سلِّمْ لربِّكَ حُكْمَهُ فَلحكْمَةٍ يَقْضِى ... وَحَتَّى تَسْتفيدَ وتَسْلَمَا

واذْكُرْ خليلَ الله فِى ذَبْحِ ابْنِه ... إذْ قَالَ خالقُهُ فَلمَّا أَسْلَمَا

ثم يمتد هذا العطاء ، فيقول سبحانه : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ (١١٣) ﴾ [الصافات]

فلما تكلَّم الحق سبحانه عن الذرية ، قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ [الصافات] يعنى : الذرية فيها هذا وذاك ، الخير والشر .

هكذا عرضتْ لنا هذه الآيات قصة سيدنا إبراهيم على وجه الاختصار ، حيث لم تتعرَّض لكل الأحداث .. وينبغى هنا أنْ نذكر معركةَ الأديان فى مسألة الذبيح ، فالمسلمون يعتقدون أن الذبيح إسماعيل ، وغير المسلمين يقولون : الذبيح إسحق ، وهذا القول مردود من عدة وجوه :

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

أولاً : لو كـان الذبيح إسـحق لكانت مـسألةُ الذبـح والفداء ومـا يتعلق بهـما من مناسك مَغْداها ومَـراحها بأرض الشام ، حـيث عاشَ هناك سيدنا إسحاق ، أما وهى تُفعل فى أرض الحجاز حيث وُلِدَ وعاش سيدنا إسماعيل ، فهذا دليل من الواقع على أن الذبيح إسماعيل .

ثانياً : ثم معنا دليل من حديث النبى ﷺ ، حيث قال : « أنا ابْنُ الذبيحين » أى : الذبيحين اللذين كـان لهما فداء من الذبح ، وتعلمون أن الذبيح الأول هو عبد الله أبو النبى ، وقد فداه أبوه من الذبح بمائة ناقة ، أما الذبيح الثانى فإسماعيل عليه السلام الذى فَدَاه ربه بكبش .

فإنْ أنكر غيرنا هذه الأدلة لأنهم لا يؤمنون بها ، فعلينا أنْ نأتيهم بدليل من كتبهم ؛ لأن الإنسان لا يُصدِّق إلا بما يؤمن به ، فلو حلفتَ للكافـر باللات والعـزى فـإنـه لا يُصـدِّقك ؛ لأنه يعلـم أنك لا تؤمن باللات والعـزى ، والإنسان لا يحلف إلا بـما يُعظِّمـه . ولو قُلْتَ له : والله لصَدَّقك .

لذلك نسوق لـغير المـسلمين هذا الدليل من التـوراة التى يؤمنون بهـا ، وقد ترك الله لنا فى الكتب الـسابقـة على القرآن مـواضع تؤيد مـا جاء به الـقرآن ، ومـا زالت هذه المـواضع مـوجودة ، وكـأن الله أعماهم عنها لتظلَّ دليلاً على الحقيقة التى لا يعترفون بها .

وعليـهم أن يقـرأوا فى الأصحـاح الثـالث والعـشريـن فى سفـر التكوين (وأوحى الله إلى إبراهيم أن اصعد بابنك الوحيد جبل الموريا وقدِّمْـه قرباناً لى) ومتى كـان إسحق عليـه السلام وحيـداً وقد وُلِد إسـحق وعمـر إسمـاعيل أربعـة عشـر عامـاً . وفى الأصحـاح الرابع والعشرين (وُلِد إسحقُ وعمر إسماعيل أربع عشرة سنة) .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذا موكب أُولي العزم من الـرسل ، فبعد أنْ حدَّثنا القـرآنُ عن سيدنا إبراهيم ، يحدثنا عن سـيدنا موسـى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الصافات] منَّ الله على موسى وهارون منَّةَ عطاء ، بأنْ جعلهما رسولين إلى بني إسرائيل ، ومنةَ نَصْر بأنْ نصـرهما على فرعون وجنوده ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الصافات] والمراد فرعـون ، ووصفه الله بالكرب العظيم ، لأن فرعون لم يكُنْ رجلاً مـتسلطاً على الناس كملك ، إنما متـسلط عليهم كـإله ، وقد أراد الكيد بمـوسى عليه السـلام ، وأراد الكيد لقومه في مصر ، حيث أخذ منهم الخدم والفعلة والسحرة .

وكلمة فـرعون تُطلق على ملوك مـصر القدمـاء ، فكل واحد منهم يسمى (فرعون) ، لكن في سورة يوسف سُـمِّي حاكم مصر العزيز والملك ولم يَقُلْ فرعون ، لماذا ؟ قالوا : لأنه بعـد أنْ فُكَّ حجر رشيد علمنا أن الهكســوس حينما أغـاروا على مصر كـانوا ملوكاً في مـصر لا فراعنة ، فلـما عاد الأمـر إلى فرعون كـان بنو إسرائيل في خـدمة الفرعون بسـبب وقوفهم إلى جوار المحتلين الهكسـوس ، فاضطهدهم الفرعون وأعوانه .

فمعنى ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) ﴾ [الصافات] أى : من فرعون ومن الاستعباد ، حيث خرج بهم موسى - عليه السلام - فأدركه فرعون بجنوده حتى حاصرهم عند البحر ، فكان البحر من أمامهم ، وجيش فرعون من خلفهم .

وما أشبه هذا الموقف بموقف طارق بن زياد فى فتح الأندلس ، حين قال لجنوده : إن البحر من أمامكم ، والعدو من ورائكم .

وعندها أيقن بنو إسرائيل أن فرعون سيلحق بهم ويدركهم فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] لأن شواهد الواقع تدل على ذلك ، فهم لا محالةَ مُدْركون بقوانين البشر ، لكنْ لموسى مع ربه قانونٌ آخرُ ، جعل موسى عليه السلام يقول بملء فيه (كلا) كلا لن نُدْرَكَ ، قالها بما لديه من ثقة بربه ، وبما لديه من الرصيد الإيمانى : ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] وفعلاً ، جاءه الفرج لتوِّه ، وأمره ربه أنْ يضرب بعصاه البحر ، وكان ما تعلمون من القصة .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) ﴾ [الصافات] نعم ، وأىّ غَلَبة ؟ لأن هناك فرقاً بين أنْ تغلبَ عدوك ويظل المغلوبُ حياً يُرزَق ، وبين أنْ تغلبه غلبة تُبيده من الوجود ، والذى حدث فى قصة موسى وفرعون أن الله قضى على فرعون وجنوده قضاءً مُبْرماً .

ثم ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) ﴾ [الصافات] المستبين الذى بلغ النهاية فى البيان ، والمراد بالكتاب التوراة ، وقد وصف الحق سبحانه وتعالى - التوراة فى موضع آخر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) ﴾ [الصافات] أى :

المنهج القويم الموصِّل إلى الله من أقرب طريق ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠)﴾ [الصافات] يعنى تركنا لهما الذكْر الحسن فيمَنْ يأتى منْ بعدهم ، فكلُّ مَنْ يسمع قصة موسى وهارون ومواقفهما وثباتهما فى الحق يقول سلام عليهما ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١)﴾ [الصافات] أى : موسى وهارون .

ومعلوم أن هارون جاء بطلب من موسى لما قال لربه : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾ [القصص] فاستجاب الله لطلب موسى وأيَّده بأخيه هارون ، وجعلهما معاً رسولاً واحداً إلى بنى إسرائيل .

والقرآن يُبيِّن لنا هذه المسألة ، وأنهما كانا كرسول واحد فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

فيردّ الحق سبحانه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩)﴾ [يونس] ، مع أن الداعى موسى وحده ، لكن فى الجواب قال ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩)﴾ [يونس] أى : موسى وهارون ؛ لأنهما فى مجال الرسالة واحد ، لا ينفصل[2] أحدهما عن الآخر ، فدعوة موسى هى دعوة هارون .

---

(١) الطمس على الأموال : تحويلها إلى حجارة . والشد على القلب : الطبع والختم على قلوبهم فلا ينعم الله عليهم بالإيمان حتى لو أرادوا ذلك حتى يعذبوا العذاب الأليم . والمقصود بهذا الدعاء هم فرعون وملؤه الممالئون له الملتفُّون حوله الذين يحرضونه ويشجعونه وينصرونه لا عموم شعب مصر كما قال البعض خطأ ، فالله تعالى قال : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ (٨٨)﴾ [يونس] فالضمير هم عائد على فرعون وملئه . [عادل أبو المعاطى] .

(٢) قاله أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والربيع بن أنس فيما نقله ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٢٩) .

وقد حاول بعض العلماء أن يُقرِّبوا لنا هذه المسألة ، فقالوا : أجاب الله موسى بقوله : ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴿٨٩﴾ ﴾[يونس] لأن موسى دعا ، وهارون أمَّنَ على دعائه ، والمؤمِّن أحد الداعين .

ثم يقول سبحانه عن موسى وهارون : ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الصافات] ثم ينتقل السياق إلى نبى آخر ، هو سيدنا إلياس :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا(١) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

كلمة (إلياس) تُكتب هكذا بالسين ، والبعض لا يكتبون السين ، إنما يكتبون اسمها فيقولون (إلياسين) فهما علَم على هذا النبى الكريم نقول : إلياس أو إلياسين اسم لمسمى واحد ، وهو غير اليَسَعَ عليهم جميعاً السلام .

وهذه الآيات توضح أن سيدنا إلياس جاء بقضية عقدية ، لا بمنهج تكليفى ، جاء ليُصحح القمة العقدية فى الإيمان بواجب الوجود الإله الواحد الذى يجب أنْ يُدْعى وحده ، وموكب الرسالات من لَدُنْ آدم عليه السلام إنما جاء ليصحح صِلةَ المخلوق بالخالق .

لذلك أثبت له أنه الخالق الرازق ، وأنه العليم القادر الحكيم العزيز .. الخ ، فهو الذى خلقك وأنعم عليك ، لتتلقى أوامره برضاً ، وتُقبل عليها باطمئنان ، وإنْ لم تكُنْ عبادتك له جزاء ما قدَّم لك من

---

(١) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق . [تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠]

النعم التى هيَّـأها لك قبل أن توجـد ، فلا تكُنْ عـبادتك له خـوفاً من عقابه حين تعود إليه .

معنى ﴿أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الصافات] ألاَ للحثّ وللحضّ على التقوى ، أو للعرض كـما تقول : هل لك من كـذا ؟ وقوله﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴿١٢٥﴾﴾ [الصـافات] أى : تعبـدون صنماً اسمـه بَعْلاً ﴿وَتَذَرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصـافات] تتركون ﴿أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصافات]

الحق سبحـانه حين يصف نفسه بأنه تعالى (أحـسن الخالقين) يعنى : أنه سبحانه لا يضنُّ على عبـده بصفة الخلق ، فالإنسان الذى يُعمل عـقله فى الكون ، ويختـرع شيـئاً نافعـاً لمجـتمعـه يُسمِّـيه الله خالقاً ، لأنه أبدع شيئاً جديداً لم يكُنْ موجوداً .

فـهـو خـالق ، والله أحـسن الخـالقـيـن ، لأن الله يخلق من عـدم مـحض ، أما أنت فـتخـلق من موجـود ، خلق الله فـيه حـياةً ونمـواً وحركـة .. الخ ، وخَلْقُك جامد ثابـت عند شىء معين ، وقـد سبق أنْ بيَّنا الفرق بين الاثنين .

وتأمل هنا : الحق سـبحـانه ينكر عليـهـم أنْ يعـبـدوا صنمـاً ، ويتـركوا عـبادة الله لكن لم يقُلْ : وتذرون الله ، إنمـا ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصـافـات] فـذكـر الوصـف المـشـوِّق الـدال عـلـى أحقيـته تعالى فى العبادة ، وكأنهم سألوا ، ومَنْ أحسـن الخالقين ؟ فقـال سبحـانه : ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الصـافات] فأنا أحـسن الخـالقـين ، وأنا ربكم وأنـا ربُّ آبائكم الأولين ، المـسـتـحق للعبادة .

فماذا كان الجواب ؟

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ (١٢٧) ﴾ [الصافات] كشأن كل الأقوام التى جاءها الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ولا بُدَّ أنْ يُكذبَ الرسل ، يُكذّبهم أهلُ الفساد والمنتفعون من الفساد ، يُكذِّبهم سَادَةُ القوم وكبراؤهم ، لتظلَّ لهم سيادتهم وجبروتهم واستعبادهم للضعفاء ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) ﴾ [الصافات] أى : عندنا للحساب تحضرهم ملائكة العذاب ، والمعنى : لا تظنوا أنكم تُفْلتون من أيدينا ، لأن لكم مَعاداً ورجعة كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

وقوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) ﴾ [الصافات] أى : الذين اصطفاهم لطاعته وأخلصهم لعبادته ، ثم تُختم هذه القصة الموجزة لهذا النبى الكريم بما خُتمتْ به سابقتها ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾ [الصافات]

ونفهم من هذه الخاتمة أن الإحسانَ فَرْعُ الإيمان ، يعنى ما كان مُحسناً إلا لأنه كان مؤمناً أولاً .

هكذا لخَّص لنا القرآن قصة هذا النبى ، وبيَّن أنه جاء بقضية عقدية لا قضية تكليفية ، جاء ليُصحِّح للقوم الأساسَ والقاعدةَ التى تُبنى عليها الحياة ، وهذه مهمة الرسل من لدُن آدم عليه السلام ، فقد خلق اللهُ آدمَ أبا البشر خليفةً فى الأرض . ومعنى خليفة فى الأرض

أنْ يزاولَ فى الأرض مهمة عن الحق سبحانه وتعالى .

ولكى يزاول هذه المهمة أمَدَّه الله بصفات من صفاته ، وهذه الصفات موهوبة ممدودة ليست ذاتيةً فى الخليفة ، لذلك يسلبها الخالق فى أىّ وقت ، فالله تعالى هو واجب الوجود الأعلى ، وهو المتصف بهذه الصفات بذاته ، فالله قادر ويعطيك من قدرته قدرةً ، وحكيم ويهبك من حكمته حكمةً تزاول بها الأشياء ، والله قهَّار ويعطيك قهارية تزجر بها مَنْ كان تحت تصرُّفك لتستقيم أمورهم ، ويعطيك رحمانية تحنُو بها على الضعيف والمحتاج .

إذن : فمن صفات الحقِّ واجب الوجود الأعلى أنه يعطينا من وجوده وجوداً ، بل وجودات متعددة بتعدُّد الأفراد ومتوالية الأمثال ، لكن يعطى سبحانه من الوجود الذاتى وجوداً عَرَضياً . فإنْ نظرتَ إلى الآفات التى تصيب الناسَ فى حواسِّهم أو فى جوارحهم تجدها مرادةً لله تعالى خلقاً أو توجّهاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان كما أخبر عنه خالقه :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

وضربنا لذلك مثلاً بالولد مع أبيه ، فلو أن الأب يعطى ولده المصروفَ كلَّ شهر تجد الولد لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر ، إنما لو أعطاه يوماً بيوم لتعرَّض له الولد كل يوم وتمحَّك فيه ، وأظهر نفسه ليأخذ مصروفه الذى تعوَّد عليه ، فتراه مثلاً يمرُّ على أبيه فى الصباح . ويقول : يا أبى أنا رايح المدرسة ، فالحاجة هى التى ألجأتْه لمودَّة أبيه .

إذن : يجب أنْ نُفسِّر فلسفة الحاجات التى تُعوز النتيجة ، وهذه الحاجات هى التى تُلجئك إلى ربك ، والواقع يؤيد ذلك ، وكثيراً ما نرى الإنسان لا يلجأ لربه ولا يُصلح ما بينه وبين خالقه إلا إذا اختلَّ عنده شىء ، وعزَّتْ عليه أسبابه ، فلا يجد إلا ربه فيقول : يا رب ، يا الله .

إذن نقول : الخالق يَهبُ الخليفةَ من صفاته ، لكن تظل هذه الصفات الموهوبة عَرَضيةً غير دائمة ؛ لذلك يموت الإنسان جنيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شَاباً وكهلاً وشيخاً ، وهذه القضية تُفسِّر لنا الحديث الشريف :

« خلق اللهُ آدمَ على صورته ، طوله ستون ذراعاً »[1]

فالهاء يجوز أن تعود على الله تعالى ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته تعالى ، لا على حقيقته ، وفَرْق بين الصورة والحقيقة ، الصورة هي التي تُؤخذ لك لقطة على هيئة معينة ، ثم تتجمد على هذه الهيئة ، إذن : هذا الخلق لا يعني أن آدم أخذ شيئاً من صفات الله على الحقيقة ، لا إنما على الصورة ، لأن الحقيقة لها دوام ، والصفات في آدم لا دوامَ لها .

ويجوز أنْ تعود الهاء على آدم ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته أي على صورة آدم ؛ لأن الله تعالى لم يخلق آدم جنيناً ، ثم وُلد ثم صار طفلاً فشاباً ، لا بل خلقه أول الأمر هكذا على هذه الهيئة المعروفة للإنسان الكامل الأعضاء والجوارح . إذن : يجوز الوجهان .

وفَرْقٌ بين مَنْ يخلق ، ومَنْ يخلق مَنْ يخلق ، ولتوضيح هذه المسألة قلنا : إن الطفل الصغير لا يقدر مثلاً على نقل المائدة من مكانها ، أما الرجل القوي فيستطيع أنْ ينقلها له ، وهو في هذه الحالة لم يُعَدِّ قوته إلى الضعيف ليفعل بنفسه ، إنما عدَّى له أثرَ صفته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الاستئذان - حديث ٥٨٧٣) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٤١) . قال النووي في شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خُلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وتوفي عليها وهي طوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته ، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير » .

فحمل عنه واشتال له ، وظلَّ الطفل ضعيفاً غير قادر على الحَمْل .

لذلك نقول : إن وَجْه العظمة فى خَلْق الله تعالى وفى عطائه ، أنه سبحانه يخلق من قدرته قدرةً ، ويهبك إياها ، فتقدر أنت بنفسك وتعمل بيدك ، فالخَلْق يتطوَّعون ويُعينون الضعيف ويفعلون له ، لكن يظل ضعيفاً ، أما الخالق سبحانه فيعطى الضعيف قوةً فيفعل بنفسه .

لكن تنبَّه أن هذه الصفات موهوبةٌ لك لا ذاتية فيك ؛ لأنك لستَ أصيلاً فى الوجود بل أنت خليفة ، ولا بُدَّ لك أنْ تظلَّ فى حضن مَنِ استخلفك ، وإياك أنْ تشذَّ عمَّنْ استخلفك ، وإلا سحبَ منك مقومات هذا الاستخلاف .

وحين ترى أصحاب الابتلاءات والعاهات : هذا أعور وهذا أعرج .. الخ فاعلم أن الخالق سبحانه يريد أنْ يلفتكَ إليه ، ويُنبِّهك إلى أنك لستَ أصيلاً فى الوجود إنما مُستْخلَفٌ ، وأنك شىء ما دام معك مَنِ استخلفك ، فإنْ تخلَّى عنك فأنت لا شىء ، وآفة الإنسان فى الكون أنْ يعتبر نفسه أصيلاً ، ولو فهم دوره وحقيقة وجوده لاستقامتْ الأمور .

البعض ينظر إلى هذه العاهات على أنها تشويه للخَلْق ولا يرى فيها حكمة ، والحقيقة أنها خُلقَتْ لحكمة مرادة لله تعالى ، وما هى إلا وسيلةُ إيضاحٍ للناس كى لا تغترّ بالجوارح السليمة ، وكى تظلّ على ذِكْر لله الخالق ، وكما قلنا الحاجة هى التى تُلجئك .

ونحن نرى مثلاً رجال المرور يعمدون إلى سيارة جديدة مُحطَّمة ، ويجعلونها فى مكان بارز يراه الناسُ ليرتدع السائقون عن الرعونة فى السُّرعة ، فهذه السيارة وسيلة إيضاح ونموذج جُعِل

كذلك لهدف ، وربما تعمَّدوا إعدام السيارة لما يترتَّبُ على إعدام سيارة واحدة من نجاة ملايين السيارات .

كذلك أنت أيها المعَافَى ، حين ترى أصحاب العاهات تقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به[1] ، وتلتفت إلى نعَم الله عليك التى كثيراً ما تغفل عنها ، فإنْ قُلْتَ : فما ذنبُ هذا المبتلَى أنْ يجعله اللهُ وسيلةَ إيضاحٍ لغيره ؟

نقول : لو أدركتَ ما وجده من العوَض عما فقد لتمنيتَ أن تكون مثله ، لذلك نلاحظ أن أصحاب العاهَات عوَّضهم الله بخصلة أخرى تُعوِّض ما فيه من نقص ؛ لذلك نقول فى الأمثال : كل ذى عاهة جبار وقد رأيتم فاقد الذراعين (يلضم) الخيط فى الإبرة برجْليه ، والطفل المكفوف يحفظ القرآن كله وهو ابن السادسة ، أخذ الله منه البصر وأعطاه البصيرة ، إنها مواهب لا يستطيعها الأصحاء .

وسبق أنْ قلنا إن الأكتع لو ضربك بيده الكتعاء لعرفتَ أنها ضربة مميتة ، لأنها يد مستريحة لا تعمل ، ففيها من القوة ما ليس للصحيحة ، وإذا انفعل كانت كل قُوَّته فى هذه اليد .

ونحن نقول لإخواننا الذين ابتلاهم الله بفقد البصر : صناديق العلم!! لماذا ؟ لأنهم حصَّلوا من العلم ما يعجز عنه المبصرون ؛ ذلك لأن المبصر تشغله المرائى المتعددة من حوله ، أما المكفوف فلا يشغله شىء ، فبؤرة الشعور عنده دائماً خالية جاهزة للاستقبال ، ثم هو لا يستطيع أن يقرأ بنفسه ، فينتهز فرصة أن يُقرأ له ، فيُنصت

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٤٣١) ، وابن ماجه فى سننه (٣٨٩٢) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى صاحب بلاء ، فقال : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضَّلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً إلا عوفى من ذلك البلاء كائناً ما كان ما عاش» .

جيداً ، ويعى ما يسمع بحيث لا يحتاج إلى إعادته مرة أخرى ؛ لذلك قال أحدهم[1] :

عَميتُ جَنيناً وَالذَّكَاءُ مِنَ العَمَى فَجئتُ عَجيبَ الظنِّ للعِلْم مَوئلاً
وَغَابَ ضِياءُ العَيْن بالقَلْبِ رَافداً لعلمٍ إذَا مَا ضَيَّع الناسُ حَصَّلاَ[2]

إذن : نحن حينما نرى أصحاب العاهات أو الابتلاءات ننظر إلى كمالنا نحن ، ولا ننظر إلى ما عُوِّضوا به من مواهب فى جوانب أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الذى أبدع السيمْفونية العالمية المشهورة كان أصمَّ[3] !! وتيمورلنك الذى دوَّخ العالم وصاحب الفتوحات المعروف كان أعرجَ !!

والمؤمن الحق حين يرى غيره ممَّنْ ابتلاهم الله لا يتعالَى عليهم ولا يدلّ عليهم بسلامة جوارحه ، إنما يتواضع لهم ، وهو يعلم أن هذا النقص يقابله عِوَض فيقول فى نفسه : يا ترى فى أىِّ الجوانب تتفوَّق علىَّ وتتميز عنى ؟ وبهذه النظرة يتساوى الجميع .

نقول : فعلى الإنسان أنْ يظلَّ دائماً على ذِكْر لهذه الحقيقة أنه خليفةٌ لله فى الكون ليس أصيلاً فيه ، وما أشبهَ هذه الخلافة بالوكالة حين تُوكِّل غيرك فى شىء بعينه ، فإنِ اعتبر نفسه وكيلاً فى كل

---

(١) هو : بشار بن برد العقيلى ، ولد ٩٥ هجرية ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ، ودفن بالبصرة ، توفى عام ١٦٧ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان من قصيدة له ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، وهى من بحر الوافر . ولفظ الأبيات :
عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم معقلاً
وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى بقلب إذا ما ضيع الناس حصَّلا

(٣) هو بتهوفن ، مؤلف موسيقى ألمانى ، له الفضل الأعظم فى تطوير الموسيقى الكلاسيكية، أول حفلة موسيقية قدمها عندما كان فى الثامنة من عمره ، بدأ يفقد سمعه فى الثلاثينات من عمره إلا أن ذلك لم يؤثر على إنتاجه الذى ازداد فى تلك الفترة وتميز بالإبداع .

شيء فسدتْ الوكالة ؛ لذلك نرى العقلاء حين يُوكِّلون غيرهم يُوكِّلون على قَدْر الحاجة والضرورة حتى لا تُستغل الوكالة ، ويطغى الوكيل على صاحب الحق الأصيل .

وصلاح الدنيا كلها واستقامة أمور الناس قائمة على هذا المبدأ ، مبدأ الاستخلاف ، فالأصل فى الإنسان أنْ يظلَّ خليفةً محتاجاً لمن استخلفه ، والعادة أن الاستغناء يُنسيك ، والحاجة تُلجئك وتعطفك إلى مَن استخلفك .

ولما خلق اللهُ آدمَ ليكون خليفةً فى الأرض ، هل أنزله فى الوجود ليباشر مهمته فى إعمار الأرض واستنباط أسرار الله فى الكون ، دون أن يُعدَّهُ لهذه المهمة ؟ كيف ونحن نأخذ مثلاً اللاعب الذى نعده لمجرد أنْ يلعَب فندربه ونعلمه ونصرف عليه ونصحح له أخطاءه ، إلى أنْ يصلَ إلى المستوى المطلوب منه ، فما بالك بمهمة إعمار الأرض ؟

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - درَّبَ آدم على هذه المهمة ، فأسكنه فى بستان فيه كل ما تشتهيه النفس : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وهكذا حدَّد الخالق سبحانه لآدم كيفيةَ معيشته فى الجنة ، فأحلَّ له أنْ يأكلَ منها كما يشاء ، باستثناء شجرة واحدة . إذن : فالحلال كثير لا يُعَدُّ ولا يُحصى ، أما الحرام فمحدود ، وكذلك شأن الله تعالى فى الحياة ، فالأصل فى الأشياء الإباحة إلا ما جاء به نصٌّ يحرمه وهو محصور فى أشياء بعينها .

وتأمل هنا هذا الاحتياط التشريعى فى قوله سبحانه : ﴿ وَلا تَقْرَبَا (٣٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : ولا تأكلا ، فالمنهىُّ عنه مجرد قُربها ؛ لأن

قُرْبك من المحرم يُغريكَ به حتى تقع فيه ؛ لذلك تجد أسلوب القرآن فى الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أما فى النواهى فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

لذلك لما حرّم الإسلامُ الخمرَ لم يحرم شُرْبها فحسب ، إنما حرَّم كلَّ ما يتصل بها من بيع أو شراء أو نقل أو صناعة ، أو حتى التواجد فى مكان هى فيه ، لماذا ؟ لِيَسُدَّ كل الطرق المؤدية إليها المُغْرية بها .

وحين يُبين لنا الحق سبحانه الحلالَ والحرامَ والأوامر والنواهى ، فإنما يلفت أنظارنا إلى قضية مهمة ، وكأنه يقول لنا : إن استقمتَ على منهجنا وتكليفنا لك ستظلّ حياتك سليمةً بلا عورة ، خالية من المشاكل والصعاب ، فإنْ تعدَّيْتَ هذه الحدود فانتظر ظهور العورات فى المجتمع ، سواء أكانت عوراتٍ اجتماعية ، أم أخلاقية ، أم اقتصادية .. الخ

وفى قصة آدم - عليه السلام - حين أكل من الشجرة رمز إلى هذه المسألة ، كيف ؟ لَمَّا استقامَ آدمُ على منْهج ربه والتزم بما أمره الله به عاش فى الجنة معافَى بلا سَوْءة ، فلما خالف وأطاع وسوسة الشيطان فأكل من الشجرة التى نُهِىَ عنها بدتْ سوءتُه لأول مرة ، لأنه لما استقام كان يأكل بطهى ربه له وهو طهْى على قَدْر حاجة الجسم ومُقوِّمات الحياة فلا يبقى منه شىء ، يخرج فضلات من الجسم .

ولكن لما تدخلتْ الشهوة ، وأطاع الشيطان أفسد الخلطة الغذائية التى أُعدَّتْ له ، فتكوَّنت فى بطنه الفضلات وأحسَّ لأول مرة بشىء غريب لَم يعهده ، وفوجىء بأنْ خُرْقاً فى بدنه يخرج منه شىء قذر

كريه الرائحة .

لذلك عرف آدم أنها عورة ينبغى أنْ تُستر ، فأخذ يقطع من أوراق الشجر ليستر عورته ، ويدارى سَوْءَته ، هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا [1] يَخْصِفَانِ [2] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف]

وقد رأينا فى أثناء الحروب أن الجندى يتغذَّى على قرص صغير يؤدى مهمة الوجبة الغذائية ، لكن لا يترك فضلات فى الجسم ، ذلك لتخفَّ مؤونة التموين ، ولا يحتاج الجندى لعملية الإخراج .

إذن : فى قصة آدم والأكل من الشجرة إشارة رمزية إلى أن أحكامَ الله ما دامتْ مُنفَّذة يستقيم حال البلاد والعباد ، ولا تظهر فى المجتمع عورات ومساوىء ، لذلك حين ترى فى المجتمع عورة ظهرت فى أى ناحية : علمية ، اقتصادية ، اجتماعية ، خلقية .. الخ فاعلم أن بنداً من بنود منهج الله قد عُطِّل ، فابحث عنه ، وحاول إصلاحه بنفسك أولاً ، إنْ كان الإصلاح فى مقدورك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وآدم - عليه السلام - وقع فى هذه المخالفة بعد أن بيَّن الله له ما أحلَّ له وما حرَّم عليه ، وبيَّن له عداوة الشيطان ، وأنها عداوة

---

(١) طفقا : من أفعال الشروع ، من أخوات كان وخبرها يكون دائماً فعلاً مضارعاً غير مقترن بأنْ . كقوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (٢٢) ﴾ [الاعراف] أى : شرعا يفعلان ذلك . وأما قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾ [ص] فالمضارع مقدَّر أى : فطفق يمسح مسحاً . [القاموس القويم ١/٤٠٣] .

(٢) يخصفان : أى يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت . [القاموس القويم ١/١٩٥]

مُسْبقة منذ أمره الله بالسجود فلم يسجد ، ومع ذلك سمع آدم لوسوسة الشيطان ، وكان عليه أنْ يُعمل نعمة العقل ، وأنْ يفكر فيما قاله عدوه إبليس ، حين قال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف]

يعنى : أن مَنْ يأكل من هذه الشجرة يخلد ولا يموت ، إذن : لماذا لم تأكل أنت يا إبليس منها ، ما دام الأمر كذلك ؟ ألست القائل لله تعالى : ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤﴾ [الأعراف] فهنا إشارة إلى وجوب التفكر فى وسوسة الشيطان وعدم الخضوع له .

إذن : ففترة وجود آدم فى الجنة كانت فترةَ التدريب على المنهج الخلافى ، فلما حدثتْ منه المخالفة وحصل منه عصيان أراد الله أنْ يُخرجه من الجنة ، وأنْ يُنزله إلى حياة الأرض ليتحرك فيها حركةَ الخليفة ، مُستصحباً للتجربة السابقة .

وكأن الله يقول له : خُذْ من الحلال ما شئتَ ، وابتعد عن الحرام واحذر الشيطان فهو عدوك ، وسيظل يوسوس لك ليُوقعك فى المخالفة كما أوقعك فى المخالفة الأولى ، فإياك أنْ تسمعَ له لأنك لو سمعتَ له وهو عدوُّك سيُخرجك من حياة النعيم إلى حياة الشقاء ، كما أخرجك من جنة الالتزام بأمر والالتزام بنهى : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝١١٧﴾ [طه] ولم يقل : فتشقيا .

والحق سبحانه وتعالى وضع لنا فى هذه الآية إشارة رمزية منذ أوَّل الخَلْق ، لتَحُلَّ لَنَا مشكلة وقضية ما زال العالم يتحدث فيها إلى الآن وسيظل ، إنها قضية خروج المرأة للعمل والمساواة بالرجل ، وأن المرأة تريد أن تثبت ذاتها .. الخ

وعجيبٌ أنْ تطالب المرأةُ بالمزيد من المسئوليات ، فهى تريد أنْ تأخذ من مهمة الرجل ، فى حين أن الرجل لن يأخذ من مهمتها شيئاً ، ولن يحمل عنها عبئاً من أعبائها ، الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يرضع . إذن : أخذت أنت مهمةَ الرجل مضافاً إليها مهمتك الخاصة التى لا يقوم هو بها ، وفى هذا ظلم للمرأة .

فقوله تعالى لآدم ﴿فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾ [طه] دَل منذ أول الخَلْق على أن الشقاء والكدح والعمل وتحمُّل المسئولية مهمة الرجل ، وأن المرأة سيدةٌ فى بيتها مُعززة مُكرَّمة ، وهذه الصورة ظلتْ موروثة فى مجتمعاتنا بدون تضليل وبدون انطماس ، فحتى الآن حين يتقدَّم شابٌّ لخطبة البنت يشترط عليه كبير العائلة يقول (أنت حتستتها ولا حتشَغلها) يعنى : أتجعلها سيدةً مَصُونةً فى بيتها ، أم أنك ستخْرِجها للعمل ؟

البعض يقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟ فهو إذن مثل الشيطان : هذا عصى وهذا عصى . نقول : عصى آدم وهو فى فترة التدريب التى لا يُؤاخَذ فيها المخطىء ، بل نُصحِّح له دون مؤاخذة ، فالتلميذ فى المدرسة يُصوِّب له المعلم خطأه باللون الأحمر دون أنْ يحاسبه عليه ، إلى أنْ يأتىَ اختبار آخر العام ، فيحاسبه على الخطأ .

فآدم حين أخطأ كان فى فترة التدريب ، وقد صَوَّب الله له خَطأه ، ثم إنه لم يكُنْ نبياً فى هذه الفترة ، لأن آدم خُلق ليكون أباً للبشر جميعاً ، والبشر سَيُقَسَّمون إلى قسمين : قسم مُصْطفى وهم الرسل ، وقسم مُصْطَفًى عليه وهم المرسل إليهم .

إذن : آدم فى البداية كان يمثل القسمين ، وجاءت تجربته تمثل عصيان البشر وعصمة الأنبياء ، لذلك أخطأ فصوَّب الله له ، ثم تابَ

فتابَ الله عليه واصطفاه ، وكذلك حال البشر واقرأ : ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ [طه] هذه إشارة إلى ما سيكون من البشر ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾ [طه]

إذن : الاجتباء والعصمة جاءت بعد التجربة الأولى ؛ لأن آدم مثَّلَ الجميع ، مثَّل عصيان البشر ، ومثَّل عصمة الأنبياء .

هذا الخليفة طرأ على وجود خُلق له قبل أنْ يُوجد ؛ لا أن الله خلقه ، ثم نظر ماذا يريد وماذا يحتاج ، ثم خلقه سبحانه خَلْقاً يناسب قيامه بمهمته فى عمارة الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١)﴾ [هود]

ولم يجعل الحق سبحانه العبادات الأصيلة - أى أركان الإسلام - هى كل حركة الحياة ، بل جعلها هى الشحنة التى تُعينك على حركة الحياة ؛ لذلك مَنْ قال إن الإسلام هو هذه الأركان يؤديها وحسب نقول له : لا لأن هذه الأركان بها تستمد القوة من الله لتنجح فى حركة الحياة ، والإسلام أوسَعُ من هذه الخمس بكثير ، بدليل قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ (٩)﴾ [الجمعة]

إذن : ناداهم وأخذهم من شغل ومن عمل هو قمة حركة الحياة ، ألا وهو البيع ، وإن كان البيع مرتبطاً بالشراء إلا أنه أقوى ، لذلك خَصَّه بالذكر ولم يقُلْ : وذروا البيع والشراء ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه خالق الطبع الإنسانى ، ويعلم أن الإنسان ثقيل عند الشراء غير حريص عليه ، لكنه حريص على البيع ويسعى إليه ؛ لذلك عندما يكلِّفك أهل البيت بشراء شىء ربما تماطل فى شرائه أو تُؤجّله ، وتُسَرُّ حين تذهب فتجد المحل مغلقاً ، أما لو كنت

بائعاً فإنك تحرص كل الحرص على أنْ تبيع ، لماذا ؟ لأن المشترى ينفق والبائع يأخذ ؛ لذلك ذكر الحق سبحانه البيع لأنه ثمرة الحركة .

وبعد انتهاء الصلاة قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⁽١٠⁾ ﴾ [الجمعة] إذن : أخذك للصلاة من عمل ، وأعادك بعد الصلاة إلى العمل والسعى .

وحين تتأمل لفظ الحديث : « بُنِى الإسلامُ على خمس »[(١)] يعنى : هذه الخمس هى الدعائم التى يقوم عليها الإسلام والمبنى غير المبنى عليه ، وهل البناء الذى نسكنه مُكوَّن من الأساس والأعمدة فحسب ؟ إذن : الإسلام ليس هو الأركان الخمس ، إنما الإسلام أوسع من ذلك ، الأركان هى الشحنة التى يستدعيك ربك إليها ، فتأخذ من لقائه المددَ الذى يُعينك على القيام بحركة الحياة .

ومثَّلْنا ذلك (بالبطارية) حين تذهب بها إلى الشحن ، فنحن لا نستفيد بها فى فترة الشحن ، إنما نعطيها الشحنة اللازمة لتعمل بها بعد ذلك .

ومن عجيب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة الإنسانية فَرْضاً تكليفياً لا بُدَّ لك من القيام به ، لا بُدَّ لك أنْ تقابلنى خمسَ مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنك خَلْقى وصَنْعتى ، والصانع أعلم بما يُصلح صنعته ، وتصوَّرْ صنعة تُعْرض على صانعها خمسَ مرات فى اليوم والليلة : هل يبقى فيها عطب ، هذا فى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

الصانع إنْ كان من البشر ، فما بالك فى الصانع إنْ كان هو ربّ البشر وخالقهم سبحانه .

الصانع من البشر يُصْلح صنعته بشىء مادى مثل مسمار أو قطعة غيار مثلاً ، أما الخالق سبحانه فيصلحك دون شىء مادى ؛ ذلك لأن المهندس وصنعته شىء مادى فيصلح بالمادة ، أما الخالق سبحانه فغَيْبٌ ، فحين يصلحك من عطب فيك يُصلِحك بالغيب فلا تشعر به ولا تراه .

إذن : نقول لا بُدَّ أنْ نفهمَ الدين على حقيقته ، وأنْ نفهمَ أن لكل منَّا مهمة ، فإذا تفوَّق عليك غيرك فاعلم أن تفوقه لصالحك وعائد عليك ، لأنه بتفوقه يؤدى إليك خدمة ، فى حين أنه لا يستفيد منك ، فالذى يجيد عملاً لا شكَّ أنه ينفع نفسه وينفع الآخرين ، على خلاف مَنْ لا يجيد شيئاً .

لذلك نقول فى الفلاحين (باب النجار مخلع) ، فالنجار تظهر مهارته حينما يصنع لغيره ؛ لأنه يتقاضى أجراً ، إنما لا يجيد الصناعة لنفسه ، إذن : حين ترى المتفوِّق عنك ، لا تحسده ولا تحقد عليه ، بل تمَنَّ له الزيادة ، وتمَنَّ له الخير ، فسوف يُصيبك شىء لا محالة من هذا الخير ، وسيعود عليك هذا التفوق فى شكل خدمة يُقدِّمها لك .

لذلك كنا فى الفلاحين ، لو مات لأحدنا بقرة أو جاموسة يحزن الجميع ، لدرجة أننا رأينا مرة جماعة يَبْكُون على عجل مات فتعجبنا ، الناس يبكون على الميت منهم ، لكن من الحيوانات ؟! بعدها عرفنا أن هذا العجل هو الذى يدير الساقية ، ويحرث الأرض التى يأكل منها هؤلاء الناس ، وينالهم خير هذه الأرض ، وكنا فى الريف لا نشترى الخيار ولا

الملوخية ولا البامية وغيرها كثير ، بل كان يُهْدى ولا يُبَاع.

إذن : الهبة المبذولة عند الخَلْق عائدة على كل الخَلْق ، فحين ترى مَنْ هو أكثر منك خيراً أو موهبة ، فتمَنَّ له الزيادة ، لأن خيره لا محالة سيفيض عليك ، وحين ترى مَنْ يجيد عملاً لا تجيده أنت لا تحقد عليه ، لأنك ستحتاجه ليجيد لك عملك حتى لو كنتَ تكرهه ، أو على خلاف معه تحرص عليه ليعمل لك ، فأنت تعلم مدى إجادته للعمل ، فتذهب إليه حرصاً على مصلحتك أنت ، وبذلك يتم التعادل المطلوب فى المجتمع ، وتستقيم أمور الخَلْق استقامةً مبنيةً على الحاجة .

ولو تأملتَ فى نفسك كما قال الله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] لوجدتَ فى نفسك هذا التعادل بين الأعضاء ، فعندك مثلاً اليد اليمنى تزاول بها بعض الأعمال التى تناسبها ، واليد اليُسْرى تزاول بها أعمالاً أخرى تناسبها ، اليد اليمنى للأعمال الشريفة المكرَّمة ، أما اليسرى فهى لما دون ذلك ، وغالباً ما تكون اليمين أقوى من الشمال وأكثر حركة منها وأدقّ فى التناول .

وتأمل مثلاً حين تريد أنْ تقصَّ أظافرك ، فإنك تقصّ الشمال باليمين فيأتى القَصُّ دقيقاً مُريحاً ، على خلاف قَصِّ اليمين بالشمال ، إذن : موهبة اليمين عادتْ على الشمال ، وعدم موهبة الشمال عادت على اليمين ، وهذا يلفتنا إلى أنَّ الكمالات فى الكون كمالاتٌ مُسْتطرقة تستطرق فيه ، كاستطراق الماء .

والحق - سبحانه تعالى - حين خلق الإنسان الخليفة أعطى له تكوينات تناسب مهمته ، وأول هذه التكوينات الجوارح التى نسميها الحواس التى نُحسّ بها الأشياء ، ويُسمُّونها الحواس الخمس الظاهرة ، وقولهم الظاهرة احتياط لما سيجدّ من حواس يعرفها

العلم ، وفعلاً اكتشف فى الإنسان حواسّ أخرى غير هذه الخمس كالحاسة التى أعرف بها الجوع ، وكحاسة البَيْن التى أميز بها البُعْد بين شيئين ، وحاسة العضل التى أعرف بها ثقل الأشياء .

وحين تتأمل هذه الحواس الخمس المعروفة ، تجد أن التكليف الشرعى جاء على مقتضى هذا التكوين فى الحواس ، فلكُلٍّ حاسة فى الإنسان ، ولكل جارحة عَمل ، فأداء كل جارحة لمهمتها يُسمَّى (عمل) ، فالقلب يعمل بالنية ، واللسان يتكلم ، والأذن تسمع ، والأنف يشمُّ ، واليد تمس الأشياءَ ، والعين ترى ، هذا كله عمل .

ولا بُدَّ هنا أنْ نفرق بين العمل والفعل ، والفعل يقابله القول الذى هو مهمة اللسان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف]

إذن : فالقول ، وهو مهمة اللسان أخذ قسماً وحده ، وبقية الحواس أخذتْ القسم الآخر ، فالقول للسان ، والفعل لبقية الحواس ، لماذا أخذ اللسانُ الشطر ، وبقية الحواس الشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول هو وسيلةُ نقل مطلوب الرسل منا لنفعل ، ونقل مطلوباتنا من الغير ليفعلوها .

إذن : فكل الأفعال فى خدمة القول ، ومنهج الله لا يأتينا إلا بالقول الذى يحمل الأمر للحواسّ فتعمل ، والعمل ليس بالضرورة عملاً عضلياً ، بل ربما يكون عملاً معنوياً ، كعمل القلب وهو النية كما قلنا ، والشرع هو الذى يحكم هذه الحواس ، ويُحدّد لها الإطار الذى تعمل فيه فى ضوء الحلال والحرام .

ومهمة الحواس أنْ تلتقط المدْرَكَات ، ثم تعرضها على العقل ، فيُصفِّيها تصفيةً حقيقيةً ، بأنْ يقارن بينها ، ويعرف أن هذه تصلح

لكذا ، وهذه لكذا ، وبعد هذه التصفية يُسلِّمها للقلب لتصير عقيدةً فيه ، وكلمة عقيدة تعنى الشيء المعقود الذى لا يُفَكُّ ، ولا يعرض للنقاش مرة أخرى فى العقل ، فالطفل الصغير مثلاً يُغريه شكل النار الجميل ، فيحاول الإمساك بها ، فتحرقه النار ، ويُحِسّ لأول مرة بالحرارة ، فتتكوَّن عنده عقيدة أو قضية عقلية أن النارَ تحرق ، فلا يقترب منها بعد ذلك ، ويظل طوال حياته يسير على هذه العقيدة أو هذا المبدأ ، ولا يحتاج لأنْ يُجرِّبه مرة أخرى .

هذه العقيدة ساعةَ تستقر فى القلب يضخها القلب مع الدم ، فتسير فى جميع البدن ، وتتخلل كل الأعضاء فتتشرَّبها ، وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « إن فى الجسد مُضْغَةً ، إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسدُ كله ، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كله ، ألا وهى القلب »[(١)] .

وبعد أن خلق الحق سبحانه للإنسان الجوارحَ والحواسّ خلق الغرائز ، وهى أمور لازمة لك ، ثابتة فى تكوينك ، ولا يمكن لك الاستغناء عنها ، لكن هذه الغريزة قد تُلحّ عليك فتُخرجك عن الهدف منها ، وعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل الشرع لِيَكبحَ جماحها ، وليُعيدها إلى توازنها الذى خلقها الله من أجله .

يتدخل الشرع ليُعلى الغريزة ويُهذِّبها ، لا ليكبتها ويقضى عليها ، فالأكل غريزة لاستبقاء الحياة ويكفى فيه ما قال سيدنا رسول الله ﷺ : « بحسبِ ابْنِ آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صلْبه »[(٢)] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معد يكرب ، ولفظه : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان ولابد فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .
قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ولا ينبغى أنْ تخرجَ عن ذلك ، وتتحوَّل إلى شَرَه وتخمة . حب الاستطلاع غريزة جعلها الله لاستكشاف أسراره فى الكون ، والتأمل فى مخلوقاته ، فإنْ خرجت عن هذا الإطار وصارتْ تَجسُّساً وتتبُّعاً للعورات ، فقد خرجتْ عن مهمتها ، وهنا يتدخَّل الشرع ليُعْليها ويُعيد إليها توازنها .

وأعنف غرائز الإنسان الغريزة الجنسية ، خاصة فى سنِّ الشباب وهذه الغريزة جعلها الله لحفظ النوع واستبقاء النسل ، هذه هى المهمة التى من أجلها خُلقَتْ غريزة الجنس ، وقد حرص الشرع على استبقاء هذه الغريزة مصحوبةً بمنهج حركتها لمَنْ خلقها لتستقيمَ الأمور ، لأن النسلَ هو الثروة الأولى التى ينبغى الحفاظ عليها ليأتى النسلُ شريفاً طاهراً .

وسبق أنْ فرَّقْنا بين النسل الشرعى المحسوب على الوالدين ، والنسل غير الشرعى ، وكيف أن الأول يُقابَل بالفرحة وبالحنان والعطف والرعاية ، والآخر يُقابل بالكراهية وعدم الرغبة ، وربما فكرتْ أمه فى التخلص منه ، ولو بإلقائه فى الشارع .

من هنا حرص الدين على بناء الأسرة بناءً سليماً فيه شرف وكبرياء وعزَّةُ نفس فى ظلِّ كلمة الله ومنهجه الذى يُؤمِّن لك سلامة نَسْلك ، فيأتى موثوقاً به تطمئن إليه ، وتعتنى به ، وتربيه أحسنَ تربية ، وهذا هو هدف الشرع .

وسبق أنْ تحدَّثنا عن الفرق بين الحلال والحرام فى هذه المسألة ، وذكرنا الحديث الشريف : « جَدَعَ الحَلاَلُ أنْفَ الغَيْرة »

إذن : فهذه الغريزة مخلوقة فى النفس البشرية لأداء مهمة ، ولكى تبقى فى إطار ما خُلقتْ له ، لكن الحاصل أن كثيرين يخرجون

بها عن هدفها ، والعجيب أنْ يظلمَ الإنسانُ الحيوانَ فى هذه المسألة ، حين يقول : هذه شهوة بهيمية ويتشدَّق بها .

وهذا القول يدل على عدم فهم لغريزة الحيوان ؛ لأن الحيوان يقف بالغريزة عند حدودها كما خلقها الله ؛ لذلك لم نَرَ بهيمة أنثى حملتْ ثم مكَّنَتْ فحْلاً منها بعد ذلك ، كذلك الفحل يشمُّها ، فيعرف أنها حامل فينصرف عنها .

أهذه شهوة بهيمية على حسب ما نقصد نحن من هذه الكلمة ؟ لا ، بل هى إنسانية .. ولك أنْ تقارن بين هذه الغريزة عند الحيوان وعند الإنسان ، وسوف ترى العجب فى خروج الإنسان بهذه الغريزة عن المراد منها .

ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ ربطَ الغريزة الجنسية والنسل بالاستمتاع ، ذلك لأن لَلنسل مطالب وتبعات ومسئوليات ، فلو لم تَكنْ هناك متعة تُرغِّب الإنسان لَزَهد فى المسألة ، وانصرف عنها .

والحق سبحانه وتعالى يأتى للمؤمنين على منهج واحد بأمور متقابلة مثل : العزة والذِّلَّة ، فالمؤمن غير مطبوع على عزَّة دائمة ولا على ذلة دائمة ، إنما الموقف الذى يعيشه هو الذى يملى عليه أنْ يكونَ عزيزاً ، أو أنْ يكون ذليلاً ، فالذلّة والانكسار لإخوانه المؤمنين والعزَّة والتعالى على الكافرين الجاحدين ، كما قال تعالى فى وصف سيدنا رسول الله والمؤمنين : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

إذن : فهُمْ أشداء رحماء فى وقت واحد ، وهذا دليل على أن المؤمن لا تكيفه غرائزه إلا بمعدلات خالق الغرائز .

من التكوينات أيضاً فى خَلْق الإنسان بعد الحواس والغرائز أن الله

خلق فى الإنسان العاطفةَ ، والعاطفة شعور لا نعرف سببه ؛ لذلك تقابل شخصاً فترتاح إليه وآخر تكرهه هكذا دون سابق تعامل ، لماذا إذن تحب هذا وتكره ذاك ؟ إنها العاطفة ؛ لذلك تحب ولدك ولو كان غبياً ؛ لأنك تحبه بعاطفتك ، وتحب ابن عدوك الذكى تحبه بعقلك .. لذلك لم يجعل الحق سبحانه العاطفةَ مجالاً للتكليف .

ويبيِّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ العاطفة فى قوله لصحابته ، وفيهم سيدنا عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من أمه وأبيه ونفسه »

وقفتْ هذه الكلمة فى نفس عمر . فقال : يا رسول الله ، أنت أحب إلىَّ من أمى وأبى أو من ولدى ومالى ، لكن نفسى يا رسول الله ؟ فكرَّرها رسول الله مرة أخرى ، حتى علم عمر أنها عزيمة ، ولا بُدَّ أن رسول الله يقصد حباً غير الذى يراه عمر ، إنه يقصد الحبَّ العقلى ، عندها قال عمر : الآن يا رسول الله ، يعنى : الآن أصبحتَ أحب إلىَّ من أبى وأمى ، وأحب إلىَّ من ولدى ومالى ، وأحب إلىَّ من نفسى التى بين جَنْبَىَّ[1] .

إذن : المراد فى حب رسول الله الحب العقلى ، فلولاه ﷺ ما اهتدينا ولا بلغنا الهدى ، ولولاه لهلكنا ، فأنت تحب محمداً ﷺ كما تحب الدواء المرَّ ، لا تحبه بعاطفتك إنما بعقلك ؛ لذلك فهم سيدنا عمر أن الحب المطلوب شرعاً حبّ العقل ، وإنْ تحوَّل بعد ذلك إلى

---

(١) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : الآن ياعمر . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٣٦) .

عاطفة وعشق للذات ، وهذه درجة أخرى أعلى من الأولى .

والقرآن الكريم يُعلِّمنا هذا فى قول الله تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۝٨ ﴾ [المائدة] يعنى : لا يحملنكم البغض لقوم أنْ تظلموهم ، وألاَّ تعدلوا معهم ، إذن : البُغْض غير ممنوع ؛ لأنه مسألة عاطفية ، فأحبب مَنْ شئتَ ، وابغضْ مَنْ شئتَ ، لكن إياك أنْ يحملَك الحبُّ أو البُغْض عَلى أنّ تظلم بأنْ تجامل مَنْ تحب ، وتظلم مَنْ تكره .

ولأن العواطف بهذا الشكل ، يعنى : ليس لها انضباط فى الذات خرجتْ من نطاق التكاليف الشرعية ؛ لأنك لا تعرف لماذا مالتْ بك العاطفة لأنْ تحبَّ أو تكره .

وحين نتأمل الحواسَّ والغرائز والعاطفة نجد أن الحواسَّ ظاهرةٌ معروفة ؛ فالعين ترى ، والأذن تسمع .. الخ . وكذلك الغرائز ظاهرة بأثرها وأسبابها ، فحين تجوع تطلب الطعام ، وحين تريد أهلك تحنُّ إليهم ، أما العاطفة فشىء خفى غير ظاهر ، لذلك يضرب لها القرآن مثلاً ليس فى الإنسان ولا حتى فيما دونه من الحيوان أو النبات إنما مثلاً فى الجماد ، واقرأ قوله تعالى فى عاقبة الكافرين قوم فرعون : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. ۝٢٩ ﴾ [الدخان]

ومعلوم أن البكاء مظهرٌ عاطفىٌّ ، فهل تبكى السماء ؟ وهل تبكى الأرض ؟ نعم تبكى وتنفعل ، وكأنها تقول لهؤلاء : اذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم ، وإلا لما نفى الله عنها البكاءَ ، ولِمَ نستبعد ذلك ؟ والسماء والأرض خَلْق من خَلْق الله خاضع للتسخير ، ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۝٤٤ ﴾ [الإسراء]

إذن : لا غرابة أنْ يفرح الجماد حين يجد مَنْ يُسبِّح معه وينسجم

مع الكون المسبِّح ، ولا غرابةَ أنْ يحزن ، وأنْ يبكى عندما يشذّ البشر عن هذه المنظومة المسبِّحة ، وعليه يمكن القول بأن السماء والأرض لم تَبْك على هلاك قوم فرعون ، وفرحتْ لهداية آسية امرأة فرعون . إذن : للسماء والأرض انفعال وعاطفة فهى تحب وتكره ، وتبكى وتفرح .

وهذا المعنى أوضحه لنا الإمام على رضى الله عنه ، حين قال[1] : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله - يبكيه لأنه حُرِم من صعود الكَلِم الطيب والعمل الصالح - أما موضعه فى الأرض فمُصلاّهُ - يعنى : المكان الذى كان يُصلِّى فيه .

كانت هذه مقدمة ضرورية ندخل بها على قِصَّة سيدنا لوط فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾

كانت مهمة سيدنا لوط فى دعوة قومه أشقَّ مهمة ؛ لذلك ذُكر فى القرآن سبع عشرة مرة ، بالرفع وبالجر ، وذُكر عشر مرات بالنصب ، ووَجْه المشقة فى مهمته عليه السلام أنه جَاء ليُعدِّلَ أعنفَ الغرائز فى النفس البشرية ، وهى الغريزة الجنسية .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) أن رجلاً سأل على بن أبى طالب : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلًّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء .

لَيْتَ هذه الغريزة . كانت عند القوم فى مسارها الطبيعى ، بمعنى غريزة الرجل نحو المرأة ، إنما كانت غريزة جنسية منحرفة لم يسبق لها مثيل من قبل وهى علاقة الرجل بالرجل ، لذلك جاءت منهم جريمة وفعلة نكراء مبتكرة لم يسبق إليها أحدٌ غيرهم ، كما قال تعالى على لسان سيدنا لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف]

قلنا سابقاً : إن كل إنسان منَّا له فى ذاته الخاصة حرية ، فإذا انتقلتْ إلى غيره جاءتْ قيود لهذه الحرية ، إذن : فلى حرية مع نفسى، ولى حرية مع أهلى ، ولى حرية مع الناس عموماً فى الشارع، ولكلٍّ حدود والتزامات ، فالإنسان مثلاً حين يغلق على نفسه حجرته الخاصة تكون حريته أوسعَ ، حيث لا أحدَ معه يحدُّ من حريته .

فإذا خرج من حجرته الخاصة إلى الصالة مثلاً تصبح حريته مُقيَّدة بعض الشيء لوجود أهله وأولاده ، فإذا خرج إلى الشارع حيث عامة الناس قُيِّدتْ حريته أكثر ؛ لأن لكل مَنْ يتعامل معهم فى الشارع حرية ، وحريةُ الآخرين تُقيِّد حريتك ، فإذا ما ذهبتَ إلى النادى مثلاً حيث الأحبة والأصدقاء ، فإنك تذهب بهندامك الكامل وأدبك الجمّ .. الخ .

لذلك ظهر تبجُّح قوم لوط بفاحشتهم ، لدرجة أنهم كانوا يأتونها فى ناديهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ (٢٩) ﴾ [العنكبوت] يعنى : الفعل الذى لا ينبغى لكم فى الخَلْوة تفعلونه فى النادى علانيةً ، وهذه الفعْلة ممنوعة شرعاً ، حتى لو كانت فى المحلَّلة لك وهى الزوجة ؛ لأنَ إتيان الزوجة لا يكون إلا فى منبت الولد .

لذلك لما نادى البعض بحرية الرجل فى الاستمتاع بالمرأة حيثما

يشاء ، وفَهم هذه الحرية من قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ (٢٢٣) ﴾ [البقرة] نقول لهم : لقد غفلتم عن معنى الحرث هنا ، فالحرث هو الأرض المعدَّة للإنبات ، كذلك يكون إتيان الزوجة في موضع الإنبات حيث يأتي الولد ، فإنْ كان في الموضع الآخر الذي لا إنبات فيه فهو حرام . فإذا كان الإسلام يُحرِّم هذه الفِعْلة مع الزوجة ، فما بالك لو فعلها مع رجل مثله ؟

وكما حرَّم الشرع فعْلة قوم لوط ، وهو إتيان الرجل للرجل حرَّم كذلك أنْ تفعل المرأة بالمرأة ، وهو ما يُسمَّى بالسِّحاق والعياذ بالله ، وهذا التحريم بالقياس على الرجل .

إذن : فالشرع عدَّل الغرائز المنحرفة في علاقة الرجل بالرجل ، وفي علاقة المرأة بالمرأة ، وفي العلاقة الزوجية بين الزوج وزوجته، ووضع الضوابط الرادعة في هذه المسألة ، لماذا ؟ لأن هذا الانحراف سيسيء إلى النسل وإلى عمارة الكون ، والحق سبحانه يريد لخليفته في الأرض أنْ يأتي طاهراً شريفاً ، ليكون أهلاً لهذه الخلافة .

لذلك ذُكر سيدنا لوط عليه السلام سبعاً وعشرين مرة لِثقَل المهمة التي كُلِّف بها ، في حين ذكر سيدنا عيسى عليه السلام رغم أهميته في موكب الرسالات ، ورغم طبيعة خَلْقه العجيبة ، إلا أنه ذُكِر خمساً وعشرين مرة .

وأنا شخصياً أخذتُ على كثيرين من الكُتَّاب والعلماء أنهم ينسبون هذه الجريمة ، وينسبون فاعلها إلى نبي الله لوط - عليه السلام - فيقولون عن الفعلة النكراء لواط ومرتكبها (لوطي) ، وهذا خطأ فادح وعيب كبير أن ننسب القبح والفاحشة لنبي الله ، الذي جاء ليحاربها ،

وليُعدِّل سلوكَ الناس فيها : قالوا : نحن نسير فى ذلك على مُقْتضى الكلام العربى فى النسب ، كما قال الناظم[1] :

وَالوَاحِدَ اذْكُرْ نَاسِباً لِلْجمْع   إنْ لم يُشَابِهْ وَاحِداً بِالوضْعِ [2]

يعنى : هم قوم لوط بالإضافة ، لكن فى اللغة مَا يُسمَّى بالنحت ، ويمكن أنْ ننحت من الكلمة ما يفيد أن القوم هم أصحاب هذه الفعلة ، بعيداً عن لوط - عليه السلام - فعيْبٌ أنْ نجعله عُنْواناً لهذه الفاحشة.

وهذه الآيات التى معنا تذكر قصة سيدنا لوط مع قومه ، فهى لقطة موجزة لآخر القصة ولنهايتها ، حيث نجَّى اللهُ المؤمنين وأهلكَ الكافرين ، وبداية قصة لوط حينما تقابل مع عمه سيدنا إبراهيم عليهما السلام ، كما قال تعالى :﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت]

فهذه لقطة من القصة ، وليس تكْرَاراً لها كما يدعى البعض ، فالقَصَص فى القرآن لا يأتى سَرْداً جملة واحدة ، إنما يأتى لقطات مختلفة يذكرها فى مناسبتها .

وقد وقف السطحيون كثيراً فى مسألة عصا موسى يتهمون القرآن بالتكرار ، وهذا نتيجة قصورهم فى فَهْم كتاب الله ، فالأمر الأول بإلقاء العصا كان فى مجال الإيناس ، حيث أراد الحق سبحانه أنْ يُجرى لموسى هذه التجربة بينه وبين ربه ، بدليل سؤال الإيناس . ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾ [طه] فالله يعلم ما فى يمينه ، لكن أراد

(١) هو ابن مالك صاحب الألفية فى النحو أبو عبد الله جمال الدين ، أحد أئمة العلوم العربية ، ولد فى جيان بالأندلس عام ٦٠٠ هـ ، وانتقل إلى دمشق فتوفى بها عام ٦٧٢ هـ عن ٧٢ عاماً ، له مصنفات كثيرة فى علم العربية

(٢) هو البيت رقم ٨٧٨ فى الألفية ، وهى من بحر الرجز وعدد أبياتها ١٠٠٢ بيتاً .

سبحانه أنْ يُؤنسه ؛ لذلك أطال سيدنا موسى فى الجواب ، فقال : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[1] أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] ثم أمره الله أنْ يُلقيها :﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

إذن : أراد الحق سبحانه أنْ يدرِّب موسى ، حتى إذا جاء لقاؤه مع فرعون ورأى العصا حَيَّة على الحقيقة ، كان لديه دُرْبة ولا يخاف. ثم كان الأمر بإلقاء العصا فى المرة الأخرى فى موقف آخر أمام فرعون والسحرة . إذن : هذا موقف ، وهذا موقف آخر .

وإنْ شاء سبحانه أورد القصة كاملة ، كما فى قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - ربما ليتحقق لها الحبكة الفنية كما يقول نقاد الأدب ، وربما لأن العبرة والعظة لا تتم إلا بتمام القصة ؛ لأن القصة فى القرآن ليستْ سَرْداً لتاريخ ، ولا مجالاً للتسلية ، إنما تُسَاق للعبرة والعظة ، وتُسَاق لتسلية سيدنا رسول الله .

فمهمة رسول الله أمام مجابهة قومه له باللَّدد والخصومة والعناد والكفر كانت تقتضى أنْ يُثبته الله فى كل آونة ، فكلما احتاج إلى تثبيت نزلتْ عليه الآيات تحمل لقطة مناسبة من موكب الرسالات ، ثم يُسلِّى الله رسوله فيقول له : لأنك سيد الرُّسُل وخاتم الرسل ومبعوث إلى الناس كافة إلى آخر الزمان ، فلا بُدَّ أنْ تتضاعف لك المتاعبُ من قومك .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك ، وقلنا : إننا شاهدنا مثلاً ثورة يوليو ١٩٥٢ وما زلنا نشهد الاحتفال بذكراها كل عام ، ونستمع إلى

---

(١) مآرب أخرى : أى حاجات وأغراض كثيرة أخرى . [القاموس القويم١/١٧] .

قصتها وما دار فيها ، لكن كل سنة نستدرك عليها شيئاً جديداً ، ونستخلص منها دروساً .

إذن : نقول جاء القصصُ القرآنى كل لقطة فى مناسبتها لتثبيت رسول الله كما قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الصافات] أى : بالقصف والرَّجْم .

كلمة (وأهله) الأهل تُطلَق على عشيرة الرجل الأقربين ، وتُطلق على الزوجة ، والحق سبحانه وتعالى أخبر هنا أنه نجَّى لوطاً وأهله أجمعين ، واستثنى منهم امرأته ﴿ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى قال : ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [العنكبوت] والغابرون جمع : غابر ويطلق الغابر على معنيين متقابلين . الغابر : يعنى الشىء الذى مضى وانتهى ، والغابر الباقى ، وقد اجتمع لامرأة لوط المعنيان معاً ، فهى من الغابرين الذين تركناهم للهلاك ، أو من الغابرين يعنى الباقين أيضاً للعذاب حتى يأتى .

ثم يُذكّرنا الحق سبحانه بأن القصة فى القرآن لا تُساق للتسلية ، إنما تُساق للعبرة والعظة ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات] أى : على آثارهم فى سدوم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات] فى الصباح ﴿ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات] نعم ، يمرون عليهم فى رحلاتهم وأسفارهم وفى تجارتهم فى رحلة الشتاء والصيف ، ويشاهدون آثارهم وما تبقَّى من ديارهم .

كانت هذه لقطة موجزة ، وبرقية عاجلة لقصة سيدنا لوط مع قومه ومثلها تماماً قصة سيدنا يونس :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

أولاً : أثبت الحق سبحانه لسيدنا يونس - عليه السلام - أنه مُرْسَل ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات] فلنأخذ هذه الفكرة فى الاعتبار قبل الدخول فى قصته ، ولنفهم القصة فى هذا الإطار ، حتى إذا ما حدث منه شىء لا يليق برسول فى نظرك ، فاعلم أنه لا يطعن فى منزلته كرسول ، فالذى أرسله شهد له بالرسالة ولم يعزله منها ، ولم يُجرِّده من منزلته بعد ما حدث .

إذن : حين تسمع قصته لا تَقُلْ أن هذا الفعل لا يليقُ برسول ؛ لأنك لست أغيرَ على الله من الله .

وتأمل قول الله فيه ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الصافات] معنى أبق : هرب وليس الهروب المطلق ، إنما هروب العبد من سيده ، لا هروبه من مستأجره ، ولا هروب ابنى منى ، فهذا لا يُعَدُّ أبُوقاً . فكلمة (أبق) فيها ملحظ العبودية المطلقة للسيد الأعلى ، فالله سيده وهو عبده .

لأن العبد مملوك بملك اليمين فهو بذاته مِلْك لى حين آخذه أسيراً ، نعم بذاته ، لأن الله حقن بهذا المِلْك دمه ، فبدل أنْ أقتله فى

الحرب أسرْتُه واستعبدته ، فهو لا يصير عبداً إلا إذا أسرْته ، وما دُمْت أسرْته وقدرْت عليه تستطيع قتله ، إذن : ملّكك اللهُ رقبته ، لأنه حمى دمه أنْ يُراق .

فلا داعى إذن للمقارنة بين الرقِّ والحرية ، وإنْ أردتَ المقارنة ، فقارن بين رِقٍّ وقتل ، ولو خيَّرْتَ العبد نفسه بين أن يعيش عند سيد يخدمه ، وبين القتل لاختار العبودية . إذن : العبودية هنا ليست سُبَّة فى الإسلام ، إنما هى جميل أسْداه الإسلام إلى هؤلاء العبيد .

ومحمد ﷺ ما جاء ليشرِّع للرقِّ ، ويزيد من أعداد الرقيق إنما جاء ليقضى على الرِّق ، وليجفِّف منابعه ، ورسول الله ﷺ جاء والرق موجود فى المجتمع وبكثرة ، حيث كان له ثلاثة وعشرون مصدراً يأتى الرقُّ منها ، فماذا فعل الإسلام ؟

سَدَّ كل هذه المصادر ، ولم يَبْقَ منها إلا الأسير فى حرب شرعية ، ثم أخذ يُعدِّد مصارف الرق ويفتح الأبواب لتحرير الرقيق كما رأينا فى الكفَّارات وفى التطوع بتحرير الرقاب . فإنْ لم ترتكب ذنباً يستدعى كفارةً وعتْقَ رقبة ولا حاجةَ لك فى التطوع بعتق رقبة واحتفظتَ بما لديك من الرقيق فلتكرمه .

وقد وضع لنا النبى ﷺ دستوراً نسير عليه فى معاملة الرقيق ، حين قال : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلَّفه ما يغلبه فليُعنه عليه »(١) .

هكذا أمر الإسلام فى مسألة العبيد ، والإسلام أبقى على الرقِّ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٥٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل .

من الحرب المشروعة ؛ لأن لى عدواً كافراً يحاصرنى ويحاربنى ، ويأخذ أولادى أَسْرى عنده ، فلا بُدَّ من المعاملة بالمثل ، أسَرُوا منّا نأسر منهم ، فَدوْا أسْراهم نفدى أَسْرانا ، أطلقوا السراح نطلق .. وهكذا ، إذن : المتأمل فى هذه المسألة يجد أن محمداً ﷺ ما جاء لِيُشرِّع للرقِّ ، إنما جاء لِيُشرِّع للعتق .

وقوله تعالى فى شأن سيدنا يونس ﴿إِذْ أَبَقَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات] ليس مأخذاً على نبى الله يونس ، لأن (أَبَقَ) تعنى أنه معترفٌ بأنه عبد لربه ، هذه اللقطة لم يأتِ لها تفصيل هنا ، إنما جاء فى سورة أخرى لنعرف أن المسألةَ ليستْ (ميكانيكا) ، المسألة مرادات حَقٍّ تأتى فى موضعها لحكمة ، ولسيدنا يونس سورة باسمه ، ولن يُذكر اسمه إلا مرة واحدة ، ثم يذكر فى غير السورة المسمَّاة باسمه كل تاريخه .

فمعنى (أَبَقَ) هرب من سيده أو ترك قومه دون إذن من ربه ، وهذه المسألة فُصِّلَتْ فى قوله تعالى ﴿وَذَا النُّونِ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] أى : صاحب الحوت ، وهو سيدنا يونس ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] والمغاضب غير الغاضب ، المغاضب : فيها مفاعلة ومشاركة ، فهو غاضب ، والمقابل له أيضاً غاضب ، فهى مثل شارك محمد علياً ، فهى شارك علىّ مُحمداً ، أما غاضب فيعنى من ناحيته هو فحسب .

لكن مُغَاضباً لمن ؟ الطرف الآخر هنا هم القوم لما كذبوه وآذوه لم يُطقْ ، فهو ليس مُغَاضباً لربه ، إنما مغاضباً لقومه وعنده أمل ، وظن فى ربه أن يسامحه فى هذا التصرف ؛ لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] البعض[1] فهم (نقدر) من القدرة، وحاشا لله أن يظن نبى الله أن الله لن يقدر عليه ، ولن يعيده إلى قومه .

إنما معنى (نقدر) هنا أى : نُضيِّق عليه[2]، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق] فهى ثقة منه فى رحمة من أرسله ، وأنه سبحانه لن يُضيِّق عليه أنْ يُنفِّس عن عواطفه حين ترك قومه دون إذن من ربه .

ومعنى (الفُلْك) السفينة (المشْحُون) المملوء ، وهذا يدلُّنا على أن للسفينة حملاً خاصاً ، لا ينبغى أنْ يزيد ، وإلاَّ تعرضت السفينةُ للغرق حسب قاعدة أرشميدس ، وبهذه القاعدة تطفو الأشياء ، وعليها قامتْ فكرة الغوَّاصات ، معنى غواصة يعنى : تغوص تحت الماء ، لأن وزنها أثقلُ من إزاحة الماء ؛ لذلك يقولون : خِفّْ تعوم .

وما دام أن الفلك مشحون ، والعدد أزيد من حمْل السفينة فقرر القبطان أن يُلقى بأحد الركاب ليَخفَّ الحملُ ، فأجروا القرعة ، فخرج سهم سيدنا يونس ، فألقَوْا به فى البحر فالتقمه الحوت ، هذا معنى ﴿ فَسَاهَمَ .. ﴿١٤١﴾ ﴾ [الصافات] أى : دخل معهم فى القرعة ، وألقى بسهمه مع سهامهم ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الصافات] معنى ﴿ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الصافات] المدْحَض الخاسر فى الصفقة ، والمراد القرعة حيث كان من نصيبه أنْ يُلْقى هو فى البحر .

والقرعة طريقة للاختيار ، تبرىء مالك السفينة من أنْ يُتَّهم

---

(١) رواه عوف عن الحسن البصرى . وتقدير المعنى : أفظن أن لن نقدر عليه . قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية :« فعلى هذا الوجه يكون استفهاماً قد حذفت ألفه ، وهذا الوجه يدل على أنه من القدرة ، ولا يتصور إلا مع تقدير الاستفهام ، ولا أعلم له وجهاً إلا أن يكون استفهام إنكار » .

(٢) قاله عطاء فيما ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير .

بالتحيز أو المحاباة ، وعملية إلقاء السهام مسألة قدرية خالصة ، لا دَخْلَ فيها للهوى ، وهى دليلٌ على عدالة الحكم ؛ لذلك كثيراً ما نلجأ فى إجراء القرعة إلى طفل صغير ، يختار الأوراق الملقاة مثلاً ، لماذا ؟ لأنه لا يستطيع التمييز بينها ؛ لذلك يأتى اختياره قَدَراً مُنزَّهاً عن الهوى .

فقوله تعالى ﴿فَسَاهَمَ ﴿١٤١﴾﴾ [الصافات] يعنى : دخل معهم فى القرعة يعطينا لقطة اجتماعية تعفينا من الحرج والضغائن ، لأنه إذا وُجد شىء لا يتسع للطالبين له ، لا يصح أنْ يميزَ القائمُ عليه بين هؤلاء الطالبين ؛ لأن تمييزَ واحد على الآخر يُورث فى النفس شيئاً ، وإجراء القرعة اختيار قدرى لا دخْلَ لأحد فيه[1] .

وهذه المسألة لجأ إليها سيدنا رسول الله ﷺ ، حينما دخل المدينة والتفَّ الناس حوله ، كُلٌّ يريد أنْ يأخذ بزمام ناقته ﷺ ليذهب برسول الله إلى بيته ، فكيف يفعل رسول الله وهو يريد ألاَّ يكسر خاطر أحد منهم ؟ لقد حسم رسول الله هذا الموقف ، حين قال : « دعوها فإنها مأمورة » فأخرج نفسه من الاختيار ، وتركه لله تعالى ولقدره ، وسارتْ الناقة حتى بركتْ عند ديار بنى النجار[2] .

---

(١) يذكر القرطبى عند تفسيره لهذه الآية (٥٧٦٥/٨) أمراً هاماً وهو أنه لا يجوز الاحتجاج بهذه الآية على جواز الاقتراع على إلقاء الآدمى فى البحر ، ويقول : « إنما كان ذلك فى يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه وزيادة فى إيمانه فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يُقتل ولا يرمى به فى النار أو البحر ، وإنما تجرى عليه الحدود والتعازير على مقدار جنايته » ونصَّ أبو بكر الجصاص على خصوصية هذا بيونس عليه السلام فى « أحكام القرآن » (٤٩٧/٣) طبعة دار الكتب العلمية .

(٢) أورد هذه القصة ابن هشام فى السيرة النبوية (١١٢/٢ ، ١١٣) أن كلاً من بنى عوف وبنى بياضة وبنى ساعدة وبنى الحارث أرادوا الأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ ، وهو يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » حتى بركت الناقة فى أرض لبنى عدى بن النجار.

قد يقول قائل : هل تنجو السفينة أو تغرق بسبب شخص واحد خَفَّ من وزنها أو زادَ عليه ؟ نقول : نعم ألم تسمع عن القشَّة التى قصمتْ ظهر البعير ، فأنت حين تُحمِّل الجمل يتحمَّل على قدر طاقته، حتى إذا زدْتَ عليه عوداً واحداً برك بحمله ، والحقيقة أن العود الواحد أو القشة لا تقصم ظهر البعير ، إنما مجموع العيدان والقشة الأخيرة هى فقط التى رجَّحتْ الوزن ووصلتْ به إلى درجة عدم التحمُّل ، كذلك الحال فى سفينة سيدنا يونس ، حيث توقف نجاتها من الغرق على إلقاء واحد من ركابها ، وهلاك واحد خير من هلاك الجميع .

ونتعلم من هذه المسألة أنه لا مانعَ حين يحل الخطر بالجماعة أنْ يدفعه عنهم أحدهم ، والقرعة هى التى تحدد هذا الواحد .

ثم يقول سبحانه ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : ابتلعه الحوت ، وقد فعل عليه السلام ما يُلاَم عليه ، واللوم نوع من العتاب ، وفَرْق بين ما تُلاَم عليه وما تُعَاقب عليه ، سيدنا يونس فعل ما يُعاتَبُ عليه من ربه - عز وجل - وكأن الله يقول له : لقد تسرعتَ حين تركتَ قومك وضِقْتَ بهم لأول إيذاء تتعرَّض له ، وكان عليك أنْ تصبر ، وأنْ تتحمل الأذى فى سبيل دعوتك . فاللوم ضَرْب من العتاب ، لا يصل إلى درجة العقاب ، وغالباً ما ينشأ العتاب بين الأحبة لاستبقاء المودة ، لذلك قال الشاعر :

أمّا العِتَابُ فَبالأَحِبَّةِ أَخْلَقُ ... والحبُّ يَصلُحُ بالعِتَاب ويَصْدُقُ[1]

---

(١) البيت من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى ، توفى ١٩٣٢م عن ٦٦ عاماً . وهو مطلع قصيدة عدد أبياتها ١٢ بيتاً من بحر الكامل . [الموسوعة الشعرية] .

ومعلـوم أنك لا تعاتب إلا مَنْ تحرص عليه ليظل فى صحبتك .

إذن : يشفع لسيدنا يونس هنا عدة أشياء أولها ﴿ إِذْ أَبَقَ (١٤٠) ﴾ [الصافات] يعنى : كان عبداً لله تعالى ، ثم ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ (٨٧) ﴾ [الأنبياء] أى : لا نُضيِّق عليه ، وهذا حُسْن ظن بالله ، ثم ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] فالله عاتبه ولامه مجرد لَوْمٍ ، على أمر لا يصحُّ من نبى ، والعتاب دليل المحبة .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات] التسبيح يعنى : التنزيه المطلق لله تعالى فكوْنه من المسبحين جعله موضعاً للَّوْم والعتاب ، لا للإيذاء والعذاب ، فلولا إيمانه وتسبيحه لَظَلَّ فى بطن الحوت إلى يوم يُبْعَثُون.

مسألة عتاب الحق سبحانه لنبيه يونس على تركه لقومه وتخلِّيه عنهم ؛ لمجرد أنهم عاندوه وكذَّبوه يُذكِّرنا بسنة الله تعالى فى رسُله ، وهى النُّصْرة والتأييد ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر]

لكن قد يتأخر هذا النصر ، مع أن الله قادر أنْ ينصرهم من أول وهلة ، لكن الحق سبحانه يريد بذلك أمرين :

أولاً : أنْ يستشرىَ الفسادُ ويعُمَّ ، حتى يضيق الناس به فيتطلَّعون إلى الحق وإلى الخير ، ويَسعَوْنَ هم إليه .

ثانياً : ليُمحِّص الله المؤمنين بالرسل ، ويميز منهم أصحاب

الثبات والقدرة على تحمُّل مشاقٍّ الدعوة فيما بعد . إذن : تأخُّر النّصْرة ليس خُذْلاناً للرسل ، ولا تخلياً عنهم ، فما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ويتخلَّى عنه .

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

نلحظ فى الأَخْذ ، قال ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ (١٤٢) ﴾ [الصافات] فنسب الفعل للحوت ، لكن هنا فى النجاة نسب الفعل إلى الله ، فقال ﴿ فَنَبَذْنَاهُ (١٤٥) ﴾ [الصافات] أى : ألقيناه وطرحناه ﴿ بِالْعَرَاءِ (١٤٥) ﴾ [الصافات] أى : فى أرض فضاء واسعة ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الصافات] يعنى : مريض أو مُتْعب من الضيق الذى عاناه فى بطن الحوت ، أو سقيم من التفكير فيما حدثَ من قومه ، وفيما حدث منه ، فهى تحتمل السقم المادى والمعنوى .

ثم لم يتركه ربه بهذا العراء ، بعد أنْ ألقاه الحوت فى هذه الأرض الفضاء وهو مُتْعَب ، وأشبه ما يكون بالطفل بعد ولادته ، فأنبتَ اللهُ له شجرةَ اليقطين ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) ﴾ [الصافات] وهى شجرة عريضة الأوراق قالوا : هى شجرة القرع تستره وتُظلُّه وتحميه من الذباب والحشرات ؛ لأنه خرج وحوله إفرازات من بطن الحوت تعوق تنفُّس جلده ، وتعوق حالته الصحية ، وتجعله لزقَ المزاج .

لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله ﷺ عن شجرة اليقطين[1] ، قال : « هي شجرة أخي يونس »[2] .

والهاء في (عَلَيه) تعود إلى سيدنا يونس ، وهذا يعني أن إنبات هذه الشجرة حدث بعد أنْ ألقاه الحوت في العراء ، ولم تكُنْ شجرة اليقطين موجودةً في هذا المكان من قبل .

إذن : فالتقام الحوت لسيدنا يونس - عليه السلام - كان رحمةً له من الله بدلَ أنْ يضيعَ في البحر الواسع وتتقاذفه الأمواج لا ندري أين تذهب به ، أما الحوت فله إرادة ويمكنه الاحتفاظ به وإلقاؤه على البرِّ . فنحن أمام سلسلة من رحمات الله ليونس عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] كأن الحق سبحانه يقول لنا : إياكم أنْ تظنوا أن ما حدث من يونس يقدح في رسالته ، أو يجعلنا نغير رأينا فيه كرسول ، فهو مرسل إلى ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] والمائة ألف هنا قد تكون كناية عن العدد الكثير ؛ لأن الألف قديماً كان منتهى ما يُعرف من العدد عند الناس .

---

(١) كل شجرة لا تقوم على ساق كالدّباء والبطيخ والحنظل ونحو ذلك ، فهي عند العرب يقطين. [قاله ابن جرير الطبري في تفسيره للآية (الجزء ٢٣)] . قال الزجاج : اشتقاق اليقطين من قطن بالمكان . أى : أقام به فهو يفعيل . وقيل : هو اسم أعجمى . [فتح القدير للشوكانى (ج ٦) فى تفسير آية الصافات ١٤٦] .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (كتاب الأطعمة) (حديث ٥٠٦٤) أن مسلماً أخرجه بلفظ : « وكان يعجبه القرع » وللنسائى : « كان يحب القرع ويقول إنها شجرة أخى يونس » قال ابن جزى : « إنما خصَّ القرع بالذكر لأنه يجمع كبر الورق وبرد الظل ، والذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب ، وكان هذا من تدبير الله ولطفه».

لذلك لما أرادوا أنْ يفدوا بنت كسرى (أظن) حين وقعت فى الأسْر عرضوا على مَنْ جُعلَتْ فى سهمه من المسلمين كذا ألف فوافق ، فقال له أصحابه بعد أنْ عقد هذه الصفقة : لماذا لم تطلب أكثر من ذلك ، فهم قادرون على أنْ يفدوها بالمال الكثير ؟ قال : والله لو أعلم أن وراء الألف عدداً لَقُلْتُ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] هل الحق سبحانه لا يعرف عدد هؤلاء القوم على وجه التحديد ؟ نعم يعرفهم سبحانه وتعالى ، ولو أراد لَذكَرهم لنا تحديداً ، إنما قوله ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الصافات] ليس للدلالة على الزيادة ، إنما لتأكيد العدد السابق المائة ألف ، كما أعطيت فلاناً حقه ويزيد ، فأنت لا تتحدثُ عن الزيادة إنما تؤكد على العدد ، وأنه غَيْرُ ناقص ؛ لأن الألفَ يُطلَق أيضاً على ما يقرب الألف مثل تسعمائة وتسعة وتسعين ، إذن : فالزيادة هنا تؤكد تمام العدد .

وقوله تعالى : ﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] وما دام المتاعُ موقوتاً بزمن ينتهى عنده ، فهو متاع الدنيا ، ومُتعة الدنيا للمؤمن تنتهى إلى خير منها ، فلا تَقُلْ إذن : أنهى اللهُ متعةَ المؤمن ؛ لأن انقطاع متعة الدنيا يُوصِّلك بمتعة الآخرة وتمتُّعك فى الدنيا موقوت بعمرك فيها ، ومحدود بحدود إمكانياتك وقدراتك ، أما متعة الآخرة فباقية وتأتى على قدر إمكانيات المنعِم سبحانه .

إذن : هذا إكرام أنْ تُنقل من نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة ، فقوله ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يُعَد جميلاً من الله .

بعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ[1] لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] كلمة استفتى أى : طلب الفُتْيا ، مثل استخرج طلب الإخراج ، واستفهم طلب الفهم ، والفتية تعنى منتهى القوّة ، ومنها الفتى والفتوة . فمعنى : استفتى طلب ما يُقوِّيه فى جهة الفتوى ، فالذى لا يعرف قضيةً دينية مثلاً يسأل عنها ويستفتى يعنى : بعد أنْ كان ضعيفاً فى الدين ، يطلب أنْ يصيرَ قوياً فى أمر دينه ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا إبراهيم : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

وفى أهل الكهف :﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف]

يعنى : لم يكونوا شيوخاً ، وعجيبٌ أنْ يأتى الإيمانُ مع فتوة الشباب وعنفوانه ، وهو مَظنَّة الشهوات والرغبات ؛ لذلك ورد فى الحديث : « عَجِبَ ربُّكَ من شاب ليستْ له صَبْوة[2] »[3]

---

(١) الإفك : الكذب . وأفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . وأفاك : صيغة مبالغة أى كثير الكذب . [القاموس القويم ١/٢٢] .

(٢) الصبوة : جَهْلَة الفتوة واللهو من الغزل . ومنه التَّصابى . يقال : تصابى وصبا يصبو صَبْوةً . أى : مال إلى الجهل والفتوة . فالصبوة : الميل إلى الهوى . [لسان العرب – مادة : صبا] .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٤/١٥١) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » .

والحق سبحانه بيَّن لنا فى مقاييس المجتمعات أنها لا تخلو عن اثنى عشر نوعاً ، ستٌّ منها فى المحبوبية ، وستٌّ فى المبغضين والعياذ بالله ، المحبوبون منهم المحبوب والأشدّ حباً ، والمبغضون كذلك منهم المبغَض والأشدّ بُغْضاً .

يقول تعالى فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثاً وحُبى لثلاث أشدّ : أحبُّ الشيخ الطائع ، وحُبِّى للشاب الطائع أشدّ ، وأحب الغنى الكريم وحُبى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الفقير المتواضع وحُبى للغنى المتواضع أشدّ »

هؤلاء الستة المحبوبون ، وتستطيع أنت أنْ تأتى بالمقابل لهؤلاء ، وهم المبغوضون والعياذ بالله .

إذن : الشاب الطائع أكثر محبةً عند الله ؛ لأن عنده دواعىَ الشهوة ومبرراتها وعنفوانها ، ومع ذلك تغلّب عليها وسلك طريق الطاعة على خلاف الشيخ الذى ذهبتْ شهوته وقلَّتْ دواعيها عنده ، كذلك الحال فى الغنى الكريم وفى الفقير المتواضع .

هؤلاء الثلاثة يُمثِّلون قمة الرقى فى المجتمعات ، وقمة الخلافة فى الأرض ، وتصوَّر مجتمعاً شبابه طائعون ، وفقراؤه كرماء ، وأغنياؤه متواضعون . تحت هذا درجةٌ مجتمع شيوخه طائعون ، وأغنياؤه كرماء متواضعون ودون هؤلاء المبغضون ، والعياذ بالله .

فالمعنى ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : اطلب منهم الفتوى التى تُقوِّيك فى أمرك الجدلى ؛ لذلك نقول للمفتى الذى يقصده الناس للفتوى

الناس يريدون أنْ تُقوِّيهم برأيك ، فلا تذهب بهم ناحية المياسير ؛ لأنك بذلك تشجعهم على المياسير ، فأنت إذن لا تُقويهم إنما تضعفهم ، بل أعطهم الحكم الصحيح فهو القوة الحقيقية .

لكن ، لماذا يطلب الحق سبحانه من النبى أنْ يستفتىَ القَوْمَ ؟ قالوا : لأن القضية حين تكون معلومة الحكم عند المتكلم يقول : أنا لا أقضى فيها ، إنما خَصْمى هو الذى يقضى ، لماذا ؟ لأنك واثق أنه إذا أدار المسألة فى ذهنه لن يجدَ إلا أن يقولَ ما تريده أنت ، كما تقول لمن ينكر جميلك : أنا راضٍ حكمك ، ألم أقفْ بجانبك يوم كذا وكذا ؟ هكذا على سبيل السؤال لأنك واثق من الجواب .

أما لو جاء الكلام منك خبراً ، فالخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ؛ لذلك ناقش الحق هذه القضية بهذا الاستفهام ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] هذا استفهام يحمل معنى الإنكار والتعجب ، يعنى : كيف تقولون ذلك ؛ لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله ثم نسبوا لله سبحانه الولد .

لذلك يرد القرآن عليهم ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] كيف ؟ مَن الذى خلق ؟ إنه الله خالق الذكر وخالق الأنثى ، فكيف تختارون لأنفسكم الجنسَ الأفضل وهم الذكور ، وتجعلوا لله تعالى البنات ؟

كيف وأنتم إذا بُشِّر أحدكم بالأنثى ظلَّ وجهه مُسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سُوء ما بُشِّر به ، ثم يفكر : ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ[1] أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

(١) الهُون : الخزى والذل والضعف . قال الفراء : الهون فى لغة قريش الهوان . [لسان العرب - مادة : هون] .

كلمة ﴿ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ (٥٩) ﴾ [النحل] يعنى : حياً ؛ لأن عاطفة الأبوة لا تتحمل أنْ يرى الوالدُ ولده وهو يموت ، أو أنْ يخنقه بيده ؛ لذلك يتخلص منه بدفنه فى التراب حتى لا يراه .

وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) ﴾ [الزخرف] يعنى : أتجعلون لله مَنْ يُربَّى فى النعمة والزينة ، وهم البنات ، وتجعلون لأنفسكم البنين القادرين على العمل والسعى وتحمُّل المشاق ، لذلك حكم سبحانه على هذه المسألة بأنها قِسْمة ظالمة جائرة .

فقال سبحانه : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم] تأمل كلمة (ضيزى) ، والله لو كان فى غير القرآن لكانَ ثقيلاً غيرَ مستساغ ، لكنه يأتى فى سياقه من كلام الله طبيعياً سلسبيلاً ، لماذا ؟ لأنه وُضِع فى مكانه ليعبر عن هذه القسمة الجائرة العجيبة ، التى لا يعبر عنها إلا هذا اللفظ العجيب بما يحمله من جَرْس يرنّ فى الأذن .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) ﴾ [الصافات]

إذن : أنتم مخطئون ، بل جهلة أغبياء فى قضيتين : لأولى : أنكم جعلتم الملائكة إناثاً ، والأخرى : أنكم أخذتم الذكور لأنفسكم وتركتم لله البنات ، فمَنْ قال لكم إن الملائكة بنات ، فكلمة بنت وولد منشؤها الزوجية والتناسل ، والملائكة لا يتزوجون ولا يتناسلون ، ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة .

ثم إن الذى يحكم على الملائكة بأنهم إناثٌ لا بُدَّ أنْ يكون قد شهد خَلْقهم ، والله يقول : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) ﴾ [الزخرف]

وقال فى سورة الكهف : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] الحق سبحانه يخبرنا بهذه الحقيقة ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] يعنى : معاونين ومساعدين فى عملية الخَلْق ، فهو يفضح هؤلاء الذين سيأتون ويتحدّثون فى مسألة الخلق كأنهم رأوْهَا ، فيقولون : الملائكة إناث . ويقولون : الإنسان أصله قرد إلى آخر هذه الادعاءات.

الحق يُحذِّرنا منهم ليعطينا المناعة اللازمة لمواجهتهم ، ويكفى أنْ نعلم أنّ هذه مسألة غيبية لا عِلْمَ لهم بها ، إلا ما أخبرنا به الخالق سبحانه ، ومع ذلك ترك لنا فى الكون ما يُبيِّن صدْقه فيما لم نشهد .

والحق سبحانه ينقض هذه الأباطيل بقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات] . فكل جنس من الأجناس قائم بذاته ، وليس هناك شىء متطور عن شىء آخر . كذلك قال سبحانه :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا (٣٦) ﴾ [يس]

أما الملائكة فَلَهُمْ طبيعة خاصة لا تصلح للزوجية ؛ لأنهم لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، كما أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامونَ .. الخ وإنْ كانت هذه مسألة مخالفة للعقل ، فخُذْها هى الأخرى ضمن الأشياء المخالفة للعقل ، والتى يختبر بها إيمانك بالمغيَّبات التى أخبرك بها ربُّكَ ، وهذه المغيَّبات التى أخبرك الله بها رصيدها أنك آمنتَ بالقائل المخْبِر بها .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قضية أخرى فيقول :﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات] إذن : فجُرأتهم على الله لم تَنْتَه عند حدٍّ وصفهم الملائكة بأنهم إناث ، ولا عند نسبتهم البنات لله تعالى ، بل وصلتْ جُرْأتهم إلى ذات الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢) ﴾ [الصافات]

وكأن الحق سبحانه يُفسح للمكابر ويُرخي له العنان حتى يقول كلمة تكشف كذبه ، وتفضح ادعاءه ، وتُظهر أن المكابر في أمر الدين أحمقُ غبيٌّ ، لأنهم قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (١١٦) ﴾ [البقرة] والآن يقولون (وَلَدَ اَللهُ) وفَرْق كبير بين القولين : (وَلَدَ اللهُ) نسبوا لله الولد مباشرة إنما (اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً) يعني : لم يلد إنما تبنَّى ولداً ، فالأصل أنه ليس له ولد ، لذلك اتخذ ولداً . وقد ردَّ الله على قولهم (وَلَدَ اللهُ) فقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ [الإخلاص]

وردَّ على قولهم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (١١٦) ﴾ [البقرة] فقال : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

ولنبحث نحن مسألة اتخاذ الولد من خلال واقعنا : لماذا نسعى للولد ونطلبه ؟ لماذا نحزن حين يمتنع الإنجاب ونقلق حين يتأخر الولد ؟ قالوا : لأن الولد ذكْرى وامتداد لأبيه ؛ لذلك يفرح الرجل بابنه ويفرح أكثر بحفيده ؛ لأنه بالولد ضمن ذكْراه جيلاً ، وبالحفيد ضمن ذكْراه جيلين ، عجيب أمْرُنا مع الدنيا ، كيف نتمحك فيها ونتشبَّث بها ولو بالذكرى ، وإذا لم تَدُمْ لك الدنيا فما انتفاعُك بدُنْيا غيرك ؟

ولما تحدَّثَ شوقى - رحمه الله - فى هذه المسألة لما جاءه حفيد وفرح به قال :

فَاضْمَنْ لنفْسِكَ بَعْدَ مَوتِكَ ذِكْرهَا فَالذِّكْرُ للإنْسَانِ عُمرٌ ثَانِ

ولا شكَّ أن شوقى لا يعنى بالذكْر الولد ، إنما يعنى العمل الصالح والأثر الطيب الذى يُخلِّد ذكْرى صاحبه ، إذن : تحتاج الولد لأنك ستموت وسيحمل ولدُك اسمك وذكْراك ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، وقد كان عبد المطلب لا يعيش له أولاد فنذرَ لله إذا رزقه أولاداً أنْ يذْبح واحداً منهم تقرُّباً لله تعالى ، فالإنسان يحتاج الأولاد ليكونوا عِزْوةً كما يقولون ، وآخر يقول إذا متُّ ، مَنْ يأخذ فىَّ العزاء ؟ سبحان الله إذن ضمنتَ أنك ستُعزى وولدك من بعدك سيُعزَّى . إذن المسألة فانٍ فى فانٍ .

نعم ، لهذه الأسباب نحتاج نحن الولد ونسعى إليه ، أما الحق سبحانه فباقٍ لا يموت ، فبماذا ينفعه الولد ولم يتخذه ، وله سبحانه مُلْك السموات والأرض ؟

لذلك يردُّ الحق عليهم : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر] لو أراد سبحانه لاختار ما يشاء ، فهو الذى يقول ، وهو الذى يختار لا أنتم ؛ لذلك كان رسول الله مؤدباً فى عبوديته مع ربه ، فقال : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : إنْ كان للرحمن ولد أخبر هو سبحانه به ، فأنا أول المؤمنين بوجوده .

وفى موضع آخر ، قال فى الردِّ عليهم : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم] فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً ، ولا ينبغى له ذلك ،

ولا يناسبه أبداً ، لأن معنى الوالدية أو المولودية مفقود فى حقِّه تعالى ، لأنه باقٍ لا يموت ، فيحتاج إلى مَنْ يحمل ذكْراه ، وهو الغنى عن خَلْقه ، وله مُلْك السموات والأرض ، والعباد كلهم صَنْعته وعياله ، فلا يحتاج إلى عزْوة كما تحتاجون .

وقال سبحانه : ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ [الجن] يعنى : لم يكُنْ له صاحبة . يعنى : زوجة حتى يكونَ له منها ولد . إذن : هذا كله إفْكٌ وافتراء على الله ؛ لذلك وصفهم الله بالإفْك ، ثم بالكذب المؤكَّد فى ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات]

لكن ، لماذا هذا الإفْك وهذا الكذب ؟ قالوا : ليحتفظوا لأنفسهم بالسلطة الزمنية التى كانت لهم قبل الإسلام ، السلطة الزمنية التى جعلتْ لهم الزعامة والرياسة والجاه ، ومعلوم أن اليهودَ فى المدينة كانت لهم مكانتهم المالية والعلمية والحربية ، وكانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] لماذا ؟ لأنهم يعرفون أنه سيسلب منهم هذه السلطة .

وسمَّى الله كذبهم إفكاً ؛ لأن الإفك هو الكذب المتعمَّد ، وافتراء الكذب المتعمد إنما كان إفكاً لأنه يقلب الحقائق ، ومن ذلك سُمِّيتْ المؤتفكة ، وهى القرية التى قلبها الله بأهلها ، فجعل عاليها سافلها .

والكذب المتعمَّد قَلْبٌ للحقيقة ؛ لأن الإنسان إذا قال قضية ، هذه القضية تُسمَّى نسبة كلامية ، فإنْ سبقها نسبة وجودية تُطابق الكلام فالكلام صدْق ، وإنْ كانت النسبة لكلام لا واقع له فهى كذب ، والكذب على درجات ، أعلاها وأشدها الافتراء على الله تعالى فى قضية واضحة ، وفى أصل من أصول العقيدة ، فليس الكذب هنا فى أمر هيِّن ، عدة جنيهات مثلاً ، بل الكذب هنا فى القمة العقدية .

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ (١٥٢) ﴾ [الصافات] فنسبوا لله تعالى الولد مباشرة ، وليس مجرد اتخاذ الولد .

لذلك يحكم الله عليهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) ﴾ [الصافات] لكن هذا أسلوب خبرى ، والخبر من الله تعالى صادقٌ لا شكَّ ، لكنه فى العقل قضية تحتمل الصدق والكذب ، لذلك يُطوِّقهم الله بأسلوب آخر لا يجدون منه منفذاً ، يثبت كلامهم فى أذهان قارئيه أو سامعيه ، يُطوِّقهم بهذا الإقرار ، فيقول سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾

الهمزة فى ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] همزة الاستفهام لأن الفعل ﴿ أَصْطَفَى (١٥٣) ﴾ [الصافات] مبدوء بهمزة وصل ، فلما دخلتْ عليه همزة الاستفهام حُذفَتْ همزة الوصل ، وأثبتت الهمزة التى جاءتْ لمعنى الاستفهام ، فأصله : أاصطفى . وهذا الاستفهام للتعجُّب والإنكار ؛ لأن الحق سبحانه هو خالق البنين والبنات ، فكيف يصطفى لنفسه سبحانه الجنسَ الأدنى ، وهو خالق الجنسين ؟

إذن : هذا كلام لا يُقبل حتّى فى ميزان العقل فالمسألة واضحة ؛ لذلك يأتى بهذين الاستفهامين للتعجُّب من قولهم ، فيقول : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) ﴾ [الصافات] يعنى بعقولكم فالأمر واضح ، وسبق أنْ أوضحنا أن الحق سبحانه يستفهم منهم ، حتى يأتى الحكم منهم هم على سبيل الإقرار ولا يكون إخباراً ، والإقرار سيد الأدلة ، أما الخبر فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فى العقل .

هذا دليل عقلى يبطل هذا الادعاء ، إلا أن الدليل العقلى قد تختلف

فيه العقول ، لذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الدليل النقلى ، فلعلَّ عندهم كتاباً يدرسون فى هذه المسألة :

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

بعد أنْ أبطلَ اللهُ ادعاءهم بالدليل العقلى يبطله بالدليل النقلى ، فكلمة ﴿ سُلْطَانٌ (١٥٦) ﴾ [الصافات] إما سلطان حجة تقنع ، أو سلطان قهر وإجبار ، الفرق بينهما أن سلطان الحجة يقنع المقابل فيفعل طائعاً ، أما سلطان القهر فيجبره فيفعل كارهاً . والمعنى : ليس لديك سلطان حُجَّة ولا قَهْر.

ومثل ذلك قوله تعالى حكايةً عن إبليس يوم القيامة :﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم] يعنى : لا قوة عندى أقهركم بها على طاعتى ، ولا حجة أقنعكم بها ، بل كنتم أنتم على (تشويرة) يعنى : على استعداد للضلال وللمعصية .

ومعنى ﴿ مُّبِينٌ (١٥٦) ﴾ [الصافات] بيِّن واضح .

وقوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) ﴾ [الصافات] يعنى : إنْ كان لكم سلطان فأتُوا بكتابكم ، أى : الذى نزل عليكم من الله يخبركم بهذا .

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ(١) نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

---

(١) أكثر أهل التفسير أن الجنَّة هاهنا الملائكة . وقال أهل الاشتقاق : قيل لهم الجنة لأنهم لا يُرونَ . وقال أبو مالك : إنما قيل لهم جنَّة ، لأنهم خُزَّان على الجنان ، والملائكة كلهم جنة . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٧٧٤) .

كلمة (الجِنة) بالكسر وكذلك الجنة بالفتح ومنها الجن ومجنون كلها مادة (جَنَّ) وتفيد الاكتنان والستر و (الجنة) هنا هم الملائكة سُمُّوا بذلك لأنهم مستورون عَنَّا فلا نراهم ، وكذلك الجنة لأنها تستر مَنْ يسير فيها بكثرة أشجارها ، أو تستر مَنْ فيها بتوفير كل احتياجاته ، فلا يحتاج أنْ يخرج منها ، وكذلك المجنون لأنه غاب عقلُه واستتر .

والمعنى أنهم جعلوا بين الله تعالى وبين الملائكة نَسَباً حين قالوا : الملائكة بنات الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات] يعني : علمتْ الملائكة أن هؤلاء المشركين بالله مُحضَرون للعذاب ، ومُحضَر اسم مفعول يعني : أُجبر على الحضور .

ثم يردُّ الله عليهم مُنزِّهاً نفسه سبحانه عن مشابهة الخَلْق : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الصافات] فكلمة (سبحان الله) نراها دائماً في كل شيء ، يخرج الذات إلى مشابهة الخَلْق ، والسبحانية لله أي : التنزيه لله موجود وثابت لله تعالى قبل أنْ يُوجد المنزِّه .

فكلمة (سُبْحانَ) تعني : التنزيه المطلق لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزهه ، فلما خلق الله الخَلْق سبَّحه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحشر] وقال : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴿١﴾﴾ [التغابن] أي : ما يزال مُسبِّحاً في الحال والاستقبال إلى قيام الساعة .

وما دامت هذه السُّبْحانية ثابتةً لله تعالى قبل الخَلْق وبعده ودائمة في الماضي والحاضر والمستقبل ، فإياك يا أشرف الخَلْق وأكرمه ومَنْ جعل الخَلْق كله من أجله ألاَّ تكون مُسبِّحاً أو تشذَّ عن هذه المنظومة المسبحة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى] فمعنى

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : تنزَّه الحقُّ سبحانه عن قَوْل هؤلاء المشركين وكذبهم ، وتعالى سبحانه أنْ يكونَ بينه وبين الجِنَّة نسبٌ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾

مناسبة قوله تعالى هنا ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الصافات] استثناء من قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الصافات] فاستثنى اللهُ عباده المخلصين أنْ يدخلوا مع هؤلاء المحضرين للعذاب . وقوله : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الصافات] أى : من دون الله ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : أنتم وما تعبدون من دون الله لا تفتنوا خَلْقى علىَّ . يعنى : لا تُفْسِدوا الخَلْق على الله تعالى ، يُقَالُ : فتن فلان على فلان زوجته . يعنى : أفسدها عليه ، والمعنى : أنتم لا تستطيعون أنْ تفسدوا بينى وبين ملائكتى .

وكيف والملائكة أنفسهم ما خُلقوا إلا لعبادتى وحبى ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء] كيف تفسدونهم وهم بريئون منكم ومن عبادتكم لهم ، بل ويلعنونكم . إذن: كيف تفسدونهم على الله ؟

والحق سبحانه فى موضع آخر يردُّ عليهم :﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ ..﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : هؤلاء الذين يعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون إلى الله الوسيلة التى تُقرِّبهم إليه .

وفى موضع آخر قال :﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : ما أنتم بفاتنى هؤلاء المعبودين على ربهم ؛ لأنهم أخلصوا لله العبادة ويتنافسون فى التقرُّب إليه.

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات] أى : إلا مَنْ يرضى بالعبودية من البشر فمصيره النار ؛ لذلك لما أراد سبحانه أنْ يُبكِّتَ الذين عبدوا الحجارة قال : انظروا فلن تُعذَّبوا فى النار إلا بالحجارة لتَرَوْا معبودكم معكم ومثلكم فى النار . فإنْ قُلْت : وما ذنبُ هذه الأحجار التى عُبدت من دون الله ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾

إذن : هذه الحجارة حين يُحمَى عليها ليُعذَّب بها هؤلاء المشركون لا لأن لها ذنباً تُعاقَبُ عليه ، إنما لها مقام معلوم ، والتزام بتنفيذ أمر الله فى المخالف : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) ﴾ [الصافات]

يعنى : قَدْر ومرتبة ، فالملائكة درجات ومراتب ، لا يحقد الأدنى على الأعلى ولا يزدرى الأعلى الأدنى ؛ لأن المقام المعلوم الذى جعلهم الله فيه قدر لله تعالى ، وهم يحترمون قدر الله فى خَلْق الله ، وهذا درس ينبغى أنْ نتعلَّمه ، وأنْ يُراعى كل مِنَّا قدر الآخرين ومنزلتهم ، فأنا حين أحترم الأعلى منى إنما أحترم قدر الله الذى جعله أعلى منى ، وإنْ كان دونى فى يوم ما ، وقُلْنا إن العالم ليس مسألة (ميكانيكا) إنما خَلْق بقدر وبحكمة مرادة لله .

فكيف نكون بنات الله ؟ وكيف نُعبَد من دون الله ونحن مُسخَّرون لعبادته سبحانه ونحن جنود مصفوفون فى انتظار أوامره تعالى

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) ﴾ [الصافات] أى : نقف صفوفاً منتظمة ، والصف دليل الانتظام وعنوان الالتزام والانضباط ؛ لذلك ورد فى الحديث : « إن الله لا ينظر إلى الصَّفِّ الأعوج »[1] لماذا ؟ لأنكم بين يدى الله سبحانه فأروا الله منكم ما يدل على المساواة والالتزام والترابط .

وفى الحرب كذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [الصف] وهذا التشبيه له دلالته ، لأن البنيان المرصوصَ يعنى أن اللبنة فيه ليس لها إرادة فى الخروج عن الأخرى ؛ لأنها محكومة بالبناء الذى وُضعَتْ فيه ؛ لذلك لما استعرض رسول الله ﷺ الصفوفَ فى إحدى الغزوات رأى جندياً شَذَّ عن صَفه ، فأشار إليه بعصاه أنْ يستوىٌ بمثله ، وأن ينضبط فى صَفه .

ثم يقولون : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾ [الصافات] يعنى كيف نرضى أنْ نُعبدَ من دون الله ، ونحن ما خُلقْنا إلا لتسبيحه تعالى :

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾

قولهم : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا (١٦٨) ﴾ [الصافات] أى : كتاباً ووَحْياً مُنزلاً ﴿ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) ﴾ [الصافات] كالذى أُنزل على الرسل السابقين ﴿ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات] وعجيبٌ منهم أنْ يبرروا شركهم .

---

(١) يستحب للإمام أن يأمر بتسوية الصفوف وسد الخلل قبل الدخول فى الصلاة ، فعن أنس ابن مالك أن النبى ﷺ كان يقبل علينا بوجهه قبل أن يُكبِّر فيقول : « تراصوا واعتدلوا » رواه البخارى ومسلم . ورويا عنه أن النبى ﷺ قال : « سووا صفوفكم ، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة » .

بهذه الحجة ، وقد جاءهم سيد المرسلين جميعاً ، فالرسل السابقون كانوا محدودى الرسالة زماناً ومكاناً ، وكانوا جميعاً قبل رسول الله مُكلَّفين بنقل حكم الله إلى الخَلْق ، أمَّا رسول الله : فهو الرسول الوحيد الذى فُوِّض من الله أنْ يُشرِّع للخلق ؛ لأن رسالته عامة فى الزمان وفى المكان إلى قيام الساعة .

إذن : كيف تريدون ذِكْراً من الأولين ، ومعكم خاتم الرسل المشرِّع الذى تأتيه من الله القضية الكلية فيُبيِّنها ويشرحها ويُفصِّلها .

وقوله : ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : لما جاءهم الرسول الذى يطلبونه كفروا به . إذن : المسألة مسألة لَجَج وعناد وكبرياء فى قبول الحق والانقياد له ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الصافات] حَرْفا (السين) و (سوف) يدلان على الاستقبال ، لكن سوف أبعد فى الزمن من السين .

فقوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الصافات] احتياط زمنى من القرآن الكريم ، فالفعل ﴿ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الصافات] مضارع للحال وللاستقبال ، أما سوف فهى للمستقبل البعيد عن مستقبل السين ؛ ذلك لأن المعاصرين لنزول القرآن منهم مَنْ سيموت قبل أنْ يرى عاقبة المشركين ، وقبل أنْ يشهد ظهور الإسلام وانتصاراته .

فإنْ كان قد مات قبل أنْ يعلمَ فسوف يعلم فى الآخرة ويرى العاقبة ، هذا لغير المؤمن ، أما المؤمن فليس فى حاجة إلى هذا العلم ؛ لأنه صدق الله فيما أخبر ، ومن ذلك قول الإمام على رضى الله عنه . لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

لذلك لما نزل قول الله تعالى - وكان المسلمون فى كَرْب وشدة وضيق قبل الفتح : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] والسين

تدل على المستقبل القريب تعجب سيدنا عمر وما أدراك ما عمر ، كان القرآن ينزل على مقتضى ما يرى ، ومع ذلك تعجَّب وقال : أيُّ جمعٍ هذا ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا وأهلنا ، فلما جاء الفتح وانتصر المسلمون وحدث ما حدث قال[1] : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

فالمؤمن مُصدِّق بما أخبر الله به ، لأنه أمر قُضِي أزلاً فى علم الله، وما دام قُضِي بالفعل فى الأزل ، ولا توجد قوة معارضة تنقض ما قضى الله به ، وما دام الله تعالى لا يعتريه عجزٌ يمنعه أنْ ينفذ ما قضى فهو واقع لا محالة .

والمثال الواضح فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] تعلمون أن علماء النحو يقولون : الفعل ماض وهو ما دلَّ على حدوث فعل فى زمن مضى وانتهى ، ومضارع : وهو ما يدل على الحال أو الاستقبال ، إذن : كيف نجمع بين ﴿أَتَىٰ﴾ الماضى و ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴿١﴾﴾ [النحل] . والنهى عن استعجاله يدل على المستقبل ، أى : أنه لم يأْتِ بَعْدُ ؟

نقول : الذى يتكلم بهذا الكلام هو الله لا نحن ، والله تعالى لا يحكمه زمان ، فإذا أخبر بأمر فهو واقع لأنه لا رادَّ لما قضى أزلاً ، فأمْرُ الله أتى أزلاً فلا تستعجلوه واقعاً .

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يَثبُ فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٢٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

معنى ﴿ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ﴿١٧١﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : قلناها قبل الكون كله ، وهذه الكلمة لها مترادفات : سبقتْ كلمتنا ووقعتْ وحقَّتْ ، سبقتْ أى : لتحديدها قبل الحدوث ، ووقعتْ ساعة الحدوث وحقَّتْ أى : هى حَقٌّ أنْ أقضى بقدرتى ، وحَقٌّ أنْ تقع على مَنْ أريد . إذن : فهى مَعَانٍ ملتقية معاً ومتكاملة .

فما هى هذه الكلمة التى سبقتْ من الله لعباده المرسلين ؟ هى قوله :﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

هاتان قضيتان : الرسل لا محالة منصورون ، والجند لا محالة غالبون ، هذه كلمة سبقتْ من الله وقضاءٌ لا يُرَدّ ، لذلك أخذ العلماء وأهل المعرفة من هذه الآيات أن للجندية شروطاً ، مَنِ استوفاها استحقَّ الغلبةَ ، ومَنْ أخلَّ بها استحق الهزيمة .

فحين ننظر فى نتيجة معركة بين مسلمين وكافرين ، فإنِ انتصر المسلمون فاعلم أنهم حققوا شروط الجندية لله ، وإنْ هُزِموا فعليهم أنْ ينظروا فى أنفسهم ويبحثوا عن أسباب الخلل ، ووجه المخالفة لقانون الجندية ؛ لأنهم لو ظلُّوا على جنديتهم لله لَتحقَّق لهم وَعْدُ الله بالغلبة .

وهذه المسألة واضحة فى معركة بدر وفى أُحُد ، ففى بدر انتصر المسلمون ؛ لأنهم لم يخالفوا قانون الجندية لله تعالى ، لكن فى أُحُد لم ينتصروا مع أن رسولَ الله بينهم ، ولا تتعجب لذلك فهذا

أمر طبيعى ، ألم يخالفوا أمر رسول الله ؟ بلى خالفوا ، فكيف لو انتصروا مع هذه المخالفة ؟ والله لو نصرهم الله لَهانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولَقالُوا خالفناه فى يوم كذا وانتصرنا ، إذن : النتيجة يوم أُحُد انهزم المسلمون المتخاذلون ، لكن انتصر الإسلام وعلَتْ قوانينه ومبادئه .

أما الرسل فهم واثقون من وَعْد الله لهم بالنصر ، وهذه مسألة عندهم لا تُناقَش ، والدليل على ذلك من قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ ، فلما خرج من مصر ببنى إسرائيل فأتبعه فرعون وجنوده ، حتى كاد أنْ يدركه عند شاطىء البحر ، وحتى قال قوم موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] .

فبماذا ردَّ سيدنا موسى ؟ (قال كلا) هكذا بملء فيه يُكذِّب واقعاً يمكن أن يحدث بعد لحظة واحدة ، فالبحر من أمامهم والعدو من خلفهم ، لكنه يقول ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِى رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] .

هذه هى الثقة فى كلمة ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : الرسل .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الصافات]

أى : اتركهم الآن فى باطلهم وأعرض عنهم ، لماذا والحق سبحانه قادر على نُصْرة دينه من أول لحظة ؟ قالوا : الحق سبحانه

يريد أنْ يستشرى الباطل ، وأنْ يعلو حتى يعضّ الناس فيكرهونه ويضيقون به .

وأيضاً ليتدرب أهل الحق على المحن والشدائد ويَقْوَى عودهم ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] يعنى : انظر إلى حالهم وعاقبة أمرهم ، وسوف يبصرون هم هذه العاقبة ، وما يحلُّ بهم من العذاب الذى يستعجلونه ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) ﴾ [الصافات]

كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

وهذا غباء منهم ، لأن هذا العذاب الذى يُكذّبون به ويستبعدونه واقع لا محالة ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] والساحة هى المكان الواسع أو الفناء الذى يجد الناسُ فيه مُتَنَفساً ومَنْفذاً يُروِّح عنهم ، و ﴿ نَزَلَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] يعنى : حَلَّ ووقع وفاجأهم .

﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] يعنى : قَبُحَ هذا الصباح ، وبئس هذا الصباح ، والصبح هو الميعاد الحق للمعركة لمفاجأة المحارب قبل أنْ يستعد ، أو يفاجئهم العذاب فى وضح النهار فلا يستطيعون أنْ يستتروا من الفضيحة ، و﴿ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] القوم الذين أنذرناهم وحذرناهم .

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾

قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) ﴾ [الصافات] يُراد به حين الدنيا ، كذلك ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ (١٧٥) ﴾ [الصافات] أى : فى الدنيا

﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] أى : فى الدنيا وهذا الحين هو الذى قال الله فيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ (٧٧) ﴾ [غافر] أى : من العقاب فى الدنيا ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر] فى الآخرة .

أما الحين هنا ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) ﴾ [الصافات] يراد به حين الآخرة ، فليس تكراراً للحين الأول ، كذلك ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] فى الآخرة حين يُفاجئهم العذاب الذى أنكروه وكذَّبوا به ، فيقولون ساعتها : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢) ﴾ [السجدة]

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ(١) عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٢) ﴾

يختم الحق سبحانه السورة بالسُّبحانية التى تُثبت التنزيه لله تعالى فى ذات ليست كالذوات ، وفى صفات ليست كالصفات ، وفى أفعال ليست كالأفعال ، فكل شىء له سبحانه ولخلْقه فيه نسبة نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

فالمعنى ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ (١٨٠) ﴾ [الصافات] أى : تنزَّه ربك عن كل نقص وعن كل مُشابهة ، فالخلْق ذواتٌ ، لكن ليست كذاته سبحانه ، ولهم وجود ليس كوجوده سبحانه ، ولهم غِنىً ليس كغناهُ ، وحكمة ليست كحكمته .. الخ .

---

(١) المعنى : رب العزة التى يتعازّ بها الخلْق فيما بينهم فهى من خلْق الله عز وجل ، وهى هنا صفة فعل . أما فى قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾ [فاطر] فهى صفة ذات . ولذلك كان من فرائد القرآن أنه قال : رب العزة . ولم يقل رب العلم أو رب القدرة أو رب السمع أو غيره من صفات ذات الله عز وجل . وقد نقل القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٧٨٠) قول بعض العلماء : « من حلف بعزة الله ، فإن أراد عزته التى هى صفته فحنث فعليه الكفارة . وإن أراد التى جعلها الله بين عباده فلا كفارة عليه » .

ومعنى ﴿ رَبِّ الْعِزَّةِ (١٨٠) ﴾ [الصافات] كلمة رب تفيد التربية وهى تأهيل المربى لأن ينجح فى الغاية المنوطة به المطلوبة منه ، ولكى تعده لا بُدَّ أنْ تعرف أولاً الغاية التى وُجِد من أجلها ، بعد ذلك لا بُدَّ أنْ تكون لديك حكمة تحدد له المنهج الذى يوصله إلى هذه الغاية .

إذن : مَنْ يحدد الغاية من وجود الإنسان ؟ قلنا : إن الصانع من البشر هو الذى يحدد الغاية من صنعته أولاً ، وقبل أنْ يشرع فيها فهل مخترع التليفزيون مثلاً صنعه ثم قال لنا : انظروا فى أى شىء يمكن أن يُستعمل هذا الجهاز ؟ لا بل حدَّد الهدف وحدَّد الغاية أولاً ، كذلك غايتك أيها الإنسان لا يحددها لك إلا مَنْ خلقك . فصيانة الصنعة يقوم بها الصانع ، كذلك صيانة الخَلْق لا تكون إلا بمنهج الحق .

لذلك نقول : ما فسدت الدنيا إلا حين خرج الإنسان عن هذا الإطار ، فحدَّد لنفسه الغاية ، ووضع لنفسه منهج الحياة ونحَّى صانعه ومنهج صانعه جانباً ، وقلنا : إن منهج الخالق للخَلْق مثل (الكتالوج) الذى به تُصَان الصنعة ، وبه نصلح ما فيها من عطب ، ويُشترط فى واضع المنهج أن يكون من الدقة والحكمة بحيث لا يفوته شىء ولا يستدرك عليه ، ولا نضطر إلى تعديل ما وضع ، والخالق سبحانه هو الأعلم بعباده وصنعته ، وهو الأعلم بما يصلحهم فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

وإلا فلماذا يستدعينا الخالق سبحانه إليه خمس مرات فى اليوم والليلة ، ويجعل الصلوات فرضاً لازماً لا يسقط عن الإنسان بحال

من الأحوال ، لذلك شُـرِعَتْ صلاة السفر وصلاة المـريض ، حتى أنه إذا اشتد عليه المرض صلَّى ولو بطرفة عينه أو بخاطر نفسه .

وسـبق أنْ قلنا فى هذه المسـألة : إنك حـين تريد مثـلاً مقـابلة رئيس أو مسـئول كـبير ، فـلابُدَّ لك من مـوعـد مسـبق ومـوافقـة وإجراءات ، بل ويحدد لك ما تقوله ، ثم هو الذى يُنهى المقابلة .. الخ أما لقـاؤك مع ربك فلقـاء المحب الذى يتـرك لحبـيبه أنْ يـحدد وقت المقابلـة ومكانها وموضوعهـا ، ويترك له أنْ ينهيهـا متى أحبَّ ، وأنْ يبدأهـا متى شاء ، فـإنْ أردتَ لقاء ربك فـما عليـك إلا أنْ تستعـد له وتكبِّر : الله أكبر ، كلمة تجعلك مباشرة فى حضرة ربك عز وجل .

وتصوَّر صنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيبقى فيهـا عطب أو فساد ؟ لذلك كان سيدنا رسـول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر يُهْرَع إلى الصلاة ، وكـان يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] نعم أرحنا بها ، لا أرحنا منها

إذن : ذكر سـبحـانه فى الخـتام السـبحـانية ، ثم الربوبيـة التى تربيك وتُعدك للمهمة المـرادة منك ، هذه التربية تُربِّيك لماذا ؟ تربيك للعزة ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصـافات] والعزة أنْ تغـلب ولا يـغلبـك أحدٌ أبداً ، وقلنا - ولله تعالى المثل الأعلى - الولد الصغير حين يسير فى الشارع وحده يتجرأ عليه الآخـرون ، ويتحرشون به ويضربونه ، أما إنْ سار فى صحبة والده وأخـذه فى يـده لا يجرؤ أحد على التعرُّض له ، كـذلك أنت أيها الـمسلم كُنْ دائمـاً فى حـضن ربك ، وفى يده ، وفى معيته ، وعندها لن يجرؤ أحد عليك .

---

(١) أخـرجه الإمـام أحمـد بن حنبل فى مـسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

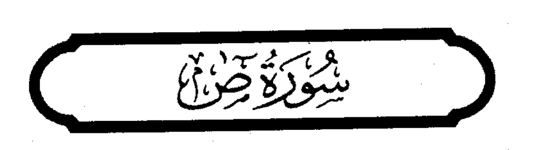
إذن : العزة التى يتصف بها الحق سبحانه ، ويفيض منها على عباده هى الغَلَبة التى لا تُقْهر ، والقدرة التى لا تحتاج إلى أحد ، وهناك عزَّة أخرى هى العزة بالإثم ، والتى قال الله عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) ﴾ [البقرة]

فالعزة هنا كبر بلا رصيد ولا سند .

ومنها أيضاً قوله تعالى حكايةً عن المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ (٨) ﴾ [المنافقون] نعم ، صدقوا والله ، لكن مَن الأعزُّ ومَن الأذل ؟

وقوله ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات] أى : تنزَّه سبحانه عن قولهم وعن كذبهم ﴿ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) ﴾ [الصافات] أى : جميعاً لأنهم وإنْ كلَّفونا فى بعض الأحيان ما يشقُّ على النفس إلا أنهم أخذوا بأيدينا إلى برِّ الأمان والنجاة ، فعليهم منّا السلام كلما ذكرناهم نصلى ونُسلِّم عليهم ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات] الذى هدانا لاتباع المنهج بواسطة الرسل ، وأعاننا على هذا الاتباع ، والحمد لله على الجزاء الذى أعدَّه لنا من نعيمه وجناته فى الآخرة ، لذلك قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس]

وقال العلماء روايةً عن سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أراد أنْ يُكَالَ له بالكيل الأوفى من الأجر يوم القيامة فليختم مجلسه بقوله : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾ [الصافات]


سُورَةُ صٓ



سورة ص [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ ﴾

سبق أنْ تكلمنا عن الحروف المقطعة فى فواتح السور ، وقلنا : إن الحق سبحانه بدأ بعضها بحرف واحد مثل : (ص) و (ن) و (ق) ، وبعضها بحرفين مثل : (طس) و (حم) وبعضها بثلاثة أحرف مثل : (الم) ، وبعضها بأربعة مثل : (المص) ، وبعضها بخمسة مثل (كهيعص) و (حم عسق) .

وقلنا : إن الحروف على قسمين : حروف مبنى وحروف معنى ، حروف مبنى هى التى تتكوَّن منها الكلمة مثل : كتب فهى مبنية من الحروف : الكاف والتاء والباء ، إنما الكاف وحدها أو التاء ليس لها معنى بمفردها . أما حروف المعنى مثل تاء الفاعل فى كتبتُ لأنها دلَّتْ على الفاعل المتكلم ، وكتبتَ الفاعل المخاطب ، وكتبتِ للمؤنثة المخاطبة .

---

(١) سورة ص سورة مكية فى قول الجميع . عدد آياتها ٨٨ آية . وهى السورة رقم ٣٨ فى ترتيب المصحف الشريف . فى الجزء الثالث والعشرين من القرآن . نزلت بعد سورة القمر ، وقبل سورة الأعراف ، ولذلك فهى السورة رقم ٣٧ فى ترتيب النزول . [راجع فى هذا الإتقان فى علوم القرآن ١/٢٧] .

وقلنا : إن حروف اللغـة عبارة عن ثمانيـة وعشرين حرفـاً ، جاء منها فى فواتح السور أربعـة عشر حرفاً ، وأحسنُ ما قيل فـيها إنها مـادة كلمـات القـرآن ، ولَبنات بنائه ، ومع أن العـرب يعـرفـون هذه الحروف وينطقونها إلا أنهم عجزوا عن محاكاة القرآن والإتيان بمثله ، مع أن هذه صنعـتهم ومـجال نبـوغهم وتفـوقهم ، نعم الحـروف هى الحروف ، والكلمات هى الكلمات ، لكـن المتكلِّم بالقرآن هو الله فلا بُدَّ أنْ يعجزوا .

وقوله تـعالى ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾[ص] دليل على الإعـجاز وحامل الإعـجاز ، فكلمة (ص) حرف من مكونات القـرآن ، والقرآن مُعجز ؛ لأن العرب عجزتْ عن الإتيان بمثله ولو آية واحدة من آياته ، وهى أمـة بيان وكلام وفـصاحـة ، وهى الأمة الوحـيدة التى جـعلتْ للكلمة معـرضاً ، وللبلاغة أسواقـاً فى عكاظ ، والمربد وذى المجنة ، وقد بـلغ بـهـم تقديس الكلمـة إلى أنْ علَّقوا الجيـد منها على أسـتار الكعبة .

لذلك جاءتْ معجزته ﷺ من جنس ما نبغ فيه قومه .

فالمعنى (ص) أى : حـرف من حروفهم[1] ﴿وَالْقُرْآنِ ①﴾ [ص] الذى عـجزوا عـنه ، والقرآن مـرة يُطلَق عليـه الكتـاب لأنه مكتـوب ، ويُطلق عليه القـرآن لأنه مقروء ، فهو مكتـوب فى السطور ومقروء ، ومحفوظ فى الصدور .

---

(١) حاول العلماء أن يجـتهدوا فى تأويل كلمة (ص) . فقال الضـحاك : معناه صدق الله . وأنه قسم أقسم الله به وهو من أسمائه تعالى . وقال محـمد بن كعب القرظى : هو مفتاح أسماء الله تعالـى صمد وصـانع المصنوعـات وصادق الوعـد . وقال قـتادة : هو اسم من أسـماء القرآن . [نقل القرطبى فى تفـسيره (٨/٥٧٨٤) هذه الأقوال] . ثم قال : وقـيل : هو مما استأثر الله تعالى بعلمه .

ومعنى ﴿ ذِى الذِّكْرِ ① ﴾ [ص] أى : صاحب الذكر ، وكلمة الذكر تُطلَق على معان عدة مثل : كلمة عين تُطلق على عين الماء ، وعلى العين الباصرة ، وعلى الذهب والفضة ، وعلى الجاسوس ، وتُطلق على الوجيه من الناس ، والسياق وذكاء السامع هو الذى يُحدِّد المعنى ، فهذه المعانى بينها مشترك لفظى يجمعها ، وهذه من مميزات اللغة .

كذلك قلنا مثلاً : كلمة النجم تُطلَق على النجم فى السماء ، وتُطلَق على النبات الذى لا ساقَ له ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ ﴾ [الرحمن]

ومن ذلك قول الشاعر :

أُرَاعِى النَّجْمَ فى سَيْرِى إليكُمُ وَيَرْعَاهُ مِـنْ البَيْدَا جَوَادِى

فكلمة الذكر تطلق على القرآن الكريم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ ﴾ [الحجر] ويُطلق الذكر على كتب الرسل السابقين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ㊸ ﴾ [النحل]

ويُطلق الذكر على الصِّيت والسمعة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ㊹ ﴾ [الزخرف] أى : القرآن .

وفى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ..⑩ ﴾ [الأنبياء] وما ارتفع العرب ولا علَتْ لغتهم إلا لأنها لغة القرآن .

ويُطلق الذكر أيضاً على التذكُّر ، كما فى قوله تعالى :﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ..㊷ ﴾ [يوسف]

ويُطلق الذكر على التسبيح ، كما فى قوله تعالى :﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا

﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور]

ويُطلق الذكر على معنى آخر ، هو العطاء الجيد من الله ، والعمل الطيِّع من العبد .

إذن : فلفظ الذكر أشبه فى القرآن بالماسة تتلألأ فى يدك ، كلما قلَّبتها وجدتَ لها بريقاً . فكلُّ هذه المعانى تدخل تحت قوله تعالى : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص]

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾

نعرف أن (بل) حرف يفيد الإضراب عما قبله أو نفى ما قبله وإثبات ما بعده ، فـ (بل) هنا تثبت أن الذين كفروا فى عزَّة وشقَاق ، فما المنفى قبلها ؟ قبلها قوله تعالى ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص] هذه معجزة محمد ﷺ، وكان من الواجب أنْ يقتنعوا بها ، وأنْ يؤمنوا بها لكنهم كفروا ، فالمعنى : بل الذين كفروا ما صدَّقوه ، بل هم فى عِزَّة وشقاق .

بعض العلماء يرى أن ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص] قَسَمٌ جوابه جاء فى آخر السورة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص] لا .. لا يصح أن نُقدِّر القسم ثم نبحث له عن جواب مناسب .

ومعنى : ﴿ فِي عِزَّةٍ .. ﴿٢﴾ ﴾ [ص] أى : عزَّة الإثم ، وهى التعالى والاستكبار عن الحق ، وهى عزة بلا رصيد ﴿ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص] من الشق ، وهو حدوث فاصل بين شيئين ، ولهذه معانٍ كثيرة فى اللغة ، نقول : هذا فى شق وذلك فى شق . يعنى : لا يلتقيان ، مثل

كلمة عدو ؛ لأن العدوَّان لا يتفقان ، وكلمة عدو أصلها فى لغة العرب، ومن بيئتهم حيث توجد الوديان ، والوادى له ناحيتان ، كل واحدة تُسمَّى عُدوة .

ومنه قوله تعالى :﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ (١) الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال] فعدو من العدوة . يعنى : كل واحد منا فى ناحية ، ومثلها كلمة جانب ، وكلمة حد كما فى قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ (٢) اللَّهَ وَرَسُولَهُ (٥) ﴾ [المجادلة]

ومثلها كلمة انحرف . يعنى : هذا فى حرف ، وهذا فى حرف يعنى : على طرف وهذا على الطرف الآخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ .. (١١) ﴾ [الحج] فهذه كلها ألفاظ تؤدى معنى عدم الالتقاء ، كما فى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) ﴾ [ص] عزة آثمة كاذبة وشقاق يعنى : اختلاف لا التقاءَ فيه ، والمراد بالشِّقاق عدم اتعاظهم من سوابق الأمم مع رسلهم ؛ لذلك القرآن لا يسرد لهم تاريخاً حين يقول لهم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] إنما يُذكِّرهم بما غفلوا عنه .

وهنا يقول :

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) ﴾

(كم) هنا خبرية تفيد الكثرة ، فكأن الحق سبحانه ترك

---

(١) العدوة : الناحية . قال الفراء : العدوة شاطىء الوادى ، الدنيا مما يلى المدينة ، والقصوى مما يلى مكة . [لسان العرب – مادة : عدا] .

(٢) حادَّه : عاداه ونازعه كأنه يريد أن يغلبه ويتعدَّى حدوده . أى : ينازعون ويشاقون الله ورسوله . [القاموس القويم ١/١٤٦].

للمخاطب أنْ يتصوَّر الكمية ويُحدِّد الكمية فى كم ، وأنت لا تستخدم هذا الأسلوبَ إلا وأنت واثق من هذه الكثرة ، كما تقول لمن يجحد فضلك : كم أعطيتُك أو كم صبرتُ عليك ، يعنى : مراراً كثيرة .

والقرن قلنا : إنه الفترة أو الطائفة من الزمن يحكمها مشخِّص واحد كالنبوة أو غيرها ، كما نقول قوم نوح أو قوم هود ، وقد اصطلح على أن القرن مائة سنة ، وسُمِّيتْ قرناً لأنها متقارنة بعضها ببعض .

وفى قوله تعالى ﴿ مِن قَبْلِهِم ③ ﴾ [ص] احتياط جميل لأنه بعد بعثة سيدنا رسول الله ﷺ لم يهلك الله قوماً بالجملة كما حدث قبله ﷺ ؛ لذلك خاطب الحق سبحانه رسوله محمداً بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ㉝ ﴾ [الأنفال]

فقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلِهِم ③ ﴾ [ص] يعنى : هذه مسألة سبقتْ ولن تتكرر فى أمة محمد ﷺ وهذه المسألة تجد لها نظيراً فى قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ㉑ ﴾ [البقرة]

لو لم يقُلْ الحق سبحانه (من قبل) لَظَنَّ سيدنا رسول الله أن قومه ربما قتلوه كما قتل الأنبياء قبله ، لكن الحق سبحانه يُطمئنُ رسوله بقوله ﴿ مِن قَبْلُ ㉑ ﴾ [البقرة] يعنى : اطمئن ، فهذه لن تتكرر، وفى هذا تثبيت لفؤاده ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا ③ ﴾ [ص] يعنى : ساعة حَلَّ بهم العذاب، ونزل بهم الهلاك العام نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يسمع ليُخلِّصهم ويُغيثهم وينقذهم ، لكن ينادون مَنْ ؟ لم يحدد القرآنُ المنادى ليدل على ما هم فيه من الفزع ؛ لذلك نجد أن المناداة للفزع إلى مَنْ يخلصك مما لا تقدر عليه لها مراحل على قَدْر الخطر الذى تتعرض له ، فلو رماك أحدٌ مثلاً بحجر تنادى ذاتك وتستدعى بعضك ، فتحرك يدك مثلاً أو رِجْلك لتتفادى الأذى .

فإنْ كان الخطر فوق استطاعتك تنادى أقربَ الناس إليك أباك ، أمك ، أخاك ، جارك ، مَنْ يسير معك فى الشارع .. الخ فإذا لم تجد مغيثاً فى هؤلاء تقول يا هوه . وقلنا : إنها تعنى يا هُوَ يعنى : يا الله ليس لى سواك أناديه وألجأ إليه .

وهؤلاء لما نزل بهم الهلاك نادوا نداءً عاماً لكل مَنْ يستطيع أنْ ينقذهم ويغيثهم ، لكن هيهات فمَنْ يغيثهم إنْ كان ما ينزل بهم من الله ؟ إذن : نداؤهم لا جدوى منه ﴿ فَنَادَواْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ [ص] كلمة (لات) مكوَّنة من لا النافية زيدتْ عليها التاء ، لا للنفى عموماً فتنفى مرة المكين كما لو قلت : لا رجلَ فى الدار وتنفى المكان كما لو قلتَ : لا دارَ أسكنها ، فإذا زيدتْ عليها التاء نفتْ الزمن خاصة ؛ لذلك جاءتْ بعدها كلمة (حين) وهى مثل : ثَمَّ وثمَّة ، قال الشاعر[1] :

ثُمَّتَ قُمْنَا إلَى جُردٍ مُسَوَّمَةٍ أعْرافُهُنَّ لأَيدينَا مَنَاديلُ[2]

ومعنى (مناص) يعنى : مَفَرّ ومَهْرب . فالمعنى ﴿ فَنَادَواْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : ليس الوقتُ وقتَ مفَر ولا مهربَ .

﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ ﴾

---

(١) الشاعر هو عبدة بن يزيد الطبيب ، من تميم ، من مخضرمى الجاهلية والإسلام ، كان أسود اللون شجاعاً شهد الفتوح وقتال الفرس من المثنى بن حارثة ، توفى عام ٢٥ هـ . له ١٨ قصيدة عدد أبياتها ١٥٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة عدد أبياتها ٨١ بيتاً من بحر البسيط أولها :

هَلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الهَجْرِ مَوْصولُ أمْ أنتَ عنها بَعيد الدَّار مشْغُولُ

العجب هو الاستغراب ، إنهم يتعجبون وأمرهم أعجب ، يتعجَّبون ﴿أن جاءَهُم مُّنذرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ④﴾ [ص] والعجيب حقاً أنْ يأتيهم رسولٌ من جنس آخر غير جنسهم ، لذلك قال تعالى في موضع آخر : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء]

كانوا يريدون الرسول ملَكاً ، ولو جاءهم ملَكٌ لجاءهم في صورة رجل منهم ، ولو شخص لهم في صورة رجل لَظلَّتْ الشبهة قائمة ، والحق سبحانه يردُّ عليهم : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]

إذن : لابُدَّ أنْ يكون المرسَل من جنس المرسَل إليهم ، لأن الرسول حاملُ منهجٍ يُحققه ، الرسول أُسْوة وقُدوة لقومه ، وكيف تتحقق الأُسْوة بالملَك ؟ والله لو جاء الرسول ملَكاً لاعترضوا عليه ، ولقالوا إنه ملَك معصوم يقدر على ما لا نقدر نحن عليه ، ثم إن الملَك ليس له شهوة كشهوتنا .. الخ

إذن : العجب هو استغراب أنْ يكونَ الرسول واحداً منهم ومن جنسهم ، إن كَوْنَ الرسول من بينكم هو الحجة وبه تتم الأُسْوة ؛ لذلك حينما يمتنُّ الله على أمة محمد ﷺ يقول : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] يعني : من جنسكم وليس غريباً عنكم ، فهذه ميْزة لكم ، إذن : عجبكم ليس له مكان .

والجنس هنا ليس جنسَ الإنسان فحسب ، إنما من نوعهم من العرب ، بل من أوسطهم وهم قريش وأنتم تعرفونه قبل بعثته ، وتعرفون أصله ونسبه ؛ لذلك يرد الله عليهم فيقول : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ .. (١٥) ﴾ [يونس] يعنى : واضحات لا تُنكر ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

نعم لقد عاش سيدنا رسول الله ﷺ بين قومه أربعين سنة قبل بعثته ، وكانوا يعرفون عنه كل شىء ، إذن : العجب فى النقيض ، وليس فى الواقع الذى يتعجبون منه .

ثم يحكى الحق عنهم : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) ﴾ [ص] الساحر هو الذى يُخيِّل لنا الأشياء فنراها على غير حقيقتها ، لكنه لا يغير الحقيقة ، فالسحر ليس فى الشىء إنما فى أعين الناس ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف]

لذلك هناك فرق بين السحر وبين معجزة سيدنا موسى عليه السلام ، وقد كانت من جنس يقارب السحر لأنه سيعانده سَحَرة ، ولما ألقى موسى عصاه فرآها السحرة تلقفُ ما سحروا قالوا : آمنّا برب موسى ، وما ذلك منهم إلا لأنهم أيقنوا أن ما جاء به موسى ليس من قبيل السحر ، فَهُم يعرفون السحر جيداً ، ويعرفون ألاعيب السحرة ، وليس هذا الذى يرونَهُ منها .

إنهم يرونَ العصا حيَّة تلقف ما يأفكون ، والساحر يرى الأشياء على حقيقتها ، فيرى الحبال حبالاً ، فى حين يراها الناسُ ثعابين

تسعى وتتحرك ، إذن : ما فعله موسى أمامهم ليس من السحر .

ونردّ على هؤلاء الذين يتهمون رسول الله بالسحر . ونقول : لو سلَّمنا معكم أن محمداً ساحر وسحر مَنْ آمن به ، فكيف بكم لا تزالون على كفركم ؟ لماذا لم يسحركم محمد كما سحر المؤمنين به ، وتنتهى المسألة بينكم وبينه ؟

ثم يقولون : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص] إنهم يتعجَّبون وينكرون أنْ يدعوَهم رسولُ الله إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وقد كانوا يعبدون آلهة عدَّة ، فحول البيت أصنام كثيرة ، ومنهم مَنْ كان يعبد الشمس أو القمر أو الكواكب والنجوم ، ومنهم مَنْ عبد الملائكة .. الخ .

لكن من أين أتتهم هذه الشبهة ؟ جاءتْ هذه الشبهة من استعظامهم الوجود ، فهذا الكون البديع المحكم فيه أرض بها أنهار وجبال وزروع وثمار ، وفيه سماء فيها شمس وقمر ونجوم وكواكب وأفلاك .. الخ . فهذا الكون فى نظرهم لا يقدر على خَلْقه واحد بمفرده ، لا بد أن كثيرين اشتركوا فى خَلْقه .

إذن : فعظمة الوجود هى التى جعلتهم يقولون بآلهة متعددة ، وهنا لابُدَّ أن نقولَ سبحان الله ، فالعكس هو الصحيح فى هذه المسألة ، فعظمة الخَلْق دليل على أن الخالق واحد ، ولو كان الخالق متعدداً لما جاء الخَلْق على هذا النظام والتناسق ، ولو كان الخالق متعدداً لكان الحال كما وصفه الحق سبحانه : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ۝٩١﴾ [المؤمنون]

فقولهم : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا .. ۝٥﴾ [ص] خطأ من ناحيتين :

الأولى ظنُّهم أن عظمة الصنعة دليلٌ على تعدُّد الصانع ، فى حين أن عظمة الصنعة دليل على أن الصانع واحد ، الأخرى : أنكم قُلْتم بتعدد الآلهة ، والإله يعنى المعبود المطاع فى أوامره ونواهيه فقولوا لنا : بماذا أمرتكُم هذه الآلهة ، وعَمَّ نهتكم ؟ بل ماذا أعدَّتْ لمن أطاعها من الجزاء ، وماذا أعدَّتْ لمن عصاها ؟

إذن : قولكم آلهة كذب وهراء تقولونه بألسنتكم ما أنزل الله به من سلطان ، ولو عرفتم معنى الآلهة ومعنى العبادة وأن المعبود لابُدَّ أن يكون له منهج يسير عليه العباد ، لو عرفتُم هذا لما قُلْتم بتعدُّد الآلهة.

لذلك الحق سبحانه يضرب لهم مثلاً ، فيقول : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى : هل يستوى فى العبودية عبد مملوك لسيد واحد وعبد مملوك لعدة أسياد ، وليتهم متفقون إنما متشاكسون مختلفون فيما بينهم ، كذلك لا يستوى مَنْ عبد الله وحده ومَنْ عبد آلهة متعددة .

وقولهم : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ [ص] فى الآية قبلها قال تعالى : ﴿وَعَجِبُوا (٤)﴾[ص] من الفعل عَجِبَ ومصدره عَجَباً . أما هنا فقال (عُجاب) وهذه الصيغة تدلُّ على المبالغة فى العجب والاستغراب، فأصل المصدر والبِنْية موجود فيها ، والزيادة دلَّتْ على المبالغة كما

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد خلافهم . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] . والشركاء المتشاكسون : العسرون المختلفون الذين لا يتفقون ، وأراد بالشركاء الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى . [لسان العرب - مادة : شكس]

نقول : طويل وطوال . ونقول : أمر غريب وغراب [1] .

﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ ﴾

(الملأ) هم الذين يملأون العين مهابةً وزياً وهنْداماً ، ويملأون صدور المجالس . والمراد : الأعيان وزعماء القوم وصناديد الكفر فى قريش ، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، وأبو جهل وأُبىّ بن خلف ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، والنضر بن الحارث ، وخصَّهم الله بالذكر لأنهم أهل السيادة ، ودعوته ﷺ ستسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ، فهم المضارُّون من دعوة رسول الله .

ولهذه المسألة قصة ، فهؤلاء الزعماء ذهبوا إلى أبى طالب عم رسول الله وقالوا له : لو كان ابنُ أخيك يريدُ مُلْكاً ملكْناه علينا ، وإنْ

---

(١) سبب نزول الآيات : ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » (ص٢٠٩) : قال المفسرون : لما أسلم عمر بن الخطاب شق ذلك على قريش وفرح المؤمنون ، قال الوليد بن المغيرة لهلاص قريش وهم الصناديد والأشراف : امشوا إلى أبى طالب . فأتوه فقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنَّا أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل أبو طالب إلى النبى ﷺ فدعاه فقال : يا بن أخى هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تملْ كل الميل على قومك ، قال : وماذا يسألونى ؟ قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبى ﷺ : أتعطونى كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها ، فقال النبى ﷺ : قولوا لا إله إلا الله . فنفروا من ذلك فقاموا فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۝٥ ﴾ [ص] كيف يسع الخَلْقَ كلهم إله واحد ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ۝١٢ ﴾ [ص]

كان يريد مالاً جمعنا له من المال حتى يصير أغنانا .. الخ فكلَّم أبو طالب رسول الله وقال : يا ابن أخى ، ابْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر مَا لا أطيق ، إن قومك جاءونى وقالوا كذا ، وكذا فقال ﷺ قولته المشهورة : « والله يا عَمِّ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أتركَ هذا الأمر ما تركتهُ حتى يُظهِره الله ، أو أهلِكَ دونه »(1) .

فلما خاب سَعْيُهم ، وعلموا أن رسول الله لن يُهادنهم فى آلهتهم ، ولن يقبل عروضهم ومساوماتهم أسرعوا إلى القوم يحفزونهم على التمسك بآلهتهم والصبر عليها ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ (٦) ﴾ [ص] يعنى : إلى قومهم ﴿ أَنِ امْشُوا (٦) ﴾ [ص] يعنى : سيروا على ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ، وابْقوا على طريقتكم وعبادتكم ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ (٦) ﴾ [ص] يعنى : على عبادتها واحذروا أنْ يُضلّكم محمد عنها .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) ﴾ [ص] أى : مسألة مدبرة لها ما بعدها من العواقب ، لأن الآلهة إنْ كفرتُم بها ستغضب عليكم فيصيبكم الجَدْب والقحط ، أو الشىء يُرادُ بنا نحن الأعيان ، فنذل بعد أنْ كُنَّا سادة ، ونصير سواسية مع باقى القوم .

وقولهم : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ (٧) ﴾ [ص] أى : ما سمعنا

---

(1) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/١٨٧) من طريق ابن إسحاق أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا : إنك تؤذيهم فى ناديهم ومسجدهم ، فابق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك . فقال ﷺ : يا عم ، لو وضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبه. فما كان من أبى طالب إلا أن قال : امضِ على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً ».

بأن الإله واحد ، والملة الآخرة هى أقرب الملَل إليهم ، وهى اليهودية والنصرانية ، نعم اليهودية والنصرانية نزلتْ من السماء بتوحيد الله ، لكن الذى شجَّعهم على هذا القول أن اليهود قالوا : عزير ابن الله . والنصارى قالوا : المسيح ابن الله وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . لذلك قال كفار مكة : ما سمعنا بتوحيد الله فى الملة الآخرة ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ⑦﴾ [ص] يعنى : ما هذا إلا كذب وافتراء ، ومعنى الاختلاق : خَلْق الشىء بلا واقع يسانده .

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ⑧﴾

هذه نَقْلة أخرى فى جدالهم وتكذيبهم لرسول الله ، فقبل ذلك كانوا يعترضون على بشرية الرسول ، ويطلبون أنْ يكون الرسول ملَكاً ، والآن يتنازلون عن هذا المبدأ ويتحوَّلون إلى الذات ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ㉛﴾ [الزخرف]

يعنى : لماذا محمد بالذات ، وفينا أناس عظماء وسادة كانوا أَوْلَى منه بالرسالة ؟ وهنا قالوا : ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ⑧﴾ [ص] لذلك الحق سبحانه يرد عليهم ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ㉜﴾[الزخرف] فجعل نبوته ﷺ رحمة بهم .

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ㉜﴾ [الزخرف]

يعنى : كيف تتدخلون فى هذه المسألة الهامة ، تريدون أنْ تقسموا رحمة الله ، والله هو الذى قَسَم لكم أمور الدنيا الهيِّنة ، فجعل منكم سادة وعبيداً وأغنياء وفقراء .. الخ إنْ كان الحق سبحانه هو الذى ينظم لكم أبسطَ أمور حياتكم ، فكيف تطمعون فى أنْ تقسموا أنتم فضل الله ورحمته ؟ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤)﴾ [الأنعام] وذلك فَضْل الله يؤتيه مَنْ يشاء .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي (٨)﴾ [ص] الذكْر هنا يعنى القرآن ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسوله ويطيب خاطره ، كما خاطبه فى موضع آخر بقوله : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

والمعنى : لا تحزن يا محمد . فقومك لا يُكذِّبونك أنت إنما يُكذّبون ما جئتَ به من الذكر ، فأنت عندهم الصادق الأمين الذى لا غبارَ عليه ، يعنى المسألة ليست متعلقة بك وبشخصك أنت ، إنما متعلقة بى أنا ، فكأن الله تعالى حملها عن رسوله ليُطمئنه ويُسلِّيه ويُخفِّف عنه ما يلاقى من عناد قومه له .

وقوله سبحانه : ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾ [ص] هذا لون من ألوان التهديد ، يعنى : لن يظلوا على هذه الحال من السلامة والنجاة فعذابهم قادم ؛ ذلك لأن (لما) تفيد نَفْى الحدث فى الماضى مع إثبات حدوثه فى المستقبل ، تقول : فلان لم يأتِ يعنى فى الماضى وقد لا يأتى فى الحاضر والمستقبل ، إنما فلانَ لمَّا يأتى يعنى : لم يأت فى الماضى ، وسوف يأتى فى الحاضر أو المستقبل ، فمعنى ﴿لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾ [ص] يعنى : حتى الآن لم ينزل بهم عذاب الله ، لكن سوف ينزل لا محالة .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ ﴾

بعد أن نفى الحق سبحانه قدرتهم على أنْ يقسموا رحمته تعالى ينفى هنا أن تكون مفاتيح خزائن رحمته بأيديهم ، فأمْ هنا للتسوية ، والمعنى : أهُمْ يقسمون رحمة ربك ، أم عندهم خزائن رحمته ؟ لا هذا ولا ذاك ، لأن النبوة رحمة ، وخزائن الرحمة مملوكة للرحيم والله رحمن ، فليس لهم شىء من ذلك ؛ لأن الله تعالى لم يُملِّك مفاتيح خزائنه لأحد حتى أولياء الله المقربين الذين يعطيهم ومضات إشراقية غيبية ليثبت بها اليقين بالمسلك الذى سلكوه .

حتى هؤلاء لم يُملِّكهم مفاتيح خزائنه ، إنما يفتح لهم ما يشاء من فضله ، ويعطيهم ما يريدون من الكرامات ، وتظل مفاتيح خزائنه تعالى فى يده ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ۝٥٩ ﴾ [الأنعام] لا يسلمها لأحد . لذلك ذُيلت الآية بهذين الاسمين من أسمائه تعالى ﴿ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩ ﴾ [ص]

فالعزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، فالله غالب لا يُغْلَب على أمره ، ومَنْ كانت هذه صفته كيف يأخذون منه خزائن رحمته ، وهو سبحانه : ﴿ الْوَهَّابِ ۝٩ ﴾ [ص] الذى يهب مَنْ يشاء تفضُّلاً وتكرُّماً منه سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝١٠ ﴾ [ص] يعنى : إنْ كان لهم مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ ۝١٠ ﴾ [ص] فليصعدوا هم إلى السماء ، وليعرجوا إليها ليتولَّوْا هم تدبير أمر الخَلْق ، والحق سبحانه يوضح هذه المسألة فى

آية أخرى : ﴿يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ[1] السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾ [الرحمن] أى : بسلطان منَّا .

لذلك لما وصل الإنسان واعتلى سطح القمر قال المتفلسفون : وصلوا بسلطان العلم ، كيف والله يقول بعدها : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[2] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥)﴾ [الرحمن] إذن : ليس السلطان المراد سلطان العلم كما يدَّعُون ، إنما سلطان من الله خالقها ، فهو سبحانه الذى يُنْفِذ مَنْ يشاء ، ويمنع من النفوذ مَنْ يشاء ، ولو لم تأتِ هذه الآيةُ لَكانَ الذين ينكرون معراج رسول الله على صواب .

وقوله سبحانه : ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١)﴾ [ص] المراد كفار مكة ، وأنهم مهزومون لا محالة ، كما هُزِم مَنْ قبلهم من المكذِّبين للرسل .

ثم يُسلِّى الحق - سبحانه وتعالى - نبيه بذكْر ما كان من تكذيب السابقين لرسلهم ، يعنى : يا محمد لستَ بدعاً فى هذا الأمر ، ويبدأ بأطول الرسالات عمراً ، وهى رسالة سيدنا نوح -عليه السلام- فيقول سبحانه :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَـٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾

---

(١) أقطار السماوات : نواحيها . [القاموس القويم ٢ / ١٢٤]

(٢) الشواظ : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم ١ /٣٦١].

معنى : ﴿ذُو الأَوْتَادِ (١٢)﴾ [ص] صاحب الأوتاد وهى الأشياء المثبتة ، وقيل : المراد الأهرامات . أو كانت له أوتاد مثبتة عذَّب بها خصومه ، و ﴿الأَيْكَةِ (١٣)﴾ [ص] هى الحديقة مُلتفّة الأشجار ، متشابكة الأغصان ، وأصحاب الأيكة هم قوم سيدنا شعيب ﴿أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣)﴾ [ص] أى : الذين تحزَّبوا على رسلهم وصادموهم وعاندوهم .

﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ (١٤)﴾ [ص] ما أحد من هؤلاء إلا كذَّبَ رسوله ﴿فَحَقَّ (١٤)﴾ [ص] أى : وجب له وحَقَّ عليه (عِقَاب) إذن : فكيف يُقدِّرون لأنفسهم أنْ يقفوا منك يا محمد هذا الموقف ولا نعاقبهم ؟ كيف يفلتون منا وقد عاقبنا مَنْ هم أقوى منهم ؟

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾

أى : ما ينتظرون ، فعذابهم بالنسبة لنا أمر يسير لا يحتاج إلى علاج ، إنما هى مجرد صيحة واحدة أى : نفخة واحدة قالوا : هى النفخة الثانية التى بها يُبعث الخَلْق ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥)﴾ [ص] يعنى : لا إفاقةَ لهم بعدها .

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (١٦)﴾

معنى ﴿قِطَّنَا (١٦)﴾ [ص] أى : نصيبنا وجزاءنا ، وأصلها من القطعة كانوا يكتبون فيها الجائزة . يعنى : إنْ كنا مذنبين عَجِّل لنا العذاب الآن قبل يوم القيامة ، لكن كيف يأتيكم العذاب الآن فى الدنيا والدنيا فانية ، ينتهى العذاب بفَنَائها ، فكأن عذابهم فى الدنيا لا يكفى جزاءً لهم على كفرهم ؛ لذلك يُؤخِّره الله لهم إلى يوم القيامة ، وهى

دار بقاء وإقامة لا نهاية لها .

والحقيقة أن الصيحة ليست هى التى ستُعذِّبهم ، إنما هى مجرد جرس إيذاناً ببدء هذا اليوم .

والحق - سبحانه وتعالى - يشرح لنا هذا الموقف منهم ويُوضِّحه فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

وهذا دليل غبائهم ، فهل يدعو عاقل بمثل هذا ؟ وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُدلِّل لنا على أن موقفهم فى العناد والتأبِّى على الرسالات ضد نفوسهم ، فبدل أنْ يقولوا فاهدنا إليه يقولون ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

لذلك الحق سبحانه يتعجب من استعجالهم العذاب : ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الصافات]

وعجيبٌ من كفار مكة أن يقولوا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص] فهل يؤمنون بهذا اليوم ؟ إذن : لماذا ينطقون به ويعترفون بوجوده حتى يظهر فى فلتات ألسنتهم ؟ قالوا : إنه تنبُّه مواجيد الفطرة قبل أنْ يعمل العقل الماكر ، فالذى يكذب يُعمل عقله فى الكذب ، ولابُدَّ له أنْ يكون ذَكُوراً ؛ لأن الكذب ليس له واقع ثابت .

لذلك كثيراً ما يكذب الإنسانُ كذبةً اليوم ، ويكذب خلافها غداً ، فالصادق لا يتغير كلامه لأنه يحكى واقعاً ، أمَّا الكاذب فيحكى غير الواقع ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، مثل رجل كاذب يحكى ويقول : ذهبنا إلى (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ضهر !!) كيف ؟

والمحقق الماهر هو الذى يستغل هذه المسألة ليعلم صدْقَ الأقوال من كذبها ، فالصادق يحكى واقعاً ، فلو سأله المحقِّق ألف مرة لجاءتْ أقواله واحدة ، أمَّا الكاذب فيحكى خيالاً لا بُدَّ أنْ تتضارب فيه الأقوال فينكشف زَيْفه ، الواقع يُملى نفسه عليك ، أمَّا الكذب فيُمليه الإفك والتلفيق ، فلا تدرى على أىِّ صورة يكون .

فقولهم : ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] جاء منهم فَلْتَة لسان كشفتْ عَمَّا يؤمنون به بين أنفسهم ، ومثلها قول المنافقين : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

فجعلوا النفعية هى المقياس ، فكأن أتباع محمد حين لا ينفق عليهم سينفضُّون من حوله ؛ ذلك لأن الأمور عندهم مادية ، وكل شىء عندهم له ثمن .

وقالوا : لما فَتَر الوَحْى عن رسول الله : إنَّ ربَّ محمد قَلاَه[1] ، هكذا تسرقهم المواجيد الفطرية ، ويظهر الحق فى فَلَتات الألسنة عندما تتنبه الغريزة والفطرة ، ويغيب العقل الماكر المدبر .

أو أنهم قالوا : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] على سبيل الاستهزاء بالوعيد الذى توعَّدهم الله به ، فهم لا يؤمنون بهذا العذاب ولا يثقون فى وقوعه ، فاستعجالهم له استهزاء به ، فكأنهم قالوا : هات لنا العذاب فنحن مشتاقون لعذابك ، فلا تُؤخِّرْه إلى يوم الحساب ، وهذا التهكم لا يليق مع قولهم ﴿ رَبَّنَا ﴿١٦﴾ ﴾ [ص]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) من رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودَّع محمداً ربُّه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الضحى] .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ[1] إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا[2] مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ[3] ﴿٢٠﴾ ﴾

الصبر : استعلاء النفس على الأحداث بمعنى ألاَّ تنال الأحداثُ من النفس ومن قوتها ، لأن الذى يُصاب بمصيبة يحتاج إلى قوة إضافية فوق قوته الطبيعية ، فلا تجعل المصيبة أو الشدة تُضعف من قوتك على تحمُّل الحدث .

وإياك أنْ تجعل المصيبة مصيبتين ، حين تضعف أمام الأحداث فيجتمع عليك المصيبة والضعف عن تحملها ، ذلك لأن المصيبة بالنسبة للمؤمن على قسمين . الأول : مصيبة للإنسان دَخْلٌ فيها كالطالب المهمل الذى يرسب فى الامتحان ، فالرسوب نتيجة إهمالك وتهاونك ، فإنْ كنت ستغضب فاغضب من نفسك ولُمها وعنِّفها ، وحاول أن تصححَ خطأها ، وتصلح فسادها ، هذه هى الرجولة التى تواجه الواقع ولا تتنصَّل من المسئولية .

---

(١) ذا الأيْد : أى صاحب القوة . [القاموس القويم ١/٤٥] قال الزجاج : كانت قوته على العبادة أتم قوة ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك أشد الصوم ، وكان يصلى نصف الليل ، وقيل : أيْده قوته على إلانة الحديد بإذن الله وتقويته إياه . [لسان العرب - مادة أيد] .

(٢) شددنا ملكه : قوَّيناه . [القاموس القويم ١/٣٤٤] قال ابن منظور فى لسان العرب - مادة شدد : كان من تقوية ملكه أنه كان يحرس محرابه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً من الرجال . هكذا جاء .

(٣) فصل الخطاب : القول الصائب المميِّز بين الحق والباطل . [القاموس القويم ٢/٨٣] .

الثانى : صبر على حدث ليس للإنسان دَخْل فيه ، وهذا هو الأمر القدرى يُجريه الله عليك ، ولا يريد لك منه إلا الخير ، وإنْ كنتَ تعتقد أنت أنه شَرٌّ .

لذلك قد يدعو الإنسان بما يراه خيراً له حَسْب قوانينه وفَهْمه للخير ، لكن لا يرى إجابة فيغضب ويقول : دعوتُ فلم يُستجب لى . وغفل أن ربه - عز وجل - أعلمُ بالخير أين هو ، لذلك لم يُجِبْهُ ، إذن : فإجابته لك ألاَّ يجيبك .

لذلك يُعلِّم الحق سبحانه المؤمنين الرّد على الذين كانوا يشمتون فى الأحداث تصيبهم ، فيقول : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا (٥١) ﴾ [التوبة] نعم ، كتب الله لنا لا علينا ، لأن المصيبة لا تأتى المؤمنَ إلا بالخير ، فهى إما تمحيص لنا وإما عُلُو لمرتبتنا ، وإما ليعلم غيرُ المؤمنين أن لأهل الإيمان جلادةً أمام الأحداث ، وصلابةً لا تلين .

ومن ناحية أخرى ، نجد المصيبة التى تصيب الإنسانَ إما مصيبة له فيها غريم ، أو مصيبة لا غريمَ فيها ، فالمصيبة التى لك فيها غريم اعتدى عليك مثلاً تحتاج إلى صبر أقوى وجلَد وتحمُّل أكثر ، لأنك كلما رأيتَ غريمك حرَّك فيك كوامن النفس ودواعى الانتقام . أما المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، وهى المصيبة القدرية التى أصابتْك بقدر الله فهى أهون على النفس من الأولى لأنها من الله ، فلا تملك معها إلا أنْ تقول لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله وتصبر وتحتسب ، وإلا فماذا تفعل مثلاً أمام المرض أو الموت ؟

لذلك يقول سبحانه فى المصيبة التى لك فيها غريم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] يعنى : تحتاج إلى عزيمة وقوة تحمُّل تعينك على الصبر ، أو تدعوك إلى المغفرة ، أما المصيبة القدرية التى لا غريمَ لك فيها ، فيقول الحق فيها : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا

أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] ولم يقُلْ هنا ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى] ، فآية لقمان فى المصيبة التى لا غريم فيها ، فأتت بدون اللام ، وآية الشورى لما فيها غريم فأتت فيها اللام .

هنا الحق سبحانه يريد أنْ يُسلِّى نبيه محمداً ﷺ ويُخفِّف عنه ما يُلاقى من قومه ، فقولهم عن رسول الله أنه ساحر وكاذب ومجنون .. الخ كل هذا يُحزن رسول الله ويشقُّ عليه ويُؤلمه ؛ لذلك مرَّتْ بنا آياتٌ كثيرة فى تسليته ﷺ ، كما فى قوله تعالى :﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وهنا يخاطبه ربه : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] ثم يعطيه مثلاً من موكب الرسالات السابقة ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] لكن لماذا ذكر سيدنا داود بالذات فى هذا المقام ؟

قالوا : لأن قومَ سيدنا داود قالوا فى حقه ما هو أفظع مما قيل فى حَقِّ رسول الله ، فكفار مكة قالوا : ساحر ، وكاهن ، وكذاب . أما قوم داود فقد اتهموه فى شرفه وعفَّته وطهارته ، حين زعموا أنه بعث بأحد قادته إلى حرب خارج البلاد ؛ لأنه كان يحب زوجته ، ويريد أنْ يخلوَ له الجو وينفرد بها ، ومع ذلك صبر سيدنا داود .

والحق سبحانه يخاطب نبيه محمداً ويقول له : اصبر كما صبر داود . مع أن محمداً هو خاتم الرسل جميعاً ، فلا رسالةَ بعده وفوَّضَه الله فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وهذه خصوصية لم تسبق لأحد غيره من الرسل ، وأرسل الله معه كتاباً خالداً مهيمناً على كل الكتب السابقة ومع ذلك يقول له ربه : اصبر كما صبر داود ، وكما صبر إخوانك من الرسل ليدلَّ على أن أمة الرسالة أمة واحدة ، كل منهم يُبلِّغ عن الله رسالة مناسبة لقومه ، فالرسل جميعاً كشخص واحد .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص]وبعد ذلك ذكر عدة

رسُل من موكب الرسـالات ولم يقُلْ عبادنا ، كأنهم تجمـعوا كلهم فى مهمة واحدة فلا تفرق بينهم ؛ لذلك يقول سبحانه :﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

وقال ﷺ : « لا تفضلونى على يونس بن متى »[1] .

لأنكم لا تعلمون مـقاييس المفـاضلة ، فدعوا المفـاضلة لله تعالى فهـو الذى يُفضِّل ، كمـا قال سبـحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم .. ﴿٢٥٣﴾ ﴾ [البقرة]

وتأمَّل هذا الشرف الكبير الذى ناله سيدنا داود حين تحدَّث الحق عنه ، فقال ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] كذلك ناله سيـدنا محمد فى استهلال سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فليس للإسراء حـيثـية ، إلا أنه ﷺ عبـد أخلص العبـودية لله فاسـتحق هذا الشرف العظيم ؛ لذلك لمـا جَفتْ به الطائف واضطهدوه وشتـموه جاء العزاء من الله ، فإنْ كـانت الأرضُ لم تحتَفِ بك ، فسوف تـحتفى بك السماء .

وقـوله تعـالى : ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴿١٧﴾ ﴾ [ص] يعنى : صـاحب القـوة فى العبادة ، والإيمان يحتاج فـعلاً إلى قوة تُعينك على الطاعة ، وتزجرك عن المعصيـة ، وتكبح جماحَ النفس حين تميل بك إلى المـخالفة ، أما الطاعة فتحتاج إلى قوة لأن الـطاعةَ غالباً ما تكون ثقيلة على النفس ، فتحتاج إلى قوة دافعة حافزة ؛ لذلك يقول تعالى عنها : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) لفظ البخـارى من حديث عبـد الله بن مسعـود (٣٤١٢) : « لا يقولن أحدكم إنى خـير من يونس بن متى » . وكذا عن ابن عـباس (٣٤١٣) : « ما ينبغى لعبد أن يقـول إنى خير من يونس بن متى » .

أما المعصية فلها لذة وجاذبية وشهوات تُلح على النفس ، فتحتاج كذلك إلى عزيمة وقوة رادعة كابحة ؛ لذلك كثيراً ما يتكرر ذِكْر القوة فى كتاب الله ، فقال عن داود ﴿ذَا الأَيْدِ (١٧)﴾ [ص] ، وقال ليحيى عليه السلام : ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ (١٢)﴾ [مريم]

فالمؤمن لا بُدَّ أنْ يكون قوياً قويَّ الإرادة والعزم ، لا بُدَّ له من قوة الدفع إلى الطاعات لأنه يكسل عنها ، وقوة الردع عن المعاصى لأنه يميلُ إليها ، والإنسان لا يكسل عن الطاعة ولا يرغب فى المعصية إلا حين يعزل العملَ عن الجزاء والعاقبة ، ولو استحضر الجزاء وتذكَّر العاقبة لَهانتْ عليه الطاعة وخَفَّتْ على نفسه وسَهُلَتْ ، ولَزهِدَ فى المعصية ، وفَرَّ منها فراره من الأسد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثال قلنا : هَبْ أن شاباً طغتْ عليه الغريزة الجنسية ، وهى أعنف الغرائز فى الإنسان ، فقلنا له : تقضى ليلة مع فتاة جميلة لكن فى الصباح سنُدخلك هذا (الفرن) المتأجج لمدة ساعة ، فماذا يقول ؟ إذن : استحضار العقاب على المعصية عند المعصية يمنعك منها ، كذلك استحضار الثواب على الطاعة يدفعك إليها .

وهناك فى جبال الهملايا وعند قمة إفرست وجدوا ضحايا كثيرين ممَّنْ يحاولون اعتلاء هذه القمة ، فبعضهم مَات بعد ثلث المسافة ، وبعضهم بعد الثلثين وهكذا ، فما الذى حملهم على تحمُّل هذه المصاعب والمخاطر ؟ إنها شهوة الاستعلاء على هذه القمة التى تُعَدُّ أعلى قمة فى العالم ، إنه حب الشهرة وتخليد الذكْر فى دوائر المعارف ، إذن : استهانوا بالأخطار ليصلوا إلى هذه الغاية التى يتطلَّعون إليها .

فالذى يجعل الإنسان يزهد فى الطاعات ويتكاسل عنها أنه لم يستحضر الثوابَ عليها ولو استحضر ثوابها لَسهُلَتْ عليه ، كما قال الشاعر :[1] .

تَهُونُ عَلَيْنا فى المعَالِى نُفُوسُنَا   ومَنْ يخطُب الحَسْنَاءَ لم يُغْلِهَا المْهرُ[2]

والنبى ﷺ يشرح لنا هذه المسألة بقوله : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمرَ حين يشربها وهو مؤمن » .

يعنى : ينتفى عنه وَصْفُ الإيمان فى لحظة وقوعه فى هذه المعصية ؛ لأنه غفل عن العاقبة ، وغفل عن الله ، ولو استحضر اللهَ فى ذهنه ما أقدم .

ثم يقول تعالى فى وصف سيدنا داود : ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص] من الفعل آب فهو آيب وأوَّاب صيغة مبالغة على وزن فعَّال . يعنى : كثير التوبة والأوْب إلى الله ، وهذه الكلمة فيها إشارة إلى أن الإنسانَ عُرْضة للمعصية ، وأنه مهما تاب فهو مُعرَّض للعود مرة أخرى ؛ لأنه ليس معصوماً ، المهم أنْ تحدثَ لكل ذنب توبةٌ ، وألاَّ تكون مُصِراً على أنْ تعودَ .

لذلك تلحظ أن من أسماء الله تعالى الغفار ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ

---

(١) هو أبو فراس الحمدانى : شاعر أمير ، ابن عم سيف الدولة ، ولد ٣٢٠ هـ وتوفى ٣٥٧ هـ عن ٣٧ عاماً ، كان سيف الدولة يحبّه ويستصحبه فى غزواته ، جرح فى معركة مع الروم فأسروه عدة أعوام ، حتى فداه سيف الدولة ، قتله رجال خاله سعد الدولة . له ٢٨٤ قصيدة من العصر العباسى ، عدد أبياتها ٢٧٧٦ بيتاً .

(٢) البيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٥٤ بيتاً .

وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ [طه] ولم يقل غافر ، لماذا ؟ لأن الخَلْق فيهم غفلة ، وفيهم معصية تتكرر ، وتكرُّر المعصيه يحتاج إلى تكرُّر المغفرة ؛ لذلك من رحمة الله بنا أنه غفَّار أى : كثير المغفرة.

وقوله تعالى فى حَقِّ سيدنا داود : ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص] تشرح لنا فيما بَعْدُ معنى ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص]

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص] معنى : ﴿بِالْعَشِيِّ ﴿١٨﴾﴾ [ص] الوقت بعد الظهر إلى المغرب ﴿وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص] بعد شروق الشمس وهو وقت الضحى ، ومعلوم أن الجبال جماد ، والجماد هو أدْنى الأجناس فى الكون ، فالإنسان هو سيد هذا الكون ، وهو أعلى الأجناس ، يليه الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد .

الحق سبحانه يخبرنا أن الجماد يُسبِّح ، وأن للجماد حياةً فى حين يظن الإنسان أن جماد يعنى جامد لا حياةَ فيه ، نعم لا حياةَ فيه بمقياسك أنت ، لكن له حياة أخرى غير حياتك ، أنت تسعى وتجرى فى طول الدنيا وعرضها ، أما الجماد فثابت لا يتحرك .

لكن لكل جنس حياة تناسبه ، فأنت أيها الإنسان لك حياتان : حياة فى حال اليقظة ، وحياة أخرى فى حال النوم ، أقانونك وأنت نائم هو قانونك وأنت مستيقظ ؟ إنك ترى فى النوم الأشخاص والأشكال ، وتُميِّز بين الألوان ، وتعيش قصة طويلة وتَعى تفاصيلها ، كل هذا وأنت نائم مُغْمضَ العينين ، فبأىِّ حاسة رأَيتَ ما رأيت ؟ بعد ذلك لك حياة أخرى مناسبة للموت ، وحياة أخرى مناسبة للبعث .

وإنْ أردت أنْ تستدلَّ على أن كل شىء فى الوجود له حياة

تناسبه ، فاقرأ إنْ شئتَ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] بعض العلماء قال - ليخرج من هذا المطب - التسبيح هنا يعنى تسبيح دلالة . يعنى : هذه المخلوقات تدل على خالقها ، وليس المراد تسبيح المقال ، ولو كان التسبيح المراد تسبيح دلالة كما يقول ما قال الحق بعدها : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤) ﴾ [الإسراء] لأننا نفهم تسبيحَ ا لدلالة . إذن : لا بُدَّ أنْ لها تسبيحاً آخر ، لا نعلمه نحن .

كذلك فى قوله تعالى فى الطير : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ (٤١) ﴾ [النور] فليس لنا أن نبحث فى كيفية صلاة الطير ، فكل جنس يعلم كيف يصلى لله خالقه ، ألم ترَ النملةُ جنودَ سليمانَ فتسرع لتحذر قومها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] وتأمل هذا الاحتياط فى قولها وعدالة الحكم فى ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل] فهم ليسوا ظلمة ولا جبارين ، وإنْ مرُّوا عليكم سيحطمونكم من حيث لا يدرون ولا يشعرون بكم .

ألم يعلم هدهدُ سليمانَ قضيةَ التوحيد ؟ ألم يكُنْ سبباً فى هداية قوم ضلُّوا وعبدوا الشمس من دون الله حين عاد إلى سليمان ، يقول ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] .

والذى أغاظ الهدهد وأثَّر فى نفسه أنْ يراهم يسجدون للشمس من دون الله : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

إن الهدهد يفهم القضية كاملة ، بل ويجيد في ذلك ما لا يجيده الإنسانُ العاقل .

والإنسان الذى يُدلُّ على الكون بعقله وفهمه ، ألم يُعلِّمه الغراب كيف يُوارى سَوْأةَ أخيه وجثته : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ..(٣١)﴾ [المائدة]

إذن : فكل كَوْن له عالمه ، وله لغته ، وله صلاته لله وخشوعه ، فلا تفرض قانوناً لتسحبه على قانون آخر ، فتحيل كثيراً من الأشياء. وإنْ أردتَ سنداً لهذا من نفس القرآن فاقرأ قوله تعالى : ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢)﴾ [الأنفال] فالهلاك نقيض الحياة . واقرأ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ (٨٨)﴾ [القصص]

إذن : حين نجمع بين الآيتين نرى أن كل شيء له حياة خاصة به ، وإنْ كنا لا ندرك نحن كُنْه هذه الحياة لكنها موجودة ، بدليل أن كل شيء هالك . والآن بدأ العلماء يُسجِّلون لغة الطير ولغة الحيوان ويتوصَّلون إلى حَلِّ شفرة هذه اللغات .

ومن العجائب التى جعلها الله لتشرح لنا قدرته تعالى فى كونه أنهم لما صنعوا الصاروخ (ديسكافرى) ، وأرادوا إطلاقه إلى الفضاء ووزنه ١١٠ أطنان ، وجدوا به عُطْلاً يمنع انطلاقه ، فلما بحثوا عن العطل وجدوا طائراً وزنه أربعة جرامات اسمه نقار الخشب نقر فى الجدار العازل لخزان الوقود فى الصاروخ اثنين وأربعين ثقباً فعطَّل الصاروخ عن الانطلاق ، وهكذا سُخِّر طائر وزنه أربعة جرامات وبنى عُشَّه على هذا الصاروخ العملاق فعطَّل حركته .

وكأن الطيورَ أرادتْ أنْ تثأر لنفسها لما رأت الإنسان يزاحمها فى عالم الطيران ؛ لذلك وجدوا أن أكبر شيء يهدد الطيران هو عالم

الطيـور ، وأن جـمـاعـات منهـا تعـتـرض الطائرات ، وتحـوم حـول المطارات وكأن هناك عـداوةً بينها وبين هذه المخلوقات التى تـنازعها الطيران .

لذلك فكَّر علمـاء الطيـران فى فكرة تطرد الطيـور عن المطارات ، فأخذوا فكرة أصوات الطيور التى تصـدرها كإنذار لغيرها عند حدوث خطر وسـجَّلوا هذه الأصـوات وأذاعوها حـول المطارات ، لكن الطيـر تنبَّه إلى هذه الخـدعة ، ولم تَعُـدْ تزعجه هذه الأصـوات ، لذلك لجأوا إلى وسيلة أخرى فقالوا : إن الطيور تخاف من الصقور ، فصنعوا لها مُجسَّـمات من البلاستيك وعلَّقـوها ، لكن هذه الخدعة عرفـها الطير ، وسَخـر منها حين وضـعتْ بعض الطيور أعـشاشهـا على أجنحة هذه الصقور .

إذن : للطير عالمه ومملكته وأسـراره ، عرفنا منها شيئاً ، وغابت عنا منها أشياء .

فإذا قرأتَ عن سـيدنا داود : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] فاعلم أن الـجبال تسـبح على الحقـيقة تسـبيحاً لا يعلمـه إلا ربها وخـالقـها . والمـيـزة هنا لسـيدنا داود ليـست فى تسبـيح الجبال ؛ لأن الجـبال مُسبِّـحة دائماً ، إنمـا المعجـزة هنا أنها تُسبِّح معه وتردد معه نشيداً واحداً ، فالكـلام فى (معه) أى تُسبِّح مع تسبيحه .

لذلك قلنا فى قـولهم : سبَّـح الحصـى فى يد رسـول الله ، قلنا : عدِّلوا العبارة ، لأن الحصـى يسـبح حتى فى يد أبى جهل ، فالصواب والمعـجز أن نقول : سـمع رسول الله تسبـيحَ الحصـى فى يده . هذه هى العظمة .

ومعنى ﴿ بِالْعَشِيِّ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] العَشِيُّ : الفترة بعد الظهر إلى المغرب ﴿ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] أى : شروق الشمس ، وقد أخذ بعض الأئمة من هذه الآية دليلاً على مشروعية صلاة الضحى التى صلاها النبى ﷺ ، وبعضهم يقول عن هذه الصلاة : صلاة الإشراق[1] . لكن أىّ عشى ؟ وأىّ إشراق ؟ هذا وقت وكل مكان له عَشِيٌّ وله إشراق يخالف الآخر .

إذن : فهو وقت ممتد فى كل الوقت كما أوضحنا فى الصلاة ، فهى دائمة ممتدة لا تنقطع أبداً ، ففى مكان يُصلَّى الصبح ، وفى آخر يُصلَّى الظهر ، وفى آخر يُصلَّى العصر وهكذا . فكأنَ الخالق سبحانه أراد بهذه الدورة الزمنية أنْ يُعبَد سبحانه فى كل جزئيات الزمان عبادة لا تنقطع فى وقت من الأوقات .

ومن ذلك قوله ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوبَ مسىء النهار ، ويبسطُ يده بالنهار ليتوبَ مسئ الليل »[2] ولا يخلو الزمن أبداً من ليل أو نهار ، إذن : فالمعنى أنه سبحانه يده مبسوطة دائماً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص] معنى محشورة أى : مجتمعة حول سيدنا داود ، لأنه عليه السلام كان جميل الصوت حين يقرأ المزامير ويتغنى بها ، فكانت الطيرُ تجتمع

---

(١) روى عن ابن عباس أنه قال : كنت أمر بهذه الآية ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾ [ص] ولا أدرى ما هى . حتى حدثتنى أم هانئ . أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى صلاة الضحى . وقال : « يا أم هانئ ، هذه صلاة الإشراق » ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٨٠٠) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ١٥٠) للطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) ، وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٩٥ ، ٤٠٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

عليه وتُردِّد معه وتُرجِّع ما يقول ، إذن : كانت منظومة إيمانيةً مُكوَّنة من سيدنا داود والجبـال والطير ، جميعهم يرددون تسبـيحاً واحداً ، وكأنهم كما قلنا : (كورس) واحد .

لذلك قـالوا فى ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص] أى : داود والجبـال والطير ، كل منهم أواب لله خاضع له راجع إليه[1] .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] أى : قوَّيناه وسـاندناه بالنصر والهيبة ، النصر فى كل شىء ، والهيبة أقوى أسباب القوة ؛ لذلك إذا أراد اللهُ أنْ يضعف الملك نزع الهيبـةَ منه من القلوب ، وحين لا يهابه الناس يتجرأون عليه .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص] الحكمة : وَضْع الشىء فى موضـعه المناسب له ، والذى تأتى منه الثمـرة المرجـوة من أقـصر الطرق وأيسرها ، والحق سبحـانه حين يأتى بلفظ من الألفـاظ يأخذ أنْسَه بما فى اللغة ، فالحكمة مأخوذة من الحَكمة ، وهى اللجام الذى يُوضَع فى حَنَك الجواد ، فيسهل التحكم فيه وضبط حركته كما أريد، فأرخى له ليسرع ، وأجذبه فيقف .

وقالوا : الحكمـة أى النبوة وسداد الرأى فى الأمور ، وقـد امتاز كل من سيدنا داود وسـيدنا سليمان بالذات بأنْ جـمعَ اللهُ لهما المُلْكَ والنبـوة ؛ لذلك رأينا المـخـالفيـن لهمـا (فطسـانين) لا وجـودَ لهم ، ولا أثر ؛ لأن الملك يطمس عُنْف المخالف .

---

(١) هذا على قول من قـال إن الهاء فى (له) عائدة علـى الله عز وجل ، أما القـائلون بعودها على داود فقالـوا : (أوَّابٌ) أى مطيع لداود . فتأتيه الطيـر وتسبح معه . وهو قـول قتادة ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٥٣/٧) وعزاه لعبـد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وانظر ابن كثير (٣٠/٤) ، والقرطبى فى تفسيره (٥٨٠٢/٨)

ومعنى ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ﴾ [ص] أى : علم الفَصْل فى الخصومات ، والفصل لا يكون إلا فى متجادلين ، يأتى هذا بحجة وهذا بحجة ، وعلى الحكَمِ بينهما أنْ يفصلَ بينهما ، بأنْ يُنصِفَ الحق ويبطل الباطل .

وإنْ كانت مسألة فصْل الخطاب هذه اعترض عليها ؛ لأن سيدنا سليمان فيما بعد عدّل حكماً لأبيه ، وهذه تحسب أيضاً لسيدنا داود ؛ لأن الذى عدل حكمه هو ولده ، والإنسان لا يحب لأحد أنْ يتفوَّق عليه إلا ولده ؛ لذلك سُرَّ بها سيدنا داود .

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ (١) ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ (٢٢) ﴾

حين يستفهم منك بقوله ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ (٢١) ﴾ [ص] فاعلم أنه دليلٌ على أن هذا الشىء كان يجب أنْ تعلمه ، تقول : هل أتاك كذا وكذا يعنى : أتاك ومثله قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان]

المعنى : أتى على الإنسان وقت من الدهر لم يكُنْ شيئاً مذكوراً إنما أتى الأسلوبُ بصيغة الاستفهام لتأتى أنت بالمراد ، فيكون إقراراً منك ، والإقرار لا يُكذَّب على خلاف الإخبار بالمراد فالإخبار يحتمل

---

(١) جاءت (تسوروا) هنا معبرة عن الجمع تبعاً للفظ (الخَصْم) الذى يطلق على الواحد والاثنين والجماعة .

عقلاً الصدقَ ويحتمل الكذبَ .

أو : أن هذا الأسلوب للتشويق للنبأ . والنبأ ليس هو مطلق الخبر إنما هو الخبر العظيم الذى ينبغى أنْ يُعلم لذلك يُهتم به ، فليس من قبيل النبأ أنْ تقول مثلاً : أكلتُ اليوم كذا وكذا . لذلك حين يخبرنا الحق سبحانه عن أمر القيامة يقول : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) ﴾ [النبأ]

وكلمة ﴿ الْخَصْمِ (٢١) ﴾ [ص] تطلق على المفرد والمثنى والجمع بنوعيه تقول : هذا خصم وهذه خصم ، وهؤلاء خَصْمٌ .. الخ وقد تُثنَّى مع المثنى كما فى : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ (١٩) ﴾ [الحج] لذلك جاءت بعدها ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] بصيغة الجمع .

ومعنى تسوروا : تسلقوا ، لأنهم لم يدخلوا من الباب ، إنما دخلوا من أعلى السور ، وهذا دليل على أن هؤلاء الخَصْم لم يأتوا من جهة الأرض ، إنما من جهة السماء ، فكانوا جماعة من الملائكة فى صورة بشر ، والمحراب : هو المكان المقدَّس الذى يجعله الإنسان لخُلْوته ومناجاته لربه ، ومن ذلك قوله تعالى فى السيدة مريم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران] ونحن نُسميه الآن القبلة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ (٢٢) ﴾ [ص] الإشكال هنا كيف يفزع سيدنا داود لرؤية هؤلاء وهو فى حضرة الله وفى حضانته ، وبين يديه يصلى ويتعبَّد ويُسبِّح ؟ وكيف أن الحق سبحانه يُفزع عبده ونبيه ، وهو بين يديه ؟!!

قالوا : الفزع على قسمين : فزع يُحرِّك قلبك بالجزع ولكن قالبك سليم لم يتأثر . وفزع آخر ينضح من القلب على القالب فيتأثر حتى

تظهر عليه علامات الفزع .

وقد كان فزع سيدنا داود من النوع الثانى ، لماذا ؟ قالوا : لأن الملائكة حين رأوْه على هذه الحال قالوا له ﴿لا تَخَفْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] ولا يقولون له ذلك إلا إذا انفعلَ قالبُه انفعالاً يدلُّ على الخوف ، فهذا دليل على أن الفزع تجاوز قلبه إلى قالبه .

ونفهم أيضاً من قولهم له ﴿لا تَخَفْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] أنهم ليسوا من رعيته ، وليسوا من البشر ؛ لأن واحداً من الرعية لا يجرؤ أنْ يقول للملك : لا تخف .

وقولهم : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] يدلُّ على اتفاقهم رغم خصومتهم ، فقد تكلَّموا جميعاً فى نَفَس واحد ، أو تكلَّموا بالترتيب ، أو تكلم واحد منهم وأمَّن الباقون ، والمُؤمِّن أحد الداعين ، فكونهم تكلموا بهذه الصورة المنظمة وأيديهم فى أيدى بعض ، فهذا يدلنا على أنه لا خلافَ بينهم ، ولا يطمع أحد منهم فى الآخر ، إذن : ما المسألة ؟ وما حقيقة مجىء هؤلاء على هذه الصورة ؟ لا بُدَّ أنّ لهم هدفاً آخر .

ومعنى (بغى) حاول أنْ يطغى وأنْ يظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] هذا القول منهم دلَّ على جراءتهم ، ودلَّ على أنهم من ملأ آخر غير البشر من الملائكة . ومعنى ﴿وَلا تُشْطِطْ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] يعنى : لا تبتعد عن الحق ولا تَجُرْ.

﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] اهدنا أى جميعاً دون تمييز بين واحد وآخر ، فهم خصم لكن سواء بدل قولهم ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴿٢٢﴾﴾ [ص] دون أن يميزوا الباغى من الذى بُغِى عليه ، والصراط هو الطريق المستقيم ، وسواء الصراط يعنى وسطه ، والمعنى : دُلَّنا على

الحق أو عين الحق ، ثم أخذوا فى عرض قضيتهم :

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾

نلحظ فى كلمة (أخى) لَوْناً من التحنين ، فمع وجود الخصومة لكن هو أخى كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] وفى أعنف ألوان العداوة ، وهى الثأر يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة] يريد أنْ يُحنِّن قلب ولىِّ الدم على القاتل .

القضية : ﴿ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] كلمة نعجة تطلق فى اللغة ثلاثة إطلاقات : أنثى الضأن ، أو الشاة الجبلية ، أو البقرة الوحشية ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : اجعلها لى أكفلها أنا فعندى غنم كثيرة ، فاجعلها ترعى مع غنمى ، فيكفينا راعٍ واحدٌ بدل أنْ تكلف نفسك راعياً لها ، والمعنى أن كفالتها سهلة علىّ لا تكلفنى شيئاً .

﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : غلبنى بالحجة والجدال ، ومعلوم أن القاضى يحكم بالحجة والبرهان ، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، فلعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أُقطع له قطعةً من النار »[1] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) عن أم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

فالمعنى أن أخى غلبنى بحديثه وتمكُّنه من حجته ، وأنا أشعر بالظلم ونفسى غير راضية ؛ لذلك جئتُكَ أرفع أمرى إليك لتحكم فيه ، وهكذا سمع داود - عليه السلام - دَعْوى الأول ولم يسمع الطرف الآخر ، وهذه زلة من زلات القاضى .

لذلك قال أهل المعرفة فى هذه المسألة : إذا جاءك صاحب دَعْوى وقد فُقِئت عينه فلا تحكم له حتى تسمعَ من الآخر ، فلعله قد فُقِئت عيناه .لقد بادر سيدنا داود بالحكم ، فقال :

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] نسب واحداً إلى الظلم ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] أدخل شيئاً فى حيثية الحكم وليس من حيثية الحكم ، فهل لو لم يكُنْ له تسع وتسعون نعجة ، أكان يحلُّ له أنْ يقول لأخيه : اعطنى نعجتك ؟

إذن : هذه المسألة لا دخلَ لها فى القضية لأنه ظالم ، وإنْ لم يكن له تسعة وتسعون . إذن : سيدنا داود أولاً حكم قبل أنْ يسمع من الطرف الآخر ، ثم أدخل فى حيثية الحكم ما ليس له دَخْل فيه ، وهو قوله : ﴿ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص] فربما هم حاقدون عليه أن يكون عنده تسع وتسعون .

وقولـه تعـالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ [ص] أى : الشركـاء ﴿ لَيَبْـغِي بَعْـضُـهُـمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَـمِلُوا الصَّـالِحَـاتِ ﴾ [ص] المـعنى : أن هذه القضـية ليـستْ قضـية فـذَّة ولا مفردة ، إنمـا هى ظاهرة كثـيرة الحـدوث بين الشركـاء ، فكثيـراً ما يبغى شـريكٌ على شريكه ويظلمه مع أنهم ما تشاركوا إلا لمحبة بينهما واتفاق وتفاهم ، لكن هذا كله لا يمنع مـيل الإنسـان إلى أنْ يظلم ، ومـا أشبـه هؤلاء بالمقامـرين تراهم فى الظاهر أحبَّة وأصدقـاء ، فى حين أن كلاً منهم حريصَ على أخْذ ما فى جيب الآخر .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى أن هذه المسألة ليستْ على إطلاقها ، إنمـا هناك نـوع آخـر من الشـركـاء لا يظلم ، فـمَـنْ هم ؟ هم الذين استثناهم الله بقوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [ص] لكنهم قليلون ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص] أى : أقلّ من القليل أو قليل جداً .

والنبى ﷺ يحكى عن ربه عـز وجل فى الحديث القـدسى : « أنَا ثَالثُ الشَّـريكيْنِ مَالم يخُنْ أحـدهما صـاحبـه ، فإنْ خان خـرجتُ من بينهما »[(١)] .

يعنـى : إنْ تسـرَّب الظلم والخيـانة إلى الشركـة خرج الله تعـالى منها ، فمُحِقَتْ بركتها ، وحَلَّ بها الخراب والخسران .

---

(١) أخـرجـه أبو داود بهـذا اللفظ فى سننه (٣٣٨١) كـتـاب البـيـوع . باب فى الشـركـة عن أبى هريرة . قال شمس الحق فى شـرحه (عون العبود ٩/ ١٧٠) « شركـة الله تعالى إياهما على الاستعـارة ، كأنه تعالى جعل البـركة والفضل والربح بمنزلة المال المـخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثـهما ، وجـعل خيانة الشيطان ومـحقه البـركة بمنزلة المال المـخلوط وجعله ثالثـهمـا » ، أخرجـه الدارقطنى فى سننه (كـتاب البـيوع - حـديث ١٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى لفظ أبى حيان التيمى (حديث ١٤٠) : « يد الله على الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خان أحدهما صاحبه رفعها عنهما » .

ثم يقول تعالى مبيناً حال سيدنا داود بعد أنْ مَرَّ بهذه القضية : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ (٢٤) ﴾ [ص] يعني : اختبرناه وابتليناه ، وظن هنا بمعنى علم وأيقن ، وكأن الحق سبحانه يُعلِّم داود علم القضاء وأصوله فامتحنه بهذه المسألة ، فكانت بالنسبة له (مطب) في أمور ثلاثة : **الأول :** أنه خاف وفزع وهو في حضرة ربه من خَلْق مثله يقبلون عليه ، وظن أنهم سيقتلونه . **الثاني :** أنه حكم للأول قبل أنْ يسمع من الآخر . **الثالث :** أنه أدخل في حكمه حيثية لا دخلَ لها في المسألة .

وكلمة ﴿ فَتَنَّاهُ (٢٤) ﴾ [ص] أي : اختبرناه من قولهم : فتن الذهب على النار ليُخلِّصه من العناصر الخبيثة فيه .

فلما علم سيدنا داود بذلك لم يتأبَّ ، إنما استغفر ربه من كل ذلك ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ .. (٢٤) ﴾ [ص] أي : سقط على الأرض سقوطاً لا إرادياً ، والسقوط هنا يناسب السجود لا الركوع ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) ﴾ [الإسراء] فكلمة خر أعطتنا المعنيين يعني : خرَّ ساجداً حالة كونه راكعاً قبل أنْ يسجد ومعنى ﴿ وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص] رجع إلى الله بالتوبة .

ثم تأتي النتيجة : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ (٢٥) ﴾ [ص] أي : ما كان منه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ (٢٥) ﴾ [ص] قُرْبَى ومنزلة ، ويكفي أنْ تُسبِّح معه الجبال ، ويُردِّد معه الطير ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾ [ص] حُسْن مرجع ومردّ .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) ﴾

كلمة ﴿خَلِيفَةً (٢٦)﴾ [ص] هنا إما خليفة لله فى الأرض خلافة عامة لأن الإنسان كله خليفة لكنه عليه السلام عمدة على الخليفة ، أو خليفة الأنبياء فى حَمْل رسالاتهم إلى الناس ، وما دام هو مستخلفاً فهو موظف إنْ أحسنَ الوظيفة دامتْ له ، وإنْ لم يحسن نُزِعَتْ منه .

فآفة الإنسان أنه إذا ما استجابتْ له الأشياء وطاوعتْه الأسباب يظن أنه صار أصيلاً فى الكون ، ونسى أنه مُسْتخلف غير أصيل ، إنما لو ظَلَّ على ذكْر لخلافته فى الأرض ، وأنه من الممكن أنْ يُعزلَ عن الخلافة فى أىِّ وقت لَظلَّ مؤدباً مع ربه الذى استخلفه : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

وقوله تعالى ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (٢٦)﴾ [ص] يعنى : ما دُمْتَ خليفة لله فى الأرض تعمرها بالأحكام وتقيم فيها الحق ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ (٢٦)﴾ [ص] وهذه نصيحة غالية لكل مَنْ يحكم بين الناس ، فالحق أمامك نبراس يهديك ، فضعْهُ فى موضعه أياً كان ، ولا تتبع هواك لأن الرأى يُفسده الهوى .

لذلك وقف بعض المفكرين أمام قول الله تعالى عن سيدنا رسول الله ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم]

قالوا : ما دام هو وَحْى يُوحَى ، فلماذا يُعدِّل الله له كما فى قوله سبحانه : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ (١)﴾ [التحريم]

وقوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢)﴾ [عبس]

قالوا : إن الحق سبحانه لا يعدل لرسوله ، إنما يخبر أنه لا هوى له يجعله يميل عند الحكم ، فهو ﷺ يدخل على المسألة بدون هوى ، سواء أكان الأمر من عند الله أو من المفوَّض له أنْ يشرع فيه .

والحق سبحانه حينما أراد أنْ يحدد مهمة رسوله ﷺ حدَّد مهمة كتابه بأنه كتاب مُعجز ، ويحمل أصول المنهج لا فروعه ، وأنه مهيمن على غيره من الكتب السابقة ، لأن الكتب السابقة عليه أثبتَ الله أنها بُدِّلَتْ وحُرِّفت ، فلم يأمن عليها المؤمنين بها كما قال سبحانه :
﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

ومعنى استحفظوا : طُلب منهم حفظه وحفظ منهجه ، فحفْظ الكتاب المنزَّل كان تكليفاً والتكليف عُرضة أَنْ يُطاع وأنْ يُعصَى ، وهؤلاء عَصَوْا وبدَّلوا وحرَّفوا ، كما قال الله ﴿وَنَسُوا حَظًّا[1] مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ (١٣)﴾ [المائدة] والذين لم ينسوا حرَّفوا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ (١٣)﴾ [المائدة] ومنهم مَنْ جاء بكلام من عند نفسه ، وأدخله في كلام الله ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾ [آل عمران]

إذن : مثل هؤلاء لا يُؤتَمنون على حفظ كتاب الله ، وقد ثبت ذلك بهذه التجربة ، لذلك لم يجعل الحق سبحانه حفْظ القرآن إلى المؤمنين به ، إنما تكفَّل سبحانه بحفظ القرآن ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

ولأن الحق سبحانه جعل لنبيه محمد هذه المنزلة أراد أنْ يُبينها ،

(١) الحظ : النصيب . ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص] أي : صاحب نصيب عظيم من الخير . [القاموس القويم ١٦١/١] .

فقال : « مَثَلى ومثَل الأنبياء من قَبْلى كَمَثَل رجل بنى بيتاً فحسَّنه وأجمله ، إلا موضعَ لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاَّ وُضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »(١) .

والحق سبحانه يُبيِّن منزلة رسوله فى إكمال الأديان ، فيقول ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. ۝ ﴾ [المائدة] ليس هذا فحسب ، إنما يعطيه مهمة أخرى ، هى صيانة هذه الأديان به وبالعلماء الذين يخلفون مَنْ بعده ، لذلك قال سبحانه : ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ۝ ﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد أنه بلغنا ، وعلينا نحن أنْ نمد رسالة رسول الله ، فنشهد أننا بلغنا الناس من بعده . لذلك يحذرنا رسول الله ﷺ من طائفة تأتى ممَّن لا يؤمنون بسنته يقولون : علينا بكتاب الله فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه .

وحين تتتبع لفظ الطاعة فى القرآن تجد أنه أتى على صور متعددة.

فمرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۝ ﴾ [التغابن] بتكرار الأمر بالطاعة .

ومرة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۝ ﴾ [آل عمران] بدون تكرار لفعل الأمر .

ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۝ ﴾ [الأنفال]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فتكرار الأمر بالطاعة مرة لله ومرة لرسول الله حين يكون لله أمر فى القضية الإجمالية مثل الصلاة مثلاً ، ولرسول الله أمر فى تفصيل كيفية الصلاة . فإنْ توارد أمر رسول الله مع أمر الله جاء الأمرَ واحداً بدون تكرار ، فإنْ كان الأمر خاصاً برسول الله ، ولم يردْ فيه من الله شىء قال : أطيعوا الرسول .

لذلك تلحظ العظمة فى الأداء فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩) ﴾ [النساء] ولم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، لماذا ؟ ليلفتنا إلى أن طاعة أُولى الأمر من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله يعنى ليس لهم طاعة خاصة بهم ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقوله تعالى ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ (٢٦) ﴾ [ص]

أى : حكماً عاماً للناس جميعاً ليس خاصاً بك ، وهنا لا بُدَّ أنْ نذكر قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) ﴾ [النساء]

ولهذه الآية قصة ، فقد نزلت فى كل من زيد بن السمين ، وكان رجلاً أميناً مع أنه يهودى ، وفى قتادة بن النعمان وطعمة بن أبيرق، فقد كان لقتادة دِرْع سرقه ابن أبيرق واتهم فيه اليهودى ابن السمين ، وبعد استقصاء الأمر وجدوا الدرع عند ابن أبيرق[1] المسلم وظهرت براءة اليهودى .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٤٢٣٨) : طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصارى . ذكره أبو إسحاق المستملى فى الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً ، وقال أبو موسى (أظنه المدينى) : « قد تُكلم فى إيمان طعمة » .

وهنا أسرع الناس إلى رسول الله حتى لا يحكم على المسلم ، فتكون سبة فى حق المسلمين أمام اليهود ، فتردَّد رسولُ الله فى المسألة ، فأنزل الله عليه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ (١٠٥) ﴾ [النساء] أى : الناس جميعاً اليهود والنصارى والمسلمين وفعلاً حكم رسول الله على المسلم وبرأ ساحة اليهودى ولم يُبَال أحد لا رسولُ الله ولا المسلمون بأنْ ينتصر اليهودى على المسلم ؛ لأن الحق أعزُّ من هذا ومن ذاك .

وحين رأى اليهودُ رسولَ الله يحكم لليهودى ويدين المسلم أقبلوا على الإسلام ، وأسلم منهم كثيرون على رأسهم (مخيريق)[1] الذى أعلن إسلامه ، ووهب كل ماله لرسول الله ، ثم خرج للغزو لما أعجله النفير قبل أن يصلى لله ركعة واحدة ، وقُتل (مخيريق) فى هذه الغزوة شهيداً ، فقال رسول الله ﷺ عنه : « نِعْمَ مُخيريق ، دخل الجنة ولم يُصلِّ لله ركعة » .

هذا معنى ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ .. (٢٦) ﴾ [ص]

ومعنى ﴿ خَلِيفَةً .. (٢٦) ﴾ [ص] أن الله استخلفنا جميعاً فى الأرض ، وجعل للمستخلفين خليفة يدبر أمرهم ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بمنهج من استخلف الكُلَّ . أو خليفة للرسل الذين سبقوه يُنبه إلى ما انطمس من مواكب الحق فى الخَلْق ، والحكومة بين الناس

---

(١) هو : مخيريق النضرى الإسرائيلى من بنى النضر ، وقيل : من بنى قينقاع . كان عالماً أسلم واستشهد بأحد . كان أوصى بأمواله للنبى ﷺ فجعلها النبى صدقة . وقال عنه ﷺ : « مخيريق سائق يهود ، وسلمان سائق فارس ، وبلال سائق الحبشة » انظر تمييز الصحابة لابن حجر (ترجمة رقم ٧٨٤٣) .

لا تكون إلا عن اختلاف بينهم ؛ لأنهم لو لم يختلفوا ما تحاكموا ، وما لم يختلف فيه الناس فلا دَخْلَ للحاكم فيه إلا أنْ يكونوا قد اختلفوا مع الحق الأعلى ، فعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل .

وكلمة ﴿ بِالْحَقِّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص] الحق يعنى : الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا لله تعالى ، أما الإنسان فأموره تتغير ولا تستقر على حال ، ونحن منها أغيار ، لكن الحكم الذى يحكم حركة الإنسان ما دام من الله فهو ثابت لا يتغير ، وما دام الله تعالى قد أتمَّ النعمة وأكمل الدين ورضى الإسلام ، فلا استدراك لأحد عليه فى شىء من الأشياء ؛ لأن الاستدراك طَعْنٌ فى استقصاء الله لحكمة الحكم .

والحق يقابله الباطل ، وقد يعلو الباطل فى بعض الأحيان ، لكن يظل الحق هو الحق حتى يعلوَ فى نهاية المطاف . والحق سبحانه يترك الباطلَ يعلو فى بعض الأحيان لحكمة ، هى أن يعضَّ الباطلُ الناسَ ، ويكويهم بناره لتظهر لهم حلاوة الحق ، فإذا لَذَعهم مُرُّ الباطل فزعوا هم إلى طلب الحق .

إذن : فإنْ عَلاَ الباطل فالحق أعْلَى ، وقد ضرب لنا الحق سبحانه مثلاً يوضح هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[1] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

(١) أى : لا يُنتفع به ويُلْقى بعيداً ، أو يذهب ضياعاً كالجُفاء . [القاموس القويم ١/ ١٢٤] . والجفاء هو : ما نفاه السيل من الحطام . والجفاء : الباطل أيضاً . [لسان العرب ـ مادة : جفأ] .

إذن : فالحق ثابت ، وبهذا الثباتِ نفهم أن المناهج الإلهية ما جاءت لتجعل كلمة الله هى العليا ، إنما جاءت لتجعلَ كلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠)﴾ [التوبة] فلم يعطف الثانية على الأولى ، ولم يقل : وكلمة الله هى العليا . لأن كلمة الله ليستْ جعلاً ، وإنما هى شىء ثابت ، وهى حَقٌّ أزلاً .

ثم يقول سبحانه مخاطباً سيدنا داود : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٦)﴾ [ص] الهوى : مَيْلُ النفس إلى شىء تهواه بغَضِّ النظر عن منهج يحكمه ، والهوى يختلف باختلاف الناس ، حتى الأصدقاء الحميمون المتلازمون فى المأكل والمشرب والميول إذا ذهبوا لشراء شىء اشتروا أشياء مختلفة وألواناً متباينة .

نعم ، هناك جامعة تجمعهم هى الصداقة ، لكن الأهواء مختلفة ، فإذا كان هواى يخالف هواك ، فلا بُدَّ أنْ نرجع إلى شىء لا نختلف فيه ، فإنْ كان هذا الشىء الذى لا نختلف فيه من أعلى منّا فلا غضاضة ، الغضاضة تأتى حين تخضع لمن يساويك وتحكّمه ، وتنتهى إلى رأيه .

لذلك الحق سبحانه يحكم هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

ونحن نفهم أن اختلاف الأهواء يفسد الحياة على الأرض ، لكن كيف يفسد السماء ؟ ولماذا بدأ بفساد السموات قبل الأرض ؟

قالوا : نعم ، لأن الفساد سيتعدَّى فسادَ الأرض ، ويفسد أيضاً السماء ، بمعنى أنه سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء ، وما دام سيفسد حكم الله المنزَّل من السماء وهو الحق ، وهذا فساد سابق

لفساد ما على الأرض .

لذلك لم يقولوا : ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢)﴾ [الإسراء] هذا هوى ، ولو أجابهم الله فيما طلبوا لَفسدتْ فعلاً السموات والأرض ، فمن رحمة الله بالخلْق أنْ عَصَم أهواءهم فى المناهج النظرية التى تحكم الناس فيما يختلفون فيه ، أما الشىء الذى لا يُختلف فيه فتركه لكم تربعون فيه كما تشاءون .

فإنْ قلتَ : فلماذا ترك لهم الأمور التى لا اختلاف فيها ؟ نقول : لأنهم سينتهون فيها إلى حَقٍّ واحد مجْمع عليه ، وهذا ما نراه مثلاً فى العلوم المادية التجريبية ، فهى مجال مفتوح للجميع ، الروس مثل الأمريكان ، بل نراهم يجعلون على هذه العلوم حواجز حديدية حتى لا تصل إلى غيرهم ، والبعض يتلصَّص ويسرق ما وصل إليه الآخرون .

إذن : فالشىء الذى سنتفق فيه لا تتدخَّل فيه السماء ، وهذه المسألة حكمها سيدنا رسول الله ، وأعطانا مثالاً فى نفسه ﷺ فى مسألة تأبير[1] النخل ، فلما اقترح عليهم عدم تأبير النخل فسد فى هذا العام ولم يثمر ، فقال ﷺ : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[2] .

لماذا ؟ لأنكم ستصلون بالتجربة إلى شىء واحد ، تتفقون عليه وتسرقونه من الآخرين ، أما فى الأهواء فهى مختلفة من واحد لآخر ، ويحصل منها الصدام بارداً كان أو حاراً .

---

(١) تأبير النخل : تلقيحه وإصلاحه . والنخل لا تُؤَبَّر إلا بعد ظهور ثمرتها وانشقاق طلعها وكوافرها من غضيضها . [لسان العرب ـ مادة : أبر . بتصرف] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم».

ثم يُبيِّن الحقُّ سبحانه العلَّة من النهى عن اتباع الهوى ، فيقول : ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢٦) ﴾ [ص] يعنى : لا تتبع الهوى ، لأن اتباع الهوى يُضلّك عن سبيل الله ، وقد أوضح لنا النبى ﷺ هذه المسألة حين خَطَّ للصحابة خطاً مستقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً متعددة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

وتفرُّق السُّبُل ينشأ من الاختلاف مهما كان يسيراً ، (فالمللى) الواحد يُفرِّق السبل ، ولو رسمتَ خطَّيْن من مركز واحد ومال أحدهما عن الآخر (مللى) واحد لنتج عن ذلك تباعدهما بالتدريج كلما بَعُدَا عن المركز ، أرأيتَ مثلاً المحولجى الذى يقوم بتحويل مسار القطار ماذا يفعل ؟ إنه يحرك طرف القضيب الذى لا يتجاوز سمكه خمسة (مللى) متر ، فينتج عن هذه الحركة تحويل مسار القطار من الإسكندرية إلى أسوان .

وهكذا تتفرق السبل ، وينشأ عن الاختلاف اليسير اختلاف عظيم ، فالتباعد الهيِّن البسيط عند المركز ينتج عنه تباعد واسع كلما طالت المسافة ، وكما يكون التفرُّق فى السُّبُل المتعددة يكون التفرق كذلك فى الطريق الواحد حين يكون واسعاً يسمح بالتفرق .

فمثلاً الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية طريق واسع من اتجاهين ، ويمكنك أنْ تسير فى أحدهما بطريقة ملتوية تميل مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، فينشأ عن ذلك طول الطريق ؛ لذلك قالوا سواء السبيل يعنى : أن تجعل الجانبين على سواء .

ثم يوضح الحق سبحانه عاقبة الضلال والانحراف عن جادة الطريق ، فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا

نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص]

إذن : فالغفلة عن هذا اليوم ونسيان العاقبة هو سبب الوقوع في العذاب الشديد ، فلو ذكر الإنسانُ الجزاءَ على السيئة ما فعلها ، ولو ذكر ثوابَ الحسنة مَا غفل عنها ، ولا تكاسل عن أدائها .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا(١) ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) ﴾

يعنى : ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، بل خلقناهما بالحق ، لذلك تجدها ثابتة لا تتغير ، كما قال سبحانه : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس] ولو كان هذا الخَلْق على غير ذلك لحدثَ صدام فى كل دقيقة وفى كل لحظة بين هذه الأجرام والأفلاك .

ومعنى ﴿ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٢٧) ﴾ [ص] أى : أنهم يظنون أنها خُلقَتْ باطلاً ، ذلك ظَنُّهم وهو مجرد ظن ، ولو جاء الخَلْق كما يظنون ما كان خَلْقاً ، لأن الخَلْق لا بُدَّ أن يكون له غاية عند الخالق قبل أنْ يخلق ، كما قلنا أن الذى اخترع الغسالة أو الثلاجة قبل أنْ يخلقها حدَّدَ لها مهمتها ، لا أنه خلقها. وقال : انظروا فيما تصلح هذه الآلة .

فالذى صنع هو الذى يحدد الغاية ، وهو الذى يضع قانون الصيانة لصناعته . لذلك نقول : إن ضلالَ العالم كله ناشىء من أنهم يريدون أنْ يقننوا بأنفسهم غاية ما صنع الله ، ويريدون أنْ يضعوا

---

(١) الباطل : هو العبث الذى لا فائدة منه ، وهو ضد الحق . ولا خير فيه . [القاموس القويم ١/٧٢] .

لخَلْق الله قانون صيانته ، وأنْ يتجاهلوا ما وضع الله ، لا رد الأمر إلى صاحبه كما تفعل فى أمور الدنيا ، فكل صانع أعلم بما يُصلح صَنْعته .

ثم يأتى هذا التهديد : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص] كثيراً ما يُهدِّد الخالق سبحانه خَلْقه بالنار ، ويتوعَّدهم بالعذاب ، والبعض يرى فى ذلك لوناً من القسوة ، والحقيقة أنها لوْنٌ من ألوان الرحمة لا القسوة ، فمن رحمة الله بنا أنْ يعظم الذنب ، وأنْ يُظهر العقوبة ، ومن رحمته بنا أنْ يضعَ الجزاء قبل أنْ يقع الذنْب ؛ لأنك حين تستحضر الجزاء ترتدع ولا تفعل .

إذن : التهديد والوعيد لحكمة .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه جزاءَ الكافرين فى النار أراد سبحانه أنْ يذكر المقابل ، وبضدِّها تتميز الأشياء ، أراد سبحانه أنْ يعقد لنا هذه المقارنة بين الكافرين والمؤمنين الذين استقاموا على منهج الحق ، وساروا على الصراط ، وسلِم الناسُ من أيديهم ومن ألسنتهم ، وأشاعوا الأمن وأشاعوا المحبة ، كيف إذن نسوِّيهم بالكافرين المفسدين ؟

وفى هذا إشارة من الحق سبحانه كأنه يقول لنا : إياكم أنْ تُسووا بين هؤلاء وهؤلاء ، إياكم أنْ تأخذكم بالمفسدين الظالمين رحمةٌ ؛ لأنكم إنْ رأفتم بهم فقد سَوَّيتُم بينهم وبين المؤمنين .

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين ونقول لهم : نعم لقد انتقمتم من خصومكم الرأسماليين والإقطاعيين ، وفعلتم بهم الأفاعيل ، لكن ما بال الذين ماتوا منهم قبل أنْ تدركوهم وتنتقموا منهم ؟ لا شكَّ أنهم ظلموا ثم ذهبوا دون أنْ يُعاقبُوا .

إذن : كان لا بُدَّ أنْ تعترفوا بيوم آخر يُقتصّ فيه من هؤلاء الذين لم يُقتص منهم فى الدنيا ، وإلاَّ سوَّيْنَا بين المحسن والمسيء .

وقال : ﴿ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ .. (٢٨) ﴾ [ص] لأن الله تعالى خلق الأرضَ على هيئة الصلاح ، فإنْ لم تُزدْها صلاحاً يريح الناس ويسعدهم ، فلا أقلَّ من أنْ تُبقى عليها كما هى لا تفسدها ، وأوجه الإصلاح فى الكون كثيرة ، ومثَّلْنا لذلك ببئر الماء ، إما أنْ تتركه على حال يستفيد منه الناسُ كما هو ، وإما أنْ تزيده حسناً ، كأن تبنى حولَه سوراً يحميه ، أو تجعل عليه آلة لرفع الماء .. الخ .

أما أنْ نلقى فيه بالقاذورات فهذا هو الفساد .

وقلنا : لو دخلت بستاناً أُنُفاً أى : لم يدخلْه أحد قبلك تجده على طبيعته ، لا ترى فيه شجرة كُسِرت ، ولا تشُم فيه رائحة كريهة ، رغم أن فيه حشرات وحيوانات وفضلات .. إلخ لكن إنْ دخلها الإنسان ظهر فيها الخَلَل والفساد ، لماذا ؟

لأنه لا يبقى على الصلاح الذى خلق اللهُ الطبيعة عليه ؛ لأنه دخلها بغير منهج الله ، ولو دخل بمنهج الله لاستقامتْ الأمور .

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾ [ص] الفاجر هو الفاسق الذى يفسق عن القانون الذى يحميه ويحمى المجتمع كما تفسق الرطبة من قشرتها ، والحق

سبحانه قبل أنْ يحمى المجتمع من الفاسق حَمَى الفاسق من المجتمع ، والفاسق واحد ، والمجتمع كثير .

إذن : فالفرد هو المستفيد من منهج الحق وهو الرابح .

وأيضاً ، الإنسان حين تمرّ المسألة بخاصة نفسه يلتفت إلى الحق قَصْراً عنه ، لأنه لن يجد حمايةً إلا فى الحق ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لطلاب الجامعة قلنا : هَبْ أن ثلاثةً من الشباب فى دور المراهقة اثنان منهم ساروا - كما نقول - على حَلِّ شعرهم . والآخر استقام على المنهج حتى أنهما كانا يسْخران منه ، ويقولان عنه : فلان هذا صللى فلان جردل .. قفل .. إلخ ما نسمع من هذه الكلمات .

وصادف أنْ كان عند أحدهما أخت ، بالله لمن يُزوِّجها ؟ لصاحبه المنحلّ ؟ أم لصاحبه الملتزم المستقيم ؟ لا شكَّ أنه يفضل الثانى ، لأنه يأمنه ويطمئن إليه ، إذن : لا بُدَّ أنْ يظلَّ الحق حقاً ، والفضيلةُ فضيلة ، ولا يمكن أنْ يستوى التَّقىُّ والفاجرُ .

ثم يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ليسليه ؛ لأن قصصَ القرآن جاء تسلية له ﷺ ، وتثبيتاً لفؤاده :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

الكتاب هو القرآن ، والمبارك هو الشىء الذى يعطى من الفائدة والخير فوق ما يُتصوَّر منه ، تقول : هذا الشىء نأخذ منه ولا ينقص ، نسميه مبروك كرجل يعيش على راتب محدود ، ومع ذلك تراه يُربِّى أولاده أحسن تربية ويعيش بين الناس عيشة الأغنياء ، فيقولون : إنه

رجل مبارك ، وأن الله يبارك فى راتبه القليل فيصير كثيراً ، لكن كيف يبارك الله في القليل ؟

قالوا : ينزل على القليل ، القناعة أولاً فيرضى صاحبها ، ثم يسلب المصارف فلا ينفق منها إلاَّ فى المفيد ، الناس يظنون أنَّ الرزق هو المال ، ولا يدرون أن سَلْبَ المصارف لونٌ من ألوان الرزق ، وقلنا : إن الرزق رزقُ إيجابٍ بأنْ يزيد الدَّخْل ، ورزقُ سَلْب بأنْ تقلَّ المصارف .

ومثَّلْنا لذلك بالرجل يعيش من الحلال ، وحين يمرض ولده مثلاً يكفيه كوبٌ من الشاى وقرص أسبرين ، أما الذى يعيش من الحرام ويكثُر المال فى يده حين يمرض ولده لا بُدَّ أنْ يذهبَ به إلى أفضل الأطباء ، وينفق على شفائه أضعاف ما يُنفق الأول .

والقرآن مباركٌ ، وآياته مباركة من حيث الأحكام الظاهرية ، لأنه سيربى النفس على استقامة ، هذه الاستقامة لو نظرتَ إليها اقتصادياً تجد أنها لا تُكلِّفك شيئاً ، نعم الاستقامة لا تكلفك ، أمَّا الانحراف فهو الذى يُكلِّف ، لذلك قال ﷺ : « المؤمن يأكل فى مِعَىً واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] .

نعم الكافر يأكل كثيراً ليشبع ، أما المؤمن فتكفيه لُقيمات يُقمْنَ صُلْبه ، ثم هو لا يأكل إلا إذا جاع ، وإذا جاع صار أىُّ طعام بالنسبة له لذيذاً ، ولو كان الخبز الجاف والملح ، لذلك قال العربى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما . قال النووى فى شرحه لمسلم : « فى الرواية الأخرى أنه ﷺ قال هذا بعد أن ضاف كافراً فشرب حلابَ سبع شياه ثم أسلم من الغد فشرب حلاب شاة ولم يستتم حلاب الثانية . ومقصود الحديث التقليل من الدنيا والحث على الزهد فيها والقناعة ».

الحكيم : طعام الجائع هنيء . أما الآن فنراهم يجهزون قبل الطعام السَّلَطات والمشَهِّيات والمقبِّلات ، لماذا ؟ ليأكل الإنسان كثيراً ، يأكل حتى التخمة ، ثم بعد ذلك يحتاج إلى المسهِّلات والمهضمات .. إلخ .

وهذا ليس من صفات المؤمن ؛ لأن سيدنا رسول الله وضع لنا المنهج فى ذلك ، فقال : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع »[(١)] فهذا المنهج يراعى الناحية الاقتصادية ، ويوفر الخير والسعادة للكل : اقتصادياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، وأمنياً بدون تكلفة.

ثم إن القرآن مُبَاركٌ من ناحية أخرى ، فحين تتفاعل مع المنهج ، وحين تعشقه يُبيِّن لك الحق سبحانه ألواناً من الأسرار يتعجَّب منها غيرك ، ويفتح عليك فُتُوحات عجيبة ، ألم يتعجَّبْ موسى - عليه السلام - وهو نبىّ الله من عمل العبد الصالح ، والعبد الصالح عبد الله على منهج موسى ، ومع ذلك أمر الله موسى أنْ يتبعَ العبد الصالح ، وأن يتعلَّم منه ، لكن يتبعه بإخلاص وبعشق ، فلما اتبعه موسى بعشق وإخلاص تعلَّم منه الأعاجيب ، وهذا المعنى ورد فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال]

الفرقان هنا ليس هو القرآن ، بل هو فرقانٌ خاصٌّ لمن يتبع الفرقان الأول وهو القرآن ، ويصل به إلى درجة التقوى ، يعطيه الحق سبحانه فرقاناً خاصاً لأنه اتبع القرآن بإخلاص وبعشق .

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معد يكرب عن رسول الله : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

ومعنى ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِه .. (٢٩)﴾ [ص] والتدبُّر هو ألاَّ ننظر إلى الوسيلة نظرةً سطحية ، إنما ننظر بتفكُّر وتمعُّن وحساب للعاقبة ، ننظر إلى الخلفيات واللوازم لنستنبط ما فى الشىء من العبَر ، لذلك لما خرقَ الخضْر السفينة اعترض موسى ؛ لأنه نظر إلى سطحية المسألة والمنطق . يقول : إن السفينة السليمة أفضل من المعيبة ، إنما للعبد الصالح مقياسٌ آخر ، فهو لا يقارن بين سفينة سليمة وأخرى مخروقة ، إنما يُقارن بين سفينة مخروقة ولا سفينة أصلاً أيهما أفضل ؟ لأن الرجل الظالم كان سيأخذ السفينة ، إنْ كانت سليمة فَخُرقها هو الذى نجَّاها من هذا الظالم ، وبقيتْ السفينةُ لأصحابها ، هذا هو علم الملكوتيات والغيبيات التى يفيض الله بها على مَنْ يشاء من عباده الذين أخلصوا له سبحانه .

وقوله : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص] أى : أصحاب العقول الواعية ، وتأمل هنا أن الحق سبحانه يُنبِّه العقول ، ويُحرِّك الفهم إلى تأمُّل آياته فى الكون ، والمقابل لك أو الذى بينك وبينه صفقة لا ينبهك إليها ، إلا لأنه واثق أنك ستُقبل عليها وإلا أخفاها ودلَّسَ عليك ، كالذى يبيع لك سلعة جيدة تراه يشرح لك مزاياها ، ويدعوك إلى اختبارها ، والتأكد من جودتها ويُنبِّه عقلك إلى ما خَفِى عنك منها .

أما صاحب السلعة الرديئة فإنه يصرف نظرك عن عيوبها ، ويشغل عقلك بأمور أخرى ، حتى لا تتنبه إلى عيوب السلعة ، فمثلاً تدخل المحل لشراء حذاء مثلاً ، فإنْ كان ضيقاً يقول لك البائع : إنه يتسع بالمشى فيه ، وإنْ كان واسعاً سبقك هو بقول : أنا أرى أنه ضيق عليك قليلاً ، المهم عنده أن (يلف) عقلك حتى تشتريه .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يدعونا إلى تأمُّل آياته وتدبُّرها

والبحث فيها ، لأنه سبحانه واثق أننا حين ننظر وحين نبحث ونتأمل سنقتنع بها ، وسنصل من خلالها إلى الحق والصواب . ومع ذلك نرى البعض يقف أمام بعض المسائل الدينية يقول : هذه مسألة فوق البحث ولا عملَ للعقل فيها ، ونقول : لكن أمرنا بالتدبُّر والتفكّر والتأمّل فى الكون ، فلا مانع أنْ نبحث .

ثم يعود بنا السياق القرآنى مرة أخرى إلى سيدنا داود ، لا ليقصَّ علينا قصته ، إنما لأنه سيكون أباً لنبى آخر ، هو سيدنا سليمان عليهما السلام :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ[1] ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

من عجائب السياق القرآنى فى ذكر داود وسليمان أنهما يشتركان فى مسألة واحدة ، فلو نظرتَ إلى أول آية ذكرت سيدنا داود تجدها فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ .. ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة]

وآخر ذكر له هنا فى سورة (ص) : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص]

كذلك أول ذكْر لسيدنا سليمان ورد فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة . وقد يراد به مطلق القيام والاصطفاف .

وآخر ذكر له في سورة (ص) في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص]

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] الوهْب : عطاءٌ بلا مقابل ، فإنْ قُلْتَ : فالإنجاب كله يُعَدُّ عطاءً بلا مقابل ، نعم لكن الخالق سبحانه يهبك ذاتاً ، ثم يزيد عليها هبة أخرى هي الصفات التي تتوفر للذات ، مثل : الملك والحكمة وغيرها ؛ لذلك الذين يطلبون الأشياء على غير مَظانِّها من الأسباب يطلبونها بالهبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص]

وقوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم]

فسيدنا زكريا حين طلب من الله الولد كان شيخاً كبيراً ، وكانت امرأته عاقراً ، فالأسباب كلها ليست مُواتية وليست صالحة للإنجاب ، لذلك طلبها على سبيل الهبة من الله ، لا بالقانون والأسباب . وإنْ كانت الأسبابُ في ذاتها هبةً إلا أنها هبة عامة ، لكن ما يلحق الذات من الصفات الخاصة تُعَدُّ هبة خاصة .

وقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص] نعرف أن نِعْم تُقَالُ للمدح ، والمدح هنا بالصفة العقدية ، وهي العبودية لله تعالى . وسبق أنْ قلنا : إن كلمة عبد وعبودية كلمة ممقوتة عند الناس ولهم الحق في مَقْتها ، لأن العبودية للبشر يأخذ فيها السيدُ خَيْر عبده ، لكن العبودية لله تعالى يأخذ العبد من خير سيده ، فهذه هي العبودية الحقة التي تُعَدُّ عِزاً للعبد ورفعة .

لذلك لما تجلى الحق سبحانه على نبيه محمد ﷺ بنعمة الإسراء والمعراج ، قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فكأن

عبوديته لربه هى التى أوصلتْه إلى هذه المنزلة .

لذلك - ولله المثل الأعلى - الرجل صاحب الصنعة (أسطى) أو معلم وتحت يده صبيان ، يُقرِّب منهم المخلص الذى يُحسن صنعته ، ويجيد الخضوع له والطاعة والخدمة ، لذلك يختصه بمواهبه ، ولا يضِنُّ عليه بخفايا الصَّنْعة ودقائقها ، ويعطيه خصوصيات لا يعطيها لغيره .

ومع أنه ـ عليه السلام ـ كان ملَكاً إلا أن ربه مدحه بصفة العبودية ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ .. (٣٠) ﴾ [ص] ثم بيَّن لنا مَناط المدح بالعبودية ، فقال ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [ص] يعنى : رجَّاع إلى الله إنْ هفت نفسه هفوة أنَّبَ نفسه عليها ، ورجع إلى ربه ، ويتوب إليه ، لذلك يقول تعالى فى بيان التوبة : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ .. (١٧) ﴾ [النساء]

معنى ﴿ بِجَهَالَةٍ .. (١٧) ﴾ [النساء] يعنى : لم يخطط لها ولم يرتب للمعصية ، وإذا حدثتْ منه لا يفرح بها ولا يجاهر ، بل يحزن ويلوم نفسه ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

وضربنا مثلاً لهذين النوعين بطلاب العلم الذين كانوا يسافرون فى بعثات علمية إلى فرنسا ، فكان منهم المستقيم الملتزم بمنهج الله، لكن تفاجئه إحدى الفتيات المنحرفات ليلاً ، وتعرض نفسها عليه ، وتظل تغريه حتى يرتكبَ معها الفاحشة ، هذا فعلها بجهالة ودون قَصْد أو تدبير ، على خلاف الآخر الذى يسعى إلى الفاحشة ويتتبع عناوين أصحابها ، وهذا هو الذى يقصد المعصية ويسعى إليها .

وكلمة ﴿ أَوَّابٌ (٣٠) ﴾ [ص] يعنى : كثير الأَوْبة والرجوع ، فهى

صيغة مبالغة بمعنى رجَّاع إلى الحق ، فهو لم يفرح بالمعصية ، وإنما ندم عليها وتدارك خطأه وصوَّب طريقه ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ [ص]

العشيّ : ما بعد الظهر إلى المغرب ، وعرض عليه مثل العرض العسكرى الذى يستعرض فيه القائد جنوده وقواته . ومعنى ﴿ الصَّافِنَاتُ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [ص] جمع صَافن ، وهو الجَواد العريق الأصيل ، وتستطيع أنْ تلاحظ الجواد الأصيل من وقفته ، فهو لا يقف على أربع ، إنما على ثلاث فى رشاقة ، وكأنه على أُهْبة الاستعداد .

ومعنى ﴿ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ جمع : جَوَاد وهو القوى السريع ، فلما عُرِضَتْ على سيدنا سليمان الصافناتُ الجيادُ من خَيْله وقواته ، قال ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] قالوا : الخير هنا يُراد به الخيل ؛ لأن النبى ﷺ قال : « الخيل مَعْقُود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة »[1] .

وقال : « خَيْر ما ربيت فرس تُمسك عِنَانه ، حتى تسمع كل صيحة تطير إليها »[2] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٨٧) كتاب الزكاة (رواية ٢٦) أن رسول الله قال : « الخيل فى نواصيها - أو قال : الخيل معقود فى نواصيها - الخير إلى يوم القيامة » من حديث أبى هريرة . وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٥٠) من حديث عروة بن الجعد .

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « من خير معاش الناس لهم ، رجل ممسك عناق فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مظانَّهُ ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٨٩) كتاب الإمارة - باب فضل الجهاد والرباط (١٢٥) ، وكذا ابن ماجه فى سننه (٣٩٧٧) كتاب الفتن - باب العزلة بنحوه .

لذلك لما أمرنا ربنا أنْ نستعدَّ لأعداءِ الدين والمنهج ، قال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال] أى : قوة عامة . ثم خَصَّ الخيل ، فقال : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

فلما عُرِضَتْ الخيل على سليمان قال ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] يعنى : حباً ليس للتباهى والخيلاء ، كالذين يُرَبُّون الخيل للمظهر ودخول السباق وذياع الصيت ، إنما أحببتها حباً صادراً عن ذِكْر ربى وذكر منهج ربى ، الذى أمر بإعداد الخيل والرباط والقوة التى تستطيع أنْ تفرض منهج الله فى الأرض .

﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] الفاعل هنا مستتر ، والفاعل حين يأتى مستتراً لابد أنْ يكون له مرجع كما تقول : جاءنى رجل فأكرمتهُ يعنى : أكرمتُ الرجل المذكور .

وقوله : ﴿ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [ص] مشهود فى الشمس حين تغيب ، فالمعنى حتى توارت الشمس وغابت .

وقالوا[1] : إنه فاتته صلاة العشى لانشغاله باستعراض الخيل ، فلما فاتَتْه الصلاة ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ أى : الخيل ، أرجعوها إلىَّ ﴿ فَطَفِقَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ شرع ﴿ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص]

---

(١) قاله الحسن البصرى والكلبى ومقاتل ، وقال القشيرى : قيل ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر ، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٨٣٧/٨] وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن على رضى الله عنه قال : الصلاة التى فرَّط فيها سليمان عليه السلام صلاة العصر . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٧٧/٧] .

يعنى : يمسح على سُوق الخيل وأعناقها دلالةً على إكرامها والاهتمام بها ، وخصَّ السُّوق والأعناق من الخيل لأنها أكرمُ ما فيها ، فالأعناق بها الأعراف ، والسُّوق أداة الحَمْل والجرى ، والمعنى أنه سُرَّ منها فمسح بيده على السُّوق والأعناق .

بعض المفسرين[1] لهم رأى آخر ، قالوا : المسح هنا يُراد به أنه أراد قَتْلها وذبْحها ؛ لأنها أَلْهَتْهُ عن الصلاة ، وهذا الكلام أقربُ إلى الإسرائيليات ؛ لأن الخيل لم تشغله ، بل هو الذى شغلها وشغل الدنيا كلها من حوله ، فما ذنب الخيل ؟

والعجيب أن فى الإسرائيليات أشياء كثيرة تقدح فى نبوة الأنبياء فى بنى إسرائيل ، وكثيراً ما نراهم يتهمون أنبياءهم بما لا يليق أبداً بالأنبياء ، والعلة فى ذلك أن الذى يسرف على نفسه وهو تابع لدين يريد أنْ يلتمس فيمن جاءه بهذا الدين شيئاً من النقيصة ليبرر إسرافه هو على نفسه ، من هنا اتهموا أنبياءهم وخاضوا فى أعراضهم .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا[2] ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

(١) فى هذا الأمر قولان :

- جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها . قاله ابن عباس . أخرجه ابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم .
- قطع سوقها وأعناقها بالسيف . قاله أُبىّ بن كعب . أخرجه الطبرانى فى الأوسط والإسماعيلى فى معجمه وابن مردويه بسند حسن .

وفى المسألة تفصيل ، انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤) ، والقرطبى (٨/ ٥٨٣٧ - ٥٨٤٠) .

(٢) أكثر المفسرين على أن هذا الجسد هو شيطان ألقى الله شبه سليمان عليه واسمه صخر بن حرب صاحب البحر . قال ابن عباس : كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان . قاله القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٨٤١) . وراجع مناقشته لباقى الأقوال (٨/ ٥٨٤١ - ٥٨٤٥) . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٤) أن القائلين بهذا القول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم . وقد روى فى هذه القصة روايات كثيرة مطولة ، قال ابن كثير : « أرى هذه كلها من الإسرائيليات » .

الفتنة معناها الاختبار ، والفتنة فى ذاتها ليست مكروهة ، إنما المكروه أنْ تُخفق فيها وتفشل فى خوضها ، فماذا عليك لو فتناك . يعنى : اختبَرناك ونجحتَ فى الاختبار ؟ وأصل الفتنة من فتنة الذهب لتنقيته ، فالذهب منه المخلوط بمواد أخرى ، ونريده ذهباً إبريزاً صافياً فماذا نفعل ؟ نصهر الذهب فى النار ليخرج منه الخبث إلى أن يصير خالصاً نقياً ، كذلك تفعل الفتنة بالناس تمحِّصهم لتبين الجيد من الردىء . وقد فتن الله سليمان كما فتن من قَبْل أباه داود - عليهما السلام - فى مسألة المحراب .

ومعنى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص] الكرسى هو العرش الذى يجلس عليه الملك ، والجسد هو قالب الكائن الحى . ويقال لهذا القالب (جسد) إذا كان خالياً من الروح ، وللمفسرين فى هذه الآية عدة أقوال :

قالوا : إن سيدنا داود كان له ولد آخر غير سليمان ، إلا أنه كان ولداً فاسداً مثل ولد نوح ، فاحتال هذا الولدُ وقام بانقلاب على سليمان ، حتى أخذ المُلْكَ منه ، وظل مَلكاً مدة طويلة ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يعيد سليمان إلى مُلْكه ألقى هذا الولد الفَاسد على كرسى عرشه جسداً هامداً لا حركة فيه ، يعنى : بعد أنْ كانَ مَلكاً مُطاعاً مُسيطراً صار لا يسيطر حتى على نفسه وجوارحه . بعد ذلك خرجتْ عليه رعيته فقتلوه ، وجاء بعده سليمان .

وقالوا : إن سيدنا سليمان كان لديه جَوَارٍ كثيرات . فقال : سأطوف الليلة على سبعين جارية ، وآت من كل واحدة بولد فارس

يركب فرسه فى سبيل الله[1] ، يعنى : المسألة كلها كانت فى الخير وفى الله ، إلا أنه لم يقدم المشيئة ولم يقُلْ : إنْ شاء الله ، فلم تَلدْ منهن إلا جارية واحدة ، ولدتْ له جسداً لا حركةَ فيه ولا تصرُّفَ ؛ لأن المؤمن مُطالب بأنْ يقدم مشيئة الله إذا عزم على شئ فى المستقبل ، كما قال سبحانه : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف]

لأنك حين تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، فقد حكمتَ على فعل لا تملك عنصراً واحداً من عناصره ، فأنت لا تضمن بقاء نفسك إلى أنْ تفعل ، ولا تضمن تغيُّر الأحوال وتغيُّر الأسباب ، فحين تعلِّق فعلَك على مشيئة الله إنما تحفظ كرامتك وتبرئ نفسك من الكذب ، فقد شئتَ ولكن الله لم يَشأْ .

ويبدو أن المُلْكَ أغرى سليمان ، فداخله شئ من الزَّهْو ؛ لأنه متحكم فى عوالم الإنس والجن والطير والحيوان ومُطَاع من الكون كله من حوله ، لذلك لم يقُلْ إنْ شاء الله ، فجازاه الله بذلك .

وقال آخرون[2] : إن سليمان - عليه السلام - أنجب ولداً ، وأن

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/١٨٢) ، قال : قال ابن سعد : أخبرنا الواقدى حدثنا معشر عن المقبرى : إن سليمان بن داود قال : لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائى ، فتأتى كل امرأة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يَسْتَثن ولو استثنى لكان ، فطاف على مائة امرأة فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، حملت بشق إنسان .

(٢) ذكر القرطبى هذا القول فى تفسيره (٨/٥٨٤٣) وعزاه للشعبى ، ومحصله أنه لما وُلد ولدٌ لسليمان اجتمعت الشياطين وقالوا : إنْ عاش له ابن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة ، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله . فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب ، وغدا ابنه فى السحاب خوفاً من مضرة الشياطين ، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً .

الجن أرادتْ به سوءاً ؛ لأنها خافت أنْ يفعل بها كما يفعل سليمان ، فأرادوا قتله ، فما كان من سليمان إلا أنْ رفعه فوق السحاب يرضع من المزْن ، فكأنه ـ عليه السلام ـ أراد أنْ يفر من قدر الله .

وقالوا[1] : إن الجسد هو سليمان نفسه ؛ لأن الإنسان العادى ، جعله الله يتحكَّم فى جوارح نفسه حين يريد اللهُ ذلك ، فيقوم بمجرد أنْ يريد القيام ، ويتحرك بمجرد أنْ يريدَ الحركةَ دون أنْ يعرفَ هو نفسه ماذا يجرى فى أعضائه ومفاصله ، فكأن الله تعالى يعطى الإنسان مثلاً فى نفسه ؛ ليقرب له المسائل المتعلقة بالحق فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪ ﴾ [الشورى]

فإذا كنتَ أنت أيها المخلوق تفعل ما تشاء ، وتنفعل لك جوارحك وتطاوعك بمجرد الإرادة ، ودون أنْ تأمرها بشىء فهل تستبعد هذا فى حقِّ الخالق سبحانه ، حين يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ⑧٢ ﴾ [يس]

إن الحق سبحانه يقول للشىء : كُنْ . أما أنت فلا تقول : كُنْ وقد أراحك الله منها ، وجعل الأعضاء تطاوعك دون أمر منك ، لأنك لو أمرتَها ما استجابتْ لك ، هى تستجيب للخالق سبحانه ، فإذا أراد الخالق سبحانه سلبك هذه القدرة ، فتريد أنْ تحرك يدك فلا تستطيع؛ لينبهك إلى أنها موهوبة لك ، ليستْ ذاتية فيك .

الحق سبحانه وهب سيدنا سليمان القدرةَ على السيطرة على جوارح ذاته ، ثم عَدَّى هذه القدرة إلى السيطرة على الآخرين من جنسه ومن غير جنسه ، وجعل له سيطرةً على الكون كله ، ينفعل له

---

(١) ذكر هذا القول القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٤٤) ولم يعزه لقائل : « قيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ، وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً . وقد يُوصف به المريض المضنى . فيقال : كالجسد الملقى » .

ويجاوبه ، يعنى : المسألةُ كانت استعلاءً فى التسلُّط والسيطرة على جنود الله .

ويبدو أن سليمان - عليه السلام - داخله شىء فى نفسه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى أن هذه القدرة ليستْ ذاتية فيك ، إنما هى موهوبة لك ، أسلبها حين أشاء ، فلا تستطيع السيطرة على جوارحك ولا السيطرة على الآخرين ، وألقاه الله فترة جسداً على كرسيه لا يقدر على شىء ، ولا يأمر بشىء .

فما دامتْ هذه النعمة موهوبةً من الله الذى أعطاك مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعدك ، فلا بُدَّ أنْ تظل مُتمسِّكاً بحبله ، لاجئاً دائماً إلى مَنْ ملَّكَكَ هذا الملْكَ .

لذلك ، يُرْوَى أنه - عليه السلام - ركب مرة البساط ، وسارتْ به الريح كما يشاء ، وفجأة مال به البساط ، وكاد أنْ يُوقعه فأمره أنْ يستوى به . فقال له البساط : أُمِرْنَا أنْ نطيعك ما أطعْتَ الله .

إذن : فتناه لأننا ملَّكناه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، لكن لا نريد له أنْ يطغى أو يتعالى ، والحق سبحانه لا يكذب كلامه ، وقد قال سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾ [العلق]

وسليمان - عليه السلام - إنسان ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُثبت لنا أن الإنسان تملّك فى جوارحه ، وتملَّك فيمن حوله ، وتملَّك فى جنس آخر غير جنسه ، لكن هذا كله ليس ذاتياً فيه ، بل هو موهوب له ؛ بدليل أن الله سلبه هذا المُلْك فى لحظة ما ، وألقاه على كُرسيه جسداً لا أمرَ له ولا نهيَ ولا سلطانَ على شىء .

فلما فهم سليمان المسألة آبَ ورجع ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ ﴾[ص] يعنى :

رجع إلى ما كان عليه قبل التجربة التى مَرَّ بها .

يعنى : رجع وعاد إلى الجسد الذى فيه روح ، أو أناب ورجع إلى الله وعرف السبب فالمعنى يحتمل المعنيين : أناب فى السبب ، أو أناب فى المسبب . والجسد هو الجِرْم والهيكل الظاهرى الذى لا روحَ فيه ، والذى قال الله عنه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. (٢٩) ﴾ [الحجر] أى : الجسد ، ومنه قوله تعالى فى قصة السامرى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ .. (٨٨) ﴾ [طه] يعنى : هيكل العجل وصورته الظاهرية ، لكن بدون روح .

فإنْ قُلْتَ : فهل يحدث هذا من الرسل ؟ يعنى : هل يخطىء الرسول ويُصحِّح له ؟ نعم ، العيب أنْ يصحح لك المسَاوى لك ، إنما ليس عيباً أنْ يصحح لك الأعلى ، فماذا فيها إنْ كان الذى يُصحِّح لسليمان ربه عز وجل لا أنت . إذن : من الشرف أنَّ الله يُعدِّل لسليمان ، لذلك لما عدَّلَ الحق سبحانه الحكم لنبيه محمد ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

وقال : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢) ﴾ [عبس] فهل استنكف رسول الله أنْ يُعدِّل له ربه ؟ لا لم يستنكف بدليل أنه ﷺ هو الذى أبلغ هذا التعديل وأخبرنا به ، وأنا لا أخبر إلا بما فيه شَرَفٌ لى .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) ﴾

هذه الآية تعطينا لقطةً من لقطات قصة سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ولسيدنا سليمان فى قَصَصه لقطات متعددة ، كل

لقطة تمثل عبرةً من العبر ، وعظةً من العظات ، وموقفاً من مواقف سيدنا سليمان فى أمر دعوته . وأول لقطة فى القصة مع أبيه داود ـ عليه السلام ـ حينما حكم فى الحرث أى : الزرع ، وكان الزرع لرجل فجاءت غنم رجل آخر فأكلت الزرع ، وقد حكى لنا الحق سبحانه قصة الحكم الذى حكمه داود ، والأمر الذى انتهى إليه الحكم من استدراك على حكم داود من كلام ولده سليمان .

وصوَّبَ الله الحكمين ، وقال سبحانه : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

معنى ﴿نَفَشَتْ فِيهِ .. (٧٨)﴾ [الأنبياء] يعنى : انتشرت فيه الغنم وأكلته ، فلمَّا عُرِضَ الأمر على داود قضى بأنْ يأخذَ صاحبُ الزرع الغنَم .

فلما علم سليمان بهذا الحكم ردَّه . وقال : بل نعطى الأرض لصاحب الغنم ليزرعها حتى تعود كما كانت ، ونعطى الغنم لصاحب الأرض يستفيد منها ، ثم يعود كل حَقٍّ إلى صاحبه ، فكأن الله تعالى ألهم سليمان صحة الحكم ليستدرك على أبيه داود ، فانظر كيف كانت قداسة كلمة السماء مع كلمة أهل الأرض ، وبعد ذلك صوَّب الله تعالى الحكمين ، وقال ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

إذن : فاستدراك هيئة تحكم على هيئة حكمت ليس عيباً فى الأولى ، وإنما هذا فهم فَهْماً حكم بمقتضاه ، وذاك فَهِم فَهْماً آخر حكم بمقتضاه ، لذلك نجد فى المحاكم الحكم الابتدائى والاستئنافى ، وبعد ذلك حكم النقض ، فهل حكم الاستئناف يطعن فى الحكم الابتدائى ، أو حكم النقض يطعن فى حكم الاستئناف ؟ لا ، لأن

الحكم الأعلى يراعى شيئاً فاتَ صاحب الحكم الأدنى ، فلا غضاضةَ فى هذا .

ونحن حين نستعرض القصة نجد المفسرين لم يُظهروا لنا حجة داود فى الحكم الذى قضى به ، ولا حجة سليمان فى الحكم الذى قضى به ، وبالاستقراء . قلنا : الزرع قديماً لم يكُنْ فى أرض محكرة مملوكة للناس ، إنما كانت الأرض على المشاع ، ففى أى مكان تبذر الحب وتسقيه السماء حتى يثمر فتأخذ ثمره دون أنْ تمتلك أرضه ، يعنى : من سبق إلى أىِّ حقل زرعه .

إذن : الملكية كانت للزرع فحسب لا للأرض ، فعلى هذا قام حكم سيدنا داود ، وما دامت الأرض ليست مملوكة لصاحب الزرع فالمسألة زرع وغنم . أما سيدنا سليمان فرأى أن الزرع يمثل كما نقول وَضْع يد على الأرض ، ووَضْع اليد يبيح الملكية ، فأبقى لصاحب الملك ملكه فى الأرض ، فحكم بأنْ يأخذ صاحبُ الأرض الغنم ينتفع بها وأن يأخذ صاحب الغنم الأرض يزرعها إلى أنْ تعود كما كانت ، ثم يأخذ كل منهما ماله .

إذن : كان لكل منهما ملْحظ ، وبناءً عليه حكم لذلك ؛ فقال تعالى فى حقهما : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

اللقطة الأخرى هى الفتنة التى وقعتْ لسيدنا سليمان ، وقلنا : إن الأصل فى كلمة الفتنة هى صَهْر المعدن وإحراقه فى النار ليخرج منه الخَبَث والشوائب ، فيصير نقياً وتزداد صلابته ، ثم أُطلقَتْ الفتنة على مطلق الامتحان الذى يُميِّز الجيد من الردئ فى البشر ، فهى بمعنى الابتلاء .

ولو نظرتَ إلى الفتنة لوجدْتها شائعة فى خَلْق الله جميعاً ، فكل واحد من الخَلْق فاتن ومفتون ، بمعنى أن الغنى فتنة للفقير ، والفقير

فتنة وابتلاء للغنى ، فالغنى يُبتلَى بالفقير ، أيضنّ عليه بالنعمة أم يعطيه منها ؟ أيحتقره لفقره أم يحترم قدر الله فيه ؟

كذلك يبتلى الفقير بالغنى ، أيحسده لغناه ويعترض على قدر الله بالفقر ؟ أم يصبر ويتمنى الزيادة لغيره . كذلك الحال فى القوى والضعيف ، وفى الصحيح والسقيم ، وفى الجاهل والمتعلم .. إلخ ، إذن : كلٌّ منّا فاتنٌ ومفتون ، المهم مَنْ يفوز ، ومن ينجح فى هذا الابتلاء ؟

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] قالوا : كلمة بعض هنا ليستْ تحديداً لشخص بعينه ، إنما هى جزء من كل مُتساو ، لكن مُبْهم فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ورفعنا بعضهم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فأيُّنا مرفوع وأيُّنا مرفوع عليه ؟ قالوا : كل منَّا مرفوع فى شىء ومرفوع عليه فى شىء آخر ، فالناس كلهم إذن سواء ، أنت لك مجال تجيده وتبدع فيه ، فأنت مرفوع فى هذا المجال ، ولك مجال آخر لا تجيده ولا تعرف فيه شيئاً ، فغيرك مرفوع عليك فيه ، لأنه يُجيد ما لا تجيده أنت .

وهذه المسألة تأتى من استطراق المواهب فى الخَلْق ، لأنهم جميعاً عباد الله ، وليس منهم مَنْ هو ابن الله ، ولا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نسب ، لذلك نثر الحق سبحانه فضله على عباده جميعاً ، ووزّع بينهم المواهب بالتساوى ؛ لأن الله تعالى لو جعل إنساناً مجمعَ خير وفضائل ما احتاجَ أحدٌ إلى أحد .

والله يريد للعباد أن تتشابك أيديهم ، وأنْ يتعاونوا فى حركة

الحياة ، فالقوى يحتاج للضعيف ، والضعيف يحتاج للقوى ، العَالم يحتاج للجاهل ، والجاهل يحتاج للمتعلم . وهكذا يرتبط الناس ارتباطَ حاجةٍ ، لا ارتباطَ تفضُّل .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالباشا أو العظيم الذى يعود من عمله ، فيجد مجارى البيت مسدودة ، ويشم فى بيته رائحة كريهة ، فيسرع إلى عامل المجارى لينقذ الموقف ، وربما ركب سيارته وذهب إليه فى مكان عمله ، بل وترجاه أنْ يأتى معه ، فالعامل فى هذه الحالة مرفوع ، والباشا مرفوع عليه .

وأذكر زمان عندنا فى ميت غمر فى (بورصة) مقهى اسمها (باباه) ، العمال هناك عملوا ثورة وقالوا : لا يصح أن العامل يخدم غيره ، ولا يصح أنْ يمسح أحذية الخَلْق ، لماذا يا ناس ؟ قالوا : لأن فى ذلك مهانةً ومَذَّلةً فقلنا لهم : إذن نمسح نحن لأنفسنا ، وفعلاً عملنا إضراباً واشترى كل منا علبة ورنيش ، وصار يمسح الحذاء لنفسه ، وبعد فترة جاء هؤلاء إلى البورصة وضَجُّوا من البطالة وقِلَّة الرزق ، وراحوا يرجُونَ الناس العودة إلى ما كانوا عليه .

بعدها ناقشناهم . وقال بعض الإخوان لأحدهم : بالله أنت حين تسألنى سؤالاً وأجيبك عليه : هل آخذ منك جُعْلاً على الإجابة ؟ قال : لا ، قال : لو عرفت كم كلفنى هذا الجواب من عمرى وجدِّى واجتهادى ، ومن تعب أهلى فى تربيتى لعرفت أننى كنتُ أيامها مُسخّراً لك كما أنك مُسخَّر لى الآن ، لكنكم نظرتُمْ لنا فى وقت راحتنا ، ونظرتم إلى أنفسكم وقت عملكم ، إذن : القسمة متساوية وكُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، والمسألة ليس فيها إهانة ولا مَذَّلة ، بل هو التكامل فى حركة الحياة .

لذلك قال الحق سبحانه بعدها : ﴿أَتَصْبِرُونَ.. (٢٠)﴾ [الفرقان]

يعنى : أتصبرون على فتنة بعضكم ببعض ، حتى الرسل فُتنوا بالكفار يؤذونهم ويضطهدونهم ، وفُتن الكفار بالرسل .

إذن : من النعم أن الله تعالى وزَّع المواهب في الكون كله ، ووزَّع فضله على الخَلْق ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ .. (٧١) ﴾ [النحل]

نعود إلى سيدنا سليمان ونقول : ما يدرينا أن المُلْك والنبوة معاً أغرت سليمان ، فوجد فى نفسه شيئاً من ذلك ، فأراد الله أنْ يُصحح له خواطره فى نفسه ، لأنه يريده لمهمة أعلى مما هو فيه الآن ؛ لذلك مرَّ بهذه التجربة ، ووجد نفسه على كرسيه جسداً لا يستطيع الحركة .

لذلك سيدنا رسول الله ﷺ كان دائماً مُؤدَّباً مع ربه ومع الخَلْق ، فقد قال ﷺ : « اللهم إنى أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك »[1] .

معنى هذا أن الأنبياء يمكن أنْ يخالطهم شىء ، وأنهم يمكن أنْ يُبْتلُوا ، لكن ممن يكون الابتلاء من الله الذى أرسلهم ، والابتلاء يكون تصحيحاً لمسار المبتلَى ، وليس كرهاً له لا سمحَ الله . كذلك ابتلى اللهُ سيدنا سليمان ، لأنه يعده لأمر أسمى من هذا ، هو ملْك فى ظاهر الملك ، إنما ربه يريد أن يُعدَّه ليعطيه شيئاً من الملكوت .

لما عاد سليمان ـ عليه السلام ـ وأناب إلى ربه ، قال ﴿ رَبِّ اغْفِرْ

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه « جوامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يقول : اللهم إنى أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه وأستغفرك مما جعلته لك على نفسى ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أنى أردت به وجهك فخالط قلبى منه ما قد علمت .

لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص]

يعنى : استغفر ربه مما وقع فيه من الغرور . يعنى : ربِّ اغفر لى ما سبَّب أن تجعلنى جسداً . وكأنه قال : يا رب ، لقد ابتليتنى بالملك والنبوة ، وهذه مسألة لم تحدث لأحد من قبلى فاغتررت بها ، فهَبْ لى مُلْكاً أعظم منه لا ينبغى لأحد من بعدى وسوف أوفى هذه المرة ولن أغتر ، وكأنه يقول لربه : يا ربِّ جربنى وأعطنى فرصة أخرى ، فلما دعا سليمان هذا الدعاء أجابه ربه وأعطاه ما طلب .

لذلك احترم سيدنا رسول الله ﷺ دعوة أخيه سليمان ، فقد ورد فى الحديث الشريف أن الشيطان عَرض لرسول الله وهو يصلى ليشغله عن صلاة ، فأمسك به رسول الله وهَمَّ أنْ يربطه فى سارية المسجد يلهو به صبيان المدينة ، لكنه ﷺ تذكّر دعاء أخيه سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِى لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى.. (٣٥)﴾ [ص] فلم يفعل تقديراً لسليمان عليه السلام(١) .

ومعنى ﴿الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص] صيغة مبالغة ، تدل على كثرة الوهب وقلنا : الهبة عطاء بلا مقابل ، والمعنى أن منْ ضمن ما تهبه يا رب الملك ، وهذا يعنى أن الملْك لا يناله أحد بمجهوده ومهارته ، إنما هو هبة من الله ، فالله هو الذى يهَبُ الملْك ووهبه حتى للكافر الذى حَاجّ إبراهيم فى ربه ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٤١) كتاب المساجد (باب ٨ حديث ٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إن عفريتاً من الجن جعل يفتك علىَّ البارحة ليقطع علىَّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد ، حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ثم ذكرت قول أخى سليمان : رب اغفر لى وهَبْ لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، فرده الله خاسئاً » .

إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾

قال سبحانه : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ .. (٣٦) ﴾ [ص] وكان تسخير الريح لسليمان أول نعمة أضيفتْ إلى ملكه لم تكُنْ موجودة من قبل ، ومعنى ﴿ رُخَاء .. (٣٦) ﴾ [ص] أى : لينة ناعمة كالمطية التى تمشى براكبها مَشْياً هادئاً لا تزعجه ولا توقعه . إلا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة رخاء تتعارض مع قوله تعالى فى نفس القصة : ﴿ الرِّيحَ عَاصِفَةً .. (٨١) ﴾ [الأنبياء] ونقول : هى بالفعل عاصفة ، لكن فى موقف آخر ؛ لأن الريح فى القصة لها عدة استعمالات ، فالريح إنْ كانت تحمله للنزهة فهى رُخاء لينة ، وإنْ كانت لحمل الأشياء فهى عاصفة ، إذن : فالجهة فى الوصف مُنفكّة .

وقلنا : إن الريح إنْ جاءت هكذا مفردة فهى للعذاب ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] فإنْ كانت جَمْعاً فهى للخير كما فى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

ومعلوم أن الهواء هو الذى يحفظ توازن الأشياء ، بدليل أننا لو فرَّغْنَا الهواء من جهة من جهات عمارة مثلاً ، فإنها تنهار فى نفس

الجهـة ، لأن الهواء هو الذى يسنـدها ويحفظ توازنهـا . فإذا أراد الله تعالى أن يدمر بـالريح أتى به من جهة واحدة . فكأن الحق سـبحانه يقـول : الريح المـفروض أنه لا يأتـى إلا فى العذاب والنقـمـة ، لكن سخـرته لسليمان بحـيث لا يأتى معه إلا بالخـير ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص]

وقوله : ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص] حيث قصد وأنّى ذهب.

وهذا يعنى أن سليـمان خـاطب الريح التى لا لغةَ لهـا لكن فهـمه الله ، فكأنه أصـبح آمراً والريح مـأمـورة ، إذن : فهـمتْ عنه الريح ، فالحق سبحانه جعل لكـل جنس من الأجـناس لغتـه التى يتخاطب بها فى بنى جنسه ، فإذا فَهَّم الله إنساناً هذه اللغة فهمها وتخاطب بها مع هذه الأجناس .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. ﴿١٦﴾﴾ [النمل]

لذلك حـدثونا عن التـمـاسيح فى أعـالى النيل ، وعن الانـسجـام والتكامل بينـها وبين الطـيور التى تـتغـذّى على الفـضـلات التى بين أسنان التمسـاح ، فالتمسـاح بعد تناول طعامه يخرج إلـى اليابسة ثم يفتح فمـه ، فيأتى الطير وينقر مـا بين أسنان التمساح فـيتظفها له ، فإذا أحسَّ الطير بقدوم الصياد صوّت صـوتاً خاصاً يعرفه التمساح ، فيـسرع إلى الماء وينجـو من الصياد ، وهكذا يكون التـمساح مُـقوِّمَ حيـاة للطير ، والطير مُبقى حياة بـالنسبة للتمـساح ، فتـأمل الجزاء الأوْفى ، كيف يوجد فى عالم الطير والحيوان ؟

ولا يصل إلى مرتبـة الفهم عن الطير والحـيوان إلا مَنْ أعطاه الله هذه الخصـوصيـة ، وقد أعطى الله هذه الخصوصية لسـيدنا سليمان ، ففهم لغة الطير ولغة النمل : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ

لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾ [النمل]

إذن : فهم عنها سليمان ، وأحسَّ أن هذه نعمة اختصَّه الله بها وتستوجب الشكر ، كذلك فهم عن الهدهد وخاطبه ودار بينهما حوار ، وقصة الهدهد مع سليمان تدلنا على أن كلّ مَنْ يلى أمراً عليه أن يتابعه متابعةً ، يعرف بها الملتزم من غير الملتزم .

ولولا أن سليمان تفقَّد الطير ما عرف بغياب الهدهد . وقوله : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] كأنه تصوَّر أن الهدهد موجود ، لكن المانع عنده هو أنْ يراه ؛ لذلك قال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) ﴾ [النمل] لأنه نظر فلم يَرَهُ ، ثم جاء الهدهد وقال : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

والذى أثَّر فى نفسه أن تعبد هى وقومها الشمسَ من دون الله ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

وهذه اللقطة من القصة تعلمنا أن الذى يلى أمراً لا يرد مَنْ وُلِّىَ عليه فى أمر يشير به ، بل ينتظر حتى يسمع منه ، ويحترم رأيه لا يصادره ، ونتعلم أيضاً أن الهدهد كان يعلم قضية التوحيد وقضية الإيمان بالله .

ثم يُعلِّمنا الهدهد أن كل إنسان عليه أنْ يحافظ على مُقوِّم حياته ، وأنْ يظل دائماً على باله إنْ أراد أنْ يعيش عيشةً كريمة ، فمُقوِّم

الحياة هو الأَوْلَى قبل التخطيط ورسم الأهداف ، نفهم هذا من قول الهدهد : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا للَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ(١) فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النمل]

لكن لماذا خَصَّ الخبأ ، وهو المخبوء تحت الأرض ؟ قالوا : لأن غالب غذاء الهدهد مما خُبِىء فى الأرض ، لذلك جعل الله له منقاراً طويلاً ينقر به الأرض ، ويُخرِج به غذاءه .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ص] أى : وسخَّرنا أيضاً له الشياطين ، منهم البَنَّاء وهو الذى يعمل ويجهد طاقته فى يابسة الأرض ويعمرها . والغواص مَنْ يجهد طاقته فى البحر ليخرج نفائسه ﴿ وَآخَرِينَ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص] أى : من الشياطين ﴿ مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص] أى : مقيدين ومكبَّلين بالسلاسل . والأصفاد جمع : صفد وهو السلسلة .

فهؤلاء مقيدون ليسوا مُطلقين كالبنَّاء والغوَّاص ، لكن لماذا قيَّد اللهُ هؤلاء ، وأطلق هؤلاء ؟ قالوا : لأن منهم الصالحين الطائعين ، ومنهم العصاة الذين تأبَّوْا على منهج الله ، ومن الممكن أنْ يتأبَّى أيضاً على رسول الله ، وهؤلاء هم الذين يُقيَّدون بالسلاسل ، فكأن الصالحين يخدمونه بتوجيه الإيمان ، وغير الصالحين يخدمونه بتوجيه القيود والسلاسل ، يعنى هؤلاء بالرغبة وهؤلاء بالرهبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص] فالعطاء مناسب

---

(١) الخَبْءُ : ما خُبِىءَ . والخبء : كل ما غاب ، وهو كل شىء غائب مستور . وقيل : الخبء الذى فى السماوات هو المطر ، والخبء الذى فى الأرض هو النبات . [لسان العرب - مادة : خبأ بتصرف] .

لطلب سليمان حين طلب من الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، قال : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص] فردَّ الله عليه ﴿ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص] وما دمت قد وهبتك فسوف أجعلك تتصرف فيما وهبته لك لأننى أمَّنتك ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص] يعنى : أنت حر فى أنْ تعطى أو أنْ تمسكَ وتمنع .

والحق سبحانه لم يجعل لسليمان طلاقة التصرُّف ، إلا لأنه ضمن منه عدالة التصرف ، لأن سليمان حين طلب الملْك الواسع تعهَّد لله تعالى بهذه العدالة ، لذلك قالوا عنه - عليه السلام - إنه كان لا يأكل إلا خشكار الحب يعنى الردَّة أو النخالة ، ويترك الصافى للعبيد ولعامة الناس .

فكأنه لم يطلب النعمة والملْك الواسع ليتنعم هو به ، أو يتباهى ، إنما طلبه ليسخره فى خدمة الدعوة إلى الله ، ولأنه سيجابه قوةً كانت أعظمَ القُوَى فى هذا الوقت ، ويكفى أن الله تعالى وصف هذه القوة بقوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل] أى : بلقيس .

وهنا وفى هذه المواجهة سيظهر أثر الملْك وقيمته ، فلما أغرتْه بلقيس بالمال قال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

وهنا تظهر الحكمة فى أن سليمان حين طلب ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، طلبه حتى لا يتميَّز عليه أحد ، ولا يحاول أحد أنْ يُغريه أو يرشيه ، أو يستميله بالمال ، كما حاولت بلقيس بملْكها الواسع فى اليمن السعيد فى ذلك الوقت .

والذى دَلَّ على حصافة بلقيس فى هذا الموقف أنها استشارتْ أعيان القوم وأشرافهم وذوى الرأى عندها : ﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي

أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[1] ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النمل]

أولاً : كيف عرفتْ أنه كتاب كريم ؟ قالوا : لأنها وجدته في مخدعها دون أنْ يأتي به رسول ، أو يدخل به أحد ، ولم يمنعه حراس ، ولم يطلب استئذاناً عليها ، لذلك علمتْ أنه من جهة أعلى منها ، ولا بُدَّ أن حركة صاحب الكتاب في الحياة أقوى من حركتها ، بدليل أن الكتاب وصلها بهذه الطريقة ، لذلك استشارت القوم ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النمل]

وانتهت القصة بقولها : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل]

إذن : دَلّ قوله تعالى ﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص] على أن عطاء الله للأنبياء ليس للتباهي والتفاخر ، إنما هو عطاء لخدم الدعوة إلى الله ؛ لذلك نرى الذين ملّكهم اللهُ بعضَ مفاتيح الغيب لم يستغلوا معرفة الغيب لصالحهم ، وربما جَرَتْ المعجزةُ على أيديهم أو على ألسنتهم ، وهم لا يدرون بها ، وتظهر منهم الكرامات وهم أنفسهم لا يعرفونها ولا يشعرون بها .

ذلك لأن سرَّ الله وهبه لهم ، لا ليتعالوْا به على الناس ، إنما ليزدادوا هم عبوديةً واستطراقاً في العبودية لله تعالى ، وليكونوا نماذج لهداية الخلْق والأخذ بأيديهم إلى طريق الحق .

لذلك يُرْوى أن سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ لما امتنع الغيثُ

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦١) : « تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ، ولا سبيل لهم إلى ذلك » .

وأجدبت الأرضُ خرج يستسقى ، وأخرج الضعفاء من الأطفال والشيوخ والنساء حتى أخرج البهائم وكأنه يقول يا رب إنْ كنتَ قد منعت عنَّا المطر لذنوبنا فاسْقنَا لأجل هؤلاء ، لكن لم تمطر السماء وَهمَّ عمر بالانصراف ، وبينما هو قافل إذ وجد عبداً واقفاً بين الصخور يرفع يديه ويشخص ببصره إلى السماء ، قال عمر : فو الله ما وضع يديه حتى أمطرت السماء كأفواه القِرَب .

وعندها تعجب سيدنا عمر كيف أن السماء لم تستجبْ له واستجابتْ لهذا العبد ، وتأمل عمر وجه العبد حتى عرفه ، وذهب إلى النخَّاس ، وقال له : اعرض علىَّ عبيدك ، فظن النخَّاس أنه يريد الشراء ، فعرض عليه أفضل ما عنده من أصحاب العضلات المفتولة والقوام السليم ، لكن لم يلتفت عمر إلى واحد من هؤلاء ، فقال الرجل : والله ما عندى غير هذا العبد وهو كَلٌّ[1] على مولاه أينما توجَّه لا يأتى بخير .

فلما جاء العبد عرفه عمر ، وقال له : أهذا أنت ؟ فنظر إليه العبد ورفع بصره إلى السماء وقال : اللهم كما فضحتنى بين خَلْقك فخُذْنى غير مفتون ومضى لحاله . هكذا حال مَنْ تظهر منه الوَلاية والكرامة ، لا يرضى بها ولا يحب أنْ تنكشف أمام الناس ، فهو لا يريدها ويكفيه وُدُّ الله له بها .

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠ ﴾

(لَزُلفَى) يعنى : قُرْبى ، ودَلَّ على هذه القربى أن الله تعالى أعطاه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وأعطاه حرية التصرف فى هذا

---

(١) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . فهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

المُلْك ، يعطى مَنْ يشاء ، ويمنع مَنْ يشاء ، وقد أعطاه الله هذا العطاء مقابل أنه علم أنه لن يصرفه فى طغيان ولا فى جبروت ، ولا فى إدلال على الناس ، لكن سيضعه فى موضعه الذى يريده الله ، فأصبح مأموناً على عطاء الله .

ومعنى ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص] أى : حُسْن مرجع ومَردّ إلى الله يوم القيامة .

ثم ينتقل بنا السياق إلى قصة نبى آخر هو سيدنا أيوب عليه السلام :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ (١) وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [ص] أى : بالحمد والثناء ﴿ عَبْدَنَا أَيُّوبَ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [ص] الوصف بالعبودية هنا شرف ، لأنه دلَّ على إعزاز الربوبية لمرتبة العبودية ، وقلنا : إن العبودية كلمة ممقوتة عند البشر ، لأن العبودية للبشر إهانة وتسخير ، يأخذ فيها السيد خير عبده وثمرة حركته فى الحياة ، أما العبوديةَ لله تعالى فوَصْفٌ محبوب ، وكلمة محمودة ، لأن العبد فيها يأخذ خير سيده .

لذلك لما امتنَّ الله تعالى على سيدنا رسول الله ﷺ فى حادثة الإسراء والمعراج جعل حيثية ذلك العبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فلما ضاقتْ به حفاوة الأرض فى الطائف أراد ربه أنْ يُرِيَهُ حفاوة السماء به ، فالصفة التى رفعتْ محمداً إلى هذه المنزلة هى صفة إخلاصه فى العبودية لربه .

---

(١) النصب : الداء والبلاء والشر. [لسان العرب ـ مادة : نصب] .

ومعنى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص] المسُّ : هو الالتقاء الهيِّن الخفيف ، يعنى هو دون اللمس ، قالوا : لأنه مرض مرضاً شديداً أثَّر فى إهابه ، فكان الشيطان يحوم حوله بخواطر السوء يقول له : كيف يفعل الله بك هذا وأنت رسول ، كيف يتركك هكذا دون أنْ يشفيك .

وهكذا اجتمع على سيدنا أيوب ألم الجلد وعذابه الجسدى ، وهواجس الشيطان فى خواطره النفسية ، لذلك قال : ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص] ونُصْب بالضم مثل نَصَب بالفتح والنَّصَّب التعب ، فهى مثل بُخْل وبَخَل ، الاثنان بمعنى واحد .

وقالوا فى مسِّ الشيطان : إن الفعل على الحقيقة لله تعالى ، فالله هو الذى يفعل ، والشيطان بوسوسته سبب ، والله تعالى هو المسبِّب ، فمَسُّ الشيطان يعنى وسوسته التى شغلتْ خاطر سيدنا أيوب ، فكأن الحق سبحانه أراد من أيوب أنْ يتنبه إلى أن هذه الوسوسة ما كان يصح أنْ تمرَّ بخاطره .

وسيدنا أيوب لما اجتمع عليه المرض ووسوسة الشيطان ضَعُفَ فتوجَّه إلى ربه يدعوه أنْ يقطعَ عن نفسه وسوسة الشيطان ؛ لأنها تحتاج إلى مدافعة ، والمدافعة تحتاج إلى قوة ، والقوة عنده موهونة بالمرض ، ولذلك دعا الله حتى لا يزدادَ ضعفه بوسوسة الشيطان ، فلما دعا الله أجابه :

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

فكأن الحق سبحانه يقول له : أنا لا أبتليك كراهةً فيك ، ولا مشقَّةً عليك ، إنما أريد أنْ أسمع منك أنك تكره مَنْ يجيل لك بخاطرك

شيئاً يبعدك عنى ، ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص] يعنى : المسألة عندى سهلة يسيرة كما تقول : يا فلان الأمر هيِّن فهو تحت رجلَيْك .

والركْض هو القذف بشدة وسرعة ، تقول : ركضتُ الفرسَ . يعنى : غمزتُه برجلى هكذا من تحت ليسرع[1] ، ثم يتجاوز السياق مسألة الركض إلى النتيجة مباشرة ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص] ولم يقل : فركض فخرج الماء كذا وكذا ، إنما انطوى هذا كله ، واكتفى بالأمر (ارْكُضْ) .

والمعنى : أن فى هذا الماء مغتسلاً لك وشراباً ، لأن المرض الذى أصاب سيدنا أيوب يبدو أنه كان مرضاً جلدياً يترك على بشرته بُثوراً تشوِّه جلده . والآن نرى الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجلدية يعالجونها بالمراهم الظاهرية التى تعالج ظاهر المرض ، لكن لا تتغلغل إلى علاج سبب المرض الداخلى

فكان من رحمة الله بسيدنا أيوب أنْ جعل شفاءه الظاهرى والباطنى فى ركضة واحدة تخرج الماء ، فيغتسل منه مُغْتسلاً بارداً ، يشفى ظاهر مرضه وشراب يشفى أسباب المرض فى داخل جسمه .

ثم يتحدث الحق سبحانه عن بعض نعمه على نبيه أيوب :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

---

(١) قال الأصمعى : يقال رُكضت الدابة ولا يقال رَكَضتْ هى ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك . [تفسير القرطبى ٥٨٥٣/٨] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [ص] يبدو أن بعض أهله بعدوا عنه لما أصابه المرض ، فلما شفاه الله وعاد إلى حال السلامة عادوا إليه ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [ص] يعنى : وهبنا له مثل أهله أى : من الذرية والأتباع ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ص] الذكرى هى الخاطر الذى يمرُّ بك ليصرفك إلى متعلق الذِّكْرى ؛ لأنك بصدد ما يبعدك عن سبب الذكرى .

ومضمون الذكرى هنا أنه لما صبر جاءه الفرج من الله ، فعاد جسمه مُعَافاً سليماً بعد أنْ برىء من المرض ومن أسبابه ، ثم عاد إليه أهله بزيادة مثلهم عليهم رفقاً بعواطفه . وهذا هو المراد بالرحمة فى قوله ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [ص] ، فهذه عطاءات متعددة جاءت ثمرة ونتيجة لصبره عليه السلام ورضائه بما قضى الله به .

إذن : الذكرى التى نذكرها فى هذه القصة أن الإنسان حين ينزل به الكرب يلجأ إلى الله ، ويفزع إليه فى كربه ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

والله يحب من عبده هذا اللجوء لذلك يبتليه ، وقد ورد أن الملائكة تقول : يا ربّ عبدُكَ ضَجَّ من الدعاء لك ، ولم تُجِبْه ، فقال سبحانه : إن من عبادى مَنْ أحب دعاءهم ، فأنا أبتليهم لأسمع أصواتهم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

الضغث : حزمة الحشيش أو حزمة من شماريخ البلح ، وقوله : ﴿ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص] دلَّ على أن المسألة كان فيها يمين يريد

الله تعالى لأيوب ألاَّ يحنث فيه ، وهذه الآية تلفتنا إلى قصة بيَّنتها السنة ، قالوا[1] : إن الشيطان ذهب إلى إحدى زوجات سيدنا أيوب ، وقال لها : اطلبى من أيوب أنْ يلجأ إلىَّ وأنا أشفيه حالاً ، بشرط أنْ يقول : إن الذى شفانى الشيطان ، ولأنها كانت مُسْتشرفة لأنْ يبرأ قالت له : والله جاءنى خاطر قال لى كذا وكذا ، قال : إنه الشيطان استمعت إليه وتريدين أنْ أطيعه ، والله الذى لا إله إلا هو لأجلدنك مائة . هذا هو اليمين الذى أراد الله لأيوب ألاَّ يحنث فيه ، فقال له :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص]

والنبى ﷺ صنع مثل هذا حينما جاءه الرجل الأَحْبَن ، أحبن من (حَ بَ نَ) يعنى : كبير البطن ، أو فى بطنه استسقاء ، وقد زنى بامرأة هزيلة مريضة ، فلما اعترف بجريمته خاف عليه الرسول أنْ يموتَ لو أقام عليه الحد ، فأمر بأنْ يُضْربَ بحزمة من الحشيش ، أو مائة عود من شماريخ النخل يُضرب بها مرة واحدة[2] .

ومعنى ﴿ فَاضْرِب بِّهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص] أى : من آليت على نفسك أنْ تجلده ﴿ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص] أى : فى يمينك ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى كتاب « الزهد » ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إن إبليس قعد على الطريق ، فاتخذ تابوتاً يداوى الناس ، فقالت امرأة أيوب : يا عبد الله إن ههنا مبتلى من أمره كذا وكذا .. فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم . بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتنى لا أريد منه أجراً غيره . فأتت أيوب فذكرت ذلك له فقال : ويحك . ذاك شيطان لله علىَّ إن شفانى الله تعالى أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله تعالى أمره أن يأخذ ضغثاً فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ فضرب بها ضربة واحدة .

(٢) عن سعيد بن سعد بن عبادة قال : كان بين أبياتنا إنسان مخدج ضعيف لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماء الدار يخبث بها وكان مسلماً ، فرفع شأنه سعد إلى رسول الله ﷺ فقال : اضربوه حده . قالوا : يا رسول الله ، إنه أضعف من ذلك ، إن ضربناه مائة قتلناه . قال : فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة وخلوا سبيله . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٢) ، وابن ماجه فى سننه (٢٥٧٤) .

.. ﴿٤٤﴾ [ص] فكأن هذا التيسير جزاءٌ له على صبره وعلى رجوعه إلى ربه ، فجعل الله له شيئاً يُرضيه بأنْ خفَّفَ عنه حتى الألم الذى يورثه فى الغير ، لأنه أقسم أنْ يجلد ، فكان ينبغى عليه أنْ يُجلد على الحقيقة حتى لا يحنث ، لكن خفَّفَ الله عليه حتى لا يؤلمه فى أهله .

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

هنا أيضاً (واذكر) أى : بالحمد والثناء (عبادنا) جمع عبد وقلنا : إن العبودية ممقوتة إنْ كانت للبشر ، لكن العبودية لله عزٌّ وشرف (إبراهيم) هو أبو الأنبياء (وإسحق) وهبه الله لإبراهيم بعد أنْ أسلم الحكم لله حين أمره بذبح ولده إسماعيل (ويعقوب) هو ابن إسحاق .

وقد وقفنا على قصة هؤلاء الأنبياء فى قوله تعالى على لسان إبراهيم يقول لولده إسماعيل : ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ .. ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] فلم يشأ إبراهيم أنْ يقبل على ذَبْح ولده قبل أنْ يُبيِّن له الأمر الذى صدر إليه ، ذلك لأنه أشفق عليه أنْ يأخذه على غِرَّة فيمتلىء قلب الولد على أبيه حقداً ؛ لأنه لا يعرف الحكمة من قَتْل أبيه له ، ثم أراد أن يشرك ولده معه فى التسليم لله وألاَّ يحرمه الأجر .

لذلك قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا .. ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات] يعنى : إبراهيم وإسماعيل ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَٰإِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ

الرُّءْيَا .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات] أى : استسلمتَ واستسلم ولدك ، إذن ارفع يدك ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات]

إذن : جاء إسحق وجاء من بعده يعقوب نتيجة لتسليم إبراهيم وانصياعه لأمر ربه فى ذبح إسماعيل ، فأبقى على إسماعيل ، ووهب إسحاق ويعقوب زيادةً وفضلاً من الله ؛ لأن الحق سبحانه لا يريد بالابتلاء أنْ يعذِّب الناس .

لذلك قلنا : إن لسيدنا إبراهيم فضلاً على كل مسلم ، وجميلاً فى عنق كل مؤمن ، لماذا ؟ لأن مسألة الذبح لو نُفِّذت فى إسماعيل لصارتْ ابتلاءً من الله للإنسان بأنْ يتقرَّب إلى الله بذبح ولده ، لكن سيدنا إبراهيم بإيمانه وتسليمه الأمر والحكم لله تحمل عنّا هذه المسألة ، ورفع عنا هذا الحكم ، وإلا صارتْ المسألة نُسُكاً وعبادة لازمة لكل مؤمن من بعده ، وصدق القائل[1] :

سَلِّمْ لِرَبِّكَ حُكْمَهُ فَلِحِكْمَةٍ يَقْضِيهِ حَتَّى تَسْتَرِيحَ وَتَغْنَمَا
وَاذْكُرْ خَلِيلَ اللهِ فى ذَبْحِ ابْنِهِ إِذْ قَالَ خَالِقُهُ فَلَمَّا أَسْلَمَا

ونتعلم من هذه المسألة أن كل أمر أو حدث يُسيء الإنسان فى ظاهره ويتعبه ويعتبره الإنسان مصيبةً لا ينبغى أنْ ننظر إليه مُنفصلاً عن فاعله ، لكن يجب أنْ نأخذَ الحدث بضميمة مَنْ أحدثه ؛ لأن الحكم على الحدث يتغير بالنظر إلى الفاعل .

وأوضحنا هذه المسألة وقلنا : هَبْ أن ولدك دخل عليك ، والدم

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه وأرضاه .

يسيل من وجهه ، فإنك لا تهتم بالإصابة بقدر ما تهتم بالفاعل ، فأول سؤال تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟ ثم تنتظر أن تسمع اسم الفاعل ، فإنْ قال الولد : عمى ضربنى فإنك ستهدأ وتقول : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استوجبَ أنْ يضربك عمك ، لكن إنْ قال لك : فلان خاصة إنْ كان عدواً لك ، فإنك تقيم الدنيا ولا تقعدها .

إذن : لا يمكن أنْ تحكم على الفعل بالخير أو الشر إلا بنسبته إلى فاعله ؛ لأنه بنسبة الفعل إلى فاعل تتمحض الخيرية فيه أو يتمحَّض الشرُّ فيه .

ومعنى ﴿ أُوْلِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص] أصحاب الأيدى وهى جمع يد ، وتُطلَق اليد على الجارحة المعروفة ، وتُطلَق على ما تأتى به الجارحة من فعل ، تقول : فلان له يد علىَّ يعنى : فضل وجميل ، ولأن أغلب الأفعال تُزَاوَلُ باليد سُمِّيَتْ النعمة التى تصل بطريق اليد باسم هذه الجارحة الفاعلة ، ومن ذلك قوْل القائل(١) :

له أيادٍ علىَّ سابغة أعدّ منها ولا أعددها

وفَرْق بين الحركة الفاعلة التى تقوم بالفعل ، ومعنى آخر فى الحركة الفاعلة هو ما يُوجب عليك الحركة ، مثلاً حينَ نريد البَذْل والعطاء ، فمَنْ عنده مال يبذل ويعطى بيده ، أما المعدم فلا يعطى إنما ينصح مَنْ عنده المال بأنْ يبذلَ منه .

يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [التوبة]

فالعمل هنا ليس باليد إنما باللسان ، لكن لما كانتْ اليد هى الآلة التى نباشر بها أكثر الأعمال نسبنا كلَّ خير يتعدَّى منك إلى غيرك

(١) المتنبى .

نسبناه إلى اليد ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ⟨١٠⟩﴾ [الفتح]

فإذا كان الإنسان غير واجد للمال ، وغير قادر على النصح باللسان ، فإن الله تعالى لا يحرمه أبداً من العمل الصالح فى البذل ، ويكتفى منه بأنْ يفرح بمَنْ يبذل ويسعده العطاء من غيره .

ومثال ذلك : الرجل الذى سمعوه يدعو عند الكعبة يقول : اللهم إنك تعلم أنِّى عاصيك ، لكنى أحب مَنْ يطيعك . والأصمعى يسمع رجلاً عند الملتزم يدعو ويقول : يا رب أنا أعلم أنى عاصيك وأستحى وأنا عاصيك أنْ أطلب منك ، لكن لا إله إلا أنت ، فلمن أذهب ؛ فقال له : يا هذا ، إن ربك يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ومعلوم أن المؤمن يجتهد فى الدعاء خاصة عند الملتزم ، ويحاول أن يُحسِن الدعاء ، ويُحسِن المسألة فى هذا الموقف .

مرتبة أخرى يجعلها الله لغير الواجد حتى لا يُحْرم الأجر فى العطاء ، هى أنْ يحزن لأنه لا يجد ما يبذله ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ[1] إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ⟨٩٢⟩﴾[التوبة]

---

(١) قال محمد بن كعب القرظى : كانوا سبعة نفر : من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ، ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلَّى فضل الله ، ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة ، وعبد الله بن عمرو المزنى . تفسير ابن كثير (٢ / ٣٨١) وذكر السيوطى فى كتابه « أسباب النزول » أن ابن أبى حاتم أخرج من طريق العوفى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزنى ، فقال : يا رسول الله احملنا . فقال : والله لا أجد ما أحملكم عليه ، فولَّوْا ولهم بكاء ، وعزَّ عليهم أن يُحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. ⟨٩٢⟩﴾ [التوبة].

فالحق سبحانه لا يحرم مؤمناً أنْ يكون له موقف فى البذل ، ولو كان بَذْلاً سلبياً .

ومن معانى اليد : القوة كما فى قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. ۝١٠﴾ [الفتح] فالمراد ﴿أُوْلِي الأَيْدِى.. ۝٤٥﴾ [ص] أى : أصحاب القوة فى طاعة الله .

و﴿الأَبْصَارِ ۝٤٥﴾ [ص] أى : البصائر فى العلم والدين والحكمة ، أما الأبصار بمعنى حَاسَّة البصر ، فهى موجودة فى الجميع المؤمن وغير المؤمن ، إذن : المراد الأبصار التى ترى ثم تؤدى مهمة أخرى فوق البصر ، وتزيده نوراً على نور .

إذن : البصر وحده لا يكفى لأن آيات الله فى الكون هى المعطيات ، كما نقول فى المسألة الرياضية ، وهذه المعطيات تحتاج إلى بصيرة واعية لتصل بالمعطيات إلى المطلوب ، وهو الإيمان بمَنْ أعطى هذه المعطيات .

فالأبصار حينما تنظر فى الكون ، وترى معطياته ، وترى آيات الله فيه ، ثم لا تتأثر عقلياً ولا وجدانياً بها ، ولا تلتفت إلى صانعها ومبدعها ، فلا قيمة لهذه الأبصار .

فالمعنى ﴿الأَبْصَارِ ۝٤٥﴾ [ص] أى : أصحاب البصائر التى شغلتْ العقول والوجدان ، بما تراه من الآيات ، وعلمت أن هذا الكون لا يمكن أنْ يُنسَب إلا إلى قوة قادرة ظاهرة مسيطرة ، لا يوجد لها شريك ، وإلا لو كان له شريك لظهر أثره ، ولدافع عن حقه فى هذا الملْك ، وما دام لم يظهر هذا المعارض ولم يدَّعِ أحد أنه خلق ، فالقضية تَسْلَم لمن ادعاها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وقدَّم الأيدى على الأبصار ، لأن عمل الأيدى نتيجة نهائية للبصر ، لأنك تبصر آيات الله فى كونه ، وتعرف أنه ربُّ الجميع ، وخالق الجميع ، ورازق الجميع ، فيرقّ قلبك للفقير وتعطيه ، لعلَّكَ تصبح مثله فى يوم ما فتجد من يعطيك ، ولا تحقد على واجد وأنت معدم ، لأن خير الواجد سينالك بأىِّ حال .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

ولنعتبر بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) ﴾ [ص]

أخلصناهم يعنى : أعطيناهم شيئاً خالصاً لهم ، والخالصة التى خصصناهم بها هى التى تلفتهم دائماً إلى دار الجزاء وهى الآخرة ، وبهذه الذكْرى يظل الإنسان دائماً مُسْتحضراً ثوابَ الطاعة وعقابَ المعصية ، وإذا استحضر الإنسان هذه العاقبة استقام على الطاعة وابتعد عن المعصية .

لذلك يقول ﷺ فى بيان هذه المسألة : « .. لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

لماذا نفى عنه الإيمان فى هذه اللحظة ؟ قالوا : لأنه غفل عن

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عاقبة فعْله غفل عن الجزاء ، فالغفلة هى التى تكسلنا عَن الطاعة ، وتُوقعنا فى المعصية ، وتُغرينا بها ، ولو استحضر الإنسانُ العقوبة على المعصية ما وقع فيها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : لو أن شاباً عنده شرهٌ جنسى . وقلنا له : سنوفر لك ما تريد ، لكن بعد أنْ تقضى ليلتك سنأخذك إلى هذا الفرن المسجور ، ونضعك فيه لمدة ساعة واحدة ، مثل هذا الشاب ما ظنكم به ؟ لا بُدَّ أنه سيفر من هذه المعصية ، ويهرب منها ، ويزهد فيها ، لماذا ؟ لأنه عاين العاقبة واستحضر الجزاء .

كذلك الطالب الذى يجتهد فى دروسه ، حتى أنه يهمل فى أكله وشربه ، لماذا يفعل ذلك ؟ لأنه استحضر لذة النجاح وشرف التفوق وعُلُوّ المنزلة بين أهله وزملائه ، وفى المقابل الطالب المهمل لا يهمل إلا لأنه غفل عن عاقبة الإهمال وذلّة الفشل يوم أنْ تظهر نتيجته .

فمعنى ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) ﴾ [ص] أى : يظل دائماً على ذكْر لها يستحضر الثواب على الطاعة ، فيقبل عليها ، ويستحضر العقاب على المَعصية فيفرّ منها .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) ﴾ [ص]

أى : الذين اصطفيناهم ، ولله تعالى فى الخَلْق اصطفاءات يصطفى من الأماكن ، ويصطفى من الأزمنة ما يشاء ، كما اصطفى من الأمكنة الكعبة وبيتَ المقدس ، واصطفى من الأزمنة شهر رمضان كذلك يصطفى من الناس رسلاً ، ويصطفى من الملائكة رسلاً .

والاصطفاء ليس تدليلاً للمصطفى ولا محاباة له ، إنما ائتمان المصطفَى على ما يريده من اصطفاه أى المصْطِفى من إشاعة الخير

فى جنسه ، فاصطفاء الرسل ليس تدليلاً لهم ، إنما الاصطفاء يُحمِّلهم أعباء جسيمة فى ذواتهم وأنفسهم وفى أموالهم وأهليهم .

كذلك اصطفى رمضان لا لنعبد الله ونطيعه فى رمضان وحده ، إنما ليشيع الطاعة فى الزمان كله بأنْ تأخذ من رمضان الطاقة اللازمة للعام كله ، إذن : فاصطفاء الزمان أو المكان أو الإنسان أو الملائكة ليس تدليلاً لخَلْق على خَلْق ، إنما لإشاعة الخير فى كل الخَلْق للخَلْق .

ومعنى ﴿ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص] جمع خيِّر . والمعنى : اصطفيناهم لما فيهم من الخيرية ، التى تُؤهِّلهم لهذا الاصطفاء .

﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

سيدنا إسماعيل معروف لنا جميعاً من خلال قصته مع أبيه إبراهيم ، والخلاف هنا بين العلماء فى سيدنا ذى الكفل ، لأن من الرسل مَنْ عدَّهم الله فى موكب الرسالات ، لكن لم يذكر لنا إلا أسماءهم وأوصافهم ، وذو الكفل ذُكر هنا بهذا الوصف .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص] فاليسع لا نعرف عنه إلا اسمه ، ولم يذكر القرآن مَنْ هو ، ولا متى بُعث ، ولا إلى مَنْ أرسل ، ولا المنهج الذى جاء به ، كذلك فى ذى الكفل لم يذكر عنه القرآن إلا اسمه ، ووصفه هنا بأنه من المصطفين الأخيار ، وفى سورة الأنبياء قال عنه الحق سبحانه : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء]

فوُصِف مرةً بأنه من الأخيـار ، ومرة بأنه من الصابرين ، ومرة من الصالحين ، ولهذا أدخله الله فى رحمته ، وهذه التى جعلت العلماء يختلفون فى ذى الكفل ، أهو رسول أم غير رسول ؟ لكن جمهور العلماء[1] على أنه رسول ، بدليل أن الله تعالى سلكه ضمن هؤلاء الرسل .

ومما قيل فى ذى الكفل أنه فى فترة اليسع وفى رسالته أراد أن يستخلفَ على الناس رجلاً بعده ، وأراد أنْ يرى سيرته فى الرعية ، وكيف سيتصرف هذا فى أخريات حياته ؟ وحين رأى أن قوته عجزتْ عن القيام بأمر الدعوة . وكان من حرصه على الدعوة من بعده أنْ يختبر مَنْ يستخلفه وينظر ما يفعل .

فلما جلس اليسع فى قومه قال : مَنْ يتقبل منى بثلاث ؟ والباء عادة كما فى هذه العبارة تدخل على الثمن ، كما تقول : اشتريتُ كذا بكذا ، والمعنى : مَنْ يتكفل لى بثلاثة أشياء وأستخلفه على القوم ، ثم قال فى بيان هذه الثلاث : أنْ يصومَ النهار ، ويقومَ الليل ، ولا يغضبَ . فقام رجل من القوم تزدريه العين وقال : أنا ، فأعاد عليه : أنت تصوم النهار ، وتقوم الليل ، ولا تغضب ؟ قال : نعم ، فردَّه .

وفى الغد ، جلس اليسع فى مجلسه ، وعرض على القوم مقالته ،

---

(١) يرى بعض العلماء أنه ليس بنبى ، وإنما هو رجل من الصالحين من بنى إسرائيل وقد رجَّح ابن كثير نبوته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء ، فقال جل وعلا فى سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾ [الأنبياء] . قال ابن كثير فى البداية والنهاية (١/ ٢٢٧) : « فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى عليه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور » .

فقام الرجل بعينه وقال : أنا ، فعرف اليسع أن الرجل عنده عزيمة وإصرار على القيام بهذه المهمة ، فاستخلفه على القوم[1] .

وقد تكلم العلماء فى هذه الشروط الثلاثة التى جعلها سيدنا اليسع - عليه السلام - حيثيات الاستخلاف ، قالوا : لأن الذى يصوم النهار يصوم عما أحله الله فى غير الصوم ، والذى يصوم عَمَّا أحله الله يصوم من باب أَوْلَى عما حرَّمه الله ، فضمن بذلك بُعْده عن المحرمات . والذى يقوم الليل ترك راحته وترك التنعُّم ليأنس بربه ، ومَنْ كانت فيه هذه الصفة لا يتخذ الاستخلاف للنعمة والرفاهية إنما يتخذه للقيام بأعبائه ، وإلا لو أراد التنعُّم لَنام الليل ملْء جفونه .

أما عدم الغضب فهى صفة لا بُدَّ أنْ تتوافر فى كل مَنْ يسوس الرعية ، أو يجلس فى مجلس حكم بين الناس ، ومعلوم أن للرعية أخلاقاً شتى وصفات متباينة ، فلا بُدَّ لمن يتولّى أمرهم أنْ يكون حليماً لا يغضب ؛ لأن الغضب يستر العقل ، فلا يختار بين البدائل ، ولا يُحسن التصرف فى الحكومة .

لذلك قالوا للقاضى حين يغضب : ردَّ نفسك ، يعنى : أنت لا تصلح لمنصب القضاء . إذن : قال ولا تغضب لأن العقل يتأثر بالغضب ، فتختلف موازينه فى الحكم ، وتختلف كذلك ملَكات النفس فلا يصح الحكم .

---

(١) أورد السيوطى هذا الخبر عن ذى الكفل مع نبى الله اليسع فى الدر المنثور (٥/٦٦١) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد (٥/٦٦٣) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن الحارث (٥/٦٦٣) وعزاه لابن سعيد النقاش فى كتاب القضاة عن ابن عباس .

قالوا فى مسألة عدم الغضب : إن الشيطان لم يستطع التدخُّل فى صيام النهار وقيام الليل ، فأراد أنْ يدخل إليه من ناحية عدم الغضب ، فأرسل إليه ذريته ليُغضبوه فلم يغضب ذو الكفل ـ عليه السلام ـ فقال لهم : ارفعوا أيديكم عنه وسأتولى أنا هذا الأمر ، وكان ذو الكفل لا ينام إلا نومةً واحدة فى القيلولة ، هى كل ما ينام فى الليل والنهار ، وكان يأمر خادمه ألاَّ يدخل أحد عليه فى هذا الوقت ، فكان الشيطان يتحيَّن هذا الوقت ، ويطرق على ذى الكفل الباب ، ويُحدث عنده ضجة يقول : أنا رجل ظلمنى قومى وفعلوا بى كيت وكيت وأريد أنْ تنصفنى منهم .

فقال ذو الكفل : ألاَ تعلم أن هذا الوقت هو الوقت الذى أستريح فيه ، اذهب وتعالَ فى وقت أجلس فيه للحكم بينكم ، وأنا أقضى فى أمرك .

وفى اليوم التالى ، جاء الشيطان وفعل كما فعل بالأمس ، وفى اليوم الثالث وجد الباب مغلقاً فنفذ إلى ذى الكفل بطريقته الخاصة ، قالوا : دخل من كوة فى البيت فى غفلة من الحارس ، وطرق على ذى الكفل باب مخْدعه ، فلما رآه قال : كيف دخلتَ ؟ فتلعثم . قال : إذن : أنت هو . أى الشيطان قال : والله لقد احتلنا كثيراً على أنْ نغضبك فلم نفلح ، ثم تركه وانصرف[1] .

أما عن خلاف العلماء فى رسالة ذى الكفل ، فأنا أريد أنْ أُجلَّ العلماء عن الخلاف فى شىء يصح أن نلتقى فيه . قالوا : الكفل من التكفُّل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أورد السيوطى هذه القصة فى كتاب الدر المنثور (٥/٦٦١) عن مجاهد وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم .

والكفْل : هو النصير .

والذين قالوا برسالته استدلوا على ذلك بأمرين : الأول أن الله ذكره فى عداد الرسل ، الآخر : أن اليسع - عليه السلام - استخلفه . والحق سبحانه وتعالى سكت على هذا الاستخلاف ولم يُغيِّره ، وهذا إقرار للاستخلاف وموافقة عليه ، كما وافق الحق سبحانه لموسى - عليه السلام - لما طلب من ربه أن يُؤيِّده بأخيه هارون ، فقال :

﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِى .. (٣٤) ﴾ [القصص]

قال آخرون : بل هو رجل متطوع بالدعوة ، فَسَدَ الناس فى زمانه ، ورأى أن هذا الفساد لا يصلحه إلا رجلٌ له عدالة فى الحكم ، ونزاهة فى القضاء بين الناس ، ورأى فى نفسه هذه المواهب ، فعرض على قومه أن يقوم بأمرهم ، وأنْ يسيرَ فيهم بالعدل فوافقوا عليه . إذن : ذو الكفل فى رأى هؤلاء أنه ليس رسولاً ، بل رجل متطوع بمنهج كمنهج الرسل .

﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٩) جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هَذَا ﴾ أى : ما تقدم من موكب الرسل ﴿ذكْرٌ﴾ تذكير كما فى قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا

(١) الردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

الأُخْرَىٰ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

يعنى : هذا الذى ذكرناه من موكب الرسل ومن موقف الأمم معهم ، وكيف أنهم تحمَّلوا تفاهة القوم وقلَّة أدبهم مع أنبيائهم ، وتحمَّلوا الاجتراء باللسان وبالجوارح ، نذكر هذا لمحمد الذى يَلْقى من قومه ما يَلْقى من الأذى لنذكره أنه ليس بدْعاً فى الرسل ، وأن ما جرى لإخوانه المرسلين لا بُدَّ أنْ يجرى له ، وإذا كنا نقيس الابتلاء بمقدار الرسالة فنصيبُ محمد ﷺ فى هذا الإيذاء أكبر من نصيب الرسل أجمعين .

فقوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ .. (٤٩) ﴾ [ص] تسليةٌ لسيدنا رسول الله حتى يعلم أنه ليس بدْعاً فى ذلك ، وأن عظمته فى أنْ يتلقَّى سفاهة القوم ؛ لأن القومَ حين يسفهون على الرسول يدلُّ ذلك على أنهم منتفعون بالفساد الشائع فى قومهم ، وما جاء الرسول إلا ليقضى على هذا الفساد ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسولُ خَصْماً لهؤلاء ، وكلما تصدَّى لفسادهم اشتدتْ عداوتهم له ، وإيذاؤهم وسخريتهم منه ، واتهامهم له بالكذب والسحر والجنون .. إلخ .

فهذه إذن سنة الله تعالى فى كل مَنْ يتصدَّى للدعوة ويجابه الفساد فى المجتمع ، لا بُدَّ أنْ يجد مَنْ يجترىء عليه ويتهمه بالباطل ، ويحاول النَّيْل منه والتشكيك فى قصده ، هذا رَدُّ فعل طبيعى إذا وجده الداعية ينبغى أنْ يُسَرَّ به ، فهو إشارة وعلامة تدلّ على نجاحه فى مسعاه ، وأنه نال منهم وغاظهم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) ﴾ [ص] أى : مرجع حسن إلى الله يوم القيامة ، فهى تتحدث عن الآخرة وما ينتظره ﷺ من الجزاء الحسن ، ففى الآية عطاءان لرسول الله :

الأولى : تسليته ﷺ فى قوله : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ..(٤٩)﴾ [ص] ثم ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص] كأنه تعالى يقول : هذا الذى ذكرناه ذِكْر لمحمد كى نُسَلِّيه ، لكن الأهمّ من ذلك ما ينتظره من الجزاء الَحسن فى الآخرة ، الواو هنا عطفت ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص] على ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ .. (٤٩)﴾ [ص]

والمتقون مادتها : وَقَى يعنى حال بين شىء يصيبه ، وبين نفسه ، واتقى الشىء جعل بينه وبين الشىء وقايةً تحميه . وإذا نظرنا إلى هذه المادة فى القرآن نجد الحق سبحانه يأمر بالتقوى تكليفاً يكلف الإنسان أنْ يقى نفسه مما يعُود عليه بالشر ، وقد أتتْ هذه المادة بلفظ : اتقوا الله ، واتقوا ربكم ، واتقونى ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة.

وكلها تلتقى فى معنى واحد ، لأن لله تعالى كما قلنا صفات جلال وصفات جمال ، فمعنى اتقوا الله: اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال لله وقاية ، مثل : المنتقم الجبار القهار .. إلخ .

وهذه الصفات هى التى ترهب المخالف وتردعه ، فاتقوا صفات الجلال من الله ، لأنه سبحانه قادر أنْ يبطش بكم وليس لكم جَلَد على انتقام الله أو التعرُّض لأثر هذه الصفات .

وبنفس المعنى : اتقوا النار لأنها جُنْد من جُنْد الله ، وأثر من آثار صفات الجلال .

وفى موضع واحد من القرآن وردتْ التقوى بلفظ (واتقوا) دون ذكر للمتقَى ، وكأن هذا اللفظ جاء ليدلّ على شمول التقوى أو مطلق التقوى ، فهى تعنى : اتقوا الله ، واتقوا النار ، واتقوا الفتنة .. إلخ .

ومعنى ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩)﴾ [ص] يعنى : حُسْن مرجع ، لكن أىّ

مرجع ؟ للعلماء فى المرجع كلام فلسفى يقولون : أى مرجع الروح ومردّها إلى الأجساد يوم القيامة ، وهذا كلام لا وزنَ له ؛ لأننا نفهم المرجع والمردَّ إذا لاحظنا الخَلْق الأول ، والخالق سبحانه قبل أنْ يخلق الخَلْق أخذ عليهم العهد ، وهم ما يزالون فى مرحلة الذَّرِّ .

كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : إيمان الفطرة فى عالم الذرِّ والشهادة لله تعالى بأنه الربُّ الخالق المُربِّى تستدعى أن يكون المرجع إليه سبحانه والمردّ إليه للحساب ، هل قابلتم هذه الشهادة بالطاعة أم بالعصيان ؟ فمن أدّى العهد القديم واستصحبه إلى العهد الجديد فقد فاز وله حُسْن مآب ، وأما مَنْ ظلم نفسه وخالف العهد الذى أخذه على نفسه فقد خاب وخسر ، وله فى الآخرة مآب الشرِّ والسُّوء .

ولما كان حُسْن المآب كلمة عامة مُجْملة أراد الحق سبحانه أن يُفصِّلها وأنْ يوضحها لنا ، فقال : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) ﴾ [ص] فكلمة جنات عدن بدل من حُسْن مآب ، فكأن الحق سبحانه حصر حُسْن المآب فى جنات عدن ، والجنات جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالأشجار المتشابكة التى تستر مَنْ يسير تحتها ، أو لأنها تجنّ مَنْ يسير فيها وتحبسه عن الخروج فيها أو الحاجة لغيره ؛ لأن فيها كلّ ما يحتاجه ، وهذا هو معنى الجنة فى الدنيا أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

ومثَلُ الجنة التى دخلها آدم ـ عليه السلام ـ ليتلقَّى فيها من الله التجربة التكليفية بافعل ولا تفعل ، لكن نسمع مَنْ يقول أن آدم كان فى جنة الآخرة ، وأخرجه الله منها إلى الدنيا ، وهذا لا يستقيم لأن أول إخبار من الله عن آدم لم يقُلْ أنِّى خلقته للجنة ، إنما قال : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

أما مسألة دخوله الجنةَ أى جنة الدنيا ، فذلك لأنك حين تريد أنْ تدرِّب شخصاً على عمل ما فإنك لا بُدَّ أنْ تتكفَّل له بالإقامة والنفقة ، وتوفر له مُقوِّمات حياته بالطريقة التى تتيح له التدريب والقيام بالمهمة التى كلف بها ، وهكذا فعل الله تعالى لآدم ، فلما نسى ما أمره الله به واتبع الشيطان تغيَّرتْ طبيعته ، ولم يَعُدْ صالحاً للإقامة فى هذه الجنة ، كما قال سبحانه : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا .. (٢٢)﴾ [الأعراف]

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يشعر فيها آدم بسوأته لأنه خالف أمر ربه ، كذلك إذا رأيتَ عورة ظهرتْ فى الأرض إلى أنْ تقوم الساعة فاعلم أنها نتيجة مخالفة لمنهج الله أو تعطيلٍ لحكم من أحكامه ، وإلا ما الذى جعل هذه الفتحة فى آدم عورة ، وهى لا تختلف عن أىِّ فتحة مثلها فى الجسم ، ما الفرق بينها وبين فتحة الفم مثلاً ؟ إذن : متى كانت عورة ؟

كانت عورة حين أصبح لها مُسْتقذرات ينفر منها طبْع الإنسان ، وكيف تكونتْ هذه المستقذرات ؟ تكوَّنت لأنه أكل على خلاف منهج ربه ، بدليل أنه لما أكل وفْق ما أمره الله لم تكُنْ له فضلات ، كان يأكل من طهى الله ، يأكل على قَدْر استبقاء الحياة .

لكن لما خالف وأكل من الشجرة تكوَّنتْ الفضلات وظهر أثرها المستقذر ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. (٢٢) ﴾ [الأعراف] يريد أنْ يستر هذه العورة وأنْ يداريها ، لكنها أصبحتْ عادة لازمة للإنسان إلى الأبد ، سوأة لا تُستر ولا تُدفع ، إذن : صارت سوأة بالمخالفة .

لذلك نجدهم فى الحروب وميادين القتال يعطون الجنود أقراصاً مغذية تفيد الجسم ، ولا تترك فضلات ، ولا تزحم المعدة .

ولو تنبَّه آدمُ لوسوسة الشيطان ما طاوعه وما أكل من الشجرة ؛ لأنه أغواهما بقوله : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف] فى حين أنه يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم يُبعثون ، ولو علم أن هذه الشجرة تبقيه وتُخلده لأكل هو منها ، أليس هو القائل :

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) ﴾ [ص]

إذن : كان الشيطان كذاباً ، لكن لم يتنبه آدم لكذبه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) ﴾ [طه]

لكن لماذا يقع آدم ـ عليه السلام ـ فى هذا الابتلاء ؟ قالوا : لأن آدم سيكون أباً للبشر جميعاً ، وسيكون ممثلاً لصنفيْن منهم ، صنف معصوم من الخطأ وهم الأنبياء والرسل ، وصنف يخطيء وهم عامة الناس ، إذن : لا بُدَّ أنْ تتمثل فى حياته هاتان الصورتان ، وقد وقع منه العصيان وهو فى الجنة فى فترة الاختبار التكليفى كما قلنا ، وعصيانه هذا لا ينافى عصمة الأنبياء ، لأنه لم يكُن قد نُبيِّء بعد ، لكن تاب آدم فتاب الله عليه ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. (٣٧) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

إذن : كان الاجتباء والاختيار للنبوة بعد المحنة التى وقع فيها ، وبعد الاجتباء عصم آدم عصمة الأنبياء . وكلمة ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ .. (١٢٢) ﴾ [طه] دلتْ على التعقيب ووجود مدة بين عصيان آدم واجتبائه.

إذن : قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٥٠) ﴾ [ص] أى : فى دار الجزاء ومعنى ﴿ عَدْن ﴾ يعنى : إقامة دائمة لا تزول ولا تنتهى ، وقال (عَدْن) لأن جنات الدنيا ينتفع بها صاحبها مدة ثم تزول ، فإما أنْ تصيبها جائحة ، كما فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الجنة: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ[2] مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[3] (٢٠) ﴾ [القلم] وإما أن يموت هو ويتركها لغيره .

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُطمئن أهل طاعته بأن الجنة التى أعدَّها لهم باقية دائمة لا تزول ، جنات إقامة دائمة خالدة ، لا يفوتك نعيمها ولا تفوته .

وقوله سبحانه : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) ﴾ [ص] مُفتحة اسم مفعول يدل على المبالغة وكثرة تفتيح الأبواب ، فمَن الذى يفتحها ؟

---

(١) يصرمنها : يقطعون ثمارها . والصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

(٢) أى : أحاط بها دمار وهلاك سلطه الله عليها . والطائف هنا العذاب المحيط . [القاموس القويم ١/٤٠٩] .

(٣) كالصريم : أى أصبحت حديقتهم بعد احتراقها كالليل المسودّ ، أو صارت كالأرض التى قُطعت أشجارها ولا نبات فيها . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

يجوز فتحها الخزنة ساعة يرونْ أهل الجنة قادمين يفتحونَ لهم ويحيونهم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

كما نرى مثلاً فى الفنادق الكبيرة ، يقف الحراس والحُجَّاب على الباب ، وساعةَ يأتى الزائر يفتحون له الباب ، لكن لما ارتقوا بهذه المسألة رأينا الأبواب تُفتح وحدها أتوماتيكياً بمجرد الاقتراب منها ، فإنْ دخل الزائر تُغلق أيضاً تلقائياً . فيجوز أن الأبواب تُفتح بفعل الملائكة ، أو تُفتح بمجرد إرادة أهل الجنة ، فساعةَ يريد أنْ يدخل تُفتح له دون تدخُّل من أحد .

فإذا كان البشر قد توصَّلوا إلى هذه الدرجة فى مسألة فَتْح الأبواب ، فهذا التقدُّم يؤيد ما جاء به القرآن ، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ(١) عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

لقد رأينا هذه السُّقف وهذه المعارج ، وقد يُراد بها السلالم والأسانسيرات التى نصعد فيها الآن ، وقد نزل هذا الكلام منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان على أمة أمية مُتبدية ، لا تعرف المبانى ، إنما تسكن الخيام وبيوت الشَّعر والوَبَر .

إذن : فى القرآن لقطات تدلُّك على أن فى كتاب الله رصيداً لكل ما يجدُّ فى حياة الناس ، فإنْ تعجبتَ لشىء فى كتاب الله فاعلم أن الواقع يؤيده ، وأنكم أيها الخَلْق ستصلون فى علومكم وارتقاءاتكم إلى

---

(١) المعارج : المصاعد والدَّرَج . والمعراج : السُّلَّم [لسان العرب ـ مادة : عرج] . ويظهرون فى الآية : يعلون .

مثْل ما تتعجبون منه ، فإذا كنتم قدرتم أنْ تفعلوا ذلك فاسمحوا لله تعالى أنْ يفعله من باب أوْلَى .

ثم يقول سبحانه فى وصف أهل الجنة ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا .. (٥١) ﴾ [ص] المتكيء هو ما بين النائم والجالس ، أو ما بين النائم والقاعد ؛ لأن هناك فَرْقاً بين قعد وجلس - وإنْ كان المعنى واحداً - لأن قعد تكون عن قيام ، كان قائماً فقعد ، أما جلس فمن الاضطجاع ، يعنى كان مضطجعاً فجلس .

والإنسان حين يكون قائماً يحمل وزنه كله على القدمين ، فإنْ تعب من القيام قعد ، وفى القعود يكون ثقل الجسم على المقعدة ، فإنْ تعب من القعود اتكأ على جنبه .. وهذا وَضْع بين الجلوس والاضطجاع على الأرض ، ويُوزع فيه ثقل الجسم فيكون أكثر راحة للإنسان .

لذلك اختاره الله لأهل الجنة ، واختارته امرأة العزيز للنسوة اللاتى استضافتهن . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١) ﴾ [يوسف] فالمتكأ دَلَّ على أن المجلس لا يُمَلُّ ، وأن الاتكاء هو الوضع الذى يأخذ فيه الإنسان راحته .

وقال تعالى فى أهل الجنة : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[1] وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً فى سورة الرحمن : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ

---

(١) الإستبرق : الديباج الغليظ ، وهو من الحرير الطبيعى ، ويصلح للشتاء لأنه مدفيء وللملابس الخارجية . [القاموس القويم ١/١٨] .

(٢) الرفرف : الرقيق من الديباج (الحرير) تبسط ويُجلس عليها فى المجالس .

وَعبقَرِىٍّ[1] حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً في بيان مُتكأ أهل الجنة : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ..﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : أهل الجنة يتكئون إما على الفرش المُبطَّنة بالإستبرق ، وهو الحرير السميك الغليظ ، وهو يشبه ما نسميه الآن (الستان) ، وإذا كانت هذه الفرش حشوها وبطانتها من إستبرق ، فما بالك بظاهرها ؟

ومعنى (رَفْرَف) هو ما نسميه الآن الكرانيش الموجود مثلاً في الستائر . ومعنىً (الأرائك) مفردها أريكة ، وهى السرير الذى تُوضع عليه الحليات والستائر أشبه (بالنموسية) مثلاً . هذه هى مُتكاءات أهل الجنة .

لكن ماذا بعد أنْ يتكىء ؟ لابُدَّ لتمام النعيم من الطعام والشراب فهو لا يتكىء ويصوم ، إنما ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [ص] فكأن التحية التى تُقدَّم لهم هى ما تشتهيه نفوسهم . يعنى : لا يقدم لهم شيئاً على غير مرادهم ، إنما حسب ما يرغبون وما يشتهون ، فالتحية ليستْ مُلزمة للجميع ؛ لأنها قد لا تصادف هَوىً فى النفس ، وقدَّم الفاكهة مع أنها تفكُّهٌ ورفاهية بعد القوت الطبيعْى والضرورى ، قالوا : وجود الفاكهة أو التفكُّه دليل على وجود الضروريات من باب أَوْلَى .

وقوله ﴿وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [ص] المراد الشراب المستخرج من العنب ، وخَصَّ الفاكهة والشراب لأنها لم تكُنْ موجودة فى البيئة التى نزل فيها القرآن ، فكان لها لذة عندهم ، فهم لا يعرفون فى طعامهم

---

(١) عبقر : اسم موضع يزعم العرب أنه مسكن الجن ، ولذا نسبوا إليه كل شىء عجيب . وقيل: عبقر بلدة باليمن تُصنع فيها البُسط الموشَّاة وإليها يُنسب كل شىء حسن عجيب الصنعة . [القاموس القويم ٢/٥] .

إلا التمر والبُرّ والشعير ، فذكر لهم ما يشتهونه من الطعام والشراب .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾ [الواقعة]

وفى سورة البقرة يُبيِّن لهم أن فاكهة الآخرة تختلف عما يعرفونه من فاكهة الدنيا وإنْ تشابه الاثنان ، فالشكل واللون واحد ، لكن المذاق مختلف ، قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : الثمرة هى الثمرة ، تفاح مثل التفاح ، حتى أنك تقول : هذا الذى أكلتُه فى الدنيا ، والحقيقة أنه مختلف تماماً لأنه مُعَدٌّ لك بطلاقة القدرة .

وفى مواضع أخرى يوضح لنا القرآن الكريم مجلسَ أهل الجنة فيحدثنا مرة عن الفُرُش والمتكأ ، فيقول : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) ﴾ [الغاشية]

النمارق جمع نمرقة ، وهى التكاية التى نتكىء عليها . والزرابى : جمع زربية ، وهى البساط المنقوش . وإذا حدَّثنا عن أدوات الشراب يقول مرة (أكواب) ومرة (أباريق) ومرة (كأس) .

هذه كلها أوعية للشراب ، لكن هناك فرقاً بين هذه الثلاثة : فالكوب هو الإناء الذى ليس له عُرْوة ولا خرطوم ، عروة يعنى يد يُمسك منها . والخرطوم هو الذى نسميه (البزبوز) الذى يُصَبُّ منه الماء ، فإنْ كان له عروة أو خرطوم سُمِّى إبريقاً ، فإنْ كان فى الكوب شرابٌ سُمِّى كأساً ، يعنى : الكأس هو الكوب إنْ كان ممتلئاً ، وإن كان فارغاً فهو كوب .

ومن عادات العرب فى الكاسات أن الواحد منهم لا يشرب كلَّ ما فيها ، إنما يُبقى فيها كمية من الشراب ، ثم يريقها على الأرض ، وفى هذا دلالة على عدم الشَّرَه وعدم الطمع ، أو دلالة على امتلاء العين والاستغناء .

وقد عَبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

وللأرْضِ مِنْ كَأْسِ الكِرَامِ نَصِيبُ[2]

وكنا قبل أن نذهب إلى طعام أحد الإخوان حين نُدْعَى إليه نأكل أكلةً خفيفة ، أو طبقاً نسميه طبقَ الكرامة ، حتى لا نجلس على الطعام ونحن متلهفون للطعام ، فلا يليق بالكريم أنْ يُقبلَ على الطعام بشَرَهٍ ، كأنه لم يَرَ طعاماً من قبل .

ومن عادات العرب أيضاً فى شرابهم أنهم لا يملئون الكأس إلى آخرها ، حتى يستطيع الشارب أنْ يُميز الشراب من الكأس التى وُضِعت فيه ، وهذا يدل على صفاء الشراب أو صفاء الكأس .

لذلك قال شاعرهم :

لَوْلاَ انْتِصَافُ الكأْسِ خِلْنَا أنَّهاَ ... فِى كَفِّ سَاقِيهَا تقوم بِذَاتِها

يعنى : لو مُلِئت الكأس لَخِلْتَ أنها كأس بلا شراب ، أو شرابٌ بلا كأس .

---

(١) الشاعر هو : عبد الغنى النابُلسى ، شاعر عالم بالدين والأدب متصوف ، ولد فى دمشق عام ١٦٤١ م ونشأ بها ورحل إلى بغداد وفلسطين ولبنان ومصر والحجاز ، وتوفى بدمشق ١٧٣٠م عن ٨٩ عاماً ، له مصنفات كثيرة جداً منها تعطير الأنام فى تعبير المنام .

(٢) تمام البيت : شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل ، عدد أبياتها ثلاثة أبيات .

لكن ماذا يطلب أهل الجنة بعد الاتكاء وبعد الأكل والشرب مما تشتهيه أنفسهم ، قالوا : الإنسان بعد أن تتوافر له هذه النعم يتطلع إلى حسناء يداعبها تكون له وحده لا يشاركه فيها غيره ، لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

معنى ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. (٥٢) ﴾ [ص] أى : تقصر الواحدة منهن عينيها فلا تمتد إلى غير مالكها فلا يطمع أحد أن ينظر إليها ، والطرف أو العين لها أثر ولها كلام ولغة ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾ [يوسف] إلى أن قال سبحانه حكاية عن يوسف : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾[يوسف]

فالقصة كانت مع امرأة واحدة هى امرأة العزيز ، فكيف يقول هنا ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [يوسف] و ﴿ كَيْدَهُنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف] و ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف] هكذا بصيغة الجمع .

إذن : لا بُدَّ أنهن ساعةَ رأيْنَهُ نظرتْ إليه كُلٌّ منهن نظرة استدل منها على أنها تهواه ، فالنظرة إذن لغة تحمل كلاماً ، وتُعبِّر عما فى نفس صاحبها ، لذلك تكلم يوسف عنهن جميعاً ، لا عن امرأة العزيز وحدها . لذلك لما أراد العزيز أنْ يستدعيه قال : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَة

اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ .. ﴿٥٠﴾ [يوسف] والكلام كان فى البداية عن امرأة العزيز .

ومن النظرات التى كانت لها دلالاتٌ فى أدبنا العربى ما حُكِى عن أبى دلامة[1] لما دخل على الخليفة[2] وحوله الأعيان ، وأراد الخليفة أنْ يداعبَ أبا دلامة فقال له : يا أبا دُلاَمة ، لتهجونَّ واحداً منا أو لأقتلنَّكَ ، فوقف أبو دلامة يفكر فيما يقوله ، وجعل الحاضرون ينظرون إليه ، كُلٌّ يقول له بالنظرة لا تَهْجُنى ، ولك ما تشاء من العطاء ، فواحد يُرغِّبه وواحد يُرهِّبه .

وأخيراً ، رأى أبو دلامة أنْ يُرضِىَ الخليفة ويهجو نفسه طمعاً فيما ينتظره من عطاء هؤلاء الأعيان ، وفوجىء الجميع بأبى دلامة يقول[3] :

أَلاَ أبلغ لديْكَ أبَا دُلاَمَةَ ... فَلَيْسَ مِنَ الكرام وَلاَ كَرَامَه
إِذَا لَبِسَ العِمَامَةَ كَانَ قِرْداً ... وَخِنْزِيراً إِذَا نَزَعَ العِمَامَه

واغتنى أبو دلامة من جراء هذه الدعابة .

فمعنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص] أى : تَغضّ طرفها

---

(١) أبو دلامة هو : زند بن الجون الأسدى ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون جسيم وسيم ، كان أبوه عبداً لرجل من أسد وأعتقه ، نشأ فى الكوفة ، واتصل بالخلفاء من بنى العباس فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه أعطياتهم ، وله فى بعضهم مدائح . كان يُتهم بالزندقة لتهتكه . وأخباره كثيرة متفرقة . توفى عام ١٦١ هجرية .

(٢) هو : الخليفة المهدى العباسى ، محمد بن عبد الله أبو عبد الله ، المهدى بالله ، ولد ١٢٧ هـ وتوفى ١٦٩ عن ٤٢ عاماً ، أقام فى الخلافة ١٠ سنين ، كان محمود السيرة ، حسن الخُلُق والخَلْق ، كريماً ، بانى جامع الرصافة . (الأعلام للزركلى) .

(٣) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات .. وذكرهما أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى ، وابن عبد ربه فى العقد الفريد ، والنويرى فى « نهاية الأرب فى فنون الأدب».

عن غير مالكها ، وهذه للخصوصية المطلوبة فى المرأة بالذات ؛ لأنك تجد الرجل مهما كان سَمْحاً كريماً يجود بكل ما يملك على مَنْ يحب إلا المرأة ، فإنه لا يطيق مجرد أنْ ينظر أحد غيره إليها ، فهذه صفة للمؤمن فى الدنيا ، وهى أيضاً صفته فى الآخرة .

لذلك نقول : إن من عجائب ما يفعله الإيمان بأهله ومن مزاياه ، أنه لا يخلع العقائد من القلوب ولا الاختيار من العقول فحسب ، بل يخلع الاتجاه من العاطفة أيضاً ، وقد رأينا ذلك فى قصة المهاجرين والأنصار ، فالإيمان خلع من القلوب الكفرَ ، وخلع من العقول حُبَّ العناد فى الاختيار ، ثم خلع أقوى العواطف وهى عاطفة الرجل نحو امرأته .

ألم يَقُل الأنصاريُّ لأخيه المهاجر الذى جاء بغير أهله : انظر إلى زوجاتى ، فأيّهنّ أعجبتْكَ أطلقها لتتزوجها أنت[1] . إلى هذه الدرجة فعل الإيمانُ بالمؤمنين الأوائل .

ومعنى ﴿ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص] أى : متساويات فى الحُسْن أو فى السنِّ بحيث لا تميز منهن واحدة عن الأخرى ، فكُلُّهن جميلات فى

---

(١) آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة إلى المدينة ، فكان أن آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذه . وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دُلونى على السوق ، فدلوه على السوق فاشترى وباع فربح فجاء بشىء من أقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله أن يلبث فجاء وعليه رَدْع من زعفران ، فقال رسول الله ﷺ : مهيم ؟ فقال : يا رسول الله تزوجت امرأة . قال : فما أصدقتها ؟ قال : وزن نواة من ذهب . قال : أولم ولو بشاة . قال عبد الرحمن : فلقد رأيتنى ولو رفعت حجراً رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة » . أخرجه ابن سعد فى كتاب « الطبقات الكبير» (٣/١١٦ ، ١١٧) ، وكذا الذهبى فى « سير أعلام النبلاء » (١/٩٢) .

سنٍّ واحدة ، وحُسْن واحد ، وقَوَام واحد ؛ لماذا ؟ قالوا : حتى تظل الأَعْيُنُ مقصورةً على ما تملك لا يطمع أحدٌ فى الأُخْريات ولا ينظر وتزوغ عينه على مَا ليس له ، فلو كانت النساء جميعهن على درجة واحدة ، فلمَ النظر إذن ؟

أو ﴿أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص] يعنى : مثله ومناسبة له تتقلب له فى الصورة التى يحبها .

وقوله سبحانه : ﴿هَـٰذَا .. ﴿٥٣﴾﴾ [ص] أى : ما ذكرناه من الجنة ونعيمها ، هذا المذكور كله ﴿مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ [ص] لكن نوعد ممن ؟ نوعد ممَّنْ يملك إنفاذَ ما وعد به ، نعم لأنه سبحانه القادر العزيز الغالب ، ليس هناك قوة تعانده ، ولا قوة تعارضه فيما يريد .

فأنت تَعد الوعد وفى نيتك الوفاء به ، هذا عند التحمل ، لكن أنت لا تملك عنصراً واحداً من عناصر الوفاء بما وعدتَ ، فيأتى وقت الوفاء فلا تُوف ؛ لأنه عَرَض لك عارضٌ حال بينك وبين الوفاء بما وعدتَ ، أما الحق سبحَانه فوَعْده حق ، لأن له طلاقةَ القدرة .

وقوله : ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ [ص] أى : حساب المتقين ؛ لأن الحساب مطلقاً يشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، فالحساب هنا أى حساب أهل الإيمان ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ [ص]

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ هَـٰذَا .. ﴿٥٤﴾﴾ [ص] أى : الذى ذكرناه ﴿لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص] فلم يَقُلْ لرزقكم إنما ﴿لَرِزْقُنَا .. ﴿٥٤﴾﴾ [ص] فكأنهم هم الذين يقولون ، وهم الذين يقرءون أن ما شم

فيه من النعيم باقٍ لا ينفد ، لماذا ؟ لأنهم عاينوا صدْق الوعد ، وأن الله أدخلهم الجنة علَى الوَصْف الذى أخبرهم به ، فعلموا أن وعد الله حَقٌّ ، وأن نعيمه خالد بَاقٍ لا يزول .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن المتقين الأخيار يتكلم بعدها عن الأشرار ، فالصورة الأولى ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) ﴾ [ص] يقابلها :

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ (٥٨) ﴾

قال هنا أيضاً (هذا) أى : الكلام السابق عن جزاء المتقين فى الجنة . وفى مقابله ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) ﴾ [ص] لشرّ مصير وأسوأ منقلب ومرجع ، والمآب هنا أيضاً كالمآب السابق ، مآب إلى مَنْ أخذ عليهم العهد الأول ومنحهم إيمانَ الفطرة ، فكلُّ مولود يُولَد على الفطرة ، لكن هؤلاء لم يُوفوا بالعهد الذى أخذوه على أنفسهم ، إنما خالفوا ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وكما فَصَّلَ الحق سبحانه حُسْن المآب يُفصِّل هنا أيضاً شر المآب ، فيقول ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا .. (٥٦) ﴾ [ص] أى : يصطلون بنارها ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) ﴾ [ص] أى : ساء . والمهاد : هو فراش الطفل الذى يمهد له لينام فيه نَوْمةً مريحة ، لكن ليس للطفل دَخْل فى إعداده إنما يُعدُّه له وليُّه الذى يتولى أمره ، كذلك هؤلاء الطاغون لا دَخْلَ لهم فى المهد الذى سيُلْقون فيه .

إذن : استخدام المهد هنا على سبيل الاستهزاء والسخرية منهم .
﴿ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [ص] أى : يذوقوا العذاب (حَمِيم) هو الشىء الحار الذى تناهتْ حرارته ، و (غَسَّاق) هو صديد أهل النار الذى يسيل منهم فى جهنم والعياذ بالله ، تقول : غسقتْ عينه أى : سال دمعها .

لكن هل ينتهى العذاب بالحميم والغساق ؟ لا ، بل لهم ألوان أخرى من العذاب ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص] آخر : يعنى عذاب آخر غير هذا ينتظرهم ﴿ مِن شَكْلِهِ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص] من مثله ومن جنسه ومن نوعه وتكوينه ﴿ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص] أنواع وأصناف مختلفة ، وإلاَّ فأين المُهْل[1] ؟ وأين شجرة الزقوم التى طَلْعها كأنه رؤوس الشياطين ، وغيرها من ألوان العذاب الذى أعدَّه الله لهؤلاء الطاغين ؟

وبعد أن أعطانا الحق سبحانه هذه المقابلَة التوضيحية بين جزاء أهل الأخيار المتقين ، ومصير الأشرار الطاغين ، أراد سبحانه أنْ يُفرِّق بين صحبة الأخيار وصحبة الأشرار ، فصحبة الأخيار تعينك على الطاعة وتعينك على الخير ، وصحبة الأشرار تجرُّك إلى الشر وتدعوك إلى المعصية .

ففى المدارس مثلاً ، كم من تلميذ تفوق لأنه مَاشَى زميلاً له من أهل الخير أعانه على دروسه وحَثَّه على المذاكرة وخَوَّفه من سوء العاقبة آخر العام إنْ أهمل ، وفى المقابل كم من تلميذ فشل لأنه صاحبَ الأشرار الذين أغروْه بالهروب من الحصص ، وأخذوه إلى

(١) المهل : المعدن المذاب والقطران وعكر الزيت المغلىّ والقيح ، قال تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

الشارع ، وإلى السلوك غير المستقيم .

وفى النهاية ، لا بُدَّ أنْ يحمد المتفوق زميله الذى أخذ بيده إلى الخير ، ولا بدّ أن يذم الفاشل زميله الذى أغراه وأضلّه وضيَّع عليه الفرصة .

أراد الحق سبحانه أنْ يعطينا هذه الصورة ، فقال سبحانه :

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) ﴾

هذه الآيات تصور لنا موقفاً من مواقف القيامة دار بين أهل الشر الذين تعاونوا عليه واجتمعوا من أجله، بين الأخلاء على الشر ، وهذا الحوار عناصره ثلاثة ، هم : الملائكة خَزَنة النار ، وزعماء الكفر الذين سبقوا إلى النار ، ثم أتباعهم من الذين أضلوهم ، يقول الملائكة لزعماء الكفر : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ (٥٩) ﴾ [ص] يُنبهون أهل النار أن جماعة من أتباعكم قادمة إليكم .

ومعنى ﴿ مُّقْتَحِمٌ .. (٥٩) ﴾ [ص] يعنى : داخل النار بشدة وبسرعة ، لكن كيف يسرع الداخل وهو داخل إلى النار ؟ قالوا : لأنه لا يسير بإرادته ، إنما يُجبر على الحضور ويُدفع إلى الدخول رَغْماً عنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور]

والفوج هو الجماعة أو الطائفة كما نقول : فوج الحجاج ، أو فوج المسافرين .

فماذا قال زعماء الكفر الذين هم فى النار ؟ قالوا : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩)﴾ [ص] يعنى : لا سعةَ ولا تحيةَ ولا تكريم ، هكذا حال الأخلاء على شَرٍّ ، ففى الآخرة تنقلب هذه الخُلَّة وهذه الصداقة إلى عداء ، ويلعن كل منهم صاحبه ، المتبوع يلعن التابع ، والتابع يلعن المتبوع ، وها هم المتبوعون يقولون لأتباعهم : ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ .. (٥٩)﴾ [ص] وعلام نرحب بهم ؟ أجاءوا لينقذونا مما نحن فيه ؟ أو حتى ليخففوا عنا ؟ إنهم جاءوا للنار وللاصطلاء بحرِّها.

فردَّ الفوج المقتحم الداخل على قادته وزعمائه الذين أضلوه : ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. (٦٠)﴾ [ص] أى : الكفر والضلال ، يعنى : أنتم غَشَشْتُمونا وأضللتمونا وأخذتم بأيدينا إلى هذا المصير السيء ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾[المجادلة] الذى صِرْتم وصرْنا إليه ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾ [ص]

وفى موضع آخر ، يُصوِّر القرآنُ هذا الموقفَ ، فيقول حكايةً عن الكافرين : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾ [الأحزاب]

فطلبوا لهم ضعفين من العذاب ، لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم ، ثم أضلُّوا غيرهم فاستوجب كل ضلال جزاءً ، إذن : لا بُدَّ أنْ يكونَ المتبوعُ أشدَّ عذاباً من تابعه ، والحق سبحانه لا يُعذِّب عبده بأكثر مما يستحق ، لكن هؤلاء يُضاعَف لهم العذابُ ضعْفين من ناحية انفكاك الجهة ، فضعْف لأنه ضلَّ فى ذاته ، وضعْف لأنه أضلَّ غيره .

ومعنى : ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا .. (٦٠)﴾ [ص] أى : بالإغواء والتزيين وتحسين الضلال وتيسير سُبُله .

وفى موضع آخر فى سورة البقرة يُبيِّن الحق سبحانه أن الأخلاء

على الشر سيتبرأ كل منهم من الآخر : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[١] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

وما أشبه موقفهم هذا بموقف الشيطان حين يقول لأتباعه يوم القيامة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[٢] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

هذا إذن مصير الأخلاء على الشر ، تنتهى خُلَّتهم بالعداوة واللعن أما الأخلاَّء على الخير فهم أخلاء فى الدنيا أخلاء فى الآخرة ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

كلمة أخلاء جمع خليل ، والخُلَّة تعنى أنهما تحابَّا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، تحابًا حُباً تعدَّى مرحلة اللقاء والعناق إلى أن ذوَّب كلاً منهما فى الآخر ، وكأنه أحدث بينهما تداخلَ ذرات من جسم إلى جسم ، وهذا الذى عَبَّر عنه إسماعيل صبرى[٣] رحمة الله عليه حين قال :

---

(١) الكَرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخَلْق بعد الفناء . [لسان العرب ـ مادة : كرر].

(٢) المصرخ : المغيث المنقذ مَنْ يستصرخه . والمصرخ : الذى يُزيل سبب الصَّريخ وسبب الصُّراخ . [القاموس القويم ١/ ٣٧٤] .

(٣) من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الحديث ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، درس الحقوق بفرنسا ، وتدرج فى مناصب القضاء بمصر ، كان يكتب شعره على هوامش الكتب والمجلات ، وينشره أصدقاؤه خلسة ، رفض مقابلة كرومر وقال : لن أكون رئيساً للوزارة وأخسر ضميرى . ولد ١٨٥٤ م ، وتوفى ١٩٢٣ م عن ٦٩ عاماً .

وَلَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جُهْدَهُ　　　خَلِيلَيْنِ فَاضَا لَوْعَةً وَعِتَابَا

كَأَنَّ حَبِيباً فى خِلالِ حَبِيبِهِ　　　تَسَرَّبَ أَثْنَاءَ العِنَاقِ وَغَابَا[1]

لكن كيف يكون تحسين الضلال ؟ وكيف يقبل الناسُ الإغواءَ بالباطل ؟ قالوا : لأن أىَّ منهج من السماء لا بُدَّ أنْ يصادمَ شهوات النفس ونزواتها ، فحين تتغلب الشهواتُ والنزوات على الإنسان يلجأ إلى إله لا منهجَ له ولا أوامرَ ولا نواهىَ ، ومن هنا ضَلَّ الناسُ ، فعبدوا الأصنام والجمادات ، لأن عبادة مثل هذه الآلهة تُشعرهم بالتديُّن الذى يميل إليه الإنسان بطبعه ، فهو إذن متدين .

وفى نفس الوقت ، ينفلت من قيود المنهج ، لأن إلهه لا يأمره بشىء ، ولا ينهاه عن شىء ؛ لأن العبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فى أمره ونَهْيه ، فالذين عبدوا الأصنام مثلاً أو الشمس أو القمر ، بماذا أمرتْهُم هذه الآلهة ، وعَمَّ نَهَتم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

إذن : فهى آلهة باطلة ؛ لأن المعبود بحق له منهج افعل ولا تفعل ، عنده الثواب لمَن أطاع ، والعقاب لمن يعصى .

ثم يلتفت أهل النار لفتة أخرى :

﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

(١) البيتان من بحر الطويل ، وفى الموسوعة الشعرية شجيَّين بدلاً من خليلين .

﴿ وَقَالُوا (٦٢) ﴾ [ص] أى : أهل النار ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً .. (٦٢) ﴾ [ص] يعنون أصحاب محمد الذين ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) ﴾ [ص] ، كما قال الكفار لسيدنا نوح عليه السلام : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾ [هود] كذلك قال كفار مكة لأتباع محمد من العبيد أمثال بلال وخبّاب وغيرهم .

فزعماء الكفر فى النار ينظرون حولهم ، فلا يجدون هؤلاء الأشرار - معهم - فيتعجَّبون ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) ﴾ [ص] أين هم ؟ فالحال أنَّا لا نراهم ، ثم يعودون إلى أنفسهم فيقولون : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا .. (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : سخرنا منهم ، وقلنا : إنهم أشرار وهم ليسوا أشراراً ، فمصيرهم غير مصيرنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : هم موجودون معنا ، لكن زاغتْ أبصارنا فلا نراهم .

وكلمة (سِخْرِياً) من السخرية والاستهزاء ، أما سُخرياً بالضم فهى بمعنى الاستغلال والاستذلال من التسخير فى الأعمال . ومعنى ﴿ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) ﴾ [ص] يعنى : مالتْ عنهم ، وقولهم ﴿ مَا لَنَا لا نَرَىٰ .. (٦٢) ﴾ [ص] مثل قول سيدنا سليمان فى قصة الهدهد : ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. (٢٠) ﴾ [النمل] فالمعنى أن الهدهد لا بُدَّ أنْ يكونَ موجوداً ، لكن المانع عندى فى أنْ أراه ، ثم استدرك فقال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) ﴾ [النمل]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص] ولا بدَّ أنْ يتخاصمَ أهلُ النار لأنهم إما ضَالٌّ وإما مُضِلٌّ فيُلقى كل

منهم اللومَ على الآخر ساعةَ يرى المصير الذى صاروا إليه ، ثم مَن الذى أخبرنا بهذا التخاصم ، أخبرنا به القرآن الكريم ، والقرآن لم يَقُلْ قضية وخالَفها الواقع .

ولك أنْ تلاحظ هذه الحقيقة من واقع القرآن مع المجتمع منذ بَعْث محمد ﷺ إلى عصرنا الحالى ، أأخبر الحق سبحانه بقضية ، وجاء الواقع مخالفاً لها ؟ ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** .. (٤٣) ﴾ [فاطر]

فمثلاً فى بدر انتصرنا عليهم وقتلنا منهم قَتْلى وأخذنا أسْرى ، ولم يمر عام واحد حتى جاءتْ أُحُد ، وفيها سار الكفار من مكة إلى مقربة من المدينة ، وكانت المؤشرات تدل على انتصار المسلمين ، لكنهم خالفوا منهج الله فى عدم طاعتهم أمر رسولهم .

وقد كان رسول الله قد أمر الرُّماة ألاّ يتركوا أماكنهم مهما حدث.

فلما رأى الرماة تفوُّق المسلمين وشاهدوا بوادر النصر سالَ لعابهم على الأسْلاب والغنائم ، فنزلوا إليها ، وتركوا أماكنهم ، فاستغلَّ الكفارُ الفرصةَ ، والتفُّوا حول المسلمين ، وفعلاً (ماعت) المعركة وإنْ كنا لم نُهزم ، إلا أننا لم ننتصر ، مع أن الله تعالى وعد رسله بالنصر ووعد جنده بالغلبة ، فقال سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)** ﴾ [الصافات]

ومع ذلك كان عدم النصر فى أُحُد ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن المسلمين لو انتصروا مع المخالفة لأمر الرسول لَهَان عليهم أمره بعد ذلك ، ولقالوا : خالفناه فى أُحُد وانتصرنا ، فإذا رأيتَ جندياً للإسلام يُهزم فاعلم أنه خالف التوجيه ، إما خالف توجيه الرسول ، أو خالف توجيه القائد الموكَّل من الرسول .

إذن : سنة الله فى النصر لم تتخلف ، إنما تخلفتْ الجندية لله تعالى ؛ لذلك قُلْنا فى أُحُد لم ينتصر المسلمون ، لكن انتصر الإسلام وانتصرتْ أوامره .

كذلك حذَّرنا الحق سبحانه من الغرور والزَّهْو بالقوة وكثرة العدد ، لأن النصر فى الحقيقة ليس بكثرة عددكم ، إنما النصر من الله ، وهذا الدرس أخذناه فى غزوة حنين ، فأبو بكر نفسه داخله شىء من ذلك حين رأى أعداد المسلمين مقارنةً بأعداد الكافرين ، فقال : لن نُهزم اليوم من قلَّة[1] ، فأعطاهم الله درساً لا يُنْسَى ، وكاد النصر أنْ يكون للكفار ، لكن أدركتهم رحمة الله ، وحَنَّ الله عليهم فى نهاية المعركة وحُسِمتْ لصالح الإسلام .

---

(١) قال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا .. ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة] . وقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٧٣/٤) أن محمد بن إسحاق قال : حدثنى بعض أهل مكة أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ، ورأى كثرة مَنْ معه من جنود الله : « لن نُغلب اليوم من قلة » وزعم بعض الناس أن رجلاً من بنى بكر قالها .

إذن : فالزَّهْو والغرور مخالف لقواعد الجندية فالنصر ليس بالعدد ولا بالعُدَّة ، إنما النصر من الله كما قال سبحانه : ﴿قَاتلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة]

وقال : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال]

إذن : نقول ما دام أن الله أخبرنا بتخاصم أهل النار فهو حَقٌّ واقع نؤمن بصدقه .

ثم أراد الحق سبحانه أن يعطى نبيه ﷺ حجَّة ، فقال :

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

نفهم هذه الآيات فى ضوء ما حكاه القرآن فى أول السورة من تكذيب الكافرين لرسول الله ، ففى الآيات الأولى من السورة قال تعالى : ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص] إلى أنْ قالوا : ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص]

إذن : الآيات فى صدر السورة تبين أن هؤلاء القوم عندهم خَلَل فى قضيتين الأولى فى قضية التوحيد ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا .. ﴿٥﴾﴾ [ص] والأخرى : قضية النبوة ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. ﴿٨﴾﴾ [ص]

فجاءت هذه الآيات لتردَّ عليهم ولتصحح هذا الخلل ، فقال هنا :

(قل) يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ .. ﴿٦٥﴾﴾ [ص] واختار هنا الإنذار مع أن الرسول ﷺ جاء بشيراً ونذيراً ، لأن الكلام هنا فى مواجهة الكافرين ، فناسبهم الإنذار ، وفى القضية الأخرى يقول سبحانه : ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص]

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

معنى (نَبأ) هو الخبر الهام الذى وراءه حقائق لا يُكذِّبها الواقع.

وقال فى سورة (النبأ) : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ] ووصف بأنه عظيم لأنه سيترتب عليه أمران يتعلقان بالدنيا والآخرة . فإنْ كنتَ أخذت حظك فى اتباع شهواتك فى الدنيا ، والدنيا لها نهاية ، فستصلْى فى الآخرة ناراً لا نهاية لها .

وكان عليك أنْ تتنبه لهذه المسألة ؛ لأن الإنسان لا بُدَّ له أنْ يحدد غايته فى الوجود ، والغاية الحقيقية هى التى ليس بعدها بَعْد ، أما الغاية التى بعدها بَعْد فليست بغاية ، بل هى مرحلة تؤدى إلى ما بعدها ، كالتلميذ ينجح فى القبول مثلاً ، فيؤدى به النجاح إلى الإعدادية ، والنجاح فى الإعدادية يؤدى به إلى الثانوية ، والثانوية إلى الجامعة .

وهكذا حتى لو أخذ الدكتوراه فإنه ينتقل إلى ما بعدها من مراحل ثم الموت ، حتى الموت ليس هو نهايةَ المطاف إنما بعده ، إما إلى

نار وإما إلى جنة ، وهذه هى الغاية التى ليس بعدها بعد ، لأنها باقية خالدة لا نهاية لها .

لذلك الحق سبحانه يُنبهنا إلى هذه الغاية (قل) يا محمد ﴿هُوَ نَبأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)﴾ [ص]

وكلمة مُعرِض يعنى : منصرف هى التى نقول عنها : فلان أعطانى عرض أكتافه يعنى : مال عنى وانصرف ، وهذه الكلمة تمثيل لواقع الناس حين يُدْعَوْنَ للإنفاق ، وحين يُدْعَوْنَ لعمل الخير ، فمنهم مَنْ يُعرض عنه ، ويكون الإعراض على مراحل : أولاً يميل عنك بوجهه ويلوى رقبته ، ثم يعطيك جنبه ، ثم يبالغ فيدير لك ظهره .

وقد صور لنا القرآن هذا المشهد ، فقال سبحانه فى وصف عاقبة الإعراض عن الإنفاق فى سبيل الله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .. (٣٥)﴾ [التوبة]

هكذا يكون الجزاء من جنس العمل ، وبنفس ترتيب الإعراض فى الدنيا ، يكون الكى فى الآخرة ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة]

إذن : الأعضاء التى اشتركتْ فى الإعراض هى التى ستُكْوى ، وعلى قَدْر الإعراض يتسع الكَىّ .

ثم أراد الحق سبحانه أن يُدلل على أن محمداً لا يعلم الغيب ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)﴾ [ص] لأنه سبحانه سبق أنْ تكلم عن تَخاصُم أهل النار ، فقال : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾ [ص] وقد أوضح سبحانه تخاصم الملأ الأعلى

من الملائكة فى المبدأ ، حيـن قالوا للحق سبحانه : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. ﴿٣٠﴾﴾[البقرة] هذا هو خصامهم ، لا أنهم يتخاصمون كما يتخاصم البشر ؛ لأن الله قال عنهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]

إنما سمَّى الحوار الذى دار بينه سبحانه وبين الملائكة (تخاصم) ، فكأنهم يغارون على الله أنْ يخلق خَلْقاً آخر هم البشر يعصونه ويفسدون فى الأرض ، كما أفسدتْ الجنُّ من قبل .

ثم يُبيِّن سبحانه أن محمداً لا يعلم الغيب ، إنما يخبره اللهُ به وَحْياً : ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص] فالذى أعلمنى بما سبق يعلمنى بما هو آتٍ ، وهذا تَرقٍّ فى علم الغيب .

والغيب له ستار يحجبه عنا ستار يحجب الماضى وستار يحجب المستقبل ، يحجب الماضى الزمن لأن الزمن القديم مثلاً لم يكن فيه تدوين لأحداثه ، ولو كان فيه تدوين فهو تدوين مزيف ، لأنه رأى البشر فيما حدث ، وآراء البشر لا بُدَّ أن تختلف .

كذلك يحجب المستقبل زمنَ المستقبل ، فأنت لا تعلم ما سيحدث مستقبلاً ، أما الحاضر الذى نعيشه فزمنه واحد لكن مكانه مختلف ، فحجابه المكان ، فأنت تعلم الآن ما يحدث فى مكانك ، لكنك لا تعلم ما يحدث فى الأماكن الأخرى .

فالمعنى أن الذى أخبرنى أولاً بأن الملائكة قالت كذا وكذا هو الذى أخبرنى بتخاصم أهل النار ، إذن : فهو حق .

وقال هنا أيضاً ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص] أى : واضح ، لأن

الحديث ليس للمؤمنين أهل البشارة ، إنما للمخالفين فناسبهم ﴿أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص]

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

هذا الكلام جاء من الحق - سبحانه وتعالى - للملائكة على سبيل الإخبار ، لكن فهموا هم أنه استشارة ، وأن الخالق سبحانه يستشيرهم في مسألة خَلْق الإنسان ؛ لذلك قالوا ما قالوه ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا إلى أن المسألة مبتوتٌ فيها ، وأنها قضية منتهية ؛ لأن الله أخبر بها بقوله : ﴿إِنِّي خَالِقٌ .. ﴿٧١﴾﴾ [ص] هكذا بلفظ التوكيد.

وهنا لا بُدَّ أنْ نشيرَ إلى أن البعض يحاول الاستدراك على كلام الله في مسألة خَلقْ الإنسان من طين ، يقولون : إن القرآن قال مرة : من طين. ومرة : من ماء . ومرة : من حمأ مسنون . ومرة : من صلصال ، والواقع أن هذه مراحل للشيء الواحد وليست اختلاف بدايات مأخوذ منها ، فالتراب حين يوضع على الماء يصير طيناً ، فإذا تُركَ الطين حتى عطن وتغيَّرت رائحته ، فهو الحمأ المسنون ، فإذا جَفَّ وتصلَّب فهو صَلْصَال كالفخار .

ولما خلق الله الإنسان خلقه من الطين ، بمعنى أنه جامع لكل عناصر التربة السوداء والصفراء والرملية .. إلخ وقد توصَّل العلماء

إلى أن هذه التربة هي الصالحة للزراعة ، لأن الطينة أو التربة إنْ كانت متماسكة تمسك الماء تحت الجذر فيمور ويذبل النبات ، وإن كانت رملية تسرب فيها الماء قبل أنْ يمتصَّه النبات .

إذن : نحتاج إلى تربة بين بين ، بحيث تمسك الماء بالقدر الذى يتيح للنبات أنْ يستفيد منه ويمتص عناصر الغذاء ، ثم يتسرَّب الباقى فلا يضر بالجذور.

كما توصل العلماء إلى أن عناصر جسم الإنسان عبارة عن ١٦ عنصراً ، تبدأ بالاكسوجين بنسبة ٦٧٪ وهى أعلى نسبة وتنتهى بالمنجنيز . وأن الطين يحتوى على نفس هذه العناصر الستة عشر ، وهذا يثبت صدْق الحق سبحانه فى خلْق الإنسان من الطين .

ومعنى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ .. (٧٢) ﴾ [ص] يعنى : صوَّرْتُ قالبه وشكله ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٧٢) ﴾ [ص] يعنى يصير مخلوقاً كاملاً تدبّ فيه الحياة ويتحرك ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص] أى : خرّوا ساجدين، ليس سجودَ عبادة ، إنما سجود طاعة لصاحب الأمر بالسجود .

إذن : سجود الملائكة لم يكن لآدم ذاته ، إنما كان لله الذى خلق آدم وأمر الملائكة أنْ تسجدَ له ، ومعنى تسجد له كما تقول : أنا أسجد للقبْلة ، فالسجود ليس للقبلة ذاتها إنما ناحيتها . ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [ص]

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ (٧٥) ﴾

المتتبع لهذه القصة يجد أن القرآن استوعبها فى سبع سور ، لكن بأسلوب مختلف فى كل منها ، فمرة قال : ﴿ أَبَىٰ .. (٣١) ﴾ [الحجر]

ومرة قال : ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ..﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة]

المسألة الأولى التى أردنا توضيحها فى هذه القصة أن الحق سبحانه لم يجعل الجنة التى خرج منها آدم إلى الأرض هى جنة المأوى ، لأنه لم يُخلق للجنة ثم خرج منها بمعصيته ، إنما خُلق آدم للخلافة فى الأرض ، وفى أول بلاغ عنه من الله قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : هو مخلوق للأرض ، ونظراً لأنه أبو البشر جميعاً ، والبشر على صنفين : صنف معصوم هم الرسل ، وصنف غير معصوم هم عامة الناس ، فكان ولا بُدَّ أنْ يتمثَّل فى آدم ما ثبت للصنفين ، عصى آدم أولاً ، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وعصمه الله بعدها ، إذن : لم يَعْص آدم وهو نبى ، إنما عصى قبل النبوة .

والحق - سبحانه وتعالى - لما عرض هذه المسألة وقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] لم يشأ سبحانه بعدالته ورحمته أنْ يُنزلَ آدم إلى الأرض ليعمرها بغير منهج من المناهج التى تُصلح حركةَ الحياة ، ولم يشأ أنْ يُجرِّب فيه التكليف الأول ، فصنع له قطعة من الأرض فيها كل مقومات الحياة وترفها ، وأسكنه إياها ليدربه على التوجيه والتكليف بافعل ولا تفعل .

فأباح له أنْ يأكل من كل ما فى هذا البستان إلا شجرة واحدة نهاه عن مجرد الاقتراب منها ، ليمثل له الإباحة فيما أحل والحظر فيما منع ، ثم ذكَّره بعداوة الشيطان له وحذَّر منه ومن وسوسته .

لكن أغوى الشيطانُ آدمَ ، فأكل من الشجرة التى نُهِى عنها ، وحدثتْ منه المخالفة التى ترتب عليها ظهور عورته لأول مرة ، وهنا إشارة رمزية إلى أن العورات لا تظهر فى المجتمع إلا بمخالفة منهج الله .

ثم نقف أيضاً عند ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فلم يقل سبحانه : ولا تأكلا من هذه الشجرة ، بل نهى عن مجرد قربها ، لأن من حام حول الحمَى يُوشك أنْ يواقعه .

لذلك تجد الحق سبحانه حين يحدثنا عن الحدود التى أحلها الله لنا يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أما فى الحدود التى حرّمها فيقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ونلحظ فى الآية التى معنا قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. (٧٥) ﴾ [ص] وفى الأعراف قال : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ .. (١٢) ﴾ [الأعراف] فمرة بالإثبات ومرة بالنفى . والمعنى واحد ، لأن المتكلم بهذا الكلام هو الله رَبُّ العالمين ، معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ..(٧٥) ﴾ [ص] يعنى : أردتَ أنْ تسجد ، فعرض لك عارض ، أما ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ..(١٢) ﴾ [الأعراف] يعنى : أَمَنعكَ مانع فلم تسجد قهراً عنك؟

وقوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص] بيان لشرف هذا المخلوق ، ويكفى فى شرفه أن الله تعالى نسب خَلْقه إليه سبحانه مباشرة ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] يعنى : السبب الذى دعاك إلى عدم السجود إما استكبارك أنْ تسجدَ لآدم ، أم كنتَ من العالين ؟

وقد اختلف العلماء فى معنى العالين ، بعضهم[1] قال : من الطاغين المتكبّرين الذين أعرضوا عن أحكام الله ومنهجه استكباراً ،

---

(١) قاله القرطبى فى تفسيره (٨ / ٥٨٧١) : « أى : المتكبرين على ربك » . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (تفسير سورة ص) : « أى من قوم يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك من قوم يتكبرون » . وقد قال الطبرى فى تفسير الآية : « أتعظمت عن السجود لآدم فتركت السجود له استكباراً عليه ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك أم كنت من العالين يقول : أم كنت كذلك من قبل ذا علو وتكبر على ربك » .

ومن ذلك قوله تعالى فى فرعون : ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس] وقال سبحانه : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص] أى : عُلُواً على أحكام الله ، وعلى أوامر الله .

وقال آخرون : معنى العالين هم نوع من الملائكة ، والذين لم يشملهم الأمر بالسجود لآدم ، فالمأمور بالسجود هم الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق وهم المدبِّرات الذين قال اللهُ عنهم ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النازعات] والمعقِّبات الذين قال الله فيهم ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ .. ﴿١١﴾﴾ [الرعد] هؤلاء هم الذين أمروا بالسجود . أما العَالُون فهم ملائكة لا عملَ لهم إلا تسبيح الله ، ولا صلةَ لهم بهذا الكون ، ولا يدرون عنه شيئاً .

فالمعنى ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص] أى الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، وهذا المعنى أقرب للصواب ، لأن الله تعالى قال قبلها : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ .. ﴿٧٥﴾﴾ [ص] فلا نفسر العالين بعدها بمعنى المتكبرين ، لأنها تؤدى نفس المعنى الأول .

وهنا ينبغى أنْ نشيرَ إلى اختلاف[1] العلماء حول طبيعة إبليس ، حيث قال بعضهم : إنه من الملائكة . وقال آخرون : من الجن . أصحاب الرأى الأول يعتمدون على قوله تعالى :﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص] فقالوا : إذن إبليس من الملائكة لأن الأمر وُجِّه إليهم ، والدليل على ذلك أنه لما خالف وامتنع عن السجود عُوقب ، فهو إذن

(١) ذكر الطبرى فى تفسير الآية ٥٠ من سورة الكهف أقوال واختلافات العلماء فى طبيعة إبليس وأنه كان من قبيلة يقال لهم الجن . وآخرون قالوا : كان من خزان الجنة . وآخرون قالوا : سمى جناً لأنه استجن عن أعين بنى آدم .

داخل فى الأمر ، والله سبحانه لم يأمر إلا الملائكة ، فلو لم يكُنْ من الملائكة لم يُعاقَب .

ونقول فى الرد على أصحاب هذا الرأى : لا بُدَّ أنْ نُفرِّق بين الدليل بالالتزام أو الاستنباط ، وبين دليل النص ، فإذا وُجدَ نَصٌّ فلا مجالَ لدليل الالتزام أو الاستنباط ، وقد قال الحق سبحانه فى سورة الكهف : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] فكيف تُصرِّح الآية بأنه من الجن ونقول نحن : إنه من الملائكة ؟

أما لماذا آخذه الله على عدم السجود إنْ كان من الجن ؟ نقول : لأن الملائكة مقهورون على الطاعة ، فهى غريزة فيهم ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم] أما الإنس والجن فهم مُخيَّرون بين الإيمان أو الكفر ، وبين الطاعة أو المعصية ، فإذا جاء منهم مَنْ ألزم نفسه بالطاعة بحيث لا يعصى فهو أفضل من الملائكة ، لأن الملائكة مقهورون على الطاعة أما هو فطائع باختياره وهو قادر على المعصية .

إذن : أخذ هذه الأفضلية ، لأنه حمل نفسه على أن يطيع ، وقد كان إبليس فى هذه المنزلة حتى قيل : إنه طاووس[1] الملائكة لأفضليته عليهم ، فلما صدر الأمر للملائكة شمله أيضاً ، لأنه إنْ كان أعلى منزلة من الملائكة وحالة الطاعة ، فكان عليه أنْ يطيعَ الأمر ، وإنْ كان أقلَّ من الملائكة ، فالأمر للأعلى يستلزم الأمر للأدنى .

ومثَّلْنا لهذه المسألة قلنا : إذا دخل رئيس الجمهورية فوقف له الوزراء ، فوقوف وكلاء الوزراء من باب أَوْلَى ، وبذلك نحسم هذا

(١) ذكر الطبرى فى تأويل (الكهف : ٥٠) عن ابن عباس أن إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض . أما الحسن البصرى فقد قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس .

الخلاف بعيداً عن الجدل الذى لا طائل منه .

وقوله تعالى :﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [ص] دليل على أنه مخلوق مختار ، كالإنسان يطيع ويعصى ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ... (٢٩) ﴾ [الكهف]

ثم يحكى الحق سبحانه قولَ إبليس فى الردِّ على ربه عز وجل :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾

نعم ، خُلق آدم من الطين ، وخُلق إبليس من النار ، لكن مَنْ قال إن الطين أقلُّ من النار ، أو أن النار أعلى من الطين ، لأن المخلوق لا يأخذ منزلة وميزة بجنسه ، إنما يأخذ ميْزته ممَّن خلقه ، إذن : ليس هناك جنس أعلى من جنس ، لأن الله خلق الجميع ، وجعل لكل منهم مهمة فى الحياة ، فهم فى الخَلْق لله سواء .

لذلك قلنا : إن الله تعالى جعل الأسبابَ للمؤمن وللكافر عطاء ربوبية ، لكن لما آمن المؤمن خَصَّه الله بعطاء آخر ، هو عطاء الألوهية فى العبادة .

فإبليس لما خالف أمر الله ، وادَّعى هذه الخيرية على آدم :

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٧٨) ﴾

الرجيم : المطرود من رحمة الله ، المحروم من كل خير ، ثم تأكد هذا المعنى فى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) ﴾ [ص] إلى يوم القيامة . فردَّ إبليس بعد أنْ لعنه الله وطرده من رحمته :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول إبليس لرب العزة : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] أى : أخِّر أجلى، إذن : فهو يعلم أن لكلٍّ أجلاً محدداً لا يتجاوزه ، وقوْل إبليس لربه : ﴿ فَأَنظِرْنِي .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [ص] يفضح قوله لآدم لما أراد أنْ يُغويه بالأكل من الشجرة ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه] فلو كانت شجرة الخلد حقاً ، فلماذا تطلب من ربك أنْ يُؤخِّر أجلك ؟ ودلَّ ذلك أيضاً على غفلة آدم ، فلو تنبَّه إلى هذه المسألة ما أكل من الشجرة .

ونفهم أيضاً من ذلك أن إبليس نفسه (المعلم الكبير) هو الذى تولَّى غواية آدم ، ولم يترك هذه المهمة لواحد من ذريته ، لماذا ؟ قالوا : لأن آدم أصبح فى صَفِّ الملائكة ، فلا يناسبه شيطان صغير من الذرية ، إنما الكبير إبليس .

ثم يجيب الحق - سبحانه وتعالى - إبليسَ فيما طلب ، فيقول له: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [ص] المؤخَّرين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص] أى : إلى يوم القيامة .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

دلَّتْ هذه الآية على أن العداوة ليست بين إبليس وربه ، إنما بين إبليس وبنى آدم ، ودلَّتْ على أن إبليس عرف كيف يُقسم حين قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] أى : بعزتك يا رب عن خَلْقك وغنَاك عنهم

وعن طاعتهم وإيمانهم ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فمن هذا الباب دخلتُ إليهم ، ومن هذا الباب لأغوينهم أجمعين ، فأنا لا آخذهم منك يا رب ، ومَنْ تريده منهم لا أستطيع الاقترابَ منه ، بدليل قوله بعدها : ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] إذن : عزّتك عنهم هى التى أطمعتنى فيهم .

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾

الكلام هنا لله عز وجل ﴿قَالَ فَالْحَقُّ .. (٨٤)﴾ [ص] أى : ما نصنع لك هو الحق ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤)﴾ [ص] أى : أنا لا أقول إلا الحق ، ولا يُطلب منى إلا الحق لأنِّى أنا الحق ، ثم يُبيِّن سبحانه الحقَّ المراد الذى قاله الله وقضى به : ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾ [ص] أى : منك ومن ذريتك ومِمَّنْ تبعك منهم ، أى : من أمة محمد أى : أمة الدعوة ، وهى من آمن أو كفر .

قالوا : أهذا حكم مُسْبق من الله تعالى على الخَلْق الذين سيجيئون بعد؟ ولو كان الأمر كذلك فالمسألة قهر وإجبار ، والحقيقة أن الله تعالى كتب عليهم هذا بعلمه بما سيكون منهم باختيارهم لا بقهره لهم على أنْ يفعلوا ، فلعلمه بما سيكون كتب ، وليس فى المسألة قهر ولا إجبار .

وقد مثَّلْنَا لهذه القضية - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : إن المعلم فى الفصل يستطيع من خلال علمه بمستوى التلاميذ أن يحدد نتائجهم فيقول : فلان سينجح وفلان سيرسب ، فلعلمه بمستواهم الدراسى حكم عليهم ، ولا دخل له فى الامتحان ولا فى تصحيحه .

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾

(قُلْ) أمر لرسول الله ﷺ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦) ﴾ [ص] ولو قال : ما أسألكم عليه أجراً لاستقام المعنى أيضاً ، لكن قوله : ﴿ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦) ﴾ [ص] من هنا دلَّتْ على أقل ما يُقَال له أجر ولو كان جنيهاً واحداً ، أو قرشاً واحداً ، فمن هنا نفت مطلق الأجر ، أما كلمة أجر فهى تعنى أجراً مُجْزياً يُعْتَدُّ به ولا تمنع وجود الأجر القليل ، كما تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال أى : من بداية ما يُقال له مال . ولو كان قرشاً واحداً .

وكَوْنُ الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : قُلْ لهم يا محمد ما أسألكم عليه من أجر ، كأنه يقول لهم : يا قوم إنَّ ما جاءكم به محمد عمل نافع لكم فى دينكم وفى دنياكم ، وكان الواجب عليكم أنْ تُعطوه أجراً عليه ، إذن : هو يستحق الأجر لكن لن يسألكم إياه لأن ما يقدمه لكم لا يستطيع بشر أنْ يُؤدِّىَ حقه أو يدفع ثمنه ، فأجره لا يأخذه إلا من الله ، فهو وحده القادر على أنْ يجازيه ، وأنْ يُعوِّضه عما قدَّم.

إذن : محمد ﷺ يستحق على هداية القوم وتبليغهم منهج ربهم أجراً ، وهو غير زاهد فى هذا الأجر ، إنما يريد أنْ يُقوِّم هذا العمل بتقويم الذى أرسله بهذه الرسالة .

وهذه العبارة ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ..(٨٦) ﴾ [ص] سنة لازمة لجميع الأنبياء ، فكلهم قالوها لأقوامهم عدا سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى عليهما السلام ، لماذا ؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم أول ما دعا إلى الإيمان بالله ووحدانيته دعا أباه آزر ، ولا ينبغي له أن يطلب أجراً من أبيه ، كذلك سيدنا موسى أول ما دعا إلى الإيمان دعا فرعون الذى ربَّاه وأحسن إليه ، فكيف يقول له : أعطنى أجرى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] المتكلِّف : هو المتصنِّع الذى يُظهر شيئاً فوق قَدْره المنوط به ، ومن ذلك قول النبى ﷺ : « لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه »[1] يعنى : لا تُحمِّلوا أنفسكم فوق طاقتها ، كالذى يقترض ليقوم بواجب الضيافة ، ثم يذهب الضيف ويبقى عليه الدين وهذا يجعله يكره الضيف بعد ذلك ويتأذى أنْ ينزل به .

إذن : كُنْ على طبيعتك ، وقُمْ بواجب الضيافة على قَدْر طاقتك . ولمَ لا وقدوتك ﷺ يقول : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] لأن الأمر الذى جئتُ به لا يحتاج إلى تكلُّف إقناع لأنه أمر موافق للطبيعة .

ولك أنْ تستعرضَ أحكام الشرع ، وأنْ تنظرَ فيها ، أهى صالحة فى ذاتها أم لا ؟ الدين يقول لك : لا تكذب . فمَنْ يقول إن الخير فى الكذب ؟ الدين يقول لك لا تغش فمن يقول : إن الصلاح فى الغش ؟ الدين نهاك عن شرب الخمر فمَنْ يقول إنها تصلح ؟ ومَنْ ينكر أنها تفسد العقلَ الذى ما كُرِّم الإنسان إلا به ؟ .

إذن : كلها أحكام واضحة لا تحتاج إلى تكلُّف فى الإقناع بها ، لأنها توافق الفطرة السليمة .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٢/١٢) قال الحافظ العراقى : أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه » وفيه محمد بن الفرج الأزرق مُتكلَّم فيه . قال الذهبى عنه فى ميزان الاعتدال (٨٠٥١) : « معروف صدوق تكلم فيه الحاكم لمجرد صحبته الحسين الكرابيسى ، وهذا تعنت زائد » . قال الخطيب البغدادى (٣/١٥٩) : « أحاديثه صحاح ورواياته مستقيمة لا أعلم له فيها ما يُستنكر » .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [ص] أى : ما هو أى القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [ص] والذكر والتذكير لا ينشأ إلا من نسيان شىء سابق ونريد أنْ نُذكِّرك به ، فالقرآن ذِكْر بمعنى أنْ يُذكِّرك بما نسيته من العهد الأول عهد الفطرة الذى أخذه الله عليك وأنت فى طوْر الذَّرِّ ، فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فأقر الجميع ﴿ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فقال الله تعالى : إذن احفظوا هذا العهد وتذكروا هذا الإقرار ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

إذن : الحق سبحانه لا يُكلِّفك بهذا الإقرار إنما يُذكِّرك به ، لأن التكليف أُخِذَ عليك يوم أنْ كنتَ ذرةً فى ظهر أبيك آدم ، ولم تكُنْ لك شهوة .

فقوله تعالى عن القرآن : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [ص] دلَّ على أن ما جاء به محمد ﷺ من قمة توحيد الله والإيمان به إلى فرعيات التكليف وجزئياته أمر كان فى القديم ، عرفه الجميع وأقرُّوا به ، والقرآن فقط مُذكِّر بهذا العهد الأول .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص] أى : الذين كذَّبوا القرآن سيعلمون عاقبة هذا التكذيب ، وسيعلمون أنه خبر صادق ، سيعلمون ذلك ﴿ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ [ص] قالوا : الحين يُرَاد به ظهور الإسلام وانتصاره على الكفر ، بداية من معركة بدر إلى أنْ قال القائل : عجبتُ لهذا الأُمىِّ ، كيف يفتح نصف الدنيا فى نصف قرن ، نعم هذه عجيبة ولا تزال حتى الآن.

وقد شاهد هؤلاء المكذِّبون بأعينهم انتصارَ الإسلام واندحار الكفر ، وشاهدوا نقصان رقعة أرض الكفر ، وازدياد رقعة أرض

الإيمان ، كما قال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا (٤١)﴾ [الرعد] ومع ذلك لم يأخذوا من فتوحات الإسلام عبرة .

وقالوا : الحين يراد به القيامة حين يدخل هؤلاء المكذبون النارَ ، عندها سيعلمون صدْق هذا الكلام الذى أخبرهم الله به فى قرآنه .

وكلمة النبأ لا تقال إلا للخبر العظيم الهام ، كما قال سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)﴾ [ص]

فما بالك بنبأ الذى وصفه بأنه عظيم هو الله ؟ وعظمة الخبر تأتى بمقدار ما يُهيىء من الخير للإنسان ، فالخبر بأنك نجحت فى القبول، غير الخبر بنجاحك فى التوجيهية ، غير الخبر بأنك أصبحت وزيراً ، فعظَم الخبر بمقدار ما يحمل لك من الخير المرجو منه للإنسان .

إذن : ما بالك بالخير الذى ينتظرك بعد قيامك بالتكاليف الربانية ، إنه خير لا يسعدك فى دنياك المنقضية فحسب ، إنما يسعدك فى آخرتك الباقية الخالدة ، فعظَم هذا الخبر أنه ضَمِن لك الحياتين الدنيا والآخرة .

وأسأل الله فى آخر السورة أنْ يجعل لنا حظاً من قوله : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ [ص]




سورة الزمر



سورة الزمر(١)



﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾

فَرْق بين تنزيل وإنزال ونزول ، النزول هو الحدث الذى يأتى بشىء من أعلى إلى أدنى ، والإنزال يدل على أن الذى أنزل أعلى من المُنزل إليه ، أما التنزيل فيدل على النزول على فترات بحسب الأحوال .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر] يعنى : أنزلناه جملةً واحدة فى أول رسالة محمد ، ليباشر القرآنُ مهمته فى الوجود ، ثم نُزِّل بعد ذلك مُنجَّماً حَسْب الحاجة.

قال تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝١٠٥ ﴾ [الإسراء]

(١) سورة الزمر هى السورة رقم (٣٩) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٧٥ آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد . وقال ابن عباس : إلا آيتين نزلتا بالمدينة إحداهما ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ والأخرى ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ . انظر القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٧٥) وسورة الزمر تسمى أيضاً سورة الغرف لقوله تعالى فيها : ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ۝٢٠ ﴾ [الزمر]

يعنى : أنزلناه بالحق بداية ، وظلَّ على الحق لم يستطع أحد أنْ يُغيِّره أو يُفسده ؛ لأنه حقٌّ .

وهذه المادة نزل أو نزَّل أو أنزل ، تدل كلها على عُلُو المنزِّل ودُنُو المنزل إليه ، وتدل على أن شرف المنزَّل من شرف مَنْ أنزله ، وتدل أيضاً على أن مَنْ أنزل المنهج القويم للمخلوق يريد أنْ يكرمه وأنْ يعلوَ به . إذن : دَلَّ الإنزال على شرف المنزِّل وعلو مكانته ، وعلى شرف ما أُنزل وعلى شرف مَن اختاره الله ، وجعله أهلاً لأنْ يُوجه إليه هذا الخير .

ومن ذلك قوله تعالى فى أمة محمد : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (١١٠)﴾ [آل عمران]

ولما تتبعنا مادة (نزل) فى القرآن الكريم وجدناها كلها تدل على العُلو ، إلا فى عدة مواضع لم يكُن الإنزالُ فيها من العلو ، وهو قوله تعالى فى سورة الحديد : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥)﴾ [الحديد] فالحديد لا ينزل من عُلو إنمَا يُستخرج من الأرض ، فلماذا قال الله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ(٢٥)﴾ [الحديد] ؟

قالوا : نعم الحديد من الأرض ، لكن مَنْ جعله فيها ؟ الخالق سبحانه ، إذن : فهو أيضاً إنزال أى : جعل له فى الأرض ، فلا تنظر إلى جهة الإنزال ، إنما إلى مَنْ أنزل .

ثم إن إنزال الحديد تتميمٌ لرسالات الرسل لهداية الخلق إلى منهج السماء ، لأن الله تعالى قال بعدها : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ(٢٥)﴾ [الحديد] فمن الحديد سنصنع السيوف والرماح وعُدَّة الحرب .

كذلك فى : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . . ⑥﴾ [الزمر]
وقوله : ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ⑳﴾ [الأعراف]

وفى مسألة الإنزال هذه نلحظ لفتة جميلة فى أسلوب القرآن الكريم ، فى استخدام حرف الجر المتعلق بالفعل أنزل ، وكيف أنه يأتى مناسباً للمعنى المراد من الإنزال ، ففى خطاب النبى ﷺ يقول له ربُّه عز وجل : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ③﴾ [آل عمران] قال (عليك) مع أن الكتاب نزل للناس جميعاً ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ㉙﴾ [ص]

لكن رُوعى هنا المخاطب المستقبل المبلِّغ عن الله ، لكن لما يتكلم على النعم التى ينتفع الناس بها مباشرة يقول (عليكم) ثم نلحظ دقة التعبير فى استخدام حرف الجر ، قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ⑥﴾ [الزمر] وفى اللباس قال : ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ⑳﴾ [الأعراف] قالوا : لأن اللباس الساتر للبدن يكون على الجسم يلفه ويستره ، فناسبه الحرف (على) . أما الأنعام فهى شىء مستقل منفصل عن الإنسان .

الحق سبحانه وتعالى يعطى من علوٍ ، ولكن الذى يعطى له هو من صنعته أيضاً ، فعلو فى خَلْق آدم الخليفة ، وعُلو فى المنهج الذى يصونه ، حتى أن بعضهم قال : إن الإنسان خليفة لله فى الأرض ، بمعنى أنه مُفَوَّض من الله بالقيام بما أراده الله ، بدليل لو كان هناك محتاج ضَنَّ الناس عليه يقول الله لهم : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا(٢٤٥)﴾ [البقرة]

فسمَّى هذا الإعطاء للفقير قرضاً ، مع أنه سبحانه المعطى الواهب

لهذا المال ، لكن لما كان الحق سبحانه هو الخالق ، وهو الذى استدعى الإنسان للوجود وتكفَّل له برزقه ، فاعتبر المال ماله وحقه ، فإنْ بذله فهو قرض لله .

ومثَّلنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - قلنا : حين تعطى ولدك مصروفه فيجعله فى حصالة مثلاً ، ومرَّتْ بك ظروف احتجتَ لما فى حصالة الولد فقلت له : سلّفنى ما فى حصالتك لحين ميسرة ، مع أنك صاحب هذا المال .

فكأن الحق سبحانه يحترم ملكية العبد ، مع أنها من فضله ، فإنْ طلبها منه طلبها على سبيل القرض .

و(الكتاب) أى : القرآن . فمرة يقول : الكتاب . ومرة : القرآن ، دليل على أنه سيأخذ الوَصْفين معاً ، فهو كتاب بمعنى مسجل ومكتوب يعنى لا يُنكر ، وهو قرآن بمعنى مقروء ، فهو مُسجَّل فى السطور ومحفوظ فى الصدور ، وهذه ستكون حجة علينا .

وقد علمنا الدقة التى اتبعها الصحابة فى جمع القرآن من صدور الحفظة ، فكانوا لايكتبون آية إلا إذا قرأها اثنان من الحفظة واتفقا على صحتها ، كذلك يشهد على صحتها اثنان بعد الكتابة ، فدلَّت هذه الدقة على حيثيات قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⑨ ﴾ [الحجر]

وكلمة (الكتاب) هكذا بأل التعريفية تدل على أنه الكتاب الكامل فى الكتب ، ولا تنصرف هذه الكلمة إلا إلى القرآن الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ اللَّهِ ① ﴾ [الزمر] دل على أن التنزيل من أعلى لأدنى ، لكن لماذا قال ﴿ مِنَ اللَّهِ ① ﴾ [الزمر] ولم يَقُلْ : من

الرب؟ لأن هذا الكتاب جاء بمنهج للتربية ، والرب هو المتولى للخَلْق وللتربية . قالوا : لأن الربوبية عطاء يشمل الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، فالرب خلق الجميع الخَلْق المادى وأمدَّ الجميع ، فالكل فى عطاء الربوبية سواء .

أما المنهج الذى نزل به الكتاب ، فهو منهج إيمانى وخُلُقى وتعبُّدى من عطاء الألوهية ، لا من عطاء الربوبية ، لذلك قال فى الكتاب: ﴿ مِنَ اللَّهِ ۝١ ﴾ [الزمر]

والله علَم على واجب الوجود ، أما الأسماء الحسنى فهى أوصاف بلغت العظمة ؛ لأنها لله تعالى وغلبتْ عليه ، فصارت أسماء قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۝١٨٠ ﴾ [الأعراف] والجامع لها كلها لفظ الجلالة الله ، فحين تقول الله كأنك ناديتَ الله بجميع أسمائه الحسنى ؛ لذلك أمرنا أنْ نبدأ العمل بقول باسم الله ، والعمل يحتاج إلى قوة وإلى علم وإلى حكمة وإلى عزة . . الخ .

فلو كنتَ مُقبلاً على عمل يحتاج إلى عشرين صفة مثلاً فهل تقول : باسم القوى ، باسم العليم ، باسم الحكيم . . لا لأن فى وُسْعك أن تجمع كلَّ هذه الصفات فى قولك باسم الله ؛ لأن لفظ الجلالة هى الكلمة الجامعة لكل صفات الكمال ، وتناسب كل ما يحتاجه العمل ، وكل ما يتعلق بالفعل ، مما تعرفه أنت ومما لا تعرفه .

لذلك قالوا : إياك أنْ تدعَ هذه الكلمة فى بداية العمل ، حتى لو كنتَ عاصياً فلا تَخْزَ من ربك ولا تخجل أنْ تقولها ، ولا تستبعد أنَّ الله يعاونك حتى وأنت عاصيه ، لأن ربك الذى تدعوه وتبدأ عملك باسمه رحمن رحيم ، وهو الذى أمرك أنْ تقولها .

إذن : قال سبحانه : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ۝١ ﴾ [الزمر] لأن الكتاب

نزل بمنهج وقيم ، ولم يقل : من الرب لأن الربَّ وصفٌ خاص بالمادة وبالقالب .

وقوله : ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾ [الزمر] العزيز هو : الغنى عن الخَلْق الذى لا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم ، وجاء هذا الوصف بعد ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ①﴾ [الزمر] لمناسبة . فكأن الحق سبحانه يقول لنا : اعلموا أننى متطوع بهذا المنهج الذى أنزلته عليكم ، أريد به سعادتكم فى الدنيا ونعيمكم فى الآخرة ، أما طاعتكم لمنهجى فلا تزيد فى ملكى شيئاً ، لأننى الغنى عنكم ، فأنا العزيز عن خَلْقى .

لذلك فى مسألة الشرك بالله قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ④⑧﴾ [النساء]

وقال فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيره تركته وشركه»[(١)] .

يعنى: أنا متنازل لهذا الشريك عن العمل كله ، لأنى عزيز عن خَلْقى ، لا مصلحة لى من طاعتهم ، إنما المصلحة تعود عليهم هم . إذن : فربُّك خلقك وأنزل عليك ما يصلحك ، فإن أطعْتَهُ أثابك ، لأن لله تعالى صفات ، وهذه الصفات تحتاج إلى متعلقات ، فحين تؤدى هذه المتعلقات لله يجازيكَ عليها .

إذن : قُلْ باسم الله واعلم أنه عزيز عن هذه ، وتذكَّر قوله سبحانه فى الحديث القدسى : « ياعبادى ، لو أنَّ أولكم وآخركم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) ، واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه .

وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من مُلكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كلٌّ واحد مسألته فأعطيتُها له ما نقص ذلك من مُلكى إلا كما ينقص المخيط إذا أُدْخلَ فى البحر ، ذلك أنى جوَادٌ ماجد واجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقولَ له : كُنْ فيكون»[1] .

فالحق سبحانه هو العزيز الذى يَغْلب ولا يُغلب ، وهو سبحانه يخلع من هذه الصفة على مَنْ يؤمن به ، فللمؤمن عزة من عزة الله ، أما غير المؤمن فيبحث عن عزة بالإثم استكباراً بلا رصيد ، ومن ذلك قول المنافقين[2] .

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ . .(٨)﴾ [المنافقون]

قال الله لهم : صدقتم فى هذه المقولة : ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، لكن مَن الأعز ؟ ومن الأذل ؟ ثم حكم الحق سبحانه أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ(٨)﴾ [المنافقون]

إذن : أنتم الأذل ، وأنتم الذين ستخرجون من المدينة لا رسول الله ، وقد تم ذلك لرسول الله ، وقد كان .

والحق سبحانه مع أنه ﴿الْعَزِيزِ . .(١)﴾ [الزمر] الذى يغلب ولا يُغلب ، فهو سبحانه ﴿الْحَكِيمِ (١)﴾ [الزمر] أى : الذى يضع الشىء

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه بنحوه ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) وحسَّنه ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) .

(٢) قائل هذا القول هو عبد الله بن أُبىّ بن سلول رأس المنافقين فى المدينة ، قالها فى غزوة بنى المصطلق . ذكره الواحدى فى أسباب نزول الآية ٨ من سورة المنافقين .

فى مـوضعـه . ومن هذه الحكمة أنه سـبـحانه لا يطبع المـؤمنَ على العزة الـدائمة ، ولا على الذِّلة الدائمـة ، كذلك لا يطبـعه على الرحـمة الدائمة ، ولا على الشدة الدائـمة ، بل ينفعل للأحداث الإيمانيـة ، كما قال سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩) ﴾ [الفتح] وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾[المائدة]

ومع أن هذه طباع فى النفس إلا أنهـا مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقـها ، فإنْ كان الموقف يحتاج إلى رحمة فالمؤمن رحيم ، وإنْ كان الموقف يحتاج إلى شـدة . فالمؤمن شديد . إذن : هذا مظهـر من مظاهر حكمة الخالق سبحانه ، فإنْ قلتَ: هذه طباع ، نعم طباع لكن مُعدَّلة بمنهج مَنْ خلقها .

والحكمـة مأخـوذة من شىء حسِّىٍّ ، مـأخوذة من الحكَمـة التى تُوضع فى فم الفـرس ، والتى نسميـها اللجام ، وهـو الأداة التى بها نتحكَّم فى حـركة الفرس ، وفـى سرعتـه واتجاه سَيْـره ، وبها نكبح جماحه إنْ جمح .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[1] إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ﴾

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

الحق هو الأمر الثابت الذى لا تأتى أغيار الزمن فتنقضه ، وما دام الحق ثابتاً لا يتغير فلا يغرنك عُلُوٌّ الباطل إنْ علا يوماً من الأيام ؛ لأن عُلُو الباطل من ثبات الحق ، فالباطل حين يعلو يعضٌ الناسَ ، ويشقى به الخَلْقُ ، ويكتوون بناره ، وعندها يتطلعون للحق ويتشوَّقون إليه .

فكأن الباطل جندى من جنود الحق ، والكفر جندى من جنود الإيمان . فالله تعالى لا يسلم الحق أبداً ، ولكن يتركه فترة حتى يعلوَ الباطلُ عليه ليبلوَ غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غار هو عليه .

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر] يعنى: ما دُمْنا قد أنزلنا إليك الكتاب بالحق فانظر ماذا فى الكتاب ، فيه منهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، فيه تكليفٌ للجوارح ، ولابُدَّ أنْ يسبق العمل بالتكليف اقتناعُ القلب بالمكلف والإيمان به .

فأنت حين تقف أمام قضية صعبة تعجز عن التفكير فيها ، أو أخذ قرار تذهب إلى مَنْ شُهد له بالحكمة أو العلم والرأى ليفكر لك ويُعينك على أمرك ، فمثل هذا الرجل تأتمنه وتسلم له زمام أمرك ؛ لأن رأيه يصلحك .

إذن : لابُدَّ قبل العمل بافعل ولا تفعل أنْ تثقَ وتتيقن بمن كلَّفك ، وهذا هو الإيمان الذى ينبغى أنْ يسبق العملَ . لذلك نقول : لا ينفع إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان ، واقرأ قول الله تعالى :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

لذلك قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ②﴾ [الزمر] فشرْطُ العبادة الإخلاص ، والعبادة تعنى طاعة العابد لأمر معبوده ونَهيه ، وهذا التحديد لمعنى العبادة يُبطل عبادةَ كلِّ ما سوَى الله تعالى ، فالذين عبدوا غير الله من شمس أو قمر أو نجوم أو أَشجار أو أحجار عبدوا آلهة - كما يزعمون - بلا منهج وبلا تكاليف .

إذن : فكلمة العبادة هنا خطأ وهى باطلة ، فماذا قالت لهم هذه الآلهة ؟ بِمَ أمرتْهُمْ وعَمَّ نَهتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها ؟ وماذا أعدت لمن كفر بها ؟ فأول ما يُبطل عبادة غير الله أنها آلهة بلا منهج وبلا تكاليف .

أما الذين قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ③﴾ [الزمر] فالله سبحانه نهى عن هذه الزُّلْفى ، ونهى أنْ يكون بينه وبين عباده واسطة أو وسيلة .

ثم إن الحق سبحانه أراد أنْ ينبه الخَلْقَ إلى بديع صُنْعه ، وإلى هذا الكون المكتمل ، وهذه الهندسة الدقيقة فى كل جزئياته ، وأن هذا الكون فيه كل مُقوِّمات الحياة وكل الأنواع الواهبة للخير ، فهل ادعاه أحد لنفسه ؟

هل قالَ أحد : إنى خلقتُ هذا الكون مع كثرة الملحدين والمنكرين لوجود الله ؟ لم يحدث أبداً شيء من هذا . إذن : الدعوة تثبت لمدعيها طالما لم يقم لها معارض ، فالله تعالى هو الخالق وحده ، وهو المستحق للعبادة وحده ، وما دونه ضلال وباطل .

لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لأَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ④②﴾ [الإسراء] يعنى : ذهبوا إليه ليناقشوه كيف أخذ الخَلْق منهم ؟ وكيف ادعاه لنفسه ؟

ومعنى﴿ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ②﴾ [الزمر] يعنى : اجعل الدينَ خالصاً

لوجه الله ، وامنع الرياء لأن الذى ترائيه لا يملك لك من ثواب العمل شيئاً ، فالمرائى الذى يرائى مثلاً فى صدقته ينفع المحتاج بالصدقة ، وهو لا ينتفع بها ؛ لأن الله تركه يأخذ أجره ممَّن يرائيه ، والعبد مثلك لايملك لك شيئاً .

وفَرْق فى المعنى بين مُخْلِص بالكسر ، ومُخْلَص بالفتح : المخلَص هو مَنْ يسبق عطاء الله لَه بالإخلاص فيخلص ، أما المخلص فيصل بعطاء إخلاصه إلى عطاء الله . قلنا زمان : من الناس مَنْ يَصل بطاعة الله إلى كرامة الله يعنى : ألحَّ فى الطاعة وداوم طَرْق الباب حتى فُتِح له .

وآخر يصل بكرامة الله إلى طاعة الله ، يعنى : ربه يختاره للطاعة ويخطفه من الخلق أو من المعصية إلى الطاعة ، مثل كثيرين من المتصوفة ، ومثال دلك القاضى عياض[١] رحمه الله ، فقد كان فى بداية أمره قاطعَ طريق ، وفى يوم خرج كعادته يقطع الطريق على الناس ، فسمعهم يقولون : لا تمروا من هنا فعياض على هذا الطريق، نزلت هذه الكلمات على عياض نزولَ الصاعقة ، فكيف يهابه الناس ويخافونه لهذه الدرجة ، فأخذ يُؤنِّب نفسه وعزم على التوبة ، وقال: يارِبّ تُبْ علىَّ حتى يأمنَ هؤلاء . فتاب الله عليه[٢] .

---

(١) القاضى عياض هو عياض بن موسى أبو الفضل ، عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته ، ولد فى سبتة عام ٤٧٦ هـ وتوفى بمراكش مسموماً عام ٥٤٤ هـ عن ٦٨ عاماً ، ولى قضاء سبتة ثم غرناطة . له تصانيف عدة أشهرها : الشفا بتعريف حقوق المصطفى . الأعلام للزركلى (٥/٩٩) .

(٢) ذكره ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » فى ترجمته ، وقال : « كان فى أول أمره شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. (١٦)﴾ [الحديد] فقال : يا رب قد آن ، فرجع ، وآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : نرتحل . وقال بعضهم : حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل وآمنهم .

فلما استقام سأله الناس الذين يعرفون حقيقته : ما جرى لك يا عياض ، يعنى : كيف صِرْتَ من الأوليـاء ، بعد أن كـنتَ قاطـع طريق ؟ .

قال : والله إنى لأعرف سببهـا ، لقد مررتُ يوماً بسوق البطيخ - أظن فى بغـداد - فـوجدت ورقـة من المـصحف ملقـاةً على الأرض يدوسها الناس فـأخذتها ونظفتُ ما بها من الأذى ، ثم طيَّبـتها بدرهم لم يكُنْ معى غـيره ، ثم وضعتـها فى شق عال ، قـال: والذى نفسى بيـده لقد سـمـعتُ بعدها منادياً ينادى : لأطيبنَّ اسـمك كـما طيـبتَ اسمى[1] وكانت هذه الحادثة أول عهد عياض بالولاية .

لذلك ورد أن النبى ﷺ قـال : « إن الله أخـفـى ثلاثاً فى ثلاث : أخفى رضـاه فى طاعته » فلا تحـقرن طاعةً أبداً ، واعلم أن الله غـفر لرجل لأنه سقى كلباً يلهث من العطش[2] ، وهذا العمل يدل على محبة طاعة الله وإلا فـماذا يأخذ الرجل من الكلب ؟ أم تراه ينافـقه ؟ إذن : ليس إلا حب الطاعة .

« وأخفى غضـبه فى معصـيته » فلا تحـقِرنَّ معصـية أبداً ، وقد دخلت امرأة النار فى هرة حبسـتها ، فلا هى أطعمتها وسـقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[3] .

---

(١) هذه القصـة ذكرها ابن خلكان فـى وفيات الأعـيان والصـفدى فى الوافى بالوفـيات ، وابن الملقن فى طبـقات الأولياء ، واليـافعى فى مرآة الجنان أنهـا حدثت مع بشـر الحافى وليس القاضى عياض ، ولكن لابد أن نذكر أنه كان مصاحباً له .

(٢) عن أبى هريرة أن رسـول الله ﷺ قال : بينـما رجل يمـشى بطريق اشـتد عليـه العطش ، فوجـد بئراً فنزل فـيهـا فشرب ، ثم خـرج فإذا كلب يلهث يـأكل الثرى من العطش ، فـقال الرجل : لقد بلـغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كـان بلغ بى ، فنزل البئـر فملأ خـفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

(٣) أخرجه البـخارى فى صحيحـه (كتاب بدء الخلق - باب صفة النار) حـديث (٣١٤٠) عن ابن عمر وكذا مسلم (كتاب التوبة - باب الحض على التوبة) حديث (٢٦١٩) عن أبى هريرة.

«وأخفى أسراره فى خلقه» كما أخفى أمر عياض وتاب عليه .

ثم يقول سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر] بعد أنْ خاطب الحق سبحانه نبيه بقوله : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ②﴾ [الزمر] أراد سبحانه أنْ ينبه الأذهان إلى أهمية الإخلاص لله تعالى ، فجاء بهذا الحرف الدال على الاستفتاح (ألا) .

وهذا الأسلوب يتبعه العربى فى كلامه ، لأن المتكلم أمير نفسه يتكلم فى أيِّ وقت شاء ، وهو يعى ما يقول وله خيار فيما يقول أمَّا السامع فليس له خيار فربما كان مشغولاً عن المتكلم فيفوته بعض الكلام ؛ لذلك على المتكلم أنْ ينبهه من غفلته ، وأنْ يُهيِّئه لأنْ يسمع، لاسيما إنْ كان الكلام مهماً أو نفيساً لاينبغى أن يفوتك منه شىء ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر]

ونلحظ أيضاً هنا أسلوبَ القصر فى تقديم الجار والمجرور ﴿لِلَّهِ ③﴾ [الزمر] على المبتدأ الدين الخالص ، فلم يَقُلْ سبحانه الدين الخالص لله ، لأنها تحتمل أن نقول : ولغيره ، أمَّا قوله ﴿لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ③﴾ [الزمر] أى : له وحده ، فقصرت إخلاص الدين على الله تعالى دون غيره ، تقول: هذا المال لزيد . ولزيد هذا المال .

لكن ، لماذا لله الدين الخالص ؟ قالوا : لأن الدينَ شرعُ الله هو الذى شرعه ، وهو سبحانه الذى يُجازى عليه ، فاحذر إذن أنْ يكون عملك بمنهج الله مقصوداً به غير الله ؛ لأن غير الله لم يشرع لك ، ولا يستطيع أنْ يعطيك أجر العمل . فكأن الله تعالى يريد أنْ يُحَصِّن حركة الإنسان فى كل شىء ، بحيث تعود عليه كل حركاته بالخير ؛ لذلك دلَّهُ على الطريق الذى يؤدى به إلى الخير ، وهو طريق إخلاص العبادة لله وحده .

ثم يذكر سبحانه مقابل إخلاص العبادة لله ، فيقول : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (٣)﴾ [الزمر] قائلين ومبررين موقفهم حين تبيَّن لهم كذبهم في عبادة ما دون الله ، وحين تقول لهم إن هذه الآلهة لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ، وحين تضيق عليهم الخناق يقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ (٣)﴾ [الزمر]

والذى يُقرِّبك إلى الله لابُدَّ أنْ يكون مشهوداً بالتبعية لله تعالى ، وهذه الآلهة التى تعبدونها ليست مشهودة بالتبعية لله تعالى ، بل هى من صُنْعكم أنتم ومن نَحْت أيديكم ، وإذا أطاحت به الريح أقمتموه فى مكانه ، وإذا كسر ذراعه أصلحتموه .

إذن : فعبادتكم لها باطلة ، وأنتم كاذبون فى هذه العبادة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٣)﴾ [الزمر] كلمة الحكم لله كلمة ترهب ، لأن حكمَ الله هو الحق الذى لا يُحابى أحداً ، فالمؤمن حين يسمع هذه الكلمة يطمئن ، لأنه سيأتى يوم لا يكون الحكم فيه إلا لله كما قال سبحانه : (إن الحكم إلا لله) أى : لله وحده لا لغيره ، لذلك أنت لا تقول لخصمك : أنا حكَّمت الله بينى وبينك إلا وأنت واثق أن الحق معك .

لذلك يغضب بعض الناس لو قلت لأحدهم : الله وكيل بينى وبينك . ولو كان على الحق لا يخاف شيئاً لقال وأنا رضيتُ هذه الوكالة وقبلتُ بها ، لكن كونه يغضب حين نُحكِّم الله فيما بينكما ، فهذا دليل على أنه يخاف هذا الحكم لأنه على باطل .

ثم إن حكم الله سيأتى فى وقت لا حكمَ فيه إلا لله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ (٥٧)﴾ [الأنعام] .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)﴾ [الزمر]

نعم لا يهديه الله ، لأن الكاذب الكفَّار ليس أهلاً لعطاء الهداية ؛ لأن الله تعالى هدى الكل هدايةَ الدلالة والإرشاد ، فمَنْ آمن منهم زاده هداية المعونة والتوفيق ، قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك قلنا : إن رجل المرور الذى يقف على مفترق الطرق ينظم المرور ويرشد الناس ، فحين تسأله أين الطريق إلى الأسكندرية مثلاً يقول لك من هنا ، فتتوجه إلى حيث أرشدك ، وقبل أنْ تفارقه قلت له : جزاك الله خيراً ، لقد كدتُ أضلّ الطريق ، وأذهب من هنا ومن هنا ، لولا أن الله يسَّر لى أنْ أقابلك ، فقال لك : والله أنت رجل طيب تستحق كل خير ، لكن فى هذا الطريق منطقة خطر سأركب معك حتى أساعدك فى المرور منها .

إذن : لما أطعتَهُ فى الإرشاد الأول زادكَ بالمعونة والمساعدة ، كذلك الحق - سبحانه وتعالى - مَنْ يستجيب لهداية الدلالة والإرشاد فيؤمن يزيده هداية أخرى ، هى هداية التوفيق والمعونة .

والكاذب الكفَّار هو الشديد الكفر الذى لا ينتفع بإرشاد ، ولا هداية .

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾

تحدثنا هذه الآية عن نوع آخر من الشرك ، فهؤلاء لم يعبدوا الأصنام ولا الشمس ولا القمر ، إنما اتخذوا أشياء أخرى يروْنَ بينها وبين الله تعالى صلة ، كما نقول (من ريحته) ، ورأوا أن ذلك أخفّ

وأهونُ من عبادة الأصنام ، هؤلاء كالذين قالوا عزير ابن الله ، والذين قالوا المسيح ابن الله ، أو الملائكة بنات الله . . الخ فردّ الله عليهم :

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر]

يعنى : هذه مسألة لا دَخْلَ لكم فيها ولا اختيار ، لا تختاروا أنتم لله ولداً ؛ لأن الله تعالى لو أراد ذلك - على فرض - لاختار من خَلْقه ما يشاء هو ، لا ما تختارون أنتم .

لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] أى : من اختياره ويخبر هو به ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[الزخرف] يعنى : أول المصدِّقين المؤمنين به ، فهو على العين والرأس ، إنما هذا أمر لم يخبر الله به ، وإنما نفاه عن نفسه سبحانه .

وقد ورد فى الحديث : « الخَلْق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله»[(١)] إذن : فالبنوة ليست لله تعالى ، وحتى فى بنوة الرسل لم يجعلها الله بنوةَ دم ، ولا بنوةَ أبدان ، إنما بنوة أديان ، وأوضح مثال على ذلك سيدنا نوح - عليه السلام - وولده .

لما أَبَى الولد وعصى أمر أبيه أيقَن الوالد أنه من الهالكين ، فدعا الله : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود] لكن عدل الله له معنى البنوة ، فقال سبحانه : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾﴾ [هود] فسيدنا نوح ظن

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٦ / حديث ٣٣١٥) عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ: « الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » وأخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٦ /٣٣٢) عن عبد الله بن مسعود بلفظ آخر : « الخلق عيال الله فأحب الناس إلى الله من أحسن إلى عياله » .

أن البنوة بنوة نسب ، لكن بنوة الأنبياء بنوة اتباع .

والحرف (لو) فى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ [الزمر] حرف امتناع لامتناع ، وهو من أدوات الشرط يفيد امتناعَ وقوع الجواب لامتناع وقوع الشرط ، فالحق سبحانه لم يتخذ ولداً لأنه لم يُرِدْ ذلك ، ولو أراده لكانَ ما يريد .

وفى موضع آخر ، يناقش الحق سبحانه أصحاب هذا الافتراء ، يقول لهم بالمنطق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام] .

ثم لماذا يُتخذ الولد ؟ يتخذ الولد ليكون عزوةً لأبيه أو امتداداً له بعد موته ، والحق - تبارك وتعالى - هو الغنى العزيز عن خَلْقه ، وهو الدائم الباقى فلماذا يُتخذ الولد ؟ والذين نَسبوا لله تعالى الولدَ فى العصور المتأخرة من الديانات ، كالذين قالوا : المسيح ابن الله ، فهل كان الله تعالى منذ خلق هذا الكون بلا ولد إلى أنْ جاء عيسى فاتخذه الله ولداً .

وبعد أنْ أخذ عيسى من الوجود أظلَّ الله تعالى هكذا (غلبان مقطوع من شجرة) بلا ولد ؟ كيف يستقيم لكم هذا الادعاء ؟ إنها مسألة لا تصح أبداً فى حق الله تعالى ، فالله لا يحتاج إلى عزوة ، ولا يحتاج لمعونة الولد ، لأن الله تعالى خلق الخَلْق كله من ألفه إلى يائه ، خلقه بكامل قدرته ، وبصفات الكمال فيه ، فلم يزده الخَلْق شيئاً ولا صفة لم تكُنْ له من قبل .

لذلك يقول بعض أهل الشطح فى هذه الآية : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر] يقول : لو كان للرحمن ولد كنتُ أنا أَوْلَى أنْ أكونَ ولده ؛ لأننى أول العابدين .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بما يُنزِّه الله عن هذا الافتراء :

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ ④ ﴾ [الزمر] يعنى : سبِّحه ونزِّهه عن هذه المسألة ، فإنها لا تليق به سبحانه ، ونزهه أنْ يشابه شيئاً من خلقه ، حتى لو وقفت أمام مسألة لا يدركها عقلك قُلْ سبحان الله كما قال الله :

﴿ سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ㉖ ﴾ [يس]

وقال : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ⑰ ﴾ [الروم]

وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ① ﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه فى مثل هذه المواقف يُعلِّمنا أنْ نُنزِّه الله ، لأن العقل سيقف أمام هذه الأحداث حائراً ، لكن الحدث هنا منسوب إلى الله فلا عجبَ إذن ، لأن زمنَ الحدث يتناسب مع القوة الفاعلة تناسباً عكسياً ، فكلما زادتْ القوة قَلَّ الزمن ، فإذا نسبتَ الفعل إلى قوة القوى تجد لا زمن .

إذن : نزّهوا الله عن اتخاذ الولد لأنه ﴿ هُوَ اللَّهُ ④ ﴾ [الزمر] الذى له كُلُّ صفات الكمال (الوَاحدُ) الذى ليس معه غيره (القَهَّارُ) أى : الذى لا يحتاج إلى عزْوة ، ولا يحتاج إلى مُعين .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ⑤ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ⑤ ﴾ [الزمر] أى : لم يخلقهما عبثاً إنما خلقهما بالحق ، والحق كما قلنا : هو الشىء

الثابت الذى لا يتغير ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان]

بل خلقهما الله بالحق وبالحكمة وبحساب دقيق وهندسة بديعة لتؤدى مهمتها التى أرادها الخالق سبحانه ، بدليل أنها لا تزال منذ خلقها الله تؤدى مهمتها دون عَطَب فيها ، أو خلاف بين أجزائها .

وقوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ (٥) ﴾ [الزمر] تقول : كوَّرْتُ العمامة يعنى لَفَفتها على رأسى ، فصارت مثل الكرة مكورة ، وفى لَفِّ العمامة تغطى اللفَّةُ اللفَّةَ التى تحتها . كذلك الليل والنهار ، جزء من الليل يغطى جزءاً من النهار فيزيد الليل ، أو جزء من النهار يغطى جزءاً من الليل فيزيد النهار .

هذا هو واقع الليل والنهار ، فهل الليل والنهار يقتسمان الأربعة والعشرين ساعةً بالتساوى ، كل منهما اثنتا عشرة ساعة ؟

لا ، بل يزيد الليل فينقص من النهار فى فصل الشتاء ، ويزيد النهار فينقص من الليل فى فصل الصيف .

هذا يدل على أن الكون ليس محكوماً بقوانين ميكانيكية جامدة كما يدَّعُون ، بل محكوم بقدرة الخالق سبحانه وحكمته .

ولو تأملتَ طول الليل في الشتاء وقِصَره فى الصيف لَوجدتَ أن أمور الكون لا تسير هكذا حسبما اتفق ، إنما لكل حركة فيها حكمة ، فحين يقصر النهار فى الشتاء يحتاج العامل لأنْ يُجهد نفسه لينهى مهمته فى هذا الوقت القصير ، فيتعب نفسه ويُجهدها .

ومن الحكمة أن نعطيه فترة أطول يستريح فيها من تعب النهار ، ولا بدّ أنْ تتناسب فترة الراحة مع فترة الجهد المبذول .

أما فى فصل الصيف فيطول النهار ويوزع العمل على هذا الوقت

الطويل ، فيؤدى الإنسان مهمته بأقلّ مجهود ، بالإضافة إلى راحته فى وقت القيلولة ، فلا يحتاج إلى ليل طويل للراحة ، لذلك يأتى ليلُ الصيف قصيراً . إذن : فالخالق سبحانه يُكوِّر الليل على النهار ، ويُكوِّر النهارَ على الليل لحكمة فى حركة الحياة .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴿١٣﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : يُدخِل كلاً منهما فى الآخر ؛ لذلك لا يتساوى الليلُ والنهار إلا فى فترة قصيرة من العام تقتضيها الحركةُ بينهما .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى (يُكوِّر) أن الأرض كروية ، لأن الليل والنهارَ ظاهرةٌ تحدث على سطح الأرض ، وقد أثبتَ العلم هذه الحقيقةَ بالصور التى التقطوها للأرض من الفضاء ، وصدق الله :
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر]

الأجل : هو يوم القيامة ، فالحق سبحانه يُطمئن الناسَ أن الشمسَ والقمر آيتان لله تعالى باقيتان خالدتان بقاءَ الدنيا وخلودها ، إلى أنْ ينتهيا معها ، ومع ذلك فكل منهما قائم بذاته بقدرة خالقه ، لا يحتاج إلى وقود ، ولا يحتاج إلى صيانة ، ولا قطعة غيار .. الخ .

﴿ أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر] قلنا : (ألا) استفتاحية تفيد تنبيه السامع لما بعدها ، فكأن الله تعالى يقول لقد خلقتُ لكم هذا الكونَ المحكمَ البديع ، ووفرتُ لكم مقومات حياتكم ، وأنا الغنى عنكم ، العزيز الذى يغلب ولا يُغلب ، ولا يحتاج لأحد . لكن ما مناسبة (الغفار) هنا ؟

قالوا : لأن الله تفضّل على خَلْقه بهذه الآيات الشمس والقمر والليل والنهار ، وأعطاهم مُقوِّمات حياتهم ، ومع ذلك لا ينظر إلى ذنوبهم وتقصيرهم فى حقه تعالى لأنه الغفار ، ويعفو عن كثير .

وهذا المعنى أوضحه الحق سبحانه فى موضع آخر ، حين نتأمله نجد فيه عجباً ، إنه قول الله تعالى ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** (٣٤)﴾ [إبراهيم] ورد هذا اللفظ فى موضعين بصدر واحد وعَجُز مختلف ، فواحدة :﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** (٣٤)﴾ [إبراهيم] .

والأخرى :﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١٨)﴾ [النحل]

أولاً : يُلفت أنظارنا هنا فى مسألة عَدِّ نعمة الله استخدام (إن) الدالة على الشك ، لأن عَدَّ نعمة الله مسألة لن تكون ولن تحدث ؛ لأن الإقبال على عَدِّ الشىء ناتج عن إمكانية ذلك والقدرة عليه ، أما نعمة الله فمع تقدم علم الإحصاء ودخوله فى شتى المجالات ، إلا أن نعمة الله فوق مظنة العَدِّ لكثرتها ، كما أننا لا نفكر أبداً فى عَدِّ رمال الصحراء مثلاً .

فمعنى ﴿**وَإِن تَعُدُّوا** (٣٤)﴾ [إبراهيم] يعنى : على فرض أنكم ستُقبِلون على عَدِّها ﴿**لا تُحْصُوهَا** (٣٤)﴾ [إبراهيم]

ثانياً : كلمة (نعمة) جاءت هكذا بصيغة المفرد ، والعَدُّ لا يكون إلا للجمع الذى له أجزاء تعدّ : واحد ، اثنان ، ثلاث ، أربع .. الخ فكيف تُعَد النعمة وهى واحدة ؟ قالوا : نعم هى فى ظاهرها نعمة واحدة لكن مطمور فيها حين تتأملها نِعَم كثيرة ، فالتفاحة مثلاً ترى فى الظاهر أنها نعمة واحدة ، لكن حين تُحللها تجد فيها لوناً وشكلاً

وطَعْماً ومـذاقاً وعناصر مكونة ومواد غـذائية متعـددة ، كلها نِعْم من الله.

ثالثاً : حين تـتأمل عَجُـزَ الآيتين - وهو مـرادنا من الكلام - تجد فى الآية الأولى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] أى : جاحد لنعمة الله ، منكر لها ، غافل عنها ، مُقصِّر فى شكرها . فهى إذن تتـحـدث عن حال الـمنعم مع المنعَـم عليـه ، وكـيف أنه قـابل النعمة بالكفران ، ولو جازاه المنعم بما يستحق لحرمه النعمة ، لكن يأتى عَجُزُ الآية الأخرى :﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل] يعنى : يغـفر لكم جـحودكم للنعـمة ونكـرانكم للجمـيل ؛ ثم بعد المـغفـرة الرحمة .

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ[1] ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾

تبين الآيةُ طبيعة خَلْق الإنسان الذى أراده الله خليفة فى الأرض ،

---

(١) المقصـود بالظلمات الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظـلمة المشيمة قـاله ابن عباس وعكرمة ومـجاهد وقتادة والضـحاك . وقال أبو عـبيدة : ظلمـة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم . ذكرهما القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٧٩) .

فقال : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ۝٦ ﴾ [الزمر] هو آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۝٦ ﴾ [الزمر] أى : حواء ، ومنهما كانت الذرية وجاء التناسل.

وما دام الله تعالى خلق هذا المخلوق ليكون خليفةً يعمر الأرض فلا بُدَّ أنْ يكونوا من جنس واحد ليتم لهم الإلْف والانسجام وتجمعهم حركة الحياة .

وإلا لو كان هذا الخليفة من أجناس متعددة ، فمجموعة مثلاً من الإنس ، وأخرى من الجن ، وأخرى من الحيوان ما استقامتْ بهم الحياة ، ولا تساندتْ حركتهم . إذن : الجنس الواحد تتوفر فيه المودة والإلْف والمحبة والانسجام بين عناصره لأن لكل جنس قانونَهُ ونظامه والتقاءاته ومعاشرته ، ولو أن الإنسان خُلق من أجناس مختلفة لتعذَّر عليه الائتلاف واتحاد الحركة والأنس فى المعيشة .

وأيضاً ، فإن الخالق سبحانه خلق الإنسان من جنس واحد ليثبت التساوى فى الأصل ، فلا يكون لأحد مَزِيّة على أحد ، لأنه خلق من جنس أعلى ، وإنما ليكون التفاضل والمزية بمقدار توافق هذا المخلوق مع منهج الله ، وهذه القضية أوضحها النبى ﷺ فى الحديث : « لا فضلَ لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى »[1] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۝١٣ ﴾ [الحجرات] يعنى : لا فضلَ لأحدكم على الآخر إلا بحسنه فيما يستقبل عن ربه .

---

(١) خطب رسول الله فى وسط أيام التشريق فقال : « أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٤١١) عمن سمع رسول الله ، وفى حلية الأولياء (٣/١٠٠) أنه جابر بن عبد الله .

وإنما تأتى الألوان والأشكال مختلفة لتناسب بيئة المعيشة ، فالبيئات الحارة مثلاً يميل أهلها إلى السواد ، والبيئات الباردة إلى البياض ، كذلك الحال فى اختلاف الألسنة بحسب البيئات أيضاً . أما الأصل فنحن جميعاً نُرَدُّ إلى آدم ، وآدم خُلِق من تراب ، وذريته خُلِقَتْ من بعده بالتكاثر .

حتى فى الرسالة قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : ليس غريباً عنكم ، وليس من جنس غير جنسكم ، فلم يكُنْ من الملائكة مثلاً مع أنها أعلى درجة إلا أن الرسول الملك لا تتحقق فيه القدوة والأسوة المرادة من الرسول ، كذلك لم يأْتِ فارسياً ولا رومياً يختلف لسانه عن لسانكم ، إنما جاء عربياً من أوسطكم ، ومن أعظم قبائلكم.

إذن : البشر جميعاً فى هذا الكون يعودون إلى نفس واحدة هى آدم عليه السلام ، وقد أوضح لنا الحق سبحانه كيف خلق آدم بالشكل المعروف .وقال سبحانه :﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

لكن لم يذكر شيئاً عن خلق حواء ، إلا أن العلماء قالوا : خلقها الله كما خلق آدم ، وقال آخرون : بل خُلِقَتْ من ضلع من أضلاع آدم ، فهى مطمورة فى خَلْق آدم ، مما يدلُّ على أن المرأة تابعة للرجل ، محجوبة فيه ، حتى في مسألة الخَلْق .

وأصحاب هذا الرأى يعتمدون على معنى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا (٦) ﴾[الزمر] منها أى : من جزء من أجزائه ، أو من جنسه ؛ لأن جعل لا تدل على اختلاف العنصر كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة] . يعنى : قطعة

منا صارتْ السمع ، وقطعة صارتْ البصر ، وأخرى الأفئدة .

كذلك حين يتحدث القرآن عن العمل تأتى المرأة مستورة فى الرجل ، فيقول تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر] وفى مواضع كثيرة يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ .. (٣٥)﴾ [المائدة] ولم يُوجِّه الخطاب إلى النسوة مباشرةً إلا فى الأمور الخاصة بهن .

ثم يقول تعالى ، وهو يُعدِّد بعض نعَمه على خَلْقه : ﴿وَأَنزَلَ[1] لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (٦)﴾ [الزمر] وسبق أن قلنا فى صدر هذه السورة : إن الإنزال لا تنظر فيه إلى جهة العلو فحسب كما فى إنزال المنهج والقيم ، إنما ينظر أيضاً إلى المنزل سبحانه ، فالإنزال يكون بمعنى الإيجاد ، والأنعام من النعم الموجودة فى الأرض لكنها من عند مَنْ ؟ من عند الله فكأنه أنزلها ، والإنزال هنا ناسبه حرف الجر ﴿لَكُم﴾ ولم يقُلْ : عليكم لأن الأنعام شىء منفصل عن الإنسان .

وقد ورد تفصيل هذه الثمانية فى سورة الأنعام ، ومع أن نِعَم

---

(١) لفظة أنزل هنا تعنى معانى كثيرة ذكرها القرطبى فى تفسيره (٨/٥٨٧٨) :
- نسبة إلى نزول الماء الذى خُلقت منه هذه الأنعام .
- أنزل : أنشأ وجعل .
- أنزل : خلق . قاله سعيد بن جبير .
- خلق الله هذه الأنعام فى الجنة ثم أنزلها إلى الأرض .
- أنزل لكم : أعطاكم .
- جعل الخلق إنزالاً ، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء . فالمعنى : خلق لكم كذا بأمره النازل .

وهذه الأقوال لا تتعارض بل تتكامل فى قول واحد : أن الله خلق وأنشأ هذه الأنعام عطاءً منه لعباده بأمره النازل من السماء بأن ينزل الماء لتنبت الأرض فتحيا هذه الأنعام .

الله علينا كثيرة إلا أنه خَصَّ هنا الأنعام بالذات ، لأنها الجنسُ القريب من الإنسان من حيث الخَلْق ، بعدها النبات ثم الجماد . وكلمة الزوج . البعض يظن أنها تعنى اثنين معاً ، وهذا خطأ لأن الزوج تعنى : واحد ومعه مثله ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات] ومثلها كلمة توأم.

وقوله : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر] معنى ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر] بيان لأطوار الخلق التى يمر بها الجنين فى بطن أمه ، فهو يتقلب فى بطنها بين ماء مَهين ، يستقر فى الرحم نطفةً ، ثم علقة ثم مضغة ، ثم يتكوَّن منها العظام ، ثم يكسو العظام لحماً ، هذه أطوار الخَلْق المرادة فى قوله تعالى : ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر]

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً(١) فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

هذه هى الأطوار التى يمرُّ بها الإنسان منذ أنْ يصلَ إلى رَحِم الأم ، وهذا يعنى أن هناك طَوْراً يسبق هذه الأطوار ، هو طَوْر التقاء عنصر الذكورة بعنصر الأنوثة ، أو التقاء الحيوان المنوى بالبويضة

---

(١) النطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخلق منه الولد .
العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يعلق بما يمسُّه .
المضغة : القطعة من اللحم تُمضع لتماسكها ، ومنها مضغة مخلقة أى مصورة على هيئة طفل ، ومنها غير مخلقة أى غير مُشكَّلة أى غير تامة التصوير وتكون سقطاً .

وتلقيحها ؛ لأنه لا يصل إلى الرحم إلا بويضة مُلقَّحة دخلها ميكروب الذكورة .

وفى سورة الحج بيَّن سبحانه أن المضغة منها مُخلَّقة وغير مُخلَّقة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

فالمضغة المخلّقة هى الجزء الذى خُلِّقتْ منه الأعضاء والجوارح ، وغير المخلَّقة هى الجزء الذى استقر فى الجسم بدون تخليق ليظل احتياطياً للجسم ، وكأنه (رِيزْرف) أو صيدلية صيانة ، فإذا ما حدث فى الجسم عطب قامتْ المضغة غير المخلَّقة بإصلاحه ، كما نرى مثلاً فى الجروح ، فالجرح بعد فترة يندمل وتبنى فيه أنسجته حتى تعودَ كما كانت ، من أين ؟ من المضغة غير المخلَّقة .

والعجيب أن الجسم حين تتركه على طبيعته ولا تتدخّل فى الجرح بمواد كيماوية يلتئم ويعود دون أنْ يتركَ أثراً ، إنما حين نتدخل بأدوية ومواد كيماوية لا بُدَّ أنْ تؤثر على الخلايا والأنسجة ، وتترك فيها أثراً .

لذلك أثبت العلم أن فى الإنسان مخزنين للقوت ، مخزناً لقوته اليومى ، ومخزوناً آخر احتياطياً ، نأخذ منه القوت حين ينفد ما فى المخزن الأول ، لأن الإنسان يأكل على قَدْر الطاقة ثم يزيد عليها ، فتتحول هذه الزيادةُ إلى دهون فى الجسم ، وحين يجوع الإنسانُ أو يعطش يستمد قوته من الدهن الموجود فى جسمه ، ومن العجيب أن هذه المادة الدهنية تتحول إلى أىِّ مادة يحتاجها الجسم .

ولوجود هذا المخزن رأينا الإنسانَ يصبر على الجوع شهراً ، فى حين لا يصبر على العطش أكثر من عشرة أيام ، لماذا ؟ لأنه حين يجوع ولا يجد طعاماً يستمد طعامه من المخزون الاحتياطى فى جسمه .

فقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۝٦ ﴾[الزمر] أى : الخلق الثانى ، فالخَلْق الأول خلق آدم عليه السلام من تراب ، وقد أخبرنا الله به ، لأن أحداً لم يره ، كما قال سبحانه :

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (1) ۝٥١ ﴾ [الكهف]

فإذا طلع علينا مَنْ يقول إن الإنسان أصله قرد تطوَّر إلى إنسان نعلم أنه من المضلِّين الذين أخبرنا الله عنهم ، ولا بُدَّ أن نعلم كذبه ، والرد على هذا الهراء ميسور ، لأن الإنسان إنْ كان متطوراً عن قرد ، فلماذا لم تتطور باقى القرود ؟ ولماذا على مَرِّ التاريخ كله لم نَرَ قرداً تطور وارتقى حتى إلى ما يقرب من الإنسان .

إذن : هذا كذب وباطل ، لأن الخالق سبحانه خلق الأجناس كلها ، وجعل من كُلٍّ زوجين اثنين ، يتم التكاثر وليتم الانفصال ، قال تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ ﴾ [الذاريات]

وقوله سبحانه :﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ۝٦ ﴾[الزمر] بيان للقرار المكين الذى يستقر فيه الإنسان فى بطن أمه ، قال تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ ﴾ [المرسلات] والمكين هو المستقرّ فى

---

(١) عضداً . أى : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] . قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة عضد) : من المجاز : العضد : الناصر والمعين . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه .

المكان ، فبطن الأم مكان ، والجنين فى البطن مكين .

ولما تكلم العلماء فى معنى الظلمات الثلاث قالوا : هى : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . وكلمة الظلمة نفهم منها عدة أمور .

أولاً : الظلمة تعنى عدم وجود النور ، وهى مرتبطة بالليل .

ثانياً : الليل دائماً رطب عن النهار ؛ لأن النهار فيه حرارةُ الشمس وحرارةُ الأنفاس الناشئة عن الحركة ، أما الأنفاس فى الليل فهادئة ، لأنها لمجرد استبقاء الحياة ، وليست ناشئة عن حركة العمل والجهد المبذول .

ثالثاً : كذلك فى الظلمة سكون ، وهدوء لا يتوفر فى النهار .

إذن : فى الظلمة عدم نور ، وفيها برودة ، وفيها سكون ، وهذه الأمور الثلاثة ضرورية لنمو الجنين ، وتكوُّن أعضائه فى بطن أمه ، لأنه فى بطن أمه خلْقٌ ضعيف غير مكتمل الأعضاء والجوارح ، لا يَقْوى على تحمُّل الحرارة ، ولا تحمُّل الضوء ، ولا تحمُّل الأصوات المزعجة ، لذلك جعل له الخالق سبحانه عوازلَ تقيه هذه الأشياء ، لذلك قال سبحانه : ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ (٦)﴾ [الزمر]

والأقرب للصواب أن هذه الظلمات الثلاثة فى الرحم وليس منها ظلمة البطن ؛ لأن الحق سبحانه يُحدِّثنا عن القرار المكين الخاص بالجنين ، فيقول : ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ (٦)﴾ [الزمر] بيان للظرف العام الذى يقع فيه الظرف الخاص بالجنين وهو الرحم ، فالبطن ظرف كبير يحوى الرحم والأمعاء والمعدة والكبد والطحال والبنكرياس .. الخ لذلك حدد الظرف الخاص بالجنين فقال بعدها : ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ (٦)﴾ [الزمر]

إذن : الظلمات الثلاث عبارة عن عوازل وأغشية تحمى الطفل ، وكلها داخل الرحم ، وإذا كان الإنسان المكتمل الناضج تزعجه الأصوات ، وربما أتلفت طبلة أذنه مثلاً ، وتؤذيه الأضواء العالية ، حتى لا يَقْوى نظره على مواجهتها ، فهل يطيق الجنين مثل هذه الأشياء ، وهو لم تكتمل أعضاؤه بعد ؟

ومعلوم أن الطفل يُولد بجلد رقيق لا يتحمل الحرارة ، ويُولد ولم تكتمل فيه بعض الأعضاء والجوارح ، فالجهاز العصبى مثلاً لا يكتمل إلا بعد عدة سنوات ، والجهاز العقلى لا ينضج إلا بعد سِنّ البلوغ ، والعين لا تؤدى مهمتها فى الرؤية إلا بعد ثلاثة أيام .

فالجنين يحتاج إلى حماية ؛ لذلك جعله الله فى ظرف داخل ظرف داخل ظرف ، كما أنك تجعل أوراقك المهمة مثلاً فى ملف ، والملف فى الخزينة ، والخزينة فى غرفة ، فقوله ﴿ فِى ﴾ دليل على العناية بهذا المخلوق ، وتوفير ما يناسبه من الظروف المحيطة به .

وقوله سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۝٦ ﴾[الزمر] كلمة ﴿ ذَٰلِكُمُ ۝٦ ﴾[الزمر] عبارة عن اسم الإشارة (ذا) وضمير المخاطبين ، والإشارة هنا للحق - تبارك وتعالى - فلو أشرتَ لخطاب المفرد تقول : ذلك ، وللمثنى ذلكما كما فى : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ۝٣٧ ﴾ [يوسف] ولجمع المذكر (ذلكُمْ) ولجمع المؤنث (ذلكُنَّ) كما فى : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۝٣٢ ﴾ [يوسف]

وجاءت هذه الإشارة إلى الحق سبحانه بعد أنْ تكلم عن بعض أسراره فى خَلْق الإنسان ، وعن الظلمات الثلاث فى رحم الأم ، وكلها فى مجال الخَلْق والتربية والتكوين الأول للإنسان ، وهذه المسألة يناسبها صفة الربوبية التى تتولى الخَلْق والتربية ، فالربُّ هو الخالق

وهو المربّى ، أما كلمة الله فهى للألوهية ، والألوهية تكليف ، لأن الله يعنى المعبود بطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، والجنين فى بطن الأم بعيد عن مسألة التكليف ، فلماذا اختار هنا وفى هذا المقام لفظ الألوهية (الله) فقال : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ⟨٦⟩ ﴾ [الزمر]

ولم يقل : ذلكم ربكم الله - كما يقول بعض المستشرقين ؟

قالوا : لنفهم أنه سبحانه لا يخلقنا ولا يربينا لنكون مثل الدواب فى الكون ، إنما يخلقنا ويُربينا لهدف ولمنهج تكليفى نسير عليه ؛ ذلك ليجعلنا نأنس بكلمة الله قبل كلمة رب ، وفى هذا إشارة إلى أن الهدفَ من التكليف صلاح المجتمع وصلاحكم فيما بينكم ، فالخالق سبحانه لم يخلقنا عبثاً ولم يتركنا هَمَلاً وخلْقاً ضائعاً لا هدفَ له.

لذلك فى صدر سورة الرحمن يُبيِّن الحق سبحانه أن تعليمَ المنهج قبل تكوين الخلْق ، وأن الخلْق لا يُعَدُّ نعمة إلا إذا تَمَّ فى ظل منهج الخالق ، فصاحب الصنعة لا بُدَّ أنْ يحدد مهمتها قبل أنْ يصنعها ، قال تعالى :﴿ الرَّحْمَٰنُ ⟨١⟩ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ⟨٢⟩ خَلَقَ الإِنسَانَ ⟨٣⟩ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ⟨٤⟩ ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ⟨٦⟩ ﴾ [الزمر] مادة (ملك) منها المُلك والملك والملكوت : المِلْك بالكسر هو ما تملكه ولو كان يسيراً ، والمُلْك بالضم أنْ تملكَ مَنْ يملك ، والمِلك والمُلك فى عالم المشاهدة ، أما الملكوت فهو ما لا نشاهده من مُلْك الله ، ولا يُطلع الله عليه إلا مَنْ اصطفاه من أنبيائه ورسله وأهل طاعته ممَّنْ صفَتْ فطرتهم الإيمانية وسلِمَ لهم جهاز الاستقبال عن الله ، هؤلاء يُطلعهم الله على بعض ملكوته ، لذلك لما وفَّى سيدنا إبراهيم وأذعن لأمر ربه أراه هذا الملكوت : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ⟨٧٥⟩ ﴾ [الأنعام]

ومثل مُلك وملكوت نقول : رحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت .

ومعنى ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. ⦗٦⦘ ﴾ [الزمر] يعنى : إنْ كنتم قد شهدتم مُلْكاً واسعاً فاعلموا أنه لمن خلقكم ، ومن العجيب أنه مخلوق من أجلكم أنتم وقد خلقه الله لكم قبل أنْ يخلقكم ؛ لأن الإنسان الأول طرأ على كَوْن مُعَدٍّ لاستقباله بكل ما يلزمه من مُقوِّمات الحياة بدايةً من الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم إلى أصغر شىء فى الكون .

وقوله بعدها : ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⦗٦⦘ ﴾ [الزمر] يعنى : أن هذا الخَلْق العجيب لله وحده ولم يَدَّعه أحد لنفسه ، وما دام أن أحداً لم يدَّع الخَلْقَ لنفسه فليس لأحد أنْ يدَّعى أنه واضع المنهج الذى يعيش به الإنسانُ فى الكون ؛ لأن الذى خلق هو الذى يضع المنهج ، والذى صنع هو الذى يضع قانون الصيانة لصنعته .

﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ⦗٦⦘ ﴾ [الزمر] أى : كيف تنصرفون عن عبادة الله الخالق إلى عبادة غيره ممن ليس لهم من الخَلْق شىء ؟ كيف تنصرفون عن ربٍّ خلق وربَّى ولا يزال فلم يتركنا ولم يسلم خَلْقه لأحد غيره ، وليس عنده استعداد لأنْ يسلمه أبداً .

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⦗٧⦘ ﴾

بعد أنْ حَنَّنَ الحق سبحانه الخَلْق بذكر الربوبية التى خلقت وربتْ ، وأمرتْ ، وبذكر الألوهية التى ضمنتْ صلاح البلاد والعباد ، بيَّن سبحانه أنه الغنى عن خَلْقه ، فقال تعالى : ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴿٧﴾﴾ [الزمر] يعنى : غنى عن إيمانكم ولا تنفعه طاعاتكم .

فهو سبحانه جعل التكاليف لصلاح حالكم لا لمنفعة تعود عليه سبحانه ، فأنتم خَلْقه وصَنْعته ، والصانع يريد أنْ يرى صنعته على أحسن حال ، يرى العبد المؤمن فى المجتمع المؤمن الذى تتساند حركته لا تتعاند ، وتتفق توجهاته لا تتضارب ، الخالق سبحانه لا يحب أنْ يرى خَلْقه يتصارعون ، واحد يبنى والآخر يهدم .

إذن : هذا هو الهدف من الخَلْق ومن المنهج ؛ لأن الله تعالى بصفات الكمال فيه خلق الخَلْق ، ولم يُزِدْه الخَلْق صفة واحدة لم تكُن له من قبل ، إذن : لا حاجة له إليكم . إنما أنتم صنعته ويريد لكم الخير ؛ لذلك لما عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبيْنَ أنْ يحملْنها وأشفقْنَ منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جَهُولاً .

وإباء السماوات والأرض والجبال ليس امتناعاً على الله ، ولا اعتراضاً إنما تسليم ؛ لأن الله خيَّرهم فاختاروا أنْ يكونوا مُسيَّرين .

لكن الإنسان قَبلها فحكم الله عليه بأنه كان ظلوماً وجهولاً ، لكن كيف يُوصَف مَن قَبلَ كلام الله بأنه ظلوم وجهول ؟

قالوا : لأنه ظلم نفسه وجهل ما يكون منه ، لأنه مخلوق مختار له أنْ يؤمن ، وله أنْ يكفر ، وله أنْ يطيعَ وأنْ يعصى ، ولما عُرضَتْ عليه الأمانة قبلها ؛ لأن الله هو الذى خيَّره . ووثق بنفسه وقدرته على الأداء ، لكنه جهل ما يطرأ عليه وما يَجدّ من أحداث وأهواء ، فظلم نفسه عند التحمُّل وجهل بوقت الأداء ، وأسرع فى وقت الرضا

والقبول ، وكان ينبغى عليه أنْ يحسب حسابَ الإنجاز والأداء .

وفَرْق بين التحمُّل والأداء فى مسألة الأمانة ، لأن الأمانة موكولة إلى ذمة المؤتمن ، ولو كتب بها (إيصالاً) أو كان عليها شهود ما سُمِّيتْ أمانة ، والإنسان عادة يُقبل على تحمُّل الأمانة وفى نيته أداؤها ، كما لو أنك أعطيتَ صديقاً لك مبلغاً من المال يحفظه لك ، لحين عودتك من السفر مثلاً ، فتراه يرحب ويقبل لكن تعنّ له ظروف ، وتمتد يده إلى هذا المال ، وربما جئت فلم تجده ، وعندها إما ينكر أو يماطل .

إذن : ظلم نفسه ، وجهل وقت الأداء ، وجهل أنه ابنُ أغيار ، ونفسه متغيرة ، أما السموات والأرض والجبال لما خُيِّرتْ اختارت أنْ تكونَ مُسيَّرة ، لا دخْلَ لها بهذه المسألة فأخذت الأمر من قصيره .

ومعنى قوله تعالى :﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ⦗٧⦘﴾ [الزمر] واضح فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كل واحد مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك من ملكى إلا كما ينقص المخْيَط إذا أُدخل البحر ، ذلك أنِّى جَوَاد ماجد واجد ، عطائى كلام ، وعَذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردته أنْ أقول له كُنْ فيكون »[1] .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ⦗٧⦘﴾ [الزمر] دليل على

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤ ، ١٧٧) ، والترمذى فى سننه (٢٤٩٥) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

محبته سبحانه لخَلْقه ، فكأنه تعالى يقول : أنا غنى عنكم ، لكن لا أحب أنْ تكونوا كافرين ؛ لأننى أريد أن أباهى بكم ملائكتى الذين قالوا عنكم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

وورد أن الحق سبحانه يقول لملائكته : أعلمتم أن عبيدى أطاعونى ؟ فيقولون : أطاعوك لنعمتك عليهم ، فقال : ولو سلبتُ نعمتى لأطاعونى .

لذلك يُمرضهم ويطيعونه ، ويُفقرهم ويطيعونه ، ويهزمهم ويطيعونه ، وينصرهم ويطيعونه . إذن : عبادى يطيعوننى لذاتى ؛ لأنى أستحق أنْ أُحبّ ، وأنْ أُطاع بصرف النظر عن نعمى عليهم .

لذلك يقول الحق سبحانه عتاباً للخَلْق الذين يعبدونه خوفاً من ناره ، أو طمعاً فى جنته : أو لو لم أخلق جنة وناراً أما كنتُ أهلاً لأنْ أُعبد ؟

وضربنا مثلاً بالرجل الذى يعمل معه خادم يخدمه مقابل مائة جنيه فى الشهر ، لكن ضاقتْ حالُ هذا الرجل وأصبحتْ لا تتسع لهذا المبلغ ، فقال لخادمه : والله أنا لم أَعُدْ قادراً على دفع هذا المبلغ ، ولا أقدر إلا على خمسين جنيهاً ، فانظر أنت فى أمرك أو ابحث لك عن فرصة عمل أخرى ، فقال الخادم : أنا موافق على الخمسين ، لكن اشتدتْ الحالُ بالرجل مرة أخرى ، حتى أنه لم يَعُدْ قادراً على دَفْع أكثر من عشرين جنيهاً ، فرضى بها خادمه ثم عشرة فرضى بها ، إلى أنْ قال له : والله حالك معى جعلك تستحق أنْ تُخدم ، ولو بلا أجر ، هكذا أَمْر الله معنا .

فالحق سبحانه لا يرضى لعباده الكفر لأنهم خَلْقه وصَنْعته ، وهو سبحانه حريص على ما يُصلحهم ، حريص على أنْ يكونوا مؤمنين لتستقيم أمورهم ، وتمتد نِعَمه عليهم من الدنيا إلى الآخرة ، فكما أنعم عليهم في الدنيا بنِعم موقوتة يريد أنْ يُنعم عليهم في الآخرة ونِعَم الآخرة باقية خالدة .

لذلك ورد في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعمَ خيرَكَ ، ومنع شكرك ، وقالت السماءُ : ياربِّ ائذن لي أنْ أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك إلى أنْ قال الحق سبحانه لهذه المخلوقات التي أظهرت غيرتها على ربها عز وجل : دَعُوني وخَلْقي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] فإن تشكروا يرضى لكم الشكر ، ويعجبه منكم ، ويحبه لكم ، ويجزيكم عليه خيراً ، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر لأنه سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم] ، فالشكر على النعمة يعطينا مزيداً من النعمة ، فنشكر عليها فتعطينا المزيد ، وهكذا يظل الشكر دائماً والنعمة دائمة .

---

(١) أورده الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ، ولفظ : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كفّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : لا تحمل نفسٌ مذنبةٌ ذنوبَ نفس أخرى ، يعنى : سأكون عادلاً بألاَّ أحمل أحداً ذنب غيره ، فكلٌّ مُعلّقٌ من عرقوبه .

وهذه الآية وقف عندها بعض المستشرقين يقول : إنها تتعارض وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت] نعم ظاهر الآيتين التعارض ، لكن أنت لم تفهم مَناط الوزر .

فالقاعدة العامة أنه لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد ، أما هؤلاء فيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين ، لأن الآية هنا تتحدث عن رؤوس الضلال وقادة الكفر الذين ضلوا فى أنفسهم ، وأضلّوا غيرهم ، فالوزر الأول وِزْر ضلالهم فى أنفسهم وأوزار الآخرين الذين أضلوهم وأغووهم وزينوا لهم الضلال . إذن : فالمعنى مختلف .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : إنْ كنتُ قد بدأتُ خَلْقكم بالإكرام لكم ، وقابلتم هذا الإكرام بالجحود ، ولم تؤدوا حَقّه بالإيمان بى والطاعة لمنهجى ، فاعلموا أنكم سترجعون إلىَّ ولن تفلتوا منى ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : يخبركم بما كان منكم .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر] إذن : تذكروا دائماً هذه المسألة ، واحسبوا حسابها قبل فوات الأوان .

وهذه الآية تحذير من الحق سبحانه ، وبيان للعقوبة من شأنه أنْ يردع الناسَ عن الجرائم ، فلا تقع ولا تحدث العقوبة أصلاً ، وهذا من رحمة الخالق بالخَلْق ، فهو سبحانه يريد لهم الخير ، ويريد لهم أنْ ينعموا بنعمه فى الآخرة ، كما نَعِموا بنعمه فى الدنيا .

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ[1] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا[2] لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

(الضُّر) هو ما يُخرِج الإنسان عن سلامته فى نفسه ، أو فيمَنْ يعول أو فيما يملك ، والإنسان حينما يصيبه الضُّر يُفقده ركيزة التعالى ، و (العنطزة) ؛ لأنه لا يسلِّم نفسه بلا ثمن ، ويعرف أنه لا أحدَ يرفع عنه ضُرَّه إلا الله ، فيتوجه إليه وحده ولا يغشّ نفسه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بحلاق الصحة زمان ، وكان يقوم بدور الطبيب فى البلدة ، فلما انتشر التعليم وتخرَّج بعض الأطباء من كلية الطب خاف صاحبنا على (أكل عيشه) ، وخاف أنْ يسحب هؤلاء البساطَ من تحت قدميه ، فراح الحلاق يُهوِّن من شأن الطبيب الجديد الذى عُيِّن فى البلدة يقول : إنه لا يعرف شيئاً وو ، يريد أنْ يصرف الناسَ عنه ، لكن لما مرض ولده ماذا فعل ؟ هل غَشّ نفسه ؟

لا بل (لفَّ) الولد بالليل ، وأخذه إلى الطبيب الذى طالما تكلم فى حقه وقلَّل من قدراته أمام الناس ، أما الآن والمريض ولده فإنه

---

(١) خَوَّله كذا : ملّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/ ٢١٤] .

(٢) الند : المثل والنظير . وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٧] .

يعود إلى الحق ولا يخدع نفسه .

كذلك الإنسان إذا مسَّه الضر وعـزَّتْ عليه أسبابه لا يلجأ إلا إلى ربه بعد أنْ انهدَّتْ فيـه حيثية ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [العلق] وبعد أنْ سقط عنه قناع التعالي والغطرسة .

وقلنا : إن هذه القضية يسـتطيع كلٌّ منّا أن يلمسـها في نفسـه فأنت مثلاً تعطي ولدك مصـروفه كل يوم عندما يذهب إلى المدرسة ، وفي يوم ما نسيت تعطيه المصروف ، ماذا يفـعل ؟ يتعرَّض هو لك ويحاول أنْ يمر من أمـامك وكأنه يُذكِّرك بما نسيتـه ، فيسـلم عليـك أو يقول : أنا رايح الـمدرسة يا بابا ، ولو أنك تعطيه مصـروفه كل شـهر ما فعل ذلك طوال التسـعة وعشرين يوماً ، نعم ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [العلق]

فالإنسان سـاعةَ يصيبه الضر ، وهو يعلم أن الضـر لا يرفعه إلا الله ، ولا يصـرفه إلا خـالق السـموات والأرض ، فـإنه لا يتوجـه إلا إليه ، لمن تعتقد مواجيده أنه قادر على رَفْع هذا الضر ، حتى لو كان كـافراً بالله ، غـيـرَ مؤمن به فـإنه إذا مـسَّه الـضر يقـول : يا رب ، والعجـيب أن الله يقبله ويغيـثه ولا يرده ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ۝﴾ [النمل]

ويكفـيك أنك لم تـجـد إلا أنا ولا تقـول إلا يارب . لذلك قـال سـبحـانه : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ۝﴾ [الإسـراء] يعني : إنْ دعـوتَ غـيـر الله لا يسـتطيع الوصـول ، ويضل الطريق إليك ، ولا يجيبك إلا الله .

ومعنى ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ ۝﴾ [الزمر] راجعـاً إليه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ۝﴾ [الزمر] يعني : أعطاه ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ۝﴾ [الزمر] أثار العلماءُ ضجـة ومعركة حول الاسم المـوصول (ما) هنا

وقالوا : لماذا لم يقل نسى مَنْ لأن مَنْ تدل على العاقل ، أما (مَا) فلغير العاقل ، على معنى أن (مَا) هنا تعود إلى الله تعالى .

ونقول : القرآن يسير على غير هذا ، واقرأ : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ ﴾ [الكافرون] فـ (ما) أطلقت على الله تعالى . إذن : (ما) هنا فى معناها الصحيح ، وإنْ غابت عنكم حكمة ذلك ، نعم مَنْ للعاقل ، وما لغير العاقل ، لكن الحق سبحانه لم يصف نفسه بالعقل ؛ لأن العقل صفتك أنت ، فجاء بالصفة التى لا تمنع عدم وجود العقل ، ولو قال مَنْ لأدخل الحق سبحانه فيمن يعقل ، وهو سبحانه لم يصف نفسه بأنه عاقل ، إنما عالم وعلاَّم .

ويمكن تفادى هذا الإشكال لو وجَّهنا (ما) توجيهاً آخر ، فيكون المعنى : نسى الضر الذى كان سبباً فى رجوعه إلى الله ، لا نسى مَنْ أنقذه ، وكشف عنه ضُرَّه ، وتكون مَا بمعناها اللغوى لغير العاقل .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ⑧ ﴾ [الزمر] أنداد : جمع ند ، وهو الشبيه أو المثيل والنظير ، وهؤلاء الكفار رجعوا لله تعالى أنداداً مع علمهم أنه الإله الحق سبحانه ، ومع علمهم أنه ضَلَّ مَنْ تدعون إلا إياه ، ليرضوا فى أنفسهم مواجيد الفطرة الإيمانية ، فالواحد منهم يريد أنْ يكون له إله يعبده ، لكن إله على هواه ، إله ليس له تكاليف ، وليس فى عبادته مشقة على النفس ، إله بلا منهج : لا افعل ، ولا لا تفعل .

وقوله ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ⑧ ﴾ [الزمر] البعض[1] قرأها بالفتح (ليَضل) ونقول : هو لم يفعل ذلك إلا لأنه ضَالٌّ فى نفسه ، فالأقرب بالضم (ليُضل) أى : يُضل غيره .

---

(١) قرأها بفتح الياء الدورى عن أبى عمرو ، أما رواية حفص عن عاصم فهى بضم الياء .

ثم يقول سبحانه (قُلْ) أى : رُدَّ يا محمد . وقُلْ : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨ ﴾ [الزمر] لكن ما وجه التمتُّع بالكفر ؟ قلنا : أن يعبدَ إلهاً بلا منهج وبلا تكاليف ، إلهاً لا يمنعه من شُرْب الخمر ولا يقيد شهوات نفسه إلهاً لا يأمره بالصدق ولا بالأمانة .. الخ بل يتركه يربع فى الكون يتمتع به كما يشاء .

وقال ﴿ قَلِيلاً ۝٨ ﴾[الزمر] لأن التمتُّع هنا موقوت بالدنيا ومدة بقائه فيها ، وقلنا : إن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها لا مدتها منذ خَلْق آدم إلى قيام الساعة .

وكلمة ﴿ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨ ﴾[الزمر] الصحبة هنا تدل على التعارف والمودة الحميمة بين النار وأهلها ؛ لذلك يقول تعالى فى خطاب النار :﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾ [ق] يعنى : هاتوا أحبابى وأصحابى ، وإلىَّ بالمزيد منهم .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[٢] آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٩ ﴾

---

(١) ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢١٠) : « قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وقال ابن عمر : نزلت فى عثمان بن عفان . وقال مقاتل : نزلت فى عمار بن ياسر » . وذكر السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٢١٤) عدة روايات .

(٢) قنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . والقنوت : الطاعة والدعاء . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] .

كلمة (أم) تفيد التخيير بين أمرين ، تقول هذا أم هذا ، فلا بُدّ أن يكون لها مقابل ، فما مقابل ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ .. ⑨ ﴾[الزمر] المقابل لذلك فى قوله تعالى قبلها : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ .. ⑧ ﴾ [الزمر]

فالمعنى أيهما أحسن من صفته إذا مسَّه الضر يضرع إلى الله ، فإذا كشف عنه الضر جعل لله أنداداً ، أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

ومعنى : ﴿ قَانِتٌ .. ⑨ ﴾ [الزمر] دائم الخضوع والعبادة (آنَاءَ) جمع (إنْو) مثل حِمْل وأحمال ، فكلمة (إنْو) أى : جزء من الليل ، وهى من حيث التصريف أأناو وقُلبتْ الهمزة إلى مَدٍّ والواو إلى همزة لأنها وقعتْ بعد الألف الزائدة ، فصارت (آناء) .

وقوله : ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ ⑨ ﴾ [الزمر] يعنى : يخاف منها ومن القهر فيها ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ⑨ ﴾ [الزمر] لأن رحمته سبقت غضبه ، لم يقل يأمن مقابل يحذر إنما ذكر أولاً ما يُخوِّف من الآخرة إنْ عصى ، والمراد يحذر النار فى الآخرة ، لكن لما تكلّم عن رحمة الله جعلها مباشرة ، فقال ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ⑨ ﴾ [الزمر] ولم يقل : ويرجو الجنة .

والمؤمن حين يرجو لا يرجو عمله وسَعْيه فى الدنيا ، إنما يرجو وينتظر رحمة الله ، لأنه لا ينجو بعمله ، لأن أىَّ إنسان مهما كان صالحاً حين تحاسبه حساباً دقيقاً لا بُدَّ أنْ يخرج بذنوب وإدانة .

إذن : فالكفيل فينا جميعاً والذى يسعنا رحمة الله ، كما جاء فى الحديث الشريف : « لا يدخل أحدٌ الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت

يا رسولَ الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[١] .

فإياك إذن أنْ تغترَّ بعملك ، لأن التكاليف كلها لصالحك أنت ، ولا يعود على الله منها شيء ، فحين يجازيك عليها فى الآخرة فهو تفضُّل من الله ونعمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ⑨﴾[الزمر] بعد أن عقد الحق سبحانه مقارنة بين الإنسان إذا مسَّه ضُر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوَّله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل ، ومَنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه .

أراد سبحانه أن يؤكد هذا المعنى ، وأنْ يبين لنا أن أصحاب العلم الحقيقى لا يستوون ، وأصحاب العلم غير الحقيقى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ⑨﴾[الزمر] فالذى رجع إلى الكفر بعد أنْ كشف الله عنه ضُره لم يعلم العلم الحقيقى ، لأنه لو علمه ما رجع إلى الكفر ولاستقلَّ المطلوب منه فى الدنيا إذا قارنه بما أعدّ له من جزاء فى الآخرة .

أما الذى هو قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً ، يحذَرُ الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، فقد علم العلم الحقيقى ، فالقنوت بالليل فيه مسائل كثيرة : أولاً : أنه أبعد عن الرياء والسمعة ، ثانياً : أن كل جوارحه تفرغتْ للقاء ربه ، فالعين مثلاً فى ظلمة الليل تستريح من المرائى التى تشغل الإنسان وتأخذ انتباهه ؛ لأن كل مرءَى يأخذ جزءاً

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة . ومعنى تغمده الله برحمته ، أى : أدخله فيها وغمره بها .

من خواطرك ، فهذا راح وهذا جاء وهذا قال وهذا ..

أما الليل فسكونٌ لا انشغال فيه ، فالجوارح كلها خالصة لوجه الله، لا تشغلها المرائى والأصوات . وهذا الجو يوفر لك وقفة حقيقية وخاشعة بين يدى الله .

وفى القنوت تترك النوم وتحرم نفسك راحتها ، لتقوم بين يدَىْ ربك ساجداً أو قائماً ؛ لذلك يقول الشاعر :

خَلَوْتُ إلى رَبِّى فَهِمْتُ بِقُربه وَصِرْتُ خَفِيفَ النفْسِ كَأَنِّى بِلاَ جِسْمِ

تَلَوْتُ كِتَابَ الله فيا نعمَ ما عُوِّضْتُ مِنْ نعمةِ النَّوْمِ

تَمنَّيتُ ليْلى أنْ يطُولَ لأنتهى إلى السِّين مِنْ والنّاسِ موصُولة باسْمِ

هذه صفة أهل القنوت الذين يقضون الليل فى مناجاة ربهم ، وهذا هو حال المرتحل فى كتاب الله الذى لا ينتهى إلى السين من والناس حتى يبدأ فى بسم الله الرحمن الرحيم فى أوله ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن كله مبنى على الوصْل ، لا على الوقف .

فهل يستوى مَنْ هذا حاله مع مَنْ كفر بالله ؟ هذا علم وعمل ، وذلك لم يعلم أو علم ولم يُوظِّف علمه فيما ينفعه . ثم إن العبد حينما يعلم ويعمل بعلمه يُفيض الله عليه بالمزيد ، فيعطيه علمَ المكاشفة ، وعلمَ الفيض ، رحمةً منه سبحانه وفضلاً ، كما رأينا فى قصة العبد الصالح الذى صاحبه سيدنا موسى - عليه السلام - قال تعالى فى شأنه :

﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] كذلك الرحمة هنا فى ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ (٩)﴾ [الزمر] أى : الفيوضات الخاصة التى يفيض الله بها على مَنْ ظل فى معيته ، ونحن نشاهد

هذا فى عالم البشر ، فحين يكون لك صديق يلازمك ويسير فى معيتك لا بُدَّ أنْ تخصَّه بفضلك وخصوصياتك ، فما بالك بمَنْ ظل فى معية ربه ؟ أيعطيك بلا خصوصية ؟ أيُسوِّيك بمَنْ يؤدى الفرض وحده ؟

لذلك قال سبحانه فى الحديث القدسى : « ما تقرب إلىَّ عبدى بمثل ما افترضتُه عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجْلَه التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأُعطينه »[(١)] .

وهكذا يدخل العبد فى الربانية التى تقول للشىء كُنْ فيكون ، وهذه من الفيوضات لمن كان لله ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، يعبده بلا رياء ولا سمعة ، ويمنع نفسه النومَ والراحة ؛ لأنه أنسَ بربه ، واستراح فى قربه .

فقوله تعالى ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾[الزمر] دلّ على أن هناك علماً اسمه علم المكاشفة ، يُفيض الله به على مَنْ يشاء من عباده الصالحين ، الذين استحقوا هذه المنزلة ، فالعبد الصالح صاحب موسى وعبد الله على منهج موسى ، وليس برسول ، ومع ذلك فاق الرسول ؛ لأن موسى - عليه السلام - أوصله بربه فتقرَّب إليه ، حتى صار من أهل المكاشفة واتصل هو بالله مباشرة ، وأطلعه الله على ما لم يُطلِع عليه نبيه موسى عليه السلام .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) ، وأبى نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أوله : « إن الله قال : من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب . » وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة ، أوله : « من أذل لى ولياً فقد استحل محاربتى » .

لذلك فى آخر قصته مع سيدنا موسى قال : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى (٨٢)﴾ [الكهف] إذن : فمهمة الرسل أنْ يُوصلُوا الخَلْق بالخالق ، فإذا ما اتصلوا به كان الخط بينهما مباشراً ، وكُلٌّ بحسب قُرْبه من ربه .

وقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩)﴾ [الزمر]

أى : أصحاب العقول المفكرة التى تبحث فى المحسَّات ، وتتأمل فى الآيات ؛ لأن للإنسان حواسَّ تدرك ، وعقلاً يرجح ويختار ، فيأخذ هذه بالسمع ، وهذه بالبصر ، وهذه بالأنف ثم يعرضها على العقل لينظرَ ما فيها من الخير وما فيها من الشر ، فإنْ كان العقل صحيحاً رجح الخير ، واختار من البدائل أجداها فائدة ، وأهمها نفعاً .

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ (١٠) ﴾

التقوى أنْ تحترز من المعاصى ، وأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالله جبار قهار ذو انتقام ، فاجعل بينك وبين هذه الصفات وقاية تحميك .

وقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا (١٠)﴾[الزمر] للعقائد ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ (١٠)﴾ [الزمر] أى : فى التكاليف ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ (١٠)﴾ [الزمر] أى : حسنة فى الآخرة ، فلم يقل : للذين أحسنوا حسنةٌ فى هذه الدنيا ؛ لأن الكفار يتمتعون فى الدنيا بحسنات كثيرة من المال والجاه والعلم .. الخ .

فإنْ فسَّرنا الحسنة على أنها النعيم ، فالنعيم الذى يكون سبباً فى صَرْف الإنسان عن ربه لا يُعَدُّ حسنة إنما سيئة ، إذن : فالحسنة المرادة هنا فى الآخرة ﴿وأَرْضُ اللَّهِ واسعَةٌ ⑩﴾ [الزمر] لكن ما علاقة ﴿وأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ ..⑩﴾ [الزمر] بقوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ ⑩﴾ [الزمر]

قالوا : يعنى : إنْ صادفتَ متاعبَ فى أرضك التى تعيش فيها ، فإنَّ أرضَ الله واسعةٌ ، فالتمس حمايةَ نفسك ودينك فى أرض أخرى ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الأَرْضِ مُرَاغَمًا(١) كَثِيرًا وَسَعَةً ⑩⑩﴾ [النساء]

وقال فى نفس المعنى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ⑨⑦﴾ [النساء]

إذن : حين تضيق بك أرضك ، وحين يضيق عليك الخناق بها ، فالتمس أرضاً أخرى تأمن فيها على نفسك وعلى دينك ، وعلى تطبيق منهج الله دون معاند ، ودون معارض .

ولو تنبهنا إلى آية فى سورة الرحمن لوجدنا فيها حلاً لكل مشاكل الدنيا المعاصرة ، هى قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ⑩﴾ [الرحمن]

يعنى : جعل الأرض كل الأرض دون تحديد تحت تصرف كل الأنام دون تحديد أيضاً ، فكلُّ إنسان له فى أرض الله نصيب ، فإذا ضاق به مكان فله حَقٌّ فى مكان آخر . لكن قوانين البشر ومصالحهم غيَّرَتْ هذه الصورة ، ووضعت العقبات والعراقيل والإجراءات المعقدة

---

(١) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شرهم . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

فى طريق هذه الحرية التى كفلها الخالق سبحانه للحركة على أرضه .

لذلك وجدنا أن مشكلة العالم الاقتصادية تكمن فى وجود أرض بلا رجال ، أو رجال بلا أرض ، ولو تركنا الأرض لله كما خلقها الله لعباده ، لو جعلنا الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام لقضيْنَا على كل مشاكل الدنيا .

وانظر مثلاً إلى السودان جارتنا من الجنوب ، بها ملايين الأفدنة لا يُستْفاد منها ، وعندنا فى مصر ملايين من الأيدى العاملة العاطلة ، ولولا الحدود التى قيدنا أنفسنا بها لَحلَّتْ السودانُ مشكلة الغذاء فى العالم العربى كله . بل والأدهى من ذلك والأمرّ أن نختلف على الحدود ، ونتزاحم على شبر واحد ، وتنشب الحروب والأزمات بين الدول بسبب هذه المسألة ، إنها النتيجة الطبيعية لمخالفة أمر الله وسننه فى الخلْق .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] الحث على الصبر بعد قوله ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر] دلَّ على أنه لا بُدَّ أنْ تُوجَد فى الحياة صِعاب ومشاكل ومتاعب تحتاج إلى صبر ، والشاعر يقول :

لعمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بلادٌ بأهلها ... وَلَكِنَّ أَخْلاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ[1]

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نتحمل منهج الله ، وأن نقوم به لنسعد أنفسنا ، ثم نتسامى فى الإيمان ، ونحاول أن نسعد غيرنا ليحدث استطراقٌ للخير فى المجتمع ؛ لذلك قال ﷺ : « نَضّر اللهُ

---

(١) البيت من قصيدة لابن الرومى من بحر الطويل ، وعدد أبياتها ٤ أبيات ، وابن الرومى هو على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار بن برد والمتنبى ، ولد ببغداد (٢٢١ هـ) ونشأ بها ومات بها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٢ عاماً .

امرءاً سمع مَقالتى فوَعاهَا ، ثُمَّ أدَّاها إلى مَنْ لم يَسْمَعْها ، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » .

إذن : فنقْلُ الخير إلى الغير فيه خير لك أنت ، وسوف يعود عليك نفعه ، لأنه حين تحجب عِلْم الخير عن الغير سيكون هذا الغير فى شَرٍّ ، وسوف يتعبك هذا الشر وينالك شىء منه ، فمن مصلحتك أنت أنْ يعمَّ الخيرُ الآخرين ، ومن مصلحتك أنْ يكون غيرك خَيِّراً ، لا يسرق ولا يَسُبّ ولا يخون ، ولا يعتدى على الآخرين ، فنقْل علم الخير إلى الغير مُفيد لناقله ، ليكفّ شرَّ ذى الشر عنه على الأقل .

والصابر هو الذى يصبر على الشدائد والمحن التى تُخرجه عن : سلامة الجوارح ، وسلامة المال ، وسلامة الأهل ، والصابر واثق بأن إيلاَمه وإيذاءه يعطيه خيراً من النعيم الذى فقده قبل الإيلام والإيذاء ، لأن الله قال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ⑩ ﴾ [الزمر]

وإذا كانت التكاليفُ لها حساب عند الله ، فالصلاة لها حساب ، والزكاة لها حساب .. الخ أما الصبر فإن أجره بغير حساب يعنى : غير معلوم ، حتى قالوا أنه فى الجنة حين يرون منازل لم يكُنْ أهلها معروفين بالعمل الصالح ، ومع ذلك منازلهم فى الجنة عالية ، فلما سألوا عن ذلك قالوا : إنهم كانوا من أهل الصبر على البلاء وعلى الشدائد والمحن ، فنالوا هذه المنزلة بصبرهم .

والصبر عدم تشكيك فى رحمة الله ، وعدم اعتراض على حكمه وقضائه ، فمثلاً نرى بعض أهل البلاء يعرضون آفاتهم وبلواهم على المجتمع فى موسم الحج ، فبعض هؤلاء يذهب للحج وهناك يكشف بلواه أمام الناس ، ويظهر عاهته فى رِجْله أو فى يده يستجدى بها الخلق ، وكأنه يشكو الخالق لخَلْقه ، ولو أنه ستر بلاءه ورضى به

لطرق الرزقُ بابه ، ولَسَاقه الله إليه دون جهد .

لذلك يقول النبى ﷺ : « إذا بُليتُمْ فاستتروا »[١] لأن مَنْ يظهر بَلْواه للخَلْق كأنه يفضح الخالق ، كأنه يقول للناس : انظروا ماذا فعل الله بى .

وفى سير الصحابة وسلف الأمة رأينا امرأة لا تقبل من زوجها أن يشكو الفقر لرسول الله ، وكانا لا يملكان إلا ثوباً واحداً يلبسه الرجل ، ويذهب به فى أول الصلاة خلف رسول الله ثم يسرع بعد الصلاة وينصرف إلى بيته لتلبسه زوجته وتصلى هى أيضاً فيه .

وقد لاحظ سيدنا رسول الله أنه يرى هذا الرجل فى أول الصلاة ، ولا يراه بعدها ، فتحيَّن رسولُ الله الفراغَ من الصلاة ، ثم التفت إليه سريعاً فوجده خارجاً من المسجد ، فناداه وقال له : أراك أول الصلاة ثم لا أراك بعدها أَزُهْداً فينا ؟ قال : لا يا رسول الله ولكن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه ، فدعا له بالخير .

فلما ذهب قالت امرأته : لقد تأخرتَ قَدْر كذا تسبيحة - هكذا كان حساب الوقت عند هؤلاء - فقال لها : إن رسول الله استوقفنى وسألنى عن أمرى ، فلم أجد بُداً أن أقول له : إن لى امرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا للصلاة ، فقالت له : يا هذا أتشكو ربك لمحمد ؟ هكذا كان صبر الصحابة ، صبر لا يعرف الجزع ولا الشكوى ولا الاعتراض على قضاء الله .

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (حديث ٢١١) بهذا اللفظ ، وقد أخرج الحاكم فى مستدركه (٤/٢٤٤) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قام بعد أن رجم الأسلمى فقال : « اجتنبوا هذه القاذورة التى نهى الله عنها فمن ألمَّ فليستتر بستر الله وليتب إلى الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله عز وجل » وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

لذلك يقول بعض العارفين حين يرى حظ الصابرين فى الآخرة : لو علم الناسُ جزاءَ الصـابرين لَتمنَّوْا أنْ يعودوا إلى الدنيـا ، وتُقرض أجسادهم لينالوا هذه المنزلة .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

نلحظ فى هذه الآية تكرارَ الفعل أمـرت ، وهذا يدل على أننا أمام أمرين ، كل منهما مسـتقل عن الآخر ، فالأمر الأول ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] وهذا أمر ليقين الإيمان وليقين العبادة ، بحيث نتوجه بها خالصة لله .

والخلوص لله على مراحل ، فواحد يعـبد الله لانتظار جزائه وطمعاً فى جنته ، وآخر يعبده خوفاً من نـاره ، وآخر يعبده لذاته سبحانه ، ولأنه يستحق أنْ يُعبد ، وأنْ يُحبَّ لذاته .

لذلك قال سبحانه فى آخر سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] لا جنة ربه ولا جـزاء ربه ، إنما يريد اللقـاء ، ويريد الأُنْس بالله ، فلا تشـغله النعمة ، إنمـا تشغله معـية المنعم سبـحانـه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف] والجـنة أحد .

إذن : الأمر الأول خاصٌّ بالعقائد ، أما الأمر الآخر : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر] فهـو للتكاليف الإسلاميـة بافعل ولا تفعـل ، لكن كيف يقـول رسـول الله ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمـر] أليس هو أولـهم بـالفعـل ؟ لأن أول تكليف كـان له هو ساعـةَ نزل عليه الوحى ، وقبـل أنْ يُبلِّغه إلى أصحـابه ، إذن : مرت

عليه فترة كان هو ﷺ أول مَنْ أسلم لله ، أول مَنْ أسلم منهجه لله ، قبل أنْ يبلغ هذا المنهج ، هذا إنْ أردناها حقيقة أولية .

وأيضاً له أولية فى تنفيذ الأحكام أمام الناس بعد أنْ يبلغهم المنهج ، حتى يعلموا أن الرسالة لم تكُنْ لتدليل الرسل ، إنما كانت لإقامة الأُسْوة فيهم ، فإذا عمل الرسلُ أنفسهم على منهج الله علّموا الناس جميعاً أن هذا المنهج خير ، بدليل أنهم ألزموا أنفسهم به تطبيقاً قبل أنْ يلزموا الناس ، كالذى قال : لم آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوة .

شىء آخر : أن الله تعالى سلب الرسول ، وسلب أهل بيته ما أعطاه لعامة المسلمين ، فالميت يرثه أهله ، ورسول الله لا يرثه أحد من أهله ، ولعامة فقراء المسلمين أن يأخذوا من أموال الزكاة والصدقة ، أما آل البيت فقد حرم عليهم الأخذ منها .

إذن : تحمَّل رسولُ الله المشاق فى سبيل الرسالة ، ولم تكُنْ بالنسبة له رفاهية ولا تدليلاً ، كذلك تحمَّل معه أهل بيته ، ونالهم جزء من هذه المشاق ، ولولا أن إشراق الجزاء فى نفوسهم يعطيهم الأمل والثقة فى الجنة ، هذه الثقة التى جعلتهم وكأنهم ينظرون إلى أهل الجنة فى الجنة ينعَّمون وإلى أهل النار فى النار يعذبون ، لولا هذا ما صبروا على هذه المتاعب والمشاق .

لذلك يقول سبحانه حينما يخاطب نساء النبى :﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب] فلأنكُنَّ نساء النبى فلا بُدَّ أنْ تكُنَّ أول مَنْ ينفذ منهج الرسول لتتحقق بكُنَّ القدوة ، وليعلم الناس أن الرسول ما جاء جباراً يأمرهم بما لا يأتمر به ، أو ينهاهم عما لا ينتهى عنه ،

بل هو فى التنفيذ سابقهم وإمامهم وقدوتهم هو وأهل بيته ، إذن : كان ﷺ أول المسلمين بالفعل .

وللعلماء كلام طويل فى مسألة أوَّل المسلمين ؛ لأنها وردتْ أيضاً على لسان سيدنا موسى عليه السلام ، قال ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام] أى : مسلمي زمانه ، أما رسول الله فأول المسلمين فى زمنه وفى زمن غيره ، نقول لتقريب هذه المسألة : إن الأولية هنا أولية تفوق ، والتفوق قد يكون تفوقاً إضافياً كما نقول : فلان الأول على كلية الحقوق هذا العام ، فالتفوق هنا خاص بالعام الذى نتحدث عنه ، وربما جاء فى أعوام أخرى مَنْ تفوق عليه ، وحصل على درجات أعلى منه ، وقد يكون التفوق عاماً كما لو قلنا : فلان الأول على كلية الحقوق منذ أنشئت .

إذن : قد تكون الأولية فى الزمن ، وقد تكون الأولية فى مقارنة الأزمان بعضها ببعض ، فإذا قال رسول من الرسل : أنا أول المسلمين ، فالمراد أول المسلمين فى زمانه ، وإذا قيل لمحمد ﷺ : أنا أول المسلمين فالمراد أول المسلمين من لدن آدم إلى قيام الساعة ، يعنى : أنا وإنْ تأخر زمنى إلا أننى الأول إذا أخذنا الرتبة ساعة التكليف ، ثم إن غيرى من الرسل بُعِثَ إلى زمن بعينه فى مكان بعينه ، وأنا بُعِثْتُ للناسِ كافة فى كل زمان ومكان ، ثم إننى خاتم الرسل ، فلا رسالة بعدى ولا معقبَ من الرسل على رسالتى ، هذه كلها حيثيات الأولية عند رسول الله ، وهى حيثيات ظاهرة لا تُنكَر .

لذلك نجد الأولية دائماً على لسان رسول الله كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف] يعنى : أول مَنْ يُصدِّق هذه المسألة .

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾

سبحان الله ، أيقول رسول الله ﴿ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الزمر] فكأنه ﷺ يقول : أنا لم آخذ هذه المنزلة حكماً مطلقاً أننى نبى مُكرَّم ، بل أنا كعامة الناس إنْ عصيتُ ربى تعرضتُ للعقاب ، يعنى تقديم الله لى أولاً واصطفاؤه لى لا يشفع لى إنْ حدثتْ منى معصية .

ثم يقول سبحانه على لسان رسوله ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر] وهذه أيضاً للعقائد وليقين الإيمان ، وقد سبق قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر] وهنا ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر] فما الفرق بين (الله أعبد) و (أعبد الله) ؟

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزمر] جاء على الترتيب الطبيعى

للجملة : الفعل ، ثم الفاعل ، ثم المفعول . والجملة بهذا الترتيب لا تمنع من العطف على المفعول كما تقول : أطع فلاناً ، فإنها لا تمنع أن نقول وفلاناً ، أما إنْ قدَّمنا المفعول به على الفعل ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ (١٤) ﴾ [الزمر] فإنَّ تقديم المفعول أفاد القصر يعنى : قصر العبادة على الله وحده ، كما لو قلت : إلى الله أشكو يعنى : لا إلى غيره .

فالآية الأولى جاءتْ بالترتيب الطبيعى للجملة ، والأخرى جاءت بصيغة القصر ، كأنه قال : أنا لا أعبد غير الله ، وأنتم اعبدوا ما شئتم ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ (١٥) ﴾ [الزمر]

ثم يُبيِّن سبحانه عاقبة الشرك فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر]

نفهم أن هؤلاء امشركين خسروا أنفسهم يوم القيامة ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وبالشرك ، لكن كيف يخسرون أهليهم أيضاً ؟ قالوا : لأن أهليهم هم أولادهم وذريتهم ؛ وهؤلاء إما أنْ يؤمنوا ، وإما أنْ يظلوا على كفرهم مع الآباء ، فإنْ ظلُّوا على كفرهم فهم خاسرون كآبائهم ، وإنْ آمنوا فلن يكونوا مع الآباء ، وسيحرمون رؤيتهم ، لأن هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار . إذن : الخسارة ملازمة لهم فى كلتا الحالتين .

وكلمة الخسارة هنا أكَّدها الحق سبحانه بالمفعول المطلق ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) ﴾ [الزمر] ثم وصف الخسران بأنه مبين أى :

بيِّن واضح ومحيط ؛ لأن التاجر متى يكون خاسراً ؟ إما أنْ يعود إليه رأس ماله دون زيادة ، وفى هذه الحالة يكون قد خسر جهده وتعبه فى تجارته ، وإما أنْ تتعدى الخسارة إلى رأس المال فيخسر تعبه وجهده ، ويخسر جزءاً من رأس المال ، وهذا هو الخسران المبين ، أى : المحيط بكل شىء فقوله تعالى : ﴿أَلا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ⟨١٥⟩﴾ [الزمر] يعنى المحيط الذى أحاط بأهله وماله وتعبه وسَعْيه .

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ⟨١٦⟩﴾

يبين سبحانه عاقبة الكافرين ، فيقول :﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ⟨١٦⟩﴾ [الزمر] كلمة ظلل جمع ظلة ، وهى ما يُظلُّ الإنسان ، ويقيه حرارة الشمس ، ففى الظل يلتمس الإنسانُ الراحة وطراوةَ الهواء ، أما هؤلاء فعليهم ظُلَل لا ظلة واحدة من النار ، والنار لا تكون أبداً ظلة .

إذن : هذا أسلوب تهكم بالكافرين ، وليت هذه الظلل من جهة واحدة ، إنما من فوقهم ، ومن تحتهم ، والإنسان عادة حينما يأتيه الشر من جهة ينأى إلى الجهة المقابلة ، وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ[1] ⟨٤١⟩﴾ [الأعراف]

(١) قال السيوطى فى الدر المنثور (٣/٤٥٧) : « أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قولهم ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ .. ⟨٤١⟩﴾ [الأعراف] قال : الفرش . ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ .. ⟨٤١⟩﴾ [الأعراف] . قال : اللحف . وأخرج هناد وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى مثله » .

إذن : فالنار محيطة بهم لا مهربَ منها ، ولا مفرَّ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ⦗١٦⦘﴾ [الزمر] تأمل رحمة الله بعباده ، حتى فى مقام ذكر النار والعذاب ، فالنار ليس المراد بها تعذيب الخَلْق ، إنما تخويفهم وزَجْرهم حتى لا يقفوا هذا الموقف ، ولا يتعرضوا لهذا العذاب ، وأنت لا تصنع ذلك إلا مع مَنْ تحب ، كما تُخوِّف ولدك من الرسوب ، وتبين له عاقبة الإهمال ، وما سيتعرض له من الذلة والإهانة والاحتقار ، إنْ هو فشل فى دراسته .

إذن : حظه تعالى من ذكر النار أنْ يُخوِّف بها ، حتى لا يقع الخَلْق فى الأسباب المؤدية إليها ، والعاقل ساعة تخوفه يخاف ، وساعة تزجره ينزجر ويرتدع ، ويُعد هذا التخويف نعمةً من أعظم نعم الله عليه .

وهذه المسألة واضحة فى سورة الرحمن ، فالذين يحاولون أنْ يستدركوا على كلام الله يقولون : من المناسب للمعنى أنْ تختم الآيات التى تذكر النعم بقوله تعالى :

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗١٣⦘﴾ [الرحمن]

كما فى قوله سبحانه ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ⦗١٤⦘ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ⦗١٥⦘ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⦗١٦⦘﴾ [الرحمن] لكن ، ما النعمة التى لا ينبغى أن نكذب بها فى قوله : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ⦗٣٥⦘﴾ [الرحمن]

قالوا : هذا العذاب ليس هو الواقع إنما يذكره ليرهب به يعنى : إنْ حدث منكما كذا وكذا يُرْسَل عليكما شُوَاظ من نار ونحاس

فلا تنتصران ، وكونه يرهب ويخوف بالعذاب قبل أنْ يأتى حينه فإنه يحدث عندى مانع ووقاية فلا أقترف أسباب هذا العذاب ، بل ألزم جانب الخوف من الله والتقوى .

لذلك قال بعدها : ﴿يَـٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر] أى : اجعلوا تخويفى لكم رحمة بكم لا إرهاباً لكم ، والإنسان حين يوازن بين المسائل ويقارن بين حال أهل الجنة وحال أهل النار لا بُدَّ أنْ يرعوى ، وأنْ يرجع إلى الجادة ، وعندها يكون أهلاً لرحمة الله ومغفرته . إذن : من نعم الله علينا أنْ يُخوِّفنا ، وأنْ يُحذِّرنا الشر قبل وقوعه ، وألاَّ يأخذنا على غِرَّة ، أو يتركنا فى غفلة .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ(١) أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾

كلمة الطاغوت مبالغة من طاغٍ ، والطاغوت هو الظالم الذى يزيده احترام الناس لظلمه ، أو خوفهم منه يزيده ظلماً وغطرسة ، والطاغوت

---

(١) الطاغوت : كبراء الظَّلمة من شياطين الإنس أو الأصنام ، وهو كل ما عُبد من دون الله . وهو من الطغيان أى : تجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .

لا بدّ أنْ يكون له توجيه وتعالٍ ، لذلك لا يقال للأصنام طواغيت ، لأنها لا تعلو بذاتهـا ، وليس لها توجـيهـات ، إنما يعلو بـهـا عُبَّـادها ، إذن : الطاغوت لا يكـون إلا من البشر ، ولو كـانوا حاكمـين فقط ، وإلا فـمـا وَجْه الطغيان فى الأصنام ؟ الأصنام لا قالت ولا ظلمت .

وفى المـثل الريفـى يقـولون : (يافـرعـون إيه فـرعنك ؟ قـال : ملقـيتـش حد يردنى) إذن : لو وقف النـاس فى وجهـه ، ولو ردوا ألوهيته عندما ألَّه نفسه لارتدع عن هذا .

ورحم الله أحمـد الزين[1] ، فـفى عهـد الملك أرادوا وحدة وطنيـة تجـمع كل الأحـزاب تجتـمع بالملك ليـفكروا فى حَلِّ مـشـاكل البلد ، ودَعَوا لذلك مصطفى النحاس[2]، لكنه لم يذهب ، فلما سـأله أتباعه : لماذا لم تذهب لهذا الاجتماع ؟ قال : لأنى سأكون فيه أقلية . يعنى : لكثرة الموجودين ، فأخذ أحمد الـزين هذا الموقف ، وقال فيه قصيدة أراد أنْ يغمز فيها الملك ، فقال[3]:

---

(١) أحمد الزين : شـاعر مصرى ، كفـيف البصر ، كان يقال له « الراوية » لكثـرة ما يحفظ ، ولد عام ١٩٠٠ م . تعلم فى الأزهر واشـتغل محاميـاً شرعياً ، ثم عمل مـوظفاً بدار الكتب نحو عشـرين سنة . له « القطوف الدانية » شعراً ، و « قلائد الحكمـة » رجزاً . توفى عام ١٩٤٧ م عن ٤٧ عاماً . (الأعلام ١٢٩/١) له ٨٤ قصيدة عدد أبياتها ٢٢٩٢ بيتاً .

(٢) مصطفى النحاس ، زعيم مصـرى ، ولد فى سمنود عام ١٨٧٩ م ، وتعلم بها وبالقاهرة ، تخرج بمدرسة الحقوق عام ١٩٠٠ م ، عمل بالمحاماة إلى أن عين قاضياً وانتسب إلى وفد سعـد زغلول وكان من طلائع شبـاب الاستقلال ، واعـتقل مع سعـد ، تولى رئاسة الوزارة خمـس مرات ، لزم بيتـه مكرهاً بعـد ثورة ١٩٥٢ حتى توفى عـام ١٩٦٥ م عن ٨٦ عـاماً (الأعلام للزركلى المجلد ٧) .

(٣) هذه الأبيات من قصيدة لأحمد الزين من بحر الخفيف ، عدد أبياتها ٥١ بيتاً أولها :

كلهم فى الهوى يزين دينه ألف مُفْتٍ ومالك بالمدينة

أما البيتان الآخران فهما البيتان ٤٤ ، ٤٥ من القصيدة حسب الموسوعة الشعرية .

كُلُّهم بالهَوَى يُمجِّدُ دِينَهُ ألْف مُفْتٍ ومَالكٌ بالمدينَه
كَمْ رئيس لَوْلاَ القَوانينُ تَحْمِى جَهْلَهُ كانَ طردَه قَانُونهْ
ذُو جُنُونٍ وَزَادَ فِيهِ جُنُوناً أنْ يَرىَ عَاقِلاً يُطِيعُ جُنُونَهُ

فالطاغوت ما صار طاغوتاً إلا لأن الناسَ خافوه ولم يَرُدُّوا طغيانه ، ولم يجابهوه ، بل وافقوه وداهنوه ، فاستشرى به الطغيان .

البعض يرى أن الطاغوت كل ما عُبد من دون الله ، لكن ينبغى أنْ نضيفَ إلى ذلك : وهو رَاضٍ بهذه العبادة ، وبناءً على هذا التعريف لا تُعَدُّ الأصنامُ طواغيتَ ، ولاَ يُعَدُّ عيسى - عليه السلام - طاغوتاً ، ولا يُعَدُّ أولياءُ الله طواغيتَ كما يدَّعى البعض ؛ لأن الناس فُتِنُوا فيهم ، ولا ذنب لهم فى ذلك .

وقوله :﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : رجعوا إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [الزمر] أى : بالجنة لأنهم وقفوا فى وجه الطغيان ، وردُّوا الظلم ولم يقبلوه ، والله تعالى يريد من المجتمع المسلم أنْ يقف فى وجه كل طاغية ، وأن يُعدِّل سلوك كل منحرف ، وأنْ يقاطع أهل الفساد ويعزلهم عن المجتمع وحركة الحياة فيه .

ومثَّلنا لذلك بالفتوة الذى يحمل السلاح ويهدد الناس فى نفوسهم وفى أرزاقهم وأعراضهم ، بل ومنهم مَنْ يتحدى القانون والسلطة والنظام ، إنه ما وصل إلى هذه الدرجة إلا لأن المجتمع تخلى عن دوره فى الإصلاح والتصدى لأهل الشر .

قبل أن أبدأ لقائى فى هذه الحلقة أذكر أنه وصلنى كتاب اليوم من أحد الإخوان يطلب منى أولاً أن أذكر له القصيدة التى قيلت فى قنوت الليل ، وأنا لا أقول مَنْ قالها ، وإنما أحيله إلى رجل حجة فى هذا الباب ، هو الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة عميد كلية اللغة العربية سابقاً ، وحجة رابطة الأدب فى مصر .

وسأل أيضاً عن اختلاف العلماء فى تحديد الليل والنهار اختلافاً ينفى بعض الليل من النهار ، وينفى بعض النهار من الليل ، وأقول وبالله التوفيق : إن اختلاف الناس فى الليل والنهار اختلاف بين الشرعيين والفلكيين ، فالشرعيون يروْنَ أن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى مطلع الفجر ، والفلكيون يقولون : إن الليل يبدأ من غروب الشمس إلى شروق الشمس .

إذن : فهناك فترة مختلف عليها ، وهى من الفجر إلى الشروق ، فالذين نظروا إلى أنها ليستْ من الليل هم الشرعيون ، وذلك لأن المراد فى احتياط الصوم ألاَّ يجور الإنسان على شىء من الليل ، يدخل فيه شيئاً من النهار فاحتاطوا لذلك .

ووجه الاحتياط أن الشرعى نظر إلى النور الذى يبدو عند طلوع الفجر ، ولم ينظر إلى سبب النور وهو الشمس ، فنحن نرى نوراً قبل أن تطلع الشمس .

أما الفلكى فينظر إلى وجود النور ، هذا النور يكون من علامة الليل . الشرعى قال : لا ففرْقٌ بين النور يظهر وبين المنوِّر ، لأن نور الفجر إلى الشروق نور لا نرى فيه الشمس ، وهو مرتبط بغروب الشمس وشروقها ، والليل يقال فيه : ليل ألْيَل أو ليلة لَيْلاء يعنى شديدة الظلمة وهى حينما يكون القمر فى المحاق ، أو يقال

ليلة ليلاء . يعنى : فيها تعب ومشقة .

وقد جعل المحبُّون من الليل مراحاً ومَغْدى لشعرهم ، فإن كانوا مع الأحبة تمنَّوْا أَنْ يطول الليل ، وإنْ فارقوا الأحبة تمنَّوْا أن يقصرَ الليلُ .

ومن ذلك قول الشاعر[1]

طَالَ لَيْلِى ولَمْ أَنَمْ   وَنَفَى عَنِّى الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ[2]

وقال آخر لما اجتمع شمله بمَنْ يحب :

يَا لَيْلُ طُلْ يَا نَوْم زُلْ   يَا صُبْح قفْ لاَ تَطْلُعْ

والآخر جمع الحالين معاً ، أظنه البحترى[3] حين قال :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ ودَّعَكَ   ذَائعٌ مِنْ سِرِّه مَا استَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ علىَ أنْ لَمْ يكُنْ   زَادَ فِى تِلْكَ الخُطَى إذْ شيَّعَكْ

يَا أخَا البَدْرِ سَنَاءً وَسَنا   حفظ اللهُ زَمَاناً أطلعَكْ

---

(١) الشاعر هو بشار بن برد العقيلى أبو معاذ ، أشعر المولدين على الإطلاق ، ولد ٩٥ هـ ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هـ عن ٧٢ عاماً .

(٢) البيت من قصيدة له عدد أبياتها ٧ أبيات من بحر الرمل ، وهو فى الموسوعة الشعرية :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم

والكرى هو النوم .

(٣) بل هو : ابن زيدون أحمد بن عبد الله الأندلسى أبو الوليد ، ولد ٣٩٤ هـ وزير كاتب وشاعر من أهل قرطبة ، وهناك من يلقبه بحترى المغرب انقطع إلى ابن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس ، وله رسائل فى استعطافه . له قصة مع ولادة بنت المستكفى . توفى ٤٦٣ هـ عن ٦٩ عاماً .

إنْ يطُلْ بَعدَكَ لَيْلى فلَكَمْ بِتّ أشْكُو قِصرَ الليْلِ مَعَكْ[1]

والليل يقابله النهار ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

فجعل الليل مقابل النهار ، وتحلظ هنا دقَّة الأداء القرآنى ، لأن المتكلم رب والأداء أداء إلهى ، فلما تكلم عن الليل ذيَّل الكلام بقوله : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] ولما تكلم عن النهار ذيَّل الكلام بقول : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] ذلك لأن السمع وسيلة الإدراك بالليل حيث لا رؤية ، أما فى النهار فالبصر .

وقد اضطر العلماء إلى البحث فى علاقة اليوم بالليل والنهار ، فقالوا : الحق يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) ﴾ [سبأ]

فجعل سبحانه اليوم مقابل النهار ، لكن يوم الفلكيين غير هذا ، فاليوم عندهم لا يُحسب إلا من وقت إلى مثله فى القادم ، يعنى : إنْ بدأت من العصر فاليوم إلى العصر القادم . ويقولون فى التوقيت : صباحاً ومساءً ، فلو استيقظتُ مثلاً للسحور الساعة الثانيةَ بعد منتصف الليل أقول : تسحرت الساعة الثانية صباحاً ، مع أننى ما زلتُ فى الليل ، وبالعكس أقول فى النهار : الساعة الخامسة مساءً ، مع أننى ما زلتُ فى النهار ، هذا كله من اختلاف الفلكيين والشرعيين .

---

(١) قصيدة لابن زيدون من ٤ أبيات من بحر الرمل . (الموسوعة الشعرية) .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد هو : دوام الزمان واتصاله من ليل أو نهار [تاج العروس للزبيدى] .

ولكن اليوم اختُلف في مدلوله في كثير من المواضع ، فالحق سبحانه يقول في كتابه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ۝ ﴾ [المائدة] فأطلق اليوم على أيِّ لحظة من لحظاته .

وقال سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۝ ﴾ [إبراهيم] والمراد بأيام الله الأيام التي تُنسب إليها الأحداث ، سواء أكانت نعمة أو نقمة ، نقول مثلاً يوم بدر ، وكان يوم بدر نعمة للمؤمنين ونقمةً على الكافرين . وإلى هنا انتهت الإجابة على سؤال الأخ السائل ، ونعود إلى ما كنا بصدد الحديث عنه من قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. ۝ ﴾ [الزمر]

قلنا : الطاغوت هو الذي يطغى ، ويبارك الناسُ طغيانه ، ولا يصدونه عنه ، والطاغوت جاءت هنا مُؤنَّثة بدليل ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا .. ۝ ﴾ [الزمر] ، وفي موضع آخر جاء بصيغة المذكر في قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. ۝ ﴾ [النساء]

وكلمة الطاغوت من الكلمات التي تُطلق على : المفرد والمثنى والجمع مُذكَّراً ومُؤنَّثاً ، فنقول : هذا رجل طاغوت ، وهذه امرأة طاغوت ، وهذان طاغوت ، وهؤلاء طاغوت . وهي هنا للجمع ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا .. ۝ ﴾ [الزمر] وهي مثل كلمة سبيل ، نقول : هذه سبيل ، وهذا سبيل .

والطاغوت - كما قلنا - لابدَّ أن تكون له توجيهات ، لذلك لا يُطلق إلا على الطاغي من البشر أو من الجن ، أما الملائكة فلم ترْضَ أنْ تُعبد من دون الله ، كذلك يُسمَّى الظالمُ طاغوتاً .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ .. (١٧) ﴾ [الزمر] أي : رجعوا إليه ، نفهم منها أنهم كانوا مع الله أولاً ثم انحرفوا عنه ، كيف ؟ قالوا : لأن كلَّ إنسان كان مع الله على فطرة الإيمان الأولى عندما أخذ اللهُ الميثاقَ على الخلَقْ جميعاً فقال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] لكن منهم مَنْ ظلَّ على هذا العهد وعلى هذه الفطرة السليمة ، ومنهم مَنْ انحرف عنها ونسيها .

لذلك كثيراً ما يقول القرآن (وذكر) أي : بالعهد الأول ، فمعنى ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ (١٧) ﴾ [الزمر] يعني : رجعوا إلى الإيمان الفطري وإلى العهد الأول ، أو رجعوا إلى الله للجزاء يوم القيامة .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ (١٧) ﴾ [الزمر] البشرى الخبر السَّار الذي نخبر به قبل أوانه ، والبُشْرى تنقسم إلى قسمين : إزالة عطب وألم ، أو تحقيق مراد وأمل ، فالذين اجتنبوا الطاغوت فلم يعبدوها وأنابوا إلى الله تحقَّق لهم الأمران معاً ، لأنهم أولاً برئوا من النار وآلامها ، ثم تحقَّق مرادهم بدخول الجنة كما قال سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

لذلك قال بعدها : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) ﴾ [الزمر] أي بهذه البشرى السارة ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ (١٨) ﴾ [الزمر] القول لابدَّ أنْ يكون من قائل ، فإذا استمعوا القول من قائل يتبعون أحسن ما قيل ، وأن ما قيل يكون من أحسن قائل ، وإذا نظرنا إلى أحسن قائل لا نجد إلا الحق سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بحكم فاتبعوه فقوله أحسن القول ، وأمره أنفع أمر .

والحق سبحانه لا يستفيد من أوامره لكم ، ولا تضره معصيتكم ، فأنتم إذن المنتفعون بالمنهج ، المستفيدون من تنفيذه ،

ثم أنتم خَلْق الله وصَنْعته ، ويعز عليه سبحانه أن تنحرف هذه الصنعة أو تعذَّب .

ثم يريد سبحانه من منهجه وشرعه أنْ يُديمَ عليكم عطاءه ونعمه ، وأن تكون نعمة الدنيا موصولة لكم بنعمة الآخرة ، لذلك قال عنهم فى الحديث القدسى : « لو خلقتموهم لرحمتموهم »[١] .

أو : أحسن ما قيل يعنى الإسلام ، فالإسلام جاء والناس أصناف شتَّى : كفرة لا يؤمنون بإله ، ومشركون يؤمنون بإله معه غيره ، وأتباع ديانات كان لها كتب ورسل سابقون كاليهود والنصارى . فهؤلاء الذين عاصروا الإسلام إنْ يستمعوا يستمعوا لقول هذا وقول ذاك ، يستمعوا للكفار وللملاحدة وللمشركين ولأصحاب الكتب السابقة .

فكأن الحق سبحانه يقول : اعرضوا هذه الأقوال على عقولكم ، واختاروا أحسنها ولا تتعصبوا لقول دون أنْ تبحثوه وتقارنوه بغيره ، فإنْ فعلتم ذلك وإنْ توفرت لكم هذه الموضوعية فلن تجدوا إلا الإسلام أحسن الأقوال والأَوْلَى بالاتباع ، فهو الدين الذى جمع للناس كلَّ خير ، ونأى بهم عن كل شر .

وهو الدين الذى جاء مهيمناً على جميع الأديان قبله ، وكتابه المهيمن على كل الكتب قبله ، وجاء الإسلام ديناً عاماً فى الزمان وفى المكان ؛ لذلك هو الدين الخاتم الذى لا دينَ بعده ، ولا كتابَ

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

بعد كتابه ، ولا رسول بعد رسوله .

ودينٌ هذه صفاته لابدَّ أن يكون قد استوفى كلّ شروط الكمال ، كما قال سبحانه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣) ﴾ [المائدة] فالإسلام إذن أحسن الأديان ، وأحسن الأقوال ، وأحسن ما نتبعه .

ثم تستمر الآيات فى وَصْف المؤمنين الذين اجتنبوا الطاغوت أنْ يعبدوها ، والذين أنابوا إلى الله والذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٨) ﴾ [الزمر] هداهم يعنى دلَّهم وأرشدهم ، فلما اتبعوا دلالته وإرشاده ولم يكُنْ فى نفوسهم عناد لهذه الدلالة أعطاهم هدايةَ التوفيق والإيمان فآمنوا .

وقلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، وهداية المعونة . وبيَّنا ذلك كما سبق برجل المرور الذى تجده على مفترق الطرق يدلّ الناس ويُرشدهم ، فإن دلَّك على الطريق فأطعْتَه وشكرته على معروفه زادك ، وسار معك حتى لا تؤذيك عقبَات الطريق ؛ لأنه وجدك أهلاً لأنْ تُعان فأعانك .

كذلك الحق سبحانه يعطى عبده هداية الدلالة والإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ، فمَنْ أطاع فى الأولى أخذ الثانية ، وهى هداية المعونة ، وهذه للمؤمن دون الكافر ، فكأن الله تعالى يقول لعبده المؤمن : أنت آمنت بى ، وسمعتَ كلامى ، وأطعتَ فسوف أعينك على الطاعة ، وأخفف أمرها عليك ، وأُعسِّر عليك أمر المعصية .

وهذه من أعظم نعَم الله على العبد أنْ يُيسِّر له أمر الطاعة ، ويُعينه على مشقاتها ، وفى المقابل يقفل دونه أبواب المعصية

ودواعيها . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]

فمعنى (زادهم هدى) يعنى : أعطاهم هداية المعونة على الإيمان .

وقوله : ﴿وَأُوْلَـئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر] أى : أصحاب العقول المفكرة المعتبرة ، لأنهم نشروا أمامهم كل الأقوال ، وبحثوها وقارنوا بينها ، وأخذوا أحسنها الذى يحقق لهم السعادة والمصلحة والانسجام فى حركة الحياة بلا تعاند ، بل حركة مستقيمة متساندة تنفى من القلوب : الحقد والغل والحسد ، وتمنع الانحراف من : سرقة وغش ورشوة واغتصاب .. الخ

فمَنْ يصادم مثل هذا المنهج ؟ ومَنْ يرفضه ؟ إنه منهج مستقيم لا يملك العقل السليم إلا الإذعان له والسير على هَدْيه ، لذلك سمَّى الله هؤلاء الذين اختاروا هذا المنهج سماهم ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر] أى أصحاب العقول ، والعقل مهمته أن يعقل الفكر فلا يشطح ، بل يعرض المسائل ويختار من البدائل ما يصلحه ، لكن آفة الرأى الهوى ، فالهوى هو الذى يصرفك عن مقول العقل إلى مقول الهوى .

قول آخر يقول : المراد بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر] أنه خاصٌ بمَنْ يستمعون أقوال الإسلام ، فيتبعون أحسن هذه الأقوال ؛ لذلك جاء بصيغة التفضيل (أحسن) فكأن فى الإسلام (قول حسن) و (أحسن) ، فهذا الرأى لا يأخذ المسألة على العموم ، إنما يجعلها خاصة بأقوال الإسلام ، وهى كلها مُتصفة بالحُسْن ، لكن منها حسن وأحسن ،

وأصحاب العقول المتأملة يختارون منها الأحسن .

ومثال ذلك : شرع الإسلامُ مثلاً القصاصَ من القاتل وشرع الدية عليه ، وشرع أيضاً العفو ، فقال سبحانه : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة] فمن أخذ بالقصاص أو الدية أخذ بالحسن ، ومَنْ تسامى إلى العفو أخذ بالأحسن .

كذلك في قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..(٢٧١)﴾ [البقرة] فإنْ أبديتَ الصدقة فأنت غير آثم ، بل هو أمر حسن ، لكن الأحسن منه أنْ تخفيها .

ومثله قوله سبحانه : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ [الشورى]

وفي كل هذه المواضع ، نجد الحق سبحانه يُرغّب عباده في التسامح ، لكن التسامح يكون في الأمر الذي تتحمل أنت ثمنه ، ويعود عليك ضرره إنْ كان هناك ضرر ، أما إنْ عاد الضرر على المجتمع عامة فلا تسامح .

والنبي ﷺ علَّمنا هذا الدرس ، فكان ﷺ لا يغضب لنفسه قط . إنما كان يغضب إذا انتهكَ أمر الله ، إذن : تسامح في الأمر الذي يتعلق بك ، أما إنْ تعلق الأمر بعامة المسلمين فليس لأحد الحق أن يتسامح فيه .

والحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن اختيار الأحسن هو أحسن لنا نحن وأفضل ، ففي قصة الإفك ، قال تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ..(٢٢)﴾ [النور] يعني : لا تغضب لأنك غفرتَ لمن أساء

إليك ، لأن الله تعالى سيعاملك بالمثل فيغفر لك إنْ أسأتَ ، ومَنْ لا يحب أنْ يغفر الله له ؟ فما دُمْتَ تحب أنْ يُغفر لك فاغفر لصاحبك ، لكن شريطةَ ألاّ تهيج المجتمع ولا تضره .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾

كان النبي ﷺ مُحباً لأمته ، حريصاً على هدايتهم والأخْذ بأيديهم ، وكان يؤلمه أنْ يشذ واحد منهم عن منهجه أو يعانده ، والقرآن الكريم يعرض لنا هذه المسألة في أكثر من موضع ، ففى سورة الشعراء : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وفى الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

وقال : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر]

فالحق سبحانه يُسلِّى رسوله يقول له : يا محمد ، لا تحزن على هؤلاء ، لأنهم استحقوا العذاب ، وحكم الله عليهم أنهم مُعذَّبون ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الزمر] حق يعنى : ثبت من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة]

وما دام قد حقّ عليهم العذاب ، فلماذا تحزن ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النَّارِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزمر] وأحقية كلمة العذاب هنا ليست قهراً للعبد أنْ

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . [المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده] قال الفراء فى تأويل الآية : أى مخرجٌ نفسك وقاتلٌ نفسك . [لسان العرب لابن منظور] .

يفعل ، إنمـا علِم أنه سيـفعل كذا وكـذا ، فَعَلِمَ الله بما سـيكون منهم وكتــبه عليـهم ، فالأحـقية هنـا ليست أحـقيةً كـونية أرادها الخـالق سبحانه ، إنما لأنه سبحانه علم مُسْبقاً ما يختارون .

وسبق أنْ تناولنا هذه المسألة في الكلام عن قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [المسد] هذا حُكْم من الله على أبى لهب أنه سيَصْلَى ناراً ذات لهب ، وقد جـاء هذا الحكم وبلَّغه رسول الله ، وسمـعه أبو لهب وهو حَيٌّ يُرزق ، أكـان محمـد ﷺ يأمن أنْ يقف أبو لهب فى مـحفل من القوم ، ويقـول : أشهـد ألا إله إلا الله ، وأن محمـداً رسول الله ، يقـولها ولو نفـاقـاً ، ويظهر أمـام الناس على أنه مـؤمن ، وفى هذه الحالة يُكذِّب كلام الله ؟

لقـد كـان أبو لهـب كـافـراً ، كمـا كـان خـالد وعمـرو وعكرمـة كافرين ، وكان بإمكانه أنْ يؤمن كما آمنوا ، لكن علم الله أنه لن يؤمن حتى بعد أن بلغه هذا المصير فى قرآن معجز يحفظه مَنْ قاله و يُتْلَى إلى يوم القيامة ، إذن : دلَّتْ هذه الآية على أن الله تعـالى علم مُسْبقاً أنه لن يؤمن ، ولم يقهره على ألاَّ يؤمن .

فالحق سبحانه يقول لرسـوله : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، لأن الله حكم عليـهم لعلمـه بمـا سيكون منـهم ، أنهم من أهل النار ، فكيف تنقذهم ، وقد حكم الله عليهم بذلك ؟

ونلحظ فى أسلوب الآية ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. ۝١٩ ﴾ [الزمر] أن الفعل حَقَّ لم تلحقه علامـة التأنيث ، مع أن فاعله (كلمة) مؤنثة ، قالوا : لأن المـؤنث هنا غير حقيقى ، فيـجوز فى الفعل عدم التأنيث .

والاستفهام فى ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ .. (١٩) ﴾ [الزمر] يحتاج إلى خبر تقديره : أفمَنْ حَقَّ عليه كلمة العذاب ، أتريد أن تنجيه أو تحميه منه ، بأن تُلح عليه أنْ يؤمن ، أتريد أنْ تنقذه من النار ، وقد حكم الله عليه أنه من أهلها ؟

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ (٢٠) ﴾

قلنا : إن من سمات الأسلوب القرآنى أن يذكر المتقابلات ، فالضدّ يُظهر حُسْنه الضد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وهنا بعد أنْ ذكر الحق سبحانه الكافرين الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب يذكر المقابل لهم ، وهم المتقون ﴿ لكن ﴾ استدراك على ما تقدم ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٢٠) ﴾ [الزمر] وهذه المقابلة تهيء النفس لتفظيع المقابل الأسوأ ، وتجميل المقابل الأعلى .

والغُرَف جمع غُرْفة ، وهى المكان الخاص المقتضب من البيت ، وهى مأخوذة من غرفة الماء ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ .. (٢٠) ﴾ [الزمر] ثم وصف التى فوق بأنها ﴿ مَّبْنِيَّةٌ .. (٢٠) ﴾ [الزمر] لأن العادة فى الغرفة السفلية أن يُعتنى بها فى الأساس ، الذى يحمل باقى الأدوار ، فأراد أنْ يلفت أنظارنا إلى أن الغرف الفوقية هى أيضاً

مبنية مُعْتنىً بها ، لا تقل ميزةً عن الغرف السفلية ، فكل الغرف من الأدنى إلى الأعلى مميزة .

ثم تأمل الإعجاز في قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ۝٢٠ ﴾ [الزمر] من تحت أيِّهما ؟ من تحت الاثنين ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : اقرأ قوله ﷺ في وصف الجنة : « فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر »[1]

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ۝١٠﴾ [التوبة] وفَرْق بين تحتها ومن تحتها ، لو قُلْنا تجري تحتها الأنهار ، فالمعنى أن الأنهار تأتي من مكان آخر وتمرُّ بها ، فيمكن للأعلى أنْ يحجب الماء عن الأدنى .

أما ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ۝٢٠﴾ [الزمر] فنبع الماء يجري من تحت هذه الغرف ، فماؤها ذاتيّ فيها ، ليس لها مَدَدٌ من خارجها ، إذن : فالمياه فيها ذاتية.

فأنت تتعجب لأنك تقيس المسائل بهندستك أنت ، ولربك سبحانه هندسة أخرى ، تأتي على غير ما تتصوَّر ؛ لأن الشيء الذي لم تره العين ولم تسمعه الأذنُ ، ولم يخطر على القلب ليس في اللغة ما يدل عليه ، فالمعاني تُوجَد أولاً ، ثم تُوضَع لها الألفاظ الدالّة عليها ، فإذا لم تُوجَد المعاني فمن أين يأتي اللفظ ؟

نحن نعرف الآن مثلاً (التليفزيون) ، ونعرف ما هو لكن قبل أن يُخْترع هل كنا نعرفه أو نعرف اسمه ؟ لذلك سبق أنْ قلنا : إن الذي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وتمامه « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

يقول الله غير موجود - والعياذ بالله - نقول له : كلامك مردود بكلامك ، لأن الله مبتدأ وغير موجود خبر ، فمن أين عرفتَ كلمة الله إنْ كان الله غير موجود ؟ إذن : قولك : الله غير موجود دليل على أنه موجود ، لأن المعدوم لا لفظَ له ، فالذى لا تسمعه الأذن ، ولا تراه العين ، ولا يخطر على البال ليس له اسم .

لذلك لما يصف لنا ربنا الجنة يقول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (١٥)﴾ [محمد] يعنى : يعطينا مثلاً لها وليست هى ، لأن لغتكم ليس بها الألفاظ التى تعبر عن هذه المعانى التى فى الجنة ، ومع ذلك ساعةَ يُعطينا المثل ينفى منه ما يناقض الموجود فى الدنيا ، فحين يصف خَمْرَ الآخرة يقول : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات]

يعنى : لا تغتال العقل ولا تستره كما تستره خمر الدنيا ، ففى الإنسان غُدة مسئولة عن توازنه ، فحين يشرب الخمر تتسلط الخمر على هذه الغدة فتفقده توازنه وتستر عقله ، فيتمايل هنا وهناك ، ويهذى بكلام لا يعرف معناه .

وليست كذلك خمر الآخرة ، خمر الآخرة تُعطيك اللذة والمسرَّة دون أن تغتال العقل ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات] النَّزْف والنَّزْح بمعنى واحد ، تقول : نزحت البئر يعنى : أخرجت ما فيه من الماء ، فالنزف إخراج ما فى الجوف . والإنسان فى تكوينه الصحى السليم يؤدى جسمه عملية نسميها عملية الإخراج مثل صماخ الأذن والعرق والبول ، وهذا الإخراج فيه سلامة وفيه صحة الجسم .

---

(١) قال الشوكانى فى فتح القدير : (لا فيها غول) أى : لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع . (ولا هم عنها ينزفون) أى : يسكرون فتذهب عقولهم من السُّكْر .

لكن هناك إخراج بلا سلامة ، كالذى يأكل ثم يتقيّأ ما أكل ، وقد يتقيأ من جارحة نفسه دماً والعياذ بالله ، وقد يخرج منه البول باستمرار كمن يعانى من سلس البول مثلاً ، ومن ذلك النَّزْف ما يحدث لشارب الخمر فينزف ما فى بطنه .

كذلك فى الدنيا ماء ، وفى الآخرة ماء ، وفى الدنيا لبن ، وفى الآخرة لبن ، لكن شتّان بين ماء الآخرة وماء الدنيا ، وبين لبن الآخرة ولبن الدنيا ، يقول تعالى فى بيان ذلك :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ (١) وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥) ﴾ [محمد]

من عجيب أمر هذه الأنهار أنها أنهارٌ بلا شُطْآن ، فهى تجرى بما فيها من ماء أو لبن أو خمر أو عسل ، ومع ذلك لا يختلط بعضها ببعض ، وهذا أمرٌ عجيب نضعه تحت مَا لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فالحق سبحانه حين يعطينا المثل للجنة ينفى عنه المضارّ الموجودة لمثله فى الدنيا ، فآفة الماء فى الدنيا أن يأسن ، يعنى : يتغير فلا يصلح بعد ذلك للشرب ، أما ماء الآخرة فغير آسن ، لأنه ماء جَارٍ فى أنهار ، وجريان الماء يحفظه أنْ يأسن ، كذلك فى اللبن ووَصْفً العسل بأنه مُصفّى ، لأن عسلَ الدنيا لا يخلو من الشوائب .

---

(١) أسن الماء : تغيَّر غير أنه شروب . وتغيرت ريحه . وفى التهذيب : أسن الماء هو الذى لا يشربه أحد من نتنه . وقال الجوهرى : أسن الرجل إذا دخل البئر فأصابه ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشى عليه أو دار رأسه . [لسان العرب – مادة : أسن] .

أمـا خـمـر الآخـرة فهـى لذّة للشـاربين ، يتلذذ بهـا شـاربهـا ، ويرتشفها رشفاً للذة طعمها ، أما فى الدنيا والعياذ بالله فيسكبها فى فمه هكذا دفعةً واحدة ، لأنها كريهة الطعم ، كريهة الرائحة .

ومن ذلك أيضاً قـوله تعالى فى وصف نعـيم الجنة : ﴿ **فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ** (٢٨) ﴾ [الواقعة] وشجرة السدر شجرة معروفة عند العربى ، وكانت تُعَـدّ من فاكهتـهم ومن الأشياء الغـالية عندهم ، لكن آفتهـا ما فـيهـا من شوك يؤذى الآكـل منها ، فنفى الحـق سبـحانه عن سـدر الآخرة هذه الآفة ، وقال : ﴿ **فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ** (٢٨) ﴾ [الواقعة] أى : مقطوع ومنزوع الشوك لا يؤذى مَنْ يتناول ثماره .

إذن : الحق - سبـحانه وتعالى - حـين يقول فى وصف الجنة : ﴿ **لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** (٢٠) ﴾ [الزمر] لا تتعجب من كيفية بناء غرف فوقها غرف والمـاء يجرى من تحتهـا ؛ لأن لله تعالى هندسة خـاصة تدخل تحت ما لا عـينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطـر على قلب بشر ، فهى أشياء لا تدلّ عليها ألفاظ لغتنا .

لكن هناك أشيـاء أخرى لا اختـلافَ فيها ، مـثل : أباريق وأكواب وكأس ونمارق وزرابى وأرائك ، هذه من نعَم الله فى الجنة وموجودة أيضاً فى الدنيـا لكن مع الفارق ، فهـذه صَنْعة البشر للبـشر ، وهذه صنعة خالق البشر للبشر .

لذلك لما ذهبنا إلى (سان فرانسسـكو) ورأينا هناك فندقاً فخماً على رَبْوة عالـية ، ووجدنا فـيه كل وسائل الراحـة والرفاهيـة أُعجب الجميع به ، فـقلت لهم : تعجبون من هذا وهو صنعة البشـر للبشر ، فما بالكم بصنعة الحق للخلق ؟

وهذه المسألة تلفت أنظارنا وتُوجِّهنا إلى نعيم الآخرة ، فساعة ترى نعيم الدنيا ، وساعة ترى الشيء الجميل المبهر لا تحقد على صاحبه ولا تحسده عليه ، بل تذكر به نعيم الله الذى أعدَّه لعباده فى الآخرة ، فكأن الله تعالى بنعيم الدنيا يُرغِّبنا فى نعيم الآخرة .

وهذا الذى ذكرنا من جزاء المتقين ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۝٢٠﴾ [الزمر] الوعد : هو الإخبار بشيء مفرح سَارّ قبل أوانه ، وكوْنك تخبر بالأمر السَّار قبل أوانه ، فهذا يغرى بالعمل للوصول إلى هذا الوعد ، ومقابل الوعد الوعيد وهو الإخبار بشيء مؤلم قبل أوانه ، والهدف منه التحذير حتى لا تقع فى أسبابه ، فالحق سبحانه مراده من الوعد والوعيد أن يُشوِّق الخَلْق إلى الثواب ويُحذِّرهم من العقاب ، ويُفظع الجرائم والعقوبات عليها حتى لا نقعَ فيها .

والله سبحانه لا يخلف الميعاد فوعده حَقّ ، لأنه سبحانه بيده كل أسباب الوفاء ، ولا يوجد له معارض يصرفه عن الوفاء بوعده ، لأن الذى يُخلف الوعد تعرض له أشياء تخرجه عن إمكانية الوفاء ، والإنسانَ ابن أغيار كثير التقلب ، فيطرأ عليه ما يحُول بينه وبين الوفاء بوعده ، أما الحق سبحانه فهو الحق الذى لا يتغير ، ولا يعز عليه شيء ، وهو سبحانه القادر الذى له طلاقة القدرة .

والحق سبحانه يُرينا تحقيقَ وعده فى الدنيا لنُصدق بوعده فى الآخرة فَوعَد الله المؤمنين فقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات] وقال : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ.. ۝٤٠﴾ [الحج] وتحقَّق وَعْد الله للمؤمنين فانتصروا. وإن اضطهدوا أولاً ، وتحقُّق هذا الوعد يجعلنى أثق فى وعد الآخرة الذى لم يأت وقته .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - لما سمع قول الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال: أيُّ جمع هذا ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه يُحقق لنا وعده الذى جاء وقته لنثق فى تحقّق الوعد الذى لم يأت وقته ، ومن ذلك قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد] يعنى : يا كفار قريش ، يا مَنْ تعاندون محمداً وتصادموه ، ألم تروْا أن رقعتكم الواسعة تتناقص ، ويأخذ الإسلام منها كل يوم جزءاً ، فالمعنى ننقص أرض الكفر ، ونزيد أرض الإسلام .. وينبغى أن نقول صدق الله فى الأولى ، ولا بُدّ أنْ يصدق فى الثانية ، أى : يوم القيامة .

لذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه حين نَعد بشىء أن نصحبه بالمشيئة ، فنقول : إن شاء الله : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] حتى إذا تعذَّر عليك الوفاء قُلْتَ شئتُ ولكن الله لم يشأْ ، فكأن الله تعالى تحملها عن عباده ، فالعبد شاء ولكنى لم أشأ .

وهكذا يعفيك الله من الحرج ، ويحميك أن تكون كاذباً ، فالحق يتحمل عنا كما تحمّل عن رسوله فى قوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام] أى : قولهم : ساحر وكاهن وكذاب ومجنون ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ (٣٣) ﴾ [الأنعام] لأنك عندهم صادق أمين ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فجعلها سبحانه فى حقه ، وتحمَّلها عن رسوله .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ(١) فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٢١) ﴾

الحق سبحانه وتعالى حينما يُخبر عن خيره سواء أكان هذا الخير يتعلق بمقوِّمات الحياة فى الدنيا أو بمُعدَّات النعيم فى الآخرة ، يتكلم عنه على أنه إنزال ، وكلمة أنزل تدل على جهة العلو ، وأن هذا العطاء من أعلى ، وإنْ خرج من باطن الأرض كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢٥) ﴾ [الحديد]

فالنعمة من الأعلى وليست من مُساوٍ ، وأنت فى تصريف حياتك عندما تكون لديك مسألة لا تَقْوى إمكانياتك عليها ، ولا يَقْوى عقلك على التفكير فيها تذهب لمَنْ هو أعلى منك فى هذا المجال ولمَنْ تثق فيه وفى فكره ، ليساعدك على حلِّها ، تفعل ذلك وأنت راضٍ ، لأنك أسلمتَ الأمر لمن تثق فى قدراته .

فالحق سبحانه حينما يقول : أنزلنا . يعنى : خذوا أحكامى على أنها من أعلى ، وعلى أنها الأفضل لكم ، لأنها من خالقكم الذى يعلم ما يصلحكم .

يقول تعالى هنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ

---

(١) قال الزبيدى فى تاج العروس (مادة هيج) : هاج البقل : يبس واصفرّ وطال . وهاجت الأرض : يبس بقلها . وأهاجه : أيبسه .

فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ [الزمر] معنى (من السماء) أى : من جهة السماء ، وإلا فمخازن الماء فى الأرض ، فى البحار ، وهى مُعدَّة إعداداً كيماوياً بحيث تحفظ الماء فلا يتغير ولا يأسن ، ولا تعيش به الطفيليات .

لذلك نجد الماء المالح فى البحار تصونه نسبةُ الملوحة فى الماء ، ويُلقى فيه بالقاذورات والجيف ، فينفيها الموج ويبقى الماء على صلاحه ، ومن ماء البحار تتم عملية البخر التى تكوِّن السحاب والمطر الذى يسقى الإنسان والحيوان والنبات .

وماء المطر هو أنقى ما يمكن الحصول عليه من الماء ، فعملية البخر مثل عملية تقطير الماء التى نجريها فى المعامل للحصول على الماء النقى ، وتأمل كم تكلفة تقطير زجاجة ماء واحدة ، فما بالك بماء المطر الذى ينهمر من السماء ؟

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل الماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وجعل اليابسة الربع ، ذلك لتتسع مساحة البخر ويكفى المطر حاجة الأرض من الماء العذب ، وسبق أنْ بيّنا الفرق بين الماء الذى له عمق ، والماء الذى له سطح مُتسع ، فالبخر يعتمد على اتساع سطح الماء ، فكلما اتسع السطح زاد البخر ، ومثّلنا لذلك بكوب الماء تتركه شهراً وتعود فتجده كما هو لم ينقص منه إلا القليل ، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الغرفة ، فإنه يجفّ قبل أن تغادرها .

والحق سبحانه يريد للماء المالح أنْ يتبخر ليتخلّص من ملوحته ، ثم ينزل ماءً عَذْباً سائغاً للشاربين ، وعملية البخر هذه تتم ولا ندرى عنها شيئاً ، إنها آية من آيات الله ونعمة من أعظم نعمه علينا .

والماء حين ينزل من السماء لا ينزل على كل مكان ، إنما ينزل على الأماكن الباردة ، فبخار الماء المتجمِّع فى السحاب حينما يمر بمنطقة باردة يتكثف من جديد كما نكثِّف الماء المقطر ، فالماء الذى يأتينا فى نهر النيل أين يسقط ؟ يسقط على هضبة الحبشة وتحمله إلينا الأنهار ، ويتسرب منه جزء فى باطن الأرض ، ويجعل الله له فى الأرض مسالك .

هذا معنى ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر] يعنى : جعل له مَجارىَ خاصة ومسالك ، بحيث لا يختلط بالماء المالح ، وقد تُوجد مثلاً عَيْنٌ للماء العذب تنبع وسط الماء المالح ، ومع ذلك لا تختلط به ، وكأن الماء العَذْب يسير فى أنابيب مخصوصة أشبه ما تكون بالشرايين فى جسم الإنسان .

وقوله تعالى هنا ﴿أَلَمْ تَرَ..﴿٢١﴾﴾ [الزمر] ما دام شىء يمتنُّ الله فيه بالرؤية ، فإن كنتَ تراه فاعلم أنه كلام حقيقى ، وأنا أرى المطر ينزل من السماء ، وإنْ كنت لا تراه فصدِّق ما أخبرك الله به كما تصدق عينك فى الرؤية ، لأن إخبار الله لك أصْدَقُ من رؤية عينيك .

ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل] ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل يعنى : لم يَر هذه الحادثة ، فالمعنى ألم تَرَ يعنى : ألم تعلم عِلْماً منى ، يفوق علم رؤياك بالعين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر] فالزرع يُزرع فى تربة واحدة ، ويُسقى بماء واحد ، ومع ذلك تأتى الثمار مختلفة فى الألوان وفى الطَّعْم وفى عناصر التكوين .

لما تكلَّم العلماء فى هذه المسألة قالوا : فى النبات خاصية تُسمَّى

خاصيـة الانتخاب يعنى : أن النبات يمتصّ بـواسطة الجذور العناصر اللازمة له من الأرض ، لكن لـو جئنا مثـلاً بإناء فيه مـاء ، ووضعنا فيه عدة ألوان ، ثم وضعنا فيه الأنابيب الشّعرية الضيقة التى يصعد فيـها الماء إلى أعـلى بهذه الخاصـية ، نجد هذه الأنابـيب تمتص من الماء على عمومه لا تفرق بين لون ولون .

وليس كـذلك امتصـاص النبات للعنـاصر اللازمة له من الـتربة ، النبات لا يمـتص إلا المواد اللازمة والمناسـبة لطبيعـته ، فالخاصـية الشـعرية فى الجـذور تمتصّ عـلى هدى ، فتـأخذ من التـربة وتدَع ، فالـتربة واحـدة ، والماء واحـد ، ومع ذلك تختلف الطعـوم والأشكال والألوان والرائحةِ .

إذن : ليس هو الانتـخاب الذى يعنيـه العلماء ، إنمـا هو انتـخاب إلهى يقـوم على الطبيـعة التى أودعـها الله فى الحـبة والبـذرة الأولى للنبـات ، فأنت تزرع مثـلاً الفلفل الحار بـجوار قصب السكـر بجوار الرمان ، فتجد هذا حاراً ، وهذا حلواً ، وهذا مُرّاً .

ثم ينتقل النبـات إلى مرحلة أخرى ، يصفـها الحق سبحـانه بقوله : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمر] معنى يهيج يعنى : يجف ويتـحطم ، ويصـيـر فـتـاتاً . يعنى : لا يسـتـمـر على خـضـرته ونضارته، وكأن الحق سبحانه جعل النبات عبرةً للإنسان ، فالنبات كائنٌ حَىّ كالإنسان ، وسيمر الإنسان بهذه المرحلة فيجفّ ويتفتت كالنبات .

فالله سبحانه يضرب لنا مثلاً ، حتى لا نغترّ بذواتنا حين نجد لها قوة أو نـجد لهـا عقـلاً وتفكيراً أو سُلْطة وجـاهاً أو مالاً ، يقـول لك ربك : انظر إلى أمك الأرض ، وإلى الزرع يخرج منهـا ، إلامَ يصير ؟ فأنت كذلك ، فلا تغترّ ما دُمْتَ من أهل الأغيار .

لذلك يقولون : لا تغضب ولا تحـزن إنْ تغيرتْ بك الأمور ، لأنك من أهل الأغيار ، وما دُمْتَ من أهل الأغيـار ووصلتَ إلى قمة الجبل ، فماذا تنتظر ؟ تنتـظر أنْ تستقرّ عليه ؟ كـيف وأنت من أهل الأغيار ؟ إذن : لا بدَّ أنْ تنزل ؛ لذلك إذا تمتْ النعـمة ترقَّبْ زوالهـا ، كمـا قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شىء بدا نقْصُهُ ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ[1]

فإنْ رأيت نفسك (مـزهزهة) بالعلم أو بالقوة أو بأىٍّ مظهر من مظاهر النعـيم ، فـاعلم أنك غـداً ستـصـيـر إلى كبـر وإلى ضـعف ، ستصير مثل الطفل يحبـو وتحتاج إلى مَنْ يسندك ويعاونك ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۝٥﴾ [الحج] فافهم هذا المعنى جيداً فى أمك الأرض وفى ذاتك .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ۝٢١﴾ [الزمـر] أى : مـا تشـهـده أنت من هذا الذى ذكرنا ﴿لَذِكْرَىٰ .. ۝٢١﴾ [الزمـر] يعنى : تذكـرةً وعبـرةً ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٢١﴾ [الزمر] لأصحاب العقول الواعية والمتدبرة .

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٢﴾

---

(١) البـيت من نظم على بن أبى طالب رضى الله عنه كـمـا فى الموسـوعـة الشعـرية وهو من قصيدة من بحر المتقارب عدد أبياتها ١١ بيتاً ، ولفظ البيت :

إذا تم أمر بدا نقصه توقّ زوالاً إذا قيـل تـم

التقدير هنا ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. (٢٢)﴾ [الزمر] كمن ضاق صدره عن الإسلام ، إذن : لابُدَّ أنْ نذكر هذا المقابل لأنهما لا يستويان ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [الزمر] تدل على أننا أخذنا الضيق من القسوة ، فالذى ضاق صدره عن الإسلام ضاق صدره لقسوة قلبه .

وهذه مثل قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ[1] آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٩)﴾ [الزمر] والمعنى : أهذا كمَنْ لم يقنت ؟ وعليك أنت أنْ تجيب : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، كمَنْ قسا قلبُه ، وضاق صدره عن دين الله وهداية الله ؟

ومعنى ﴿ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ .. (٢٢)﴾ [الزمر] أى : جعل الضيق واسعاً ، وتقول لصاحبك : وسِّع صدرك يعنى : اجعله مُتسعاً لمناقشة كل القضايا ، ومن معانى سعة الصدر ألاَّ تشغله بالخزعبلات ، وألاَّ تزحمه بالباطل ، حتى يكون لك أُنْس به ، وعندها يطرد الباطل الحق كما قلنا فى مسألة الحيز .

فالحيز الواحد لا يتسع إلا لشىء واحد ، فالماء مثلاً يطرد الهواء حين تملأ زجاجة بالماء ..

ومن شَرْح الصدر أن يكون لديك عدالة اختيار حين تختار بين البدائل ، عليك أن تصفى قلبك ، وأن تُخرج منه كل ما يشغله ، ثم تبحث القضايا المعروضة عليك ، فما وجدته مناسباً تُدخله قلبك ليستقر فيه حتى يصير عقيدةً راسخة لا تقبل المناقشة مرة أخرى ،

---

(١) قال الزجاج : القانت المطيع . والقانت : الذاكر لله . وقيل : القانت العابد . [تهذيب اللغة للأزهرى – مادة : قنت] . وآناء الليل : ساعاته .

لأن الله تعالى خلق لنا حواسَّ تدرك : عينٌ ترى ، وأذنٌ تسمع ، ولسان ينطق .

وبهذا الحواس نأخذ المعلومات . ثم نعرضها على العقل ليختار منها ويبحث فيها ، فما وجده صالحاً أسقطه فى القلب ، وهذه هى العقيدة التى تستقر فى القلب ، ولا تطفو لتُبحث من جديد .

لذلك احذر الران[1] الذى يترسب على القلب حتى يغلقه ، فلا يكون فيه مكان للحق ، والنبى ﷺ يشير إلى هذه المسألة فى حديث أبى ذر - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ :

« تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً - وفى رواية : عَوْذاً عَوْذاً - فأيما قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأيما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مُرباداً - وهذا الذى يقول الله فيه : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** (١٤) ﴾ [المطففين] - كالكوز مُجخياً - منكوساً - لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2].

والفتن هنا هى الشُّبَه التى تعرض للناس فى الدين ، والرسول

---

(١) الران : الرين : الطبع . والران مثل الرين . قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : رين] : الرين الصدأ الذى يعلو السيف والمرآة . والرين : كالصدأ يغشى القلب . وران الذنب على قلبه : غلب عليه وغطاه . وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسْود القلب.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٤) ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٨٦ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان .

ألفاظ الحديث : مثل الصفا : الصخرة الملساء العريضة . مرباداً : أسود مشوباً بغبرة . كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بعروة . مجخياً : مائلاً . أى : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبَّه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء لأن الكوز إذا مال انصبَّ ما فيه . [انظر لسان العرب - مادة : جخى] .

ﷺ يشبهها بالحصير الذى يُنسج عوداً بجوار عود ، حتى يكون كالحصيرة التى نجلس عليها ، أو عَوْذاً يعنى : نستعيذ بالله من هذه الفتن . أو عوْداً أى مرة بعد مرة .

إذن : إنْ أردتَ بحث قضية الإيمان فاشرح صدرك أولاً ، ووسِّعه بأنْ تُخرج ما فيه من اعتقادات ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر] والنور له مصادر ، إما نور مادى كالشمس والقمر والنجوم ، وهذه الأنوار التى اكتشفها الإنسان حديثاً ، أو نور معنوى وهو المقصود هنا ، نور القيم والمنهج ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ .. ﴾ أى : نور الهداية الذى عناه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

ففى هذه البيوت التى يُذكر فيها الله ، ويُسبَّح فيها الله ، مكان تلقِّى فيض النور من الله ، وتتنزل الخيرات والرحمات ؛ لأن الآيات كانت تتكلم قبل ذلك عن نور الله ، ومثَّل تنويره سبحانه للسموات والأرض :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

الحق سبحانه لا يضرب لنا مثلاً لنوره ، إنما مثلاً لتنويره ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مُنوِّرهما بخلقه ، والمشكاة هى الطاقة غير النافذة فى الحائط ، والطاقة تكون محدودة

المساحة غير واسعة ، ثم هى غير نافذة ، لذلك تجمع الضوء ولا تبدده ، بحيث لا يبقى فى المشكاة مكان مظلم .

ثم إن المصباح ليس عادياً ، إنما فى زجاجة ، لأن من المصابيح ما ليس له زجاجة والذى نسميه نحن (الساروخ) وهو يخرج لهباً أسود ، لأن الهواء يداعبه من كل ناحية ، أمّا الزجاجة فهى تنقى اللهب وتصفيه ، حيث تمنع عنه الهواء إلا بمقدار الاحتراق ، فيأتى اللهب صافياً لا دخان له ، هذه هى التنقية الأولى .

ثم إن الزجاجة هى أيضاً غير عادية ، إنما صافية فى ذاتها ، كأنها ﴿ **كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** .. (٣٥) ﴾ [النور] تعكس الضوء فى كل ناحية .

ثم إن هذا المصباح لا يُوقَد بزيت عادى ، إنما ﴿ **يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** .. (٣٥) ﴾ [النور] فهو زيت له مواصفات خاصة على أعدل المزاج .

هكذا ومثل هذا يُنوِّر الله السموات والأرض ، فالمثال لتنوير الله لا لنور الله . وهذا هو النور الحسِّى ، وحين تكمل القراءة تجد النور المعنى فى : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ** .. (٣٦) ﴾ [النور] وهذا هو النور فى قوله : ﴿ **فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ** .. (٢٢) ﴾ [الزمر]

فالحق سبحانه أعطاكم النور الحسىَّ الذى يعينكم على حركة الحياة ، ليرى الإنسانُ مواضع قدمه فلا يحطم الأشياء ولا تحطمه إذا ما اصطدم بها ، والنور المعنوى للقيم وللروح .

والحق سبحانه حين يُعطينا هذا المثل ، ويُرينا أن المصباح لا يدع فى المشكاة ظلمةً أبداً ، يعطينا بذلك إشارة إلى أن نوره

المعنوى كذلك لا يترك عيباً إلا أصلحه ، وأتاك نور يهديك وينجيك .

وقوله سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾ [الزمر] ويل لهم لأن قسوة قلوبهم حالتْ بينهم وبين الإيمان ، فوين لهم ساعةَ يعرفون أن لهم رباً كفروا به ، وتفاجئهم هذه الحقيقة التى طالما أنكروها .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه القضية فى قوله سبحانه :

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

والمعنى : أنهم حبطت أعمالهم وخاب سعيهم .

وقال أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فويل لهم ساعة يعرفون أنهم كفروا بالله وضاق صدرهم عن أن يتسع لنور الإيمان ، فالويْل لهم حاضر قبل أنْ يأتيهم العقاب .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢) ﴾ [الزمر] أى : بيِّن واضح ، والضلال هو عدم الاهتداء فى المهيع[2] الذى يسير فيه ، كالسائر مثلاً فى صحراء وضلَّ فيها الطريق ، إن ضلاله يبدأ بانحرافه عن الطريق الصحيح ولو بسنتيمترات ، لأنها لا بدّ أنْ تنتهى

---

(١) القاع والقيعة : أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية لا ارتفاع فيها ولا انهباط ، تنفرج عنها الجبال والآكام ولا حصى فيها ولا حجارة ولا تنبت الشجر . وفيه يكون السراب نصف النهار . [لسان العرب - مادة : قوع] .

(٢) طريق مهيع : واضح واسع بيِّن . وبلد مهيع : واسع [اللسان : مادة هوع] .

به إلى مساحات شاسعة فى الضلال ، أرأيتم (السيمافور) فى السكة الحديد ، وكيف يُحول القطار مثلاً لبورسعيد أو الإسماعيلية أو طنطا إنه مجرد تحويل سنٍّ القضيب عدة ملليمترات ينتج عنها أنْ يتحوَّل القطار فى سيره من مكانٍ إلى مكان آخر بعيد ، فالمعنى : ﴿ أُولَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر] أى: لا يهتدون إلى شىء أبداً .

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِيَ(١) تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول الله تعالى : ما دُمتم ستتبعون الأحسن وتختارونه فأنا مُنزلٌ عليكم أحسن الحديث ، نعم هو أحسن الحديث لأنه كلامُ الله وكلام الله صفته ، وهو كامل الكمال المطلق ، وقد جعله الله مُعْجزاً ، وتولى سبحانه حفظه بنفسه ولم يكل حفظه للخلق .

وفى عُرْف البشر أن الإنسان لا يحفظ إلا ما كان حجة له ولا يحفظ الحجة عليه ، أما الحق سبحانه فيحفظ القرآن وهو حجة عليه سبحانه لخلْقه ، فكل ما أتى فى القرآن ضمن الحق سبحانه حدوثه ،

(١) المثانى : الآيات القرآنية تُتلى وتكرَّر . وسمى القرآن مثانى لأن الأنباء والقصص تُثنَّى فيه وتُكرر . وقيل : سمى هكذا لاقتران آية العذاب فيه بآية الرحمة والإنذار بالتبشير . [القاموس القويم ١/١١١ ، ١١٢] .

كما أخبرنا الله به لأنه هو منزله وهو حافظه .

والمراد بأحسن الحديث القرآن الكريم ، ومعنى ﴿ مُّتَشَابِهًا (٢٣) ﴾ [الزمر] أى : يشبه بعضُه بعضاً فى الحُسْن أو فى البلاغة أو فى الموضوع ، فإياك أن تقول : هذه الآية أبلغ من هذه ، لأن كل آية بليغة فى موضوعها .

فلو أخذنا مثلاً التشابه فى الموضوع نقرأ فى قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[1] .. (٨) ﴾ [القصص]

وفى موضع آخر قال : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

فظن البعض هنا تكراراً ، لكن المتأمل فى معنى الآيتين يجد أن كلَّ أية تؤدى لقطة لا تؤديها الأخرى ، فمعنى ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (٨) ﴾ [القصص] العداوة هنا من موسى لآل فرعون إنما فى . ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه] العداوة من جانب فرعون لموسى ، والمعركة لا يحمى وطيسها إذا كانت العداوة من جانب واحد ، لأن الجانب الآخر ربما يتساهل أو يتنازل لعدوه ، فإنْ كانت العداوة من الطرفين حميتْ المعركة .

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ..(٨) ﴾ [القصص] أى : ليصير بهم الأمر إلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، وللمفسرين فى معنى الكلام قولان : أحدهما : ليكون لهم عدواً فى دينهم وحزناً لما يصنعه بهم . والثانى : عدواً لرجالهم وحزناً على نسائهم . فقتل الرجال بالغرق ، واستعبد النساء .

وسبق أنْ قلنا : إن المستشرقين وقفوا أمام قوله تعالى : ﴿ واصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وقالوا : أيهما أبلغ من الأخرى ؟ وإنْ كانت إحداهما بليغة فالأخرى إذن غير بليغة.

ومثل هذه الاستدراكات نتيجة عدم فَهْم أسلوب القرآن ، وعدم وجود الملكة اللغوية عندهم . ونقول لهم : كل آية بليغة فى سياقها مناسبة للمعنى الذى قِيلَتْ فيه ، فالآية الأولى وردتْ فى الكلام عن المصيبة التى لاغريمَ لكَ فيها ، والصبر فى هذه الحالة يسيرٌ لذلك لم يُؤَكّد.

فمن الطبيعى أنْ تصبر على المرض مثلاً ، لأنه لا غريم لك فيه ، أما إنْ كانت المصيبة لك فيها غريم ، فالغريم يثير غضبك ويؤجج نار الغلِّ ، ويدعو إلى الانتقام ، فناسب ذلك التأكيد باللام فى الآية الأخرى: ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وكذلك وقفوا أمام قوله تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله سبحانه : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الإسراء] وقالوا : ما الفرق بين الآيتين ؟ ونقول : لو نظرت إلى صدر الآية لوجدتَ أن كل عجُز يليق بصدره ، لأن القتل للأولاد كان له سببان :

الأول : الفقر ، فالعائل فقير لا يقدر على رزق نفسه ، فما بالك برزق أولاده ؟ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ[1] ..

(١) الإملاق : الافتقار . أملق الرجل : فقير قد نفد ماله . وأصل الإملاق الإنفاق . يقال : أملق ما معه إملاقاً : إذا أخرجه من يده ولم يحبسه ، والفقر تابع لذلك . [لسان العرب - مادة : ملق] .

﴿ ١٥١ ﴾ [الأنعام] لأن الفقر موجود ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿ ١٥١ ﴾ [الأنعام] وقدَّم الآباء على الأولاد ؛ لانشغال نفوسهم برزقها أولاً .

والسبب الثانى : أن يكون عنده ما يكفيه ، إنما يخشى الفقر إن جاءه أولاد ، وفى هذه قال سبحانه : ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ.. ﴿ ٣١ ﴾ [الإسراء] وقدَّم الأولاد على الآباء ، فنحن نرزق الأبناء الذين تخافون الفقر بسببهم قبل أنْ نرزقكم ، إذن : فكلّ آية مُذيَّلة بما يناسبها .

كذلك قُلْنا فى مسألة السمع والبصر فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿ ٧١ ﴾ [القصص] وذكر هنا السمع لأنه وسيلة الالتقاء فى ظلمة الليل ، وبه يستدعى الإنسان إنْ كان نائماً .

أما فى آية النهار ، فقال سبحانه : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ [القصص] لأن البصر لا يكون إلا فى ضوء النهار .

ومعنى ﴿ مَّثَانِيَ.. ﴿ ٢٣ ﴾ [الزمر] يعنى : مَثْنى يُقَال : مرة واثنين وثلاثة ، أو : يثنى فى الصلاة حيث نقرأ الفاتحة ثم سورة بعدها ، وفى الركعة الثانية كذلك .

وقوله : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ .. ﴿ ٢٣ ﴾ [الزمر] وهذه صفة العبد الذى يخشى ربه ويراقبه ويعمل لنظره إليه حساباً ، لأنه دائماً يعرض سلوكه على ربه ، فإنْ رأى فيه مخالفة عاد إلى كلام الله وتذكَّر وعيده فيحدث عنده قشعريرة فى جلده من خشية ربه ، وهى أنْ يجفّ الجلد ويقعقع وتحدث رعشة فى البدن من خوف

العذاب ، ومن خوف غضب الله ، ثم يعود فيتذكر رحمة ربه التى سبقتْ غضبه ، وعفوه الذى سبق عقوبته ، فيعود إلى حالته الأولى :
﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر]

إذن : المؤمن يجمع بين الخوف والرجاء ، وقلبه بين هذين الأمرين ، فساعةَ يتذكر العقاب على المخالفة يقشعر جلده خوفاً ، وساعة يتذكر رحمة ربه يلين جلده ويهدأ قلبه ، ولِمَ لا وربه قد قال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]

(ذلك) وهذا هو الذى يحدث للمؤمن ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] وقد وقف كثيرون عند هذه الآية يقولون : ما دام أن الله هو الذى يُضل فلِمَ يُعذِّب الضال ؟ ومعنى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : يعلم ضلاله ، ويعلم أنه لن يسمع كلامه ولن يتبع منهجه ، وقد خلقه الله تعالى مختاراً إنْ شاء آمن وإنْ شاء كفر ، إذن : فالكافر ما كفر غَصْباً عن الله ، إنما هل رضى الله منه ذلك ؟

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] يعنى : إياكم أنْ تستدركوا على الله بأحكام بشرية تُصنِّفها لكم عقول الذين يستنكفون أنْ يأخذوا عن الله ، فما دام الله قال فلا يصح أنْ نستدركَ عليه سبحانه ؛ لأنه لا يمكن أنْ نأتى بهدى أحسن من هُدَى الله .

ويجب على الأقل أن نفهم أن الذى يشرع شرعاً يريد أنْ يحكم به الناس لا بُدَّ أنْ يكون غير منتفع به ليكون حكمه نزيهاً وموضوعياً ؛ لأنه لو كان منتفعاً بالحكم لابدّ أن يميل قلبه إليه

ويسير هواه مع منفعته .

يعنى : مثلاً لو شرَّع العمال لاختاروا الاشتراكية ، ولو شرع الرأسماليون لاختاروا الرأسمالية ، لذلك يشترط فيمَنْ يُشرع ألاّ يكون منتفعاً بما يشرع ، وهذا الشرط لا يتحقق إلا فى الحق سبحانه .

لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يترك فى كونه قضايا حتى عند الكافرين به ، وعند غير المؤمنين بمنهجه ، قضايا تدل على أن شرع الله هو الأحسن ، فكثيراً ما وقفوا عند قضايا لم يجدوا لها حلاً فى قوانينهم ، فلجأوا إلى دين الله وإلى شرع الله ، لا لأنهم آمنوا به سبحانه ، ولكن لأن قضاياهم وأمور حياتهم لا تُحَلّ إلا بهذا المنهج .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (٢٤) ﴾

الاستفهام فى (أفمن) مثل سابقه فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ .. (٢٢) ﴾ [الزمر] لذلك لا بدّ أن نقدر هنا المقابل ، فالمعنى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢٤) ﴾ [الزمر] أى : كمن لا يعذب ، ويمكن أنْ نرقى المسألة فنقول : كمن يُنعّم ؟ ولك أنت أنْ تحكم .

ومعنى ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ (٢٤) ﴾ [الزمر] أى : العذاب الشديد السيىء ، وتأمل ﴿ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ (٢٤) ﴾ [الزمر] معلوم أن الوجه أشرف أعضاء الإنسان ، وبه تتميز سمات الخلق ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم (٢٩) ﴾ [الفتح]

ولولا سمات الوجوه لتساوت الأبدان وتشابهت بعضها ببعض ، لذلك يهتم الإنسان بوجهه ويدافع عنه ويحميه أولاً ، ومثّلنا لذلك برجل يسير فى الطريق ، فمرّت بجواره سيارة مثلاً نثرت عليه وعلى ملابسه الطين ، بالله ما أول شىء يحرص على نظافته وإزالة الأذى عنه ؟ إنه يمسح أول ما يمسح وجهه ، ثم يلتفت إلى ملابسه ، لأن الوجه هو أشرف الأعضاء وأشهرها وأكرمها ، وهو المُحَافَظ عليه قبل كل الجوارح .

إذن : ما بالك بعذاب لا يجد الإنسان ما يتقيه به إلا وجهه ؟ نعم يتقى العذاب بوجهه ، لأن يديه مغلولة ، وقدمه مُكبلة ، فلا مهربَ له ولا خلاصَ ، فلا يملك إلا أنْ يتقى العذاب ويدفعه عن نفسه بأعزّ ما يملك ، وبأشرف أعضائه وهو الوجه .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] قوله فى العذاب (ذُوقُوا) تهكم بهم ، واختار الذوق وهو جارحة من الجوارح التى تؤدى مهمة فى جسم الإنسان مثل العين والأذن ، إنما اختار الذوق خاصة ، لأن الذوقَ هو الحاسة الملازمة للإنسان ، وبه قوام الحياة ، حيث بالتذوق ندخل الطعام والشراب ، ونتمتع به ونجد له لذة تفوق الملاذّ الأخرى .

أما العين والأذن مثلاً ، فقد ترَى أو تسمع ما لا يعجبك ، أما فى التذوق فإنك تختار ما يعجبك وتجد له لذة ، وهنا يريد الحق سبحانه أن يعمم الذوق فى الجسم كله ، فجميع البدن يذوق العذاب .

وقلنا : إن اللسان هو جارحة التذوق بمراحله وما حوله يذوق

ويُميِّز الطعوم ، فإذا ما تجاوز الطعامُ هذه المنطقة فلا يشعر الإنسان له بأىِّ مذاق ، ولذلك رأينا صناع الدواء يُغلفون الدواء المرّ بمادة مُستساغة مقبولة ، تساعد على مرور الدواء من منطقة التذوق دون أنْ نشعر بمرارته .

وإذا نظرتَ إلى الجوارح كلها تجد أنها مُتعلقة بالغير ، فأنا أسمع غيرى وأرى غيرى ، وألمس غيرى أو بعضى ، أما الذوق فخاص بالإنسان نفسه ، فلا يذوق إنسانٌ لآخر ؛ لذلك اختار الله سبحانه هذه الجارحة فى إظهار شدة العذاب وألمه ﴿ **ذُوقُوا** (٢٤) ﴾ [الزمر] وفى موضع آخر (ذُقْ) . لا رؤية ولا سماع ولا شم ولا لمس ، إنما بالذوق الذى هو خاص بصاحبه ، وكأن لكل واحد منهم مذاقاً يناسب عذابه .

وإذا كان للذوق منطقة خاصة هى اللسان بمراحله وما حوله ، فالذوق هنا أراده الله عاماً وشاملاً ، ليس فى منطقة الذوق ، ولكن الجسم كله يذوق العذاب ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء] فالإذاقة هنا تعدَّت منطقة الذوق إلى الجسم كله .

وإذا ما نظرنا إلى قوله تعالى - بالاعتبار - فى القرية التى كانت آمنة مطمئنة فكفرتْ بأنْعُم الله ، قال الله فيها : ﴿ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** .. (١١٢) ﴾ [النحل] فكأن الإذاقة تلبسهم وتحيط بهم من كل ناحية .

والشعراء عادة حينما يبالغون فى شىء يُعدّونه من منطقة الحسِّ

له إلى كل المناطق ، وقد اعتاد الشعراء على ذكر القلب ، وأنه محلُّ الحب ، ومن ذلك قول الشاعر[١] :

وَدَاعٍ دَعَا إذْ نَحْنُ بالخِيف مِنْ مِنَى فَهَيَّجَ أحْزَانَ الفُؤادِ ومَا يَدْرى

دَعَا باسْمِ لَيْلَى غيرها فكَأنَّماَ أهَاجَ بلَيْلَى طَائِراً كانَ فِى صَدْرى[٢]

وقال الآخر[٣] :

كأنَّ القلبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى العَامرية أوْ يُرَاحُ

قطاةٌ عزَّها شَرَكٌ فَبَاتتْ تجاذبه وقَدْ عَلَقَ الجناحُ[٤]

أما الشاعر الذى أراد المبالغة فى هذه المسألة فقال[٥] :

خَطَرَاتُ ذكرِكَ تَسْتَثِيرُ مَودَّتى فَأُحسُّ مِنْها فِى الفُؤَادِ دَبِيبا

لاَ عُضْو لِى إلاَّ وَفِيه صَبَابَةٌ فكأنَّ أعْضَائِى خُلِقْنَ قُلُوبَا[٦]

---

(١) الشاعر هو : محمد بن عبد الله بن نمير الثقفى النميرى . شاعر غزل ، من شعراء العصر الأموى ، مولده ومنشؤه ووفاته بالطائف . توفى عام ٩٠ هـ . له ديوان شعر مطبوع .

(٢) البيتان من قصيدة للنميرى من بحر الطويل عدد أبياتها ٧ أبيات وفى الموسوعة الشعرية (لوعات الفؤاد) بدل (أحزان الفؤاد) ، وقد كان يتغزل بأخت الحجاج بن يوسف الثقفى فتهدده الحجاج ففر إلى اليمن وأقام بعدن مدة . [الموسوعة الشعرية] .

(٣) الشاعر هو : توبة بن الحمير الخفاجى أبو حرب ، شاعر من عشاق العرب المعروفين ، كان يهوى ليلى الأخيلية وخطبها فردَّه أبوها وزوّجها غيره ، فانطلق يقول الشعر مُشَبِّباً بها. قتله بنو عوف بن عقيل. عام ٨٥ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٤) البيتان من قصيدة من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤ أبيات . وفى الموسوعة (تعالجه) بدل (تجاذبه) . أما لفظ تجاذبه فقد ذكره الأصفهانى فى الأغانى ، وكذلك أبو على القالى فى أماليه ، وأبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى .

(٥) هو : أبو المعالى ابن أبى جعفر الواعظ ، من أهل هراة ، كان له معرفة بالتفسير والأدب ، كان حسن الوعظ كثير المحفوظ . مولده سنة ٤٩٠ هـ وتوفى سنة ٥٦٠ هـ عن ٧٠ عاماً.

(٦) ذكر هذه الأبيات صلاح الدين الصفدى فى (الوافى بالوفيات) ، وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات) ، أما ابن خلكان فى وفيات الأعيان فقد عزا البيتين للأمير شمس المعالى أبى الحسن قابوس بن أبى طاهر .

فالحب عنده تَعدَّى مَنطقته ، حتى صار فى كل أعضائه وجوارحه ، وهكذا تتعدى الإذاقةُ منطقة الذَّوْق لتشملَ الجسم كله .

لذلك كان قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] آيةٌ من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، مع أن الإعجاز باللغة والأسلوب والفصاحة خاص بالعرب ، أما غير العربى فله إعجاز آخر يناسبه إعجاز بأن يأتى له القرآن بأقضية ، لم تكن تخطر على البال ساعةَ نزول القرآن ، ولم يعرفها العلم طوال قرون .

والآن وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً من نزول القرآن يثبت العلم الحديث أن ما أخبر به الحق سبحانه فى قرآنه هو الحق ، وأنه سبحانه هو العَالِم بما يكون فى كَوْنِ الله باختيار خَلْق الله .

قلنا : إنه لما انتهت الحرب العالمية الأولى وانهزمتْ ألمانيا جاء أحد علماء الاقتصاد بها ويسمى (شاخت) ، وأراد أن يرفع من شأن بلاده ، وأن ينهض بها بعد الهزيمة ، ولما لم يتمكن من الخدمة فى الجيش لأنه كان أعرجَ فأعمل عقله فى خدمة بلاده ، وشجّع البحث العلمى فيها إلى أن توصلوا إلى اختراع أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما يسميه الفلاسفة والمراد به الذرَّة .

فلما نجحوا فى تفتيت الذرة ، وأصبح لها أجزاء أصغر منها أخذها أعداء الإسلام فرصةً للطعن فى صدْق القرآن الكريم ، فقالوا لقد ضرب الله مثلاً لأصغر شىء بالذرة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وها هو العلم يكتشف ما هو أصغر من الذرة .

لكن سرعان ما فتح الله على أهل العلم فردُّوا عليهم وقالوا لهم : تمهلوا واقرأوا القرآن كله ، ولا تأخذوا منه ما يؤيد تهجمكم عليه ، ففى آية أخرى قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْزُبُ**[1] **عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ**[2] **ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٦١) ﴾ [يونس]

إذن : فى القرآن احتياطٌ لهذه المسألة ، فلم يقل صغير بل أصغر من الصغير ، فمهما حدث من تفتيت ، ففى القرآن احتياط له .

ومن إعجاز القرآن لغير العرب هذه الآيات العلمية التى يكتشفونها ، فإذا بالقرآن يسبقهم إليها ، ومن ذلك مثلاً مسألة مراكز الإحساس فى الجسم ، أولاً قالوا : المخ هو مركز الإحساس . وقال آخرون : بل النخاع الشوكى ، بدليل أن الإنسان يُحِس بأشياء مع أنها لم تلمس جسمه ، كما لو وضعت أصبعك مثلاً مقابل عيْن إنسان ، فإنه يغلق عينه تلقائياً .

ثم لما تأملوا الإبرة أو الحقنة تُعطَى للمريض مثلاً ، فإنه لا يشعر بالألم إلا بمقدار نفاذ الإبرة من الجلد ، فقالوا : إذن الجلد هو مركز الإحساس ، وهذا هو ما قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا**

---

(١) يعزب : إذا غاب وبَعُد . وعزب عنه : ذهب . وأعزبه الله : أذهبه . [لسان العرب - مادة : عزب] .

(٢) من الإعجاز العلمى فى القرآن استخدام لفظ « ذرة » مقترناً دائماً بكلمة « مثقال » والتى يُقصد بها وزن ، وهذا التعبير القرآنى يقابله بدقة المصطلح الكيميائى « الوزن الذرى » .

الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] مادة (كسب) فى القرآن الكريم جاءت كما قلنا على صيغتين : كسب واكتسب ، وقد بيَّن الحق سبحانه متعلق كل منهما فى قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] فكسب للخير واكتسب للشر ؛ لأن كسب على وزن فعل ، والخير يأتى من صاحبه طبيعياً لا تكلُّف فيه ولا افتعال ، أما اكتسب فعلى وزن افتعل فيها افتعال ، والافتعال لا يكون إلا فى الشر ، فالخير لا يحتاج منك إلى حيل وافتعال ، بل يأتى طبيعياً على خلاف الشر .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالرجل يجلس مع زوجته وبناته ، وينظر إلى جمالهن نظراً طبيعياً لا يحتاط فيه لشىء ولا يخشى فيه شيئاً ، أما إنْ أراد أن ينظر إلى امرأة جميلة فى الشارع مثلاً ، فإنه يتلصص لذلك ويحتال ، هذا هو الافتعال .

لكن القرآن الكريم خالف هذه القاعدة فى مواضع ، منها هذه الآية ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر] ولم يقل تكتسبون ، فاستخدم كسب فى الشر ، وفى موضع آخر أيضاً قال : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة]

فلماذا عَدَل القرآن عن اكتسب إلى كسب ؟ قالوا : لأن الإنسان والعياذ بالله قد يتعوَّد المعصية ويألف المخالفة حتى تصير له عادة يفعلها فعْلاً طبيعياً ويأنس بها وكأنها طاعة ، وهذا الذى نسميه (فاقد) ولأنه ألفها وتعوَّد عليها بل ويفرح بها عبَّر القرآنُ عنها بكسب التى هى للخير ، ونقل الاكتساب إلى محل الكسب .

لذلك فـرَّق القرآن بين مَنْ يفـتعل المـعصـية ويقـصدها ويسـعى إليها ، ومَنْ تقع عليه المعصية دون إعداد لها ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

معنى (بِجَـهَالَةٍ) أى : من غيـر قصد لـها ولا ترتيب ولا بحث عنها ، وإنْ حدث منهم السوء لا يفـرحون به ، بل يألمون ويندمون ، أما النوع الآخر فيرتكب السيئات عن قصد ولا يبالى ، وربما فرح بها وجاهر بها .

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

قوله سبـحانه : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : من الأمم السـابقة ﴿ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ .. (٢٥) ﴾ [الزمر] أى : عذاب الدنيـا بهزيمـتهم ونُصْـرة الدين الذى كانوا يحـاربونه ويصادمـونه ، وهذه أيضـاً هى التى حـدثتْ للكافـرين ، حـيث نصـر الله الإسـلام ، وأظهر مـبادئه وقضـاياه على مبادىء الكفـر ، وهذا فى حَدِّ ذاته لَوْنٌ من العـذاب فى الدنيـا ، فإذا مـا عادوا إلـى الله فى الآخرة كـان لهم

عذاب آخر أشدّ وأنكى .

إذن : فهم يشبهون من سبقهم من المكذِّبين ؛ لذلك قال فى موضع آخر : ﴿ كَدَأْبِ[1] .. (١١) ﴾ [آل عمران]

لذلك قوله تعالى : (كَذَّبَ) هنا وقوله (كَدَأْبِ) هناك يتبين لنا قضية نفسية فى القرآن الكريم ، هى أن حفاظ القرآن يجب ألاّ يكونوا من العلماء ، خاصةً علماء اللغة والفصاحة ، لأن العالم إذا وقف فى القرآن أمام لفظ أمكنه أنْ يتصرَّف فيه ويكمل قراءته ، فيقول مثلاً : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. (٦) ﴾ [الحجرات] يقول : فتثبتوا أو فتحققوا ، ويمكن أنْ يستقيم المعنى ، لكن الحق سبحانه يريد لفظاً بعينه لا يجوز أنْ نتعداه إلى غيره ، أما الذى تخصص فى حفظ القرآن ، وليست لديْه ملكَة التصرف هذه ، فإذا نسى أو وقف فى لفظ وقف (بالأربعة) يعنى : لا يمكن له التصرف فيه ، وهذا هو المطلوب فى حَفَظَة كلام الله ، وهذه من عظمة القرآن .

لذلك قلنا : إن كمال القرآن لا يتعدَّى ، كيف ؟ فمثلاً لو أردنا لإنسان أنْ يُرقِّق أسلوبه ويُقوِّيه فى الأداء الإنشائى ننصحه بأنْ يقرأ كتب الأدب عند المنفلوطى والرافعى وغيرهما ، فلما يُكثر من هذه القراءات نلاحظ تحسُّناً فى أسلوبه وأدائه .

ثم إن حافظ القرآن المتمكن منه حتى لو حفظه بالعشرة وقيل له اكتب خطاباً تجده لا يستطيع أن يكتبه فصيحاً أبداً لماذا ؟ لأن كمال

---

(١) ذكر الطبرى فى تفسيره عدة أقوال منها : كسُنتهم وعزاه للربيع . والبعض قال : كعمل آل فرعون . منهم الضحاك . وقال ابن زيد : كفعلهم كتكذيبهم حين كذَّبوا الرسل . وقال عكرمة ومجاهد : كشأن آل فرعون .

القرآن لا يتعدَّى إلى غيره ، إنما بلاغة البشر تتعدى إلى البشر .

وقوله : ﴿مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥)﴾ [الزمر] أى : من حيث لا يُقدِّرون ولا يحتسبون ، حيث يداهمهم من العذاب ما لم يكُنْ فى حسبانهم ، ولم يخطر لهم ببال ، كما فى قوله سبحانه :

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾ [النور] أى : فوجىء به ، فوجىء بحسبان آخر غير ما كان ينتظر ، لأنه كذَّب فى الدنيا بالبعث وبالحساب ، والآن يُفاجئه الحساب الذى كذَّب به .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.. (٢٦)﴾ [الزمر] هنا نقل الإذاقة الحسية إلى الإذاقات المعنوية ، والخزى والذلة نوع من العذاب ، ولها إيلام يفوق الإيلام الحسِّيَّ ، فمن الناس مَنْ لا يؤلمه الضرب ، إنما تؤلمه كلمة جارحة تخدش عِزَّته وكرامته .

لكن لماذا أذاقهم اللهُ الخزىَ فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ؟ أذاقهم الخزى لأنهم تكبَّروا على الحق وتجبَّروا ، وجاءوا بقَضِّهم وقضيضهم[1] فى بدر لمحاربة الإسلام ، وظنوا أنهم (العناتر) والجولة جولتهم ، المراد إذن صناديد قريش ورؤوس الكفر أمثال عتبة وشيبة والوليد وغيرهم ، جاءوا بالعدد والعُدة ، وما خرج المسلمون لقتال إنما خرجوا للعير ، ومع ذلك أعزَّ اللهُ جنده وأخزى عدوه ، فقتل منهم مَنْ قتل ، وأسر مَنْ أسر وذلّوا ، وكان الخزى لهؤلاء أنكَى من القتل .

إذن : كان لهم الخزى فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم عذاب :

---

(١) بقضهم وقضيضهم : أى بجمعهم ، لم يدَعُوا وراءهم شيئاً ولا أحداً . والأصل : جاء بالقضّ والقضيض ، فالقض الحصى ، والقضيض ما تكسَّر منه ودقّ . [لسان العرب – مادة : قضض] .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] نعم ، عذاب الآخرة أكبر من خزى الدنيا وأشدّ ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾ [الزمر] لأن الذين علموا هذه الحقيقة انتهوا وآمنوا ، أما هؤلاء فعاندوا وكابروا وكذَّبوا .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾

حينما نتتبع لفظ (مَثَل) فى القرآن الكريم نجده مرة بصيغة (مِثْل) ، وهى تفيد تشبيه شىء بشىء مفرد كما تقول : زيد فى شجاعته مثل الأسد ، الرجل فى كرمه مثل الغيث ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [البقرة] وهى تفيد تشبيه صورة مُنْتزعة أو مُكوَّنة من عدة أشياء بصورة أخرى مُكوَّنة من عدة أشياء يعنى : تشبيه حالة بحالة .

ومن المثل فى القرآن الكريم مَثَلُ الحياة الدنيا فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

فالحياة الدنيا ليست تشبه الماء وحده ، إنما ماء نزل من السماء واختلط بتراب الأرض فأخرج النبات لكن سرعان ما يهيج ثم يصفر ثم يجف ويتفتت ، حتى يصير هشيماً تذروه الرياح ، كذلك حياة

الإنسان فى الدنيـا ، تزهو لك الحياة ثم تنتهى بالـموت ، هذه صورة تمثيليـة مُكـوَّنة من عدة أمـور تشبه عـدة أمور أخرى ، ومـا دامـت الدنيـا علـى هذه الصـورة فـاحذروها ، ولا تركنوا إليـهـا ولا تغـترُّوا بها .

ومن الصـور التمـثيـلية فى القـرآن أيضاً قـوله تعـالى فى الذين حُمِّلوا التوراة ، ثم لم يستفيدوا منها : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1] .. ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة]

فهؤلاء ليـسـوا كالحمـار وحده ، بل كالحمـار الذى يحمل الكتب ، ولكنه لا يفهـمـها ، والحمـار ليست مهـمته أنْ يفهـم إنما مهـمته أنْ يحمل ، أما هؤلاء فمهمتـهم أنْ يحملوا وأنْ يفهموا ما حملوه ، وبذلك تميَّز الحمار عنهم .

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ[2] فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

---

(١) السِّفر : الكتـاب الذى يسـفـر عن الحقـائق . وقـيل : الكتـاب الكبيـر ، لأنه يبـين الشىء ويوضحه . والسفـر : جزء من أجزاء التوراة والجمع أسفـار . والمعنى : أعلم الله تعالى أن اليهود مثلهم فى تركهم استعمال التوراة ومـا فيها كمثل الحمار يُحمل عليه الكتب ، وهو لا يعرف ما فيها ولا يعيها . [تاج العروس - للزبيدى] .

(٢) الشطء : فـرخ الزرع والنخل . وقـيل : هو ورق الزرع . وقـال الزجـاج : أخـرج شطأه : أخرج نباته . [لسان العرب - مادة : شطأ] .

تأمل هذا المثل ، تجد الحق سبحانه مثَّل محمداً وصحبه فى التوراة بمثَل معنوى عبادى ، لأن اليهود تغلب عليهم الماديات ، وجاء بمثل مادى فى الإنجيل لأن الإنجيل ليس فيه إلا روحانيات ، فلما طغتْ المادية على اليهود ذكر لهم المثل المعنوى ، ولما طغتْ الروحانيات على النصارى جاء لهم بمثَل مادى ، فكان ولابدّ أنْ يجىء الإسلام وسطاً يراوح بين الماديات والروحانيات .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر] الضرب قلنا : هو إيقاع شىء فوق شىء بقوة وشدة ليحدث فيه أثراً ، ومن ذلك الضرب فى الأرض أى : حرثها والاعتناء بها لتعطيك من خيرها ، وضَرْب المثل يكون لأنه فى ظاهره غريب ، فنقول لك : لا تستغربه فهو مثل كذا وكذا فيتضح المقال ويزول الاستغراب ، والمثَل يشبه المختلف فيه بالمتفق عليه . كما فى المثل السابق ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

ومادة مثل فى القرآن الكريم وردتْ إحدى وأربعين مرة بلفظ مثل ، واثنتين وعشرين مرة بلفظ مَثلاً ، وثلاث مرات بلفظ مثلهم .

ومن طريف الصور التمثيلية قَوْلُ الشاعر يصف رجلاً أحدب ، ويُصوِّره لك كأنك تراه بالفعل :

قَصُرَتْ أخادعهُ وغَاصَ قَذَالهُ ... فكأنَّهُ مُتربِّصٌ أنْ يُصفَعَا

وَكأنَّمَا صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً ... فَأحسَّ ثانيةً لَهَا فَتجمَّعَا[1]

---

(١) ذكر هذين البيتين عبد الرحيم العباسى فى « معاهد التنصيص » . وشهاب الدين الخفاجى فى « ريحانة الألبا » من شعر عبد الله بن النطاح وأسماه العماد الأصفهانى فى « خريدة القصر » [أبو محمد عبد الله بن الطباخ الكاتب] . وفيه : وكأنه قد ذاق أول صفعة .

وقوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] يفيد العموم ، يعنى : لوَّنا لهم الأمثال لنُبين لهم قواعد الدين بما يشاهدونه من الماديات ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [الزمر] يعنى : يتأملون هذه الأمثال ، ويضعون كل مثَل مقابل مثاله ، وليأخذوا من المشاهد دليلاً على ما غاب ، ومن المتفق عليه دليلاً على المختلف فيه .

وقوله سبحانه : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] أى : أن هذه الأمثال جاءت قرآناً عربياً مبيناً واضحاً لا عوجَ فيه ، وهو كتاب يُقرأ ويكتب وتتكرر تلاوته فى العبادة ، وهو محفوظ لا يناله تحريف أو تبديل والذى يحفظه قائله سبحانه ، إذن : فهذه الأمثال باقية ببقاء القرآن خالدة بخلوده ستظل أمامكم تفيدون منها ، كلما عرضتْ لكم قضايا الحياة وجدتم الحلّ لها .

وقوله : ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ .. (٢٨) ﴾ [الزمر] ليس مائلاً إلى جهة من الجهات ، بل هو مستقيم ، لأنه التشريع الحقّ من الله الذى لا يُحابى أحداً ولا يجامل أحداً حتى رسله ، واقرأ قوله سبحانه لنبيه وخيْر رسله محمد ﴿ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ [الإسراء]

وفى سورة الكهف وصف القرآن بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا .. (٢) ﴾ [الكهف]

وقوله : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ﴾ [الزمر] أى : يتقون صفات الجلال من الله تعالى ومُتعلقاتها من التعذيب بأىِّ لون من ألوان العذاب .

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا[1] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾

هذا مَثَل ضربه الله لبيان قضية التوحيد ، ويوضح من خلاله الفرق بين عبد لسيد واحد ، وعبد لعدة أسياد ، وهذه صورة مكوّنة من عدة عناصر ، فالرجل مملوك لشركاء ، وليْتهم متفقون على شيء ، إنما متشاكسون مختلفون ، كل منهم يأمر بشيء ، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك ، وإنْ أطاع سيداً عصى الآخر .

إذن : كيف يبدد نفسه ؟ وكيف له أن يستريح فهو دائماً فى حيرة من أمره ؟ أما الآخر ، فعبدٌ لسيد واحد ، أمره واحد ، وهو مرتبط بسيده ، قاصرٌ خدمته عليه .

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩)﴾ [الزمر] ويترك الحق سبحانه لك أنْ تجيب أنت على هذا التساؤل ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ .. (٢٩)﴾ [الزمر] لا نملك إلا أنْ نقول : لا يستويان أبداً ، ونُقر نحن بهذه الحقيقة ، وهذا هو مقصد القرآن أنْ نُقر نحن بها ، لا أن تُلقى إلينا كخبر من الله تعالى ، وهذا الذى نحكم به يقوله كلُّ عاقل ، ولا يردّه أحد .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره للآية : ﴿شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم ، يقال : رجل شكس شرس إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس لا يرضى بالإنصاف . ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] قرأ أهل مكة والبصرة (سالماً) بالألف أي : خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه .

فالعبد المملوك لسيِّد واحد ، كمَنْ آمن بالله تعالى وأخلص له العبادة وحده سبحانه ، والعبد المملوك لشركاء متشاكسين مثال للعبد الذى أشرك مع الله فى العبادة ، وعليك أنت أنْ تعتبر .

وقوله سبحانه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أى : الحمد لله على أنْ ضرب لنا الأمثال ، وأوضح لنا الأمورَ لنأخذ المعقول المعنوى بالمُحَسِّ المادى ، فالذى يعبد الله وحده لا شريك له يعيش مرتاحَ البال ، هادىء النفس ، مطمئن القلب ، على خلاف مَنْ يعبد آلهةً متعددة ، فهو مشتّتُ النفس ، غير مستقر البال ، إنْ أرضى سيداً أغضب الآخر ، وليس لديه القوة التى تعينه على إرضاء الجميع ، فهو أشبه بالخادم الذى يقول (أناح أقطع نفسى ؟)

فالحمد لله الذى نزَّل القرآن عربياً ، لا عوجَ فيه ، والحمد لله الذى ضرب لنا فيه الأمثال التوضيحية التى تُقرِّب ما تقف فيه العقول بالذى تتفق فيه العقول .

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر] أى : لا يعلمون هذه القضية ، لا يعلمون أن الإيمانَ بالإله الواحد الحق والعبودية الخالصة له سبحانه فيها سعادة العبد وراحته ، وأن العبوديةَ لآلهة شتى فى شقاوة العبد وتعبه .

وهم لا يعلمون هذه الحقيقة لأنهم ما وضعوا قضية الإيمان بالربوبية موضعَ البحث العقلى ، بل أخذوها هكذا بلا تأمُّل ، المهم عنده أنْ يكون لهم إله ليس له أوامر ولا نواه ، إله بلا منهج وبلا تكاليف ، وما أحسنَ هذا الإله الذى تأخذه على مزاجك ، ووفقاً لهواك .

وقوله سبحانه : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر] طمأن أهل

الإيمان وأهل التوحيد ، فهم وإنْ كانوا القلة إلا أنهم موجودون ، فالخير لا يُعدم مهما كان قليلاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤)﴾ [الواقعة]

وقال فى أصحاب اليمين : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠)﴾ [الواقعة] فالخير إذن فى هذه الأمة .

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾

كان كفار مكة إذا أصاب رسول الله ﷺ سوء أو وعكة صحية ، أو نزلتْ به شدة كما حدث فى أُحُد يفرحون لذلك ، فما بالك لو مات رسول الله ؟ لذلك يقرر القرآن لرسول الله ﷺ هذه الحقيقة ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر] فعلامَ يفرحون وهذه نهاية الجميع ، كما قال فى موضع آخر : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤)﴾ [الأنبياء]

لكن المسألة لن تنتهى عند هذا الحدِّ ، إنما بعد الموت حياةٌ أخرى ، فيها حساب وجزاء ووقوف بين يدى الله تعالى ، وساعتها سيكون النبى ﷺ فى أعلى مقام ، أما أنتم فسيكون موقفكم موقفَ المخالفين لله ، فماذا تقولون ؟ هذا معنى قوله سبحانه ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ [الزمر]

ومعنى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ .. (٣٠)﴾ [الزمر] هكذا بالتشديد . أى : ذاهب مُنْته إلى الموت ففرْق بين ميِّت بتشديد الياء وميْت بسكونها ، ميِّت يعنى من سيموت ويؤول إلى الموت ، ولو كان حيّاً ، لأن الله خاطب

رسوله وهو ما يزال حياً . أما ميْت فمَنْ مات بالفعل .

ومن ذلك قول الشاعر :

وكُلُّ أنَامِ اللهِ فى النَّاسِ ميِّتٌ وَمَا اميْتُ إلاَّ مَنْ إلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر] فيه تطمينٌ وتأسية لرسول الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] وهنا قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر]

يعنى : إما أنْ ترى انتقام الله منهم فى الدنيا وإلا ففى الآخرة ، إذن : من مصلحتك أنت أنْ تنتقل إلى الرفيق الأعلى لنختصر المسافة ، وترى بعينك مصارع الكافرين المعاندين ، فلا تضعف ولا تذل ؛ لأن لك مآلاً عند الله تأخذ فيه جزاءك ، ويأخذون جزاءهم .

والحق - سبحانه وتعالى - لما تكلَّم عن الموت فى سورة تبارك ، قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك]

فتأمل ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. ﴿٢﴾ ﴾ [الملك] وجعل الموت أولاً مع أنه بعد الحياة ، ذلك لأن الحياة ستعطيك نوعاً من الغرور ، حين ترى جوارحك تستجيب لك ، والأسباب تستجيب لك والدنيا تعطيك فلا بُدَّ أن يدخلك الغرور ، فأراد الحق سبحانه ألاّ نستقبلَ الحياة بالغرور ، بل نستقبلها أولاً بهذه الحقيقة التى تناقض الحياة وهى الموت .

إذن : فالعاقل يفهم أنه صائر إلى الموت ، ويقضى رحلة حياته وهو على ذكْر لهذه النهاية .

وقوله ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر] وستكون أول خصومة بين الأنبياء ومَنْ كفروا بهم هى مسألة البلاغ حين يشهد الرسل أنهم بلَّغوا أقوامهم رسالة الله ، فإذا بهم يتعللون ، يقولون : اعتقدناه سحراً ، اعتقدناه كذباً ، اعتقدناه تخييلاً ، لكنهم ما فطنوا إلى أن الله أكّد هذا بقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فضّل الله أمةَ محمد ﷺ بأنها حملتْ رسالة رسولها ، وهذه مسألة لم تحدث مع الرسل السابقين ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] والدليل على حَمْل الأمة لهذه الرسالة أنه لم يأتِ رسول بعد رسول الله ، فكأن الله تعالى أمن أمة محمد على رسالته ، والنبى ﷺ شهد أنه بلَّغ أمته ، وعليهم هم أنْ يشهدوا أنهم بلَّغوا الناس .

وهذا المعنى من معانى الوسطية التى قال الله فيها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]

وإنْ كانت تتسع لغير ذلك فلأنها وسط فى كل شىء ، فقد رأينا فى غير هذه الأمة مَنْ أنكر الإله ، ومنهم مَنْ أثبت آلهة متعددة ، وكلاهما تطرف ، فجاء الإسلام وقال بعبادة إله واحد لا شريك له ، فاختار الوسطية والاعتدال وحلّ هذا النزاع .

لذلك خاطبنا ربنا بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] أى : فيكم نواحى الاعتدال ، فإذا سمعتم مَنْ يقول بالشيوعية، ومَنْ يقول بالرأسمالية ، وإذا رأيتم مَنْ يتعصّب لمذهبه فقولوا :

نحن أمة وسط تركنا للرأسمالية أن تثمِّر طموحها ، لأنه ليس الجميع لديه طموح ، وحين تثمِّر الرأسمالية طموحها لابُدَّ أنْ تخدم المجتمع ، وانظر كم من العمال يعمل ، وكم من البيوت تُفتح .

كذلك الشيوعية فرضنا لهم ما لم يدفعوا إلى غير القادر ، إذن : أخذنا ميزة هؤلاء وميزة هؤلاء ، بدليل أن النظامين اللذين سيطرا على العالم طوال مدة من الزمن بدأتْ شراستهم تقل ، فالرأسماليون أخذوا فى التخفيف من حِدّة الرأسمالية ، ونظروا إلى العمال فأعطوْهم حقوقهم وميَّزوهم ، وجعلوا لهم نقابات ... إلخ ، وكذلك الشيوعية قالوا : لا بُدَّ أنْ يوجد فى المجتمع طبقة تقدر أنْ تزنَ الأمور بطموحاتها ، ويجعلوا للعمال فرصاً يعملون بها ، وأخيراً انتهت الشيوعية والحمد لله عن آخرها .

إذن : فأمة الإسلام أمة الوسطية أخذت خَيْر النظامين .

نقول : سيكون فى الآخرة الاختصام الأول بين الأنبياء ومن كذَّب بهم ، واختصام بين أئمة الكفر ومَنْ تبعهم ممَّنْ أضلوهم وأغووْهم ، بين القوم الذين أثروا فى السفهاء ، وجعلوهم تابعين لهم فى الكفر .

وقد صوَّر القرآن هذه الخصومة فى هذا الموقف ، فقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

(١) الكَرّ : الرجوع . والكرَّة : البعث وتجديد الخلق بعد الفناء . [لسان العرب - مادة : كرر] .

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا بدّ أنْ يختلفوا الآن ، ويلعنَ بعضهم بعضاً ، ويُلقى كلّ منهم التبعية على الآخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) ﴾ [الصافات]

هكذا يختصم التابع والمتبوع ، وتتفرّق جماعتهم ولا يتناصرون كما تناصروا على كفرهم فى الدنيا .

ويُصوِّر القرآن موقفاً آخر للكافرين ، حيث سبق قادتهم ورؤساؤهم إلى النار ، فجاء التابعون فوجدوا السادة قد سبقوهم ، يقول تعالى : ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ[2] (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) ﴾ [ص]

وكوْنُ القادة يسبقون أتباعهم إلى النار يدلُّ على أنهم أعظم جُرْماً من التابعين لهم ؛ لأنهم ضلُّوا فى أنفسهم وأضلُّوا غيرهم ، وفيه أيضاً قطْعٌ لأمل التابعين فى النجاة والخلاص من النار ، ومَنْ

---

(١) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق . والخلالة : الصداقة والمودة . [الصحاح للجوهرى - مادة : خلل] .

(٢) الغسَّاق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . وقيل : ما يسيل من دموعهم . [لسان العرب - مادة : غسق] .